Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



Col 800/39
احمد شهاب افرجي احضر
تلبيس مشمع
له عينة
وجد ٨

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الأول



القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م

893.7K84
DK5
v.1

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب المصرية

٢٠/

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لعلّنا فى غير حاجة إلى تعريف القرّاء بهـذا التفسير العظيم، بعـد أن عرفوه فى طبعتـه الأولى؛ فأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير. إذ لم يكد يخرج منه جزء حتى تهافت عليه الجمهور، ممن عرفوا فضلَ القرطبي وعلمَه وأدبَه، ودقّته فى تأويل كتاب الله تعالى، وعَرْض أقوال الأئمة من جهابذة المحققين، وأُولى البصر بكتاب الله من أعلام المجتهدين.

ولقد رأى القرّاء حين طلع عليهم تفسير القرطبي مبلغ ما بذله مؤلّفه فيـه من جهد كبير، وعناية فائقة؛ يدلّان على عُمقه فى البحث، ومقدرته على فهم كتاب الله، وإلمـامه بأصول علوم الشريعـة وفروعها، من لغـة وأدب وبلاغة. يتجلّى كل أولئك فى استنباطه الأحكام الشرعية من نصوص الآيات الكريمة، حتى ليكاد يستغنى به القارئ عن دراسة كتب الفقه، ثم فى استشهاده بكثير من النصوص الأدبية من لغة العرب شعرها ونثرها؛ مما يشهد له بطول الباع وسَعة الأفق.

وإن أُخِذ عليـه شيء فليس إلا هَنَاتٍ يسيرةً، لا تنقص من مقـداره، ولا تغضّ من قيمته؛ فقد ينبو الحسام، وقد يكبو الجواد.

فمن ذلك أنه خالف أحيانا ما اشترطه على نفسه فى مقدّمة كتابه إذ يقول: «... وأضرب عن كثير من قَصص المفسرين، وأخبار المؤرّخين؛ إلا ما لا بُدّ منـه، ولا غنى عنه للتبيين ...».

JAN 8 1962 MB

فليس مما لا بُدّ منه أو لا غنى عنه ماينقله عن كعب الأحبار : « أن إبليس تغلغل إلى الحوت الذى على ظهره الأرض كلها، فألقى فى قلبه فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا[1] من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال ! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابة فدخلت فى منخره، فعجّ إلى الله منها فخرجت[2] ... » .

وليس مما لا بُدّ منه : « أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدو الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك، فلما أهبطوا تأكدت العداوة وجعل رزقها التراب[3] » .

وليس مما لا بُدّ منه ما يرويه عن ابن عباس قال : «سألت اليهودُ النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو ؟ قال : مَلَك من الملائكة معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله[4] » .

وليس مما لا بُدّ منه ما ذكره عن كلب أصحاب الكهف والاختلاف فى لونه وفى اسمه[5] . ولا ما يرويه عن الزُّهرى فى قوله تعالى « جاعِلِ الملائكةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » : أن جبريل عليه السلام قال له : يا محمد لو رأيت إسرافيل إن له لاثنى عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق ، وجناح بالمغرب ، وإن العرش لعلى كاهله، وإنه فى الأحايين ليتضاءل لعظمة الله حتى يعود مثل الوَصَع[6] ... » .

ولا ما ذكره فى قوله تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فوقَهم يومئذٍ ثَمانِيَةٌ » : أن فوق السماء السابعة ثمانية أوعال[7] بين أظلافهنّ وركبهنّ مثل ما بين سماء إلى سماء ، وفوق ظهورهنّ العرش[8] » .

---

(١) اسم الحوت . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٥٧ . (٣) جـ ١ ص ٣١٣ .
(٤) جـ ١ ص ٢١٧ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٠ . (٦) جـ ١٤ ص ٣٢٠ والوصع : عصفور صغير . (٧) الأوعال : جمع وعل ، وهو التيس الجبلى . (٨) جـ ١٨ ص ٢٦٧

إلى غير ذلك من الأمثلة التى ترِد فى مناسبات مختلفة، جارَى فيها من سبقه من المفسرين الذين ينقلون عن الإسرائيليّات ولا يتحرّون الدقة فى المعلومات الكونية، خصوصا فى الكلام على خلق السموات والأرض، وتأويل الآيات التى تتعرض للظواهر الطبيعية، أو تشير إلى المسائل العلمية.

وللمؤلف فى ذلك كثير من العذر؛ لأنه — رحمه الله — تابع فيه ثقافة عصره، وما تجرى به ألسنة العلماء فى ذلك الزمان.

وقد رأت الدار — بعد أن تحقّقت حاجة الناس إلى هذا الكتاب، ورغبة الكثير من العلماء فى الأقطار الإسلامية فى ذيوعه — أن تقرر إعادة طبعه تعميما للفائدة.

هذا، وسيرى القارئ أننا حرصنا على أن تكون هذه الطبعة موافقة لسابقتها فى أجزائها وصفحاتها وأرقامها؛ إلا فى تفاوت يسير، يستطيع القارئ أن يدركه فى الصفحة التالية أو السابقة.

كما أننا نبهنا فى هذه الطبعة إلى أمر لم يكن فى سابقتها؛ فعندما يذكر المؤلف عبارة: «على ما يأتى بيانه» نوضّح ذلك فى الهامش، مبيّنين موضعه من الكتاب؛ حتى يسهل على القارئ متابعة الدراسة، وربط الكلام بعضه ببعض، دون جهد أو عناء.

ولا يفوتنى أن أُنوّه بفضل حضرات الزملاء الذين اشتركوا معى فى تصحيح هذا الكتاب فى طبعته الأولى بعد جزئه الرابع، وهم السادة: الشيخ إبراهيم اطفيش، والشيخ بشندى خلف الله، والشيخ محمد محمد حسنين.

والله المسئول أن ينفع بهذا التفسير الجليل، وأن يجزى مؤلّفه خير الجزاء، وأن يعين القائمين بنشر التراث الإسلامى من أمثال هذا الكتاب العظيم. وأن يوفّق «الدار» فى تأدية رسالتها حتى تنهض بهذا العبء الكبير، وتقدّم للعالم أجمع خير تراث تركه الأقدمون.

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين ٤

مصححه

أحمد عبد العليم البردونى

١٦ من المحرم سنة ١٣٧٢ (٦ من أكتوبر سنة ١٩٥٢)

ترجمـــة

أبى عبـــد الله القرطبى

مؤلف هذا التفسير (١)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح (بإسكان الراء و بالحاء المهملة)، الأنصارى الخزرجى الأندلسى القرطبى المفسّر، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الورعين الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاتُه معمورة ما بين تَوَجُّهٍ وعبادةٍ وتصنيف.

مؤلَّفاته — جمع فى تفسير القرآن كتابا كبيرا فى اثنى عشر مجلدا، سمّاه كتاب "الجامع لأحكام القرآن، والمبيّن لما تضمّن من السنة وآى الفرقان" وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلّة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ (وهو هذا التفسير). وله كتاب "الأسنى، فى شرح أسماء الله الحسنى". وكتاب "التّذكار، فى أفضل الأذكار". وضعه على طريقة التبيان للنّووى، لكن هذا أتمّ منه وأكثر علما. وكتاب "التذكرة، بأمور الآخرة". وكتاب "شرح التّقصى". وكتاب "قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردّ ذلّ السؤال بالكتب والشفاعة". قال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه. وله "أرجوزة جمع فيها أسماء النبىّ صلى الله عليه وسلم". وله تواليف وتعاليق مفيدة غير هذا. وكان مطّرحا للتكلّف، يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية. قال صاحب نفح الطيّب: إنه من الراحلين من الأندلس.

---

(١) عن الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب (مذهب مالك) لابن فرحون، ونفح الطيب للمقرى.

شـــيوخه — سمع من الشيخ أبى العباس أحمـد بن عمـر القرطبى بعض شرحه "المُفْهِم، لمـا أشكل من تلخيص كتاب مُسْلِم".

وحدّث عن الحافظ أبى علىّ الحسن بن محمد بن محمد البكرى، وحدّث أيضا عن الحافظ أبى الحسن علىّ بن محمد بن على بن حفص اليَحْصبىّ وغيرهما.

وكان مستقرّا بمنية آبن خَصيب، وتُوُفّى ودُفن بها فى ليـلة الاثنين التاسع من شوّال سنة ٦٧١، رحمه الله ورضى عنه.

فهـرس الجـزء الأوّل

صفحة

ترجمة أبى عبد الله القرطبي ... ...

صفحة

باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منـه » ٤١

فصل فى قول كثير من العلمـاء أن القراءات السبع ليست هى الأحرف السـبعة ... ٤٦

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام بن حكيم فى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ... ٤٧

باب ذكر جمع القرآن، وسبب كتب عثمان المصاحف و إحراقه ما سـواها ، وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبى صلى الله عليه وسـلم ٤٩

فصل فى الرد على الحلولية والحشوية القائلين بقدم الحروف والأصوات ٥٥

فصل فى طعن الرافضة فى القرآن ٥٦

باب ما جاء فى ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ، ونقطه وتحزيبه وتعشيره، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه ٥٩

باب ذكر معنى السورة والآية والحرف... ... ... ٦٥

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا ٦٨

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها ٦٩

فصـل فى أن المعجزات على ضربين ٧٢

باب فى التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سور القرآن وغيره ٧٨

باب فيما جاء من الحجة فى الرد على من طعن فى القرآن ، وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان ٨٠

القول فى الأستعاذة، وفيها أثنتا عشرة مسألة ٨٦

الكلام على البسملة، وفيها سبع وعشرون مسألة ٩١

تفسـير سـورة الفـاتحة

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأوّل — فى فضائلها وأسمائها ومعانيها، وفيه سبع مسائل... ... ... ١٠٨

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة ١١٤

صفحة

الباب الثالث — فى التأمين ، وفيه ثمان مسائل ١٢٧

الباب الرابع — فيما تضمنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين ، وفيه ست وثلاثون مسألة ١٣١

سـورة البقـرة

الكلام فى نزولها وفضلها ، وما جاء فيها ١٥٢

تفسير قوله تعالى : « الم . ذلك الكتاب ... » وبيان الأقوال الواردة فى أوائل السور المفتتحة بالحروف ١٥٤

الكلام على هداية القرآن ، وفيه ست مسائل ١٥٩

تفسير قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ... » الآية . وفيه ست وعشرون مسألة : الكلام على الإيمان بالغيب ، وعن الصلاة و إقامتها وشرائطها ١٦٢

بحث فى الرزق و إنفاقه ١٧٧

تفسير قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ... » الآية

بيان حال الكافرين ومآلهم ، ومعنى الكفر ١٨٣

تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » الآية . وفيه عشر مسائل :

بيان الختم على القلوب وعلى السمع وعلى البصر ١٨٥

ذكر أقوال العلماء فى إمساك النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم ١٩٨

ذكر ما قيل فى خلق السموات والأرض ، وما ورد فى ذلك من الآيات ، والاختلاف فيها ٢٥٤

بحث فى تنصيب الخليفة ، والكلام على الإمامة العظمى ٢٦٤

بحث فى تسبيح الملائكة ٢٧٦

بحث فى كيفية خلق آدم عليه السلام واشتقاق اسمه ٢٧٩

ذكر اختلاف العلماء فى معنى الأسماء التى علمها آدم ٢٨٢

صفحة
بحث فى أيما أفضل : الملائكة أم بنو آدم ؟ ٢٨٩
بحث فى السجود، ومعنى سجود الملائكة ٢٩٢
بحث فى إبليس لعنه الله ٢٩٤
الكلام على الجنة وسكنى آدم وحواء فيها، وفيه ثلاث عشرة مسألة ٢٩٨
ذكر الخلاف فى الشجرة، وكيف أكلا منها ٣٠٥
مطلب فى الأنبياء ، وهل وقع منهم صلوات الله عليهم صغائر من الذنوب يؤاخذون بها، ويعاتبون عليها أم لا ؟ ٣٠٨
بحث فى الأمر بقتل الحيات، والكلام فى تشكيل الجن بها ، وإسلام الجن والتبليغ إليهم، وفيه بعض أحوالهم وشىء من أخبارهم... ... ... ٣١٥
بحث فى الكلمات التى تلقاها آدم ٣٢٣
بحث فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم ، واختلاف العلماء فى هذا، وفى أخذ الأجرة على الصلاة ٣٣٥
بحث فى الزكاة ٣٤٣
بحث فى معنى قوله : « واركعوا مع الراكعين » وجملة من أحكام الصلاة... ... ... ٣٤٤
بحث فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل... ... ... ٣٨٩
بحث فى يوم عاشوراء ، وهل هو اليوم التاسع من المحرم أو العاشر؟ ٣٩١
الكلام على الأربعين يوما، وما وقع فيها من بنى إسرائيل ٣٩٥
بحث فى معنى الشكر ٣٩٧
الكلام على المنّ والسّلْوَى ٤٠٦
بحث فى الاستسقاء ٤١٧
طلب اليهود استبدال المَنّ والسلوى بالبقل ، وذكر الأصناف التى طلبوها ، ونزولهم مصر... ... ... ٤٢٢
بحث فى أكل البصل والثوم، واختلاف العلماء فيه... ... ... ٤٢٦

صفحة

الكلام على المِلل، وفيه ثمـان مسائل ٤٣٢
القـول فى سبب رفع الطُّور ٤٣٦
اعتداء اليهود فى السبت ومسخ الله إياهم ٤٣٩
ذكر آختلاف العلماء فى الممسوخ هل ينسل أم لا؟ ٤٤٠
القول فى أمر الله اليهود بذبح البقرة ، والبحث فى شأنها ، وما ورد فى ذلك ٤٤٤
بحث فى معنى قوله : « وإذ قتلتم نفسا » وسبب القتل ٤٥٥
بحث فى القسامة وأحكامها ٤٥٧
موجب القسامة ٤٥٩
بحث فى شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟... ... ... ٤٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

قال الشيخ الفقيه الإمامُ العالمُ العاملُ العلامةُ المحدّثُ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح الأنصارى الخزرجى الأندلسىّ ثم القرطبى، رضى الله عنه :

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يَحْمَده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الربُّ الصّمَد الواحد، الحىّ القيوم الذى لا يموت ؛ ذو الجلال والإكرام، والمواهبِ العظام ؛ والمتكلّمُ بالقرآن، والخالقُ الإنسان، والمنعمُ عليه بالإيمان، والمرسلُ رسولَه بالبيان، محمدًا صلّى الله عليه وسلم ما آختلف المَلَوَان[1]، وتعاقب الجديدان ؛ أرسله بكتابه المبين، الفارقِ بين الشك واليقين ؛ الذى أعجزت الفصحاءَ معارضتُه، وأعْيَت الألبّاءَ مناقضتُه، وأخرست البلغاءَ مشاكلتُه ؛ فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهِيرا . جعل أمثاله عِبَرًا لمن تدبّرها، وأوامره هُدًى لمن آستبصرها ؛ وشرح فيه واجباتِ الأحكام، وفرّق فيه بين الحلال والحرام، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقصّ فيه غيب الأخبار ؛ فقال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ[2] » . خاطب به أولياءه ففهموا، وبيّن لهم فيه مراده فعلموا . فقَرَأَةُ القرآنِ حَمَلَةُ سِرّ الله المكنون، وحَفَظَةُ علمه المخزون، وخلفاءُ أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصّته وخيرته وأصفياؤه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله أهلين مِنَ[3] الناس" قالوا : يارسول الله، مَن هم ؟ قال : "هم أهلُ القرآن أهلُ الله وخاصّته" أخرجه آبن ماجه فى سننه، وأبو بكر البزّار فى مُسنده . فما أَحَقَّ مَن عَلِم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكّر

(١) الملوان : الليل والنهار . (٢) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٣) فى سنن آبن ماجه : "من الناس" .

ما شُرِح له فيه، ويخشى الله ويتّقيه، ويراقبه ويستحييه . فإنه قد حُمِّل أعباء الرسل، وصار شهيدا فى القيامة على من خالف من أهل الملل؛ قال الله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ »(١) . ألا وإنّ الحجة على من علمه فأغفله، أوكد منها على من قصر عنه وجَهِله . ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ؛ وارتكب من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فضوحا ؛ كان القرآن حجةً عليه، وخَصْماً لديه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن حجة لك أو عليك " خرّجه مسلم . فالواجب على مَن خَصّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبّر حقائق عبارته ؛ ويتفهّم عجائبه ، ويتبيّن غرائبه ؛ قال الله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ »(٢) . وقال الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣) . جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبّره حق تدبّره؛ ويقوم بقسطه ، ويوفى بشرطه ، ولا يلتمس الهُدَى فى غيره؛ وهدانا لأعلامه الظاهرة ، وأحكامه القاطعة الباهرة ، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة ، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة . ثم جعل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بيان ما كان منه مجملا، وتفسير ما كان منه مُشْكِلًا، وتحقيقَ ما كان منه محتملا ؛ ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه؛ قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(٤) . ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبّه على معانيه ، وأشار إلى أصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد؛ فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم ؛ قال الله تعالى : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ »(٥) . فصار الكتاب أصلا والسنة له بيانا، واستنباط العلماء له إيضاحا وتبيانا . فالحمد لله الذى جعل صدورنا أوْعِيَةَ كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيّه ؛ وهمَمنا مصروفةً إلى تعلّمهما والبحث عن معانيهما وغرائبهما ؛ طالبين بذلك رِضَا رب العالمين ، ومتدرّجين به إلى علم المِلّة والدِّين .

(وبعد) فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع ، الذى استقل بالسُّنّة والفَرْض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيتُ أن أشتغل به مَدَى عمرى، وأستفرغ

(١) آية ١٤٣ سورة البقرة . (٢) آية ٢٩ سورة ص . (٣) آية ٢٤ سورة القتال .
(٤) آية ٤٤ سورة النحل . (٥) آية ١١ سورة المجادلة .

فيه مُنّتي[1] ؛ بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا، يتضمّن نُكَتًا من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ؛ والردّ على أهل الزَّيْغ والضلالات ، وأحاديثَ كثيرةً شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ؛ جامعًا بين معانيهما، ومُبيّنًا ما أشكل منهما ؛ بأقاويل السلف، ومَن تبعهم من الخَلَف . وعَمِلتُه تذكرةً لنفسي ، وذخيرةً ليوم رَمْسي ،وعملًا صالحا بعد موتي . قال الله تعالى : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ »[2] . وقال تعالى : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ »[3] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثٍ صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له" .

وشرطي في هذا الكتاب : إضافة الأقوال الى قائليها، والأحاديث الى مصنّفيها ؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول الى قائله . وكثيرا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مُبْهَمًا، لا يَعرف مَن أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم ،ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ، ولا الاستدلال حتى يضيفه الى مَن خرّجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام . ونحن نُشير الى جُمَل من ذلك في هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قَصَص المفسرين ، وأخبار المؤرّخين ، إلا ما لا بُدّ منه ولا غِنًى عنه للتبيين ؛ واعْتضت من ذلك تبيين آي الأحكام ، بمسائلَ تُسْفِر عن معناها ، وتُرشِد الطالب الى مقتضاها ؛ فضمّنت كل آية تتضمن حُكما أو حكمين فما زاد ، مسائلَ نبيّن فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم ؛ فإن لم تتضمن حُكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل ، هكذا الى آخر الكتاب .

وسميته بـ(الجامع لأحكام القرآن ، والمبيّن لما تضمّنه من السُّنّة وآي الفرقان) ، جعله الله خالصا لوجهه ، وأن ينفعني به ووالديّ ومن أراده بمنّه ؛ إنه سميع الدعاء ، قريب مجيب ؛ آمين .

---

(١) المنة (بالضم) : القوة . (٢) آية ١٣ سورة القيامة . (٣) آية ٥ سورة الانفطار .

باب ذكر جُمَل من فضائل القرآن، والترغيب فيه، وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعـامل به

اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألّف فيه العلماء كتبًا كثيرة، نذكر من ذلك نُكَتًا تدلّ على فضله، وما أعدّ الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه، وعملوا به . فأوّل ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين، غير مخلوق، كلامُ مَن ليس كمثله شيء، وصفةُ من ليس له شبيه ولا نِدّ، فهو من نور ذاته جلّ وعزّ؛ وأن القراءة أصوات القُرّاء ونغماتهم، وهي أكسابهم التي يؤمرون بها في حالٍ إيجابًا في بعض العبادات، وندْبًا في كثير من الأوقات؛ ويُزجرون[1] عنها إذا أُجْنبُوا، ويثابون عليها ويعاقبون على تركها . وهذا مما أجمع عليه المسلمون أهل الحق، ونطقت به الآثار، ودلّ عليها المستفيض من الأخبار؛ ولا يتعلق الثواب والعقاب إلا بما هو من أكساب العباد، على ما يأتي بيانه . ولولا أنه — سبحانه — جعل في قلوب عباده من القوّة على حمله ما جعله؛ ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكّروا ما فيه من طاعته وعبادته، وأداء حقوقه وفرائضه، لضعفت ولانْدكّت بثقله، أو لتضعضعت له وانْبَتّ تطيقه؛ وهو يقول — تعالى جَدّه — وقوله الحق : «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»[2] . فأين قوّة القلوب من قوّة الجبال ! ولكنّ الله تعالى رزق عباده من القوّة على حمله ما شاء أن يرزقهم؛ فضلًا منه ورحمة .

وأما ما جاء من الآثار في هـذا الباب — فأوّل ذلك ما خرّجه الترمذيّ عن أبي سعيد قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : "يقول الربّ تبارك وتعـالى مَن شَغله القرآنُ وذِكْرِي عن مسألتي أعطيته أفضلَ ما أعطي السائلين — قال : — وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه" . قال : هـذا حديث حسن غريب . وروى أبو محمـد الدارميّ السَّـمَرْقَنْديّ في مسنده عن عبد الله قال : السبع الطُّوَل مثل التوراة، والمئون مثل الإنجيل، والمثاني مثل الزَّبور، وسائر القرآن بعدُ فضـلٌ . وأسند عن الحارث

(١) في نسخة : ويؤجرون عنها إذا أجيبوا .
(٢) آية ٢١ سورة الحشر .

عن علىّ رضى الله عنه وخرّجه الترمذى قال : سمعت[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ستكون فِتَنٌ كقِطع الّليل المظلم . قلت يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتابُ الله تبارك وتعالى فيه نَبَأ من قبلكم وخبرُ ما بعدكم وحُكم ما بينكم هو الفَصْل ليس بالهَزْل مَن تركه مِن جبّار قصمه الله ومَن آبتغى الهُدَى فى غيره أضلّه الله هو حبل الله المتين ونوره المبين والذّكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تَزِيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعّب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يَملّه الأتقياء ولا يَخلق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا مَن علِم علمه سَبَق ومن قال به صدق ومَن حكم به عدل ومَن عمل به أُجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك ياأعْوَر[2] " . « الحارث » رماه الشعبىّ بالكذب وليس بشىء ، ولم يَبِنْ من الحارث كذب ، وإنما نُقم عليه إفراطه فى حب علىّ وتفضيله له على غيره . ومن ها هنا — والله أعلم — كذّبه الشعبىّ ؛ لأن الشعبىّ يذهب إلى تفضيل أبى بكر ، وإلى أنه أوّل من أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : وأظنّ الشعبىّ عوقب لقوله فى الحارث الهَمْدانىّ : حدّثنى الحارث وكان أحد الكذّابين .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى النحوىّ اللغوىّ فى كتاب « الردّ على من خالف مصحف عثمان » عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا من مأدبته ما آستطعتم إن هذا القرآن حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمةُ مَن تمسك به ونجاةُ مَن آتبعه لا يعوجّ فيقوّم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلَق عن كثرة الردّ فآتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الٓمٓ حَرْفٌ ولا أُلْفِيَنّ أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة و إن أصْفَر البيوت من الخير البيتُ الصّفِر من كتاب الله" . وقال أبوعبيد فى غريبه عن عبدالله قال : إن هذا القرآن مأدبة

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى (جـ ٢ ص ١٤٩ طبع بولاق) مع اختلاف فى بعض كلماته وزيادة ونقص .

(٢) قوله : يا أعور . لقب الحارث بن عبد الله المذكور فى سند هذا الحديث .

الله فمن دخل فيه فهو آمن . قال : وتأويل الحديث أنه مَثَلٌ ، شَبّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليـه . يقال : مأدُبة ومأدَبة ؛ فمن قال : مأدُبة ؛ أراد الصنيع يصنعه الإنسان فيدعو إليـه الناس . ومن قال : مأدَبة ؛ فإنه يذهب به إلى الأدب ، يجعله مَفْعَلة من الأدب ، ويحتج بحديثه الآخر : " إن هـذا القرآن مأدَبة الله عزّ وجلّ فتعلّموا من مأدبتـه " . وكان الأحمر يجعلهما لغتين بمعنًى واحد ، ولم أسمع أحدا يقول هذا غيره . [قال :] والتفسير الأول أعجب إليّ .

وروى البخاريّ عن عثمان بن عفّان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " خيركم من تعلّم القرآن وعَلّمه " . وروى مسلم عن أبي موسى قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " مَثَلُ المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجّة رِيحُها طيّب وطعمها طيّب ومَثَلُ المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومَثَلُ المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مُرّ ومَثَلُ المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحَنْظَلة لا ريح لها وطعمها مُر " . وفى رواية : " مثـل الفاجر " بدل " المنافق " . وقال البخاريّ : " مثـل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجّة طعمها طيّب وريحها طيّب ومَثَل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ... " وذكر الحديث .

وذكر أبو بكر الأنبارى : وقد أخبرنا أحمد بن يحيى الحلوانيّ حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم ، ح (١) . وأنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام بن حَوْشب : أن أبا عبد الرحمن

(١) جرت العادة بالاقتصار على الرمز فى حدّثنا وأخبرنا ، واستمر الاصطلاح عليه من قديم الأعصار الى زماننا ، واشتهر ذلك بحيث لايخفى ؛ فيكتبون من حدّثنا «ثنا» وهى الثاء والنون والألف ، وربما حذفوا الثاء . ويكتبون من أخبرنا «أنا» ولا تحسن زيادة الباء قبل «نا» ؛ واذا كان لحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد الى إسناد «ح» وهى حاء مهملة ؛ والمختار أنها مأخوذة من التحوّل ، لتحوّله من إسناد الى إسناد ، وأنه يقول القارئ اذا انتهى اليها : «ح» ويستمر فى قراءة ما بعدها . وقيل : إنها من حال بين الشيئين اذا جزّ ، لكونها حالت بين الاسنادين وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ؛ بل وليست من الرواية . وقيل : إنها رمز الى قوله : «الحديث» . وأن أهل المغرب كلهم يقولون اذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هـذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا ، وهى كثيرة فى صحيح مسلم ، قليلة فى صحيح البخارى . (عن مقدّمة النووى على صحيح مسلم) .

السُّلَمِيّ كان إذا ختم عليه الخاتِمُ القرآنَ أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه وقال له : يا هذا ، اتق الله ! فما أعرف أحدا خيرا منك إن عَمِلتَ بالذى عَلِمت . وروى الدارمىّ عن وهب الذمارِىّ قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار، وعمل بما فيه ومات على الطاعة ، بعثه الله يوم القيامة مع السَّفَرة والأحكام . قال سعيد[1]: السَّفَرة الملائكة ، والأحكامُ[2] الأنبياء .

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة والذى يقرأ القرآن و يَتَتَعْتَع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران". التتعتع : التردّد فى الكلام عِيًّا وصعوبة ؛ و إنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة؛ ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعا عليه ، ثم ترقّى عن ذلك إلى أن شبّه بالملائكة . والله أعلم . وروى الترمذىّ عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم :"من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الٓمٓ حرف ولكن ألِف حرف ولام حرف وميم حرف " . قال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقد رُوِىَ موقوفًا . وروى مسلم عن عُقبة بن عامر قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصُّفّة ؛ فقال : " أيكم يُحِبّ أن يغدو كل يوم إلى بُطْحانَ أو إلى العَقِيق فيأتىَ منه بناقتين كَوْماوَيْن[3] فى غير إثم ولا قطع رَحِم " فقلنا : يا رسول الله ، كلنا نحب ذلك ؛ قال : "أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم[4] أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خيرٌ له من ناقتين وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ وأربعٌ خير له من أربع ومِن أعدادهنّ من الإبل".

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن نَفَّس عن مسلم كُرْبَة من كُرَب الدنيا نَفَّس الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة ومَن يَسّر على مُعْسر يَسّر الله عليه

(١) سعيد هذا ، هو سعيد بن عبد العزيز بن أبى يحيى التنوخى ، أحد رجال سند هذا الحديث . وفى الأصول : «سعد» وهو تحريف . (٢) هكذا فى نسخ الأصل وسنن الدارمى . ولعل الغرض وذوو الأحكام ، أو هو جمع حكيم كشريف وأشراف أو حكم كبطل وأبطال . (٣) « كوماوين » تثنية كوماء ؛ أى مشرفة السنام عاليته .

(٤) قوله : فيعلم . ضبط بنصب الفعل ورفعه و بتشديد اللام من التعليم ، و بتخفيفها من العلم .

فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عَوْن العبد ما كان العبد فى عَوْن أخيه ومن سلك طريقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَهّل الله له طريقًا إلى الجنة وما آجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذَكرهم الله فيمن عنده ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نَسَبه " .

وروى أبو داود والنّسائى والدارمىّ والترمذى عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمُسِرّ بالقرآن كالمُسِرّ بالصدقة". قال الترمذىّ : حديث حسن غريب. وروى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلّم قال : " يجىء القرآن[1] يوم القيامة فيقول يارَبّ حُلّهُ فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يارب آرض عنه فيرضى عنه فيقال له آقرأ وآرق ويزاد بكل آية حسنة " . قال : حديث صحيح . وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن آقرأ وآرتق ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها ". وأخرجه آبن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة آقرأ وآصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شىء معه " .

وأسند أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوّة ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوّة ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوّة كلها غير أنه لا يوحَى إليه و يقال له يوم القيامة آقرأ وآرق فيقرأ آية و يصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ثم يقال له آقبض فيقبض ثم يقال له أتدرى ما فى يديك فإذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم " .

حدّثنا إدريس بن خلف حدّثنا إسماعيل بن عياش عن تمام عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أخذ ثلث القرآن وعمل به فقد أخذ أمر ثلث النبوّة ومن أخذ

(١) الذى فى نسخ الأصل : « يجىء صاحب القرآن » . والتصويب عن سنن الترمذى .

نصف القرآن وعمل به فقد أخذ أمر نصف النبوّة ومن أخذ القرآن كلّه فقد أخذ النبوّة كلها" . قال : وحدّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيّ أنبأنا محمد وهو ابن سعدان حدّثنا الحسين بن محمد عن حفص عن كثير بن زاذان عن عاصم بن ضَمْرة عن عليّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفّعه فى عشرة من أهل بيته كلٌّ قد وَجَبت له النار" . وقالت أم الدَّرْدَاء : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : ما فَضْلُ مَن قرأ القرآن على مَن لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد دَرَج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضلَ ممن قرأ القرآن . ذكره أبو محمد مكيّ . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ؛ وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ »(١) . قال ابن عباس : فضَمِن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ذكره مكيّ أيضا . وقال الليث : يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن ؛ لقول الله جل ذكره : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »(٢) . و « لَعَلّ » من الله واجبة .

وفى مُسْنَد أبى داود الطَّيَالسيّ(٣) — وهو أوّل مُسْنَد أُلِّف فى الإسلام — عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين ومن قام بألف آية كُتب من المقنطِرين" . والآثار فى معنى هذا الباب كثيرة ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله الموفق للهداية .

---

(١) آية ١٢٣ سورة طه . (٢) آية ٢٠٤ سورة الأعراف .

(٣) قوله : « وهو أوّل مسند ... » الخ . قال صاحب كشف الظنون : « والذى حمل قائل هذا القول تقدم عصره على أعصار من صنف المسانيد ، وظن أنه هو الذى صنفه وليس كذلك ، فانه ليس من تصنيف أبى داود ، وإنما بعض الحفاظ الخراسانيين جمع فيه ما رواه يوسف بن حبيب خاصة عن أبى داود . ولأبى داود من الأحاديث التى لم تدخل هذا المسند قدره أو أكثر ؛ كما ذكره البقاعى فى حاشية الألفية » . وقد توفى الطيالسي سنة ٢٠٤ هـ .

باب كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى، ومايكره منها ومايحرم، وآختلاف النـاس فى ذلك

روى البُخَارِىّ عن قتادة قال: سألت أنَسًا عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كان يَمُدّ مَدًّا [إذا] قرأ بِسم الله الرحمن الرحِيم، يمدّ بسم الله، ويمدّ بالرحمن، ويمدّ بالرحيم.

وروى الترمذىّ عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يُقَطِّع قراءته يقول: «الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِين» ثم يقف «الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» ثم يقف، وكان يقرؤها «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ». قال: حديث غريب. وأخرجه أبو داود بنحوه.

ورُوى عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم أنه قال: "أحسن النـاس صَوْتًا مَن إذا قرأ رأيته(١) يخشى الله تعالى". وروى عن زياد التَّمِيرِىّ أنه جاء مع القرّاء إلى أنس بن مالك فقيل له: آقرأ. فرفع صوته وطَرّب، وكان رفيع الصوت، فكشف أنَسٌ عن وجهه، وكان على وجهه خرقة سوداء فقال: يا هذا، ما هكذا كانوا يفعلون! وكان إذا رأى شيئا ينكره كشف الخرقة عن وجهه. وروى عن قيس بن عُبَاد أنه قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون رفع الصـوت عنـد الذكر. وممن روى عنه كراهة رفع الصوت عنـد قراءة القرآن سعيد بن المُسيّب وسعيد بن جُبير والقاسم بن محمد والحسن وآبن سِيرين والنَّخَعِىّ وغيرهم، وكرهه مالك بن أنس وأحمد بن حنبل؛ كلهم كره رفع الصوت بالقرآن والتّطريب فيه. روى عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبد العزيز يؤمّ النـاس فطرّب فى قراءته؛ فأرسل إليه سـعيد يقول: أصلحك الله! إن الأئمـة لا تقرأ هكذا. فترك عمر التّطريب بعـدُ. وروى عن القاسم بن محمد: أن رجلا قرأ فى مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم فطرّب؛ فأنكر ذلك القاسم وقال يقول الله عز وجل: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»(٢) الآية.

وروى عن مالك أنه سئل عن النَّبْر فى قراءة القرآن فى الصلاة؛ فأنكر ذلك وكرهه كراهة شـديدة، وأنكر رفع الصوت به. وروى آبن القاسم عنه أنه سـئل عن الألحان فى الصلاة

(١) رأى هنا بمعنى علم، وفى بعض النسخ: «رئيته» بالبناء للمجهول؛ ومعناه الظن. (٢) آية ٤١، ٤٢ سورة فصلت.

فقال : لا يعجبنى ، وقال : إنما هو غناء يتغنّون به ليأخذوا عليه الدراهم . وأجازت طائفة رفع الصوت بالقرآن والتّطريب به ؛ وذلك لأنه إذا حَسّن الصوتَ به كان أوقع فى النفوس وأسمع فى القلوب ، واحتجّوا بقوله عليه السلام : "زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم" رواه البَرَاء بن عازب . أخرجه أبو داود والنَّسائى . وبقوله عليه السلام : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" أخرجه مسلم . وبقول أبى موسى للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : لو أعلم أنك تستمع لقراءتى لحبّرته لك تحبيرا . وبما رواه عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عامَ الفَتْح فى مسيره سورة «الفتح» على راحلته فرجّع فى قراءته . وممن ذهب إلى هذا أبو حنيفة وأصحابه والشافعىّ وابن المبارك والنَّضْر بن شُمَيْل ، وهو اختيار أبى جعفر الطبرىّ وأبى الحسن بن بَطّال والقاضى أبى بكر بن العربى وغيرهم .

قلت : القول الأوّل أصح لما ذكرناه ويأتى . وأما ما احتجّوا به من الحديث الأوّل فليس على ظاهره ، وإنما هو من باب المقلوب ؛ أى زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن . قال الخَطّابىّ : وكذا فسره غير واحد من أئمة الحديث : زَيِّنُوا أصواتكم بالقرآن ؛ وقالوا هو من باب المقلوب ؛ كما قالوا : عَرَضْتُ الحَوْضَ على الناقة ، وإنما هو عرضت الناقة على الحوض . قال : ورواه مَعْمَر عن منصور عن طلحة ؛ فقدّم الأصوات على القرآن ، وهو الصحيح .

قال الخطابىّ : ورواه طلحة عن عبد الرحمن بن عَوْسَجة عن البَرَاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "زينوا القرآن بأصواتكم" . أى اهْجُوا بقراءته واشغلوا به أصواتكم واتخذوه شعارا وزينة ؛ وقيل : معناه الحض على قراءة القرآن والدُّءوب عليه . وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "زيّنوا أصواتكم بالقرآن" . وروى عن عمر أنه قال : "حَسِّنُوا أصواتكم بالقرآن" .

قلت : وإلى هذا المعنى يرجع قولُه عليه السلام : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" أى ليس منا من لم يحسّن صوته بالقرآن ؛ كذلك تأوّله عبد الله بن أبى مليكة . قال عبد الجبار ابن الورد : سمعت ابن أبى مليكة يقول : قال عبد الله بن أبى يزيد : مرّ بنا أبو لُبَابة فاتبعناه

حتى دخل بيته، فإذا رجل رَثّ الهيئة، فسمعته يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : "ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن" . قال فقلت لابن أبي مليكة : يا أبا محمد، أرأيت إذا لم يكن حَسَنَ الصوت ؟ قال : يحسّنه ما آستطاع . ذكره أبو داود ، وإليه يرجع أيضا قول أبي موسى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّي لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحسّنت صوتي بالقرآن، وزيّنته ورتّلته . وهذا يدل [على] أنه كان يهذّ[1] في قراءته مع حُسْن الصوت الذي جُبل عليه . والتحبير : التزيين والتحسين ؛ فلو علم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يسمعه لمدّ في قراءته ورتّلها ؛ كما كان يقرأ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ فيكون ذلك زيادة في حسن صوته بالقراءة . ومعاذ الله أن يتأوّل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يقول : إن القرآن يُزَيّن بالأصوات أو بغيرها ؛ فمن تأوّل هـذا فقد واقع أمرا عظيما أن يُحْوِج القرآن إلى من يزيّنه ، وهو النور والضياء والزين الأعلى لمن ألبس بهجته وآستنار بضيائه . وقد قيل : إن الأمر بالتزيين آكتساب القراءات وتزيينها بأصواتنا وتقدير ذلك ، أي زينوا القراءة بأصواتكم ؛ فيكون القرآن بمعنى القراءة ، كما قال تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ[2] » أي قراءة الفجر، وقوله : « فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ[3] » أي قراءته . وكما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : إن في البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان عليه السلام، ويوشك أن تخرج فتقرأ على الناس قرآنا ؛ أي قراءة . وقال الشاعر[4] في عثمان رضي عنه :

ضَحُّوا بأشْمَطَ[5] عُنوانُ السجودِ به * يقطّع الليلَ تسبيحًا وقـرآنا

أي قراءة . فيكون معناه على هذا التأويل صحيحا إلا أن يخرج القراءة التي هي التلاوة عن حدّها — على ما نبيّنه — فيمتنع . وقد قيل : إن معنى يتغنّى به، يستغني به من الاستغناء الذي هو ضدّ الافتقار، لا من الغناء ؛ يقال : تغنّيت وتغانيت بمعنى آستغنيت . وفي الصحاح : تغنى

(١) الهذ والهذذ : سرعة القطع وسرعة القراءة . (٢) آية ٧٨ سورة الإسراء .
(٣) آية ١٨ سورة القيامة . (٤) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .
(٥) الشمط بالتحريك : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . وقيل : الشمط في الرجل شيب اللحية .

الرجل بمعنى آستغنى ، وأغناه الله . وتغانوا أى آستغنى بعضهم عن بعض . قال المغيرة بن حَبْناء التميمى :

كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حياتَه * ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

وإلى هذا التأويل ذهب سفيان بن عُيَيْنة ووَكِيع بن الجَرّاح، ورواه سفيان عن سعد بن أبى وَقّاص . وقد رُوى عن سفيان أيضا وجه آخر، ذكره إسحاق بن رَاهُوَيْه، أى يستغنى به عما سواه من الأحاديث . وإلى هذا التأويل ذهب البخارى محمد بن إسماعيل لإتباعه الترجمة بقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»[1] . والمراد الآستغناء بالقرآن عن علم أخبار الأمم؛ قاله أهل التأويل . وقيل : إن معنى يتغنّى به، يتحزّن به؛ أى يظهر على قارئه الحزن الذى هو ضدّ السرور عند قراءته وتلاوته، وليس من الغنية؛ لأنه لو كان من الغنية لقال : يتغانى به ، ولم يقل يتغنّى به . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء : منهم الإمام أبو محمد آبن حِبّان البُسْتِىّ، وآحتجوا بما رواه مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أَزِيز كأَزِيز المِرْجَل من البكاء . الأَزِيز (بزايين) : صوت الرعد وغَلَيان القِدْر . قالوا : ففى هذا الخبر بيان واضح على أن المراد بالحديث التحزّن؛ وعَضَدُوا هذا أيضا بما رواه الأئمة عن عبد الله قال قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : "آقرأ علىّ" فقرأت عليه سورة « النساء » حتى إذا بلغت « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا »[2] فنظرت إليه فإذا عيناه تدمعان . فهذه أربع تأويلات ، ليس فيها ما يدل على القراءة بالألحان والترجيع فيها . وقال أبو سعيد بن الأعرابى فى قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" قال : كانت العرب تُولَع بالغناء والنشيد فى أكثر أقوالها، فلما نزل القرآن أحبوا أن يكون القرآن هِجِّيراهم[3] مكان الغناء؛ فقال : "ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن" .

التأويل الخامس — ما تأوّله مَن آستدلّ به على الترجيع والتطريب؛ فذكر عمر بن شَبّة قال : ذكرت لأبى عاصم النبيل تأويل آبن عُيَيْنة فى قوله : "يتغنّ" يستغنى؛ فقال :

(١) آية ٥١ سورة العنكبوت . (٢) آية ٤١ سورة النساء . (٣) هجيراهم : دأبهم وعادتهم .

لم يصنع آبن عُيَيْنَة شيئا. وسُئل الشافعىّ عن تأويل آبن عُيينة فقال : نحن أعلم بهذا، لو أراد النبىّ صلى الله عليه وسلم الآستغناء لقال : من لم يستغن، ولكن لما قال " يتغنّ " علمنا أنه أراد التغنّى . قال الطبرىّ : المعروف عندنا فى كلام العرب أن التغنّى إنما هو الغناء الذى هو حسن الصوت بالترجيع . وقال الشاعر :

تَغنّ بالشّعرِ مهما كنتَ قائلَه * إن الغِنـاء بهذا الشعر مِضمارُ

قال : وأما آدّعاء الزاعم أن تغنّيت بمعنى آستغنيت فليس فى كلام العرب وأشعارها، ولا نعلم أحدا من أهل العلم قاله ؛ وأما احتجاجه بقول الأعشى :

وكنتُ آمرأً زَمَنًا بالعِـراق * عفيفَ المُنـاخ طَويلَ التَّغَنْ

وزعم أنه أراد الآستغناء فإنه غلط منه ، وإنما عنى الأعشى فى هـذا الموضع الإقامة، من قول العرب : غنِىَ فلان بمكان كذا أى أقام ؛ ومنه قوله تعالى : « كأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها »(١) وأما آستشهاده بقوله :

* ونحن إذا مِتْنَا أشدُّ تغانيَا *

فإنه إغفال منه ؛ وذلك أن التغانى تفاعل من نفسين إذا آستغنى كل واحد منهما عن صاحبه ؛ كما يقال : تضارب الرجلان ، إذا ضرب كل واحد منهما صاحبـه . ومن قال هذا فى فعل الآثنين لم يجز أن يقول مثله فى الواحد ؛ فغير جائز أن يقال : تغانى زيد وتضارب عمـرو ؛ وكذلك غير جائز أن يقال : تغنّى بمعنى آستغنى .

قلت : ما آدّعاه الطبرى من أنه لم يَرِد فى كلام العرب تغنى بمعنى آسـتغنى ، فقد ذكره الجوهرىّ كما ذكرنا، وذكره الهَرَوىّ أيضا . وأما قوله : إن صيغة فاعل إنما تكون من آثنين فقد جاءت من واحد فى مواضع كثيرة؛ منها قول آبن عمر: وأنا يومئذ قد ناهزت الآحتلام. وتقول العرب : طارقتُ النعلَ وعاقبت اللصَّ وداوَيْت العَليل، وهو كثير؛ فيكون تغانى منها. وإذا آحتمل قوله عليه الصلاة والسلام : " يتغنّ " الغناء والآستغناء فليس حمله على أحدهما بأولى من الآخر، بل حمله على الآستغناء أوْلَى لو لم يكن لنـا تأويل غيره ، لأنه مرويّ عن

(١) آية ٩٢ سورة الأعراف .

صحابيّ كبير كما ذكر سفيان . وقد قال ابن وهب فى حق سفيان : ما رأيت أعلم بتأويل الأحاديث من سفيان بن عُيَيْنة ، ومعلوم أنه رأى الشافعيّ وعاصره .

وتأويل سادس — وهو ما جاء من الزيادة فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما أذِن[1] الله لشيء ما أذن لنبيّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به " . قال الطبرىّ : ولو كان كما قال ابن عُيَيْنة لم يكن لذكر حسن الصوت والجهر به معنًى . قلنا قوله : «يجهر به» لا يخلو أن يكون من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو من قول أبى هريرة أو غيره ، فإن كان الأوّل وفيه بُعْدٌ ، فهو دليل على عدم التطريب والترجيع ، لأنه لم يقل : يطرب به ، وإنما قال : يجهر به ، أى يسمع نفسه ومن يليه ؛ بدليل قوله عليه السلام للذى سمعه وقد رفع صوته بالتهليل : " أيها الناس اربعوا[2] على أنفسكم فإنكم لستم تدعون أصمّ ولا غائبا ... " الحديث ، وسيأتى . وكذلك إن كان من صحابيّ أو غيره فلا حجة فيه على ما راموه ؛ وقد اختار هذا التأويل بعض علمائنا فقال : وهذا أشبه ، لأن العرب تسمّى كل من رفع صوته ووالى به غانيا ، وفعله ذلك غِناء وإن لم يلحنه بتلحين الغناء . قال : وعلى هذا فسره الصحابيّ ، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال .

وقد احتج أبو الحسن بن بطال لمذهب الشافعيّ فقال : وقد رفع الإشكال فى هذه المسألة ما رواه ابن أبى شيبة قال حدّثنا زيد بن الحُبَاب قال حدّثنا موسى بن علىّ بن رباح عن أبيه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلّموا القرآن وغنّوا به واكتبوه فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصّيًا[3] من المخاض من العُقُل " . قال علماؤنا : وهذا الحديث وإن صح سنده فيردّه ما يعلم على القطع والبتات من أن قراءة القرآن بلغتنا متواترة عن كافة المشايخ ، جيلًا فجيلا إلى العصر الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس فيها تلحين

(١) قوله : ما أذن ... الخ . قال المناوى : يعنى ما رضى الله من المسموعات شيئا هو أرضى عنده ولا أحبّ إليه من قول نبيّ يتغنى بالقرآن ، أى يجهر به ويحسن صوته بالقراءة بخشوع وترقيق وتحزن ، وأراد بالقرآن ما يقرأ من الكتب المنزلة . (٢) قوله : «اربعوا» أى كفّوا وارفقوا . (٣) التفصى : التفلّت والخروج .

ولا تطريب، مع كثرة المتعمقين فى مخارج الحروف وفى المدّ والإدغام والإظهار وغير ذلك من كيفيـة القراءات . ثم إن فى الترجيع والتطريب همز ما ليس بمهموز ومدّ ما ليس بممدود ؛ فترجع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبهة[1] الواحدة شبهات، فيؤدّى ذلك إلى زيادة فى القرآن وذلك ممنوع، وإن وافق ذلك موضع نبر وهمز صيّروها نبرات وهمزات، والنبرة حيثما وقعت من الحروف فإنما هى همزة واحدة لا غير؛ إما ممدودة وإمّا مقصورة . فإن قيل : فقد روى عبد الله بن مُغَفَّل قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره سورة « الفتح » على راحلته فرجّع فى قراءته؛ وذكره البخارىّ وقال فى صـفة الترجيع : آءآءآء، ثلاث مرات .

قلنا : ذلك محمول على إشباع المدّ فى موضعه ، ويحتمل أن يكون حكاية صوته عند هزّ الراحلة؛ كما يعترى رافع صوته إذا كان راكبا من انضغاط صوته وتقطيعه لأجل هز المركوب؛ وإذا احتمل هذا فلا حجة فيه.وقد خرّج أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد الحافظ من حديث قتادة عن عبد الرحمن بن أبى بكرعن أبيه قال : كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم المدّ ليس فيها ترجيع.وروى ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس قال : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذن يُطرّب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأذان سهل سمح فإذا كان أذانك سمحا سهلا و إلا فلا تؤذّن" . أخرجه الدارَقُطْنىّ فى سُنَنه . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم قد منع ذلك فى الأذان فأحرى ألّا يجوّزه فى القرآن الذى حفظه الرحمن ، فقال وقوله الحق : « إنّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ و إنّا لَهُ لَحَافِظُونَ[2] » . وقال تعالى : « لَا يَأْتِيـهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[3] » .

قلت : وهذا الخلاف إنما هو ما لم يفهم معنى القرآن بترديد الأصوات وكثرة الترجيعات، فإن زاد الأمر على ذلك حتى لا يفهم معناه فذلك حرام باتفاق؛ كما يفعل القرّاء بالدّيار المصرية الذين يقرءون أمام الملوك والجنائز، ويأخذون على ذلك الأجور والجوائز؛ ضلّ سعيُهم، وخاب

(١) سيذكر المؤلف فى باب (ذكر معنى الصورة والآية) الخ : أن الشبهات هى الحروف؛ ولم أر هذا التعبير لغيره .
(٢) آية ٩ سورة الحجر . (٣) آية ٤٢ سورة فصلت .

عملهم ، فيستحلّون بذلك تغيير كتاب الله ، و يهوّنون على أنفسهم الاجتراء على الله بأن يزيدوا فى تنزيله ما ليس فيه ؛ جهلا بدينهم ، ومُروقًا عن سُنّة نبيّهم ، ورَفْضًا لسِيَر الصالحين فيه من سَلَفهم ، ونزوعًا إلى ما يُزيّن لهم الشيطان من أعمالهم ؛ وهم يَحْسَبُون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا ؛ فهم فى غَيّهم يترَدّدون ، و بكتاب الله يتلاعبون ، فإنّا لله و إنا إليه راجعون ! لكن قد أخبر الصادق أن ذلك يكون ، فكان كما أخبر صلّى الله عليه وسلّم .

ذكر الإمام الحافظ أبو الحسين رَزين وأبو عبد الله الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث حُذَيفة أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : " اقرءوا القرآن بلُحُون العرب وأصواتها و إياكم ولُحُون أهل العشق ولحون أهل الكتابين وسيجىء بعدى قوم يرجّعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوْح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم " . اللحون : جمع لَحْن ، وهو التطريب وترجيع الصوت وتحسينه بالقراءة والشعر والغناء .

قال علماؤنا : و يشبه أن يكون هذا الذى يفعله قرّاء زماننا بين يدى الوعاظ وفى المجالس من اللحون الأعجمية التى يقرءون بها ، ما نهى عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . والترجيع فى القراءة : ترديد الحروف كقراءة النصارى . والترتيل فى القراءة هو الأنّى فيها والتمهّل وتبيين الحروف والحركات تشبيهًا بالثَّغْر المرتّل ، وهو المشبّه بنَوْر الأقحوان ، وهو المطلوب فى قراءة القرآن ؛ قال الله تعالى : « وَرَتِّلِ القرآن ترتيلا »(١) . وسُئلت أمّ سَلَمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته ، فقالت : مالكم وصلاته ! [كان يصلّى ثم ينام قدر ما صَلّى ، ثم يصلى قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلّى حتى يُصبح ،](٢)] ثم نعتت قراءته ، فإذا هى تنعت قراءة مفسرة حَرْفًا حرفا . أخرجه النسائى وأبو داود والترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء وغيره

قال الله تعالى : « وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »(٣) . وقال تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »(٤) . روى مسلم عن أبى هريرة

(١) آية ٤ سورة المزمل .
(٢) الزيادة عن سنن الترمذى وأبى داود .
(٣) آية ٣٦ سورة النساء .
(٤) آية ١١٠ سورة الكهف .

قال : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : " إنّ أوّل الناس يُقْضَى عليه يوم القيامة رجلٌ ٱسْتُشْهِد فأُتِيَ به فعرّفه نِعَمَه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلتُ فيك حتى ٱستشهدت قال كذبتَ ولكنك قاتلتَ لأن يقال جرىء فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي فى النار ورجلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرّفه نِعمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال تعلّمت العلم وعلّمتُه وقرأتُ فيك القرآن قال كذبتَ ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلْقِيَ فى النار ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتِيَ به فعرّفه نِعَمه فعرفها قال فما عملتَ فيها قال ما تركتُ من سبيل تُحِبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك قال كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال هو جواد فقد قيل ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه ثم أُلقِي فى النار". وقال الترمذى فى هذا الحديث : ثم ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على رُكْبَتَيّ فقال : " يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة " . أبو هريرة ٱسمه عبد الله، وقيل: عبد الرحمن، وقال : كُنِّيتُ أبا هريرة لأنى حملت هِرّة فى كُمّى ، فرآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذه "؟ قلت : هرّة ، فقال : " يا أبا هريرة " . قال ابن عبد البر : وهذا الحديث فيمن لم يُرِد بعمله وعلمه وجهَ الله تعالى . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من طلب العلم لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار " .

وخرّج ٱبن المبارك فى رقائقه عن العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يظهر هذا الدِّين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَن أقرأ منا مَن أعلم منا " ثم التفت إلى أصحابه فقال : " هل ترون فى أولئكم من خير " قالوا : لا . قال : " أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار " . وروى أبو داود والترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من تعلّم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة " . يعنى ريحها . قال الترمذىّ : حديث

حسن . وروى عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوذوا بالله من جُبّ الحَزَن " قالوا : يارسول الله وما جب الحَزَن ؟ قال : " وادٍ فى جهنم تتعوذ منه جهنم فى كل يوم مائة مرة " قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : " القرّاء المراءون بأعمالهم " قال : هـذا حديث غريب . وفى كتاب أسد بن موسى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى جهنم لواديًا إن جهنم لتتعوذ من شرّ ذلك الوادى كل يوم سبع مرّات و إن فى ذلك الوادى لَجُبًّا إن جهنم وذلك الوادى ليتعوذان بالله من شرّ ذلك الجُبّ و إن فى الجُبّ لَحَيّةً و إن جهنم والوادى والجبّ ليتعوذون بالله من شر تلك الحية سبع مرات أعدّها الله للأشقياء من حَمَلة القرآن الذين يعصون الله". فيجب على حامل القرآن وطالب العلم أن يتقى الله فى نفسه ويُخْلِص العمل لله ؛ فإن كان تقدّم له شيء مما يكره فليبادر التوبة والإنابة ، وليبتدئ الإخلاص فى الطلب وعمله . فالذى يلزم حامل القرآن من التّحفظ أكثر مما يلزم غيره ، كما أن له من الأجر ماليس لغيره . روى الترمذى عن أبى الدّرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل الله فى بعض الكتب — أو أوحى — إلى بعض الأنبياء قُلْ للذين يتفقّهون لغير الدِّين ويتعلمون لغير العمل و يطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مُسُوك[1] الكِباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحْلَى من العسل وقلوبهم أمَرّ من الصبر إياى يخادعون و بى يستهزئون لأُتيحنّ لهم فتنةً تذَر الحليم فيهم حَيْرَان " .

وخرّج الطبرىّ فى كتاب آداب النفوس : حدّثنا أبو كُريب محمد بن العلاء حدّثنا المُحاربىّ عن عمرو بن عامر البَجَلىّ عن ابن صَدَقة عن رجل من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أو مَن حدّثه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تخادع الله فإنه من يخادع الله يخدعه الله ونَفْسَه يخدع لو يَشْعُر". قالوا : يارسول الله ، وكيف يخادع الله ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره واتقوا الرياء فإنه الشرك و إن المُرَائى يُدعَى يوم القيامة على رءوس الأشهاد بأربعة أسماء ينسب إليها يا كافر يا خاسر يا غادر يا فاجر ضَلّ عَمَلُك و بَطَل

(١) المسوك (جمع مسك ، بفتح ثم سكون) : الجلد .

أجرك فلا خلاق لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يامخادع" . وروى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : كيف أنتم ! إذا لَبِستكم فتنةٌ يَربُو فيها الصغير، ويَهرَم الكبير، وتُتخذ سُنّة مُبتَدَعة يجرى عليها الناس فإذا غُيِّر منها شيء قيل : قد غُيِّرت السُّنة . قيل : متى ذلك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : إذا كَثُر قرّاؤكم، وقَلّ فقهاؤكم، وكَثُرَ أمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، وٱلتُمِست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقّه لغير الدِّين. وقال سفيان بن عُيَينَة : بلغنا عن ٱبن عباس أنه قال : لو أن حملة القرآن أخذوه بحقه وما ينبغى لأحبهم الله، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله، وهانوا على الناس . ورُوى عن أبى جعفر محمد بن علىّ فى قول الله تعالى : «فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ»(١) قال: قوم وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلى غيره . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى .

باب ما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يغفل عنه

فأول ذلك أن يُخلص فى طلبه لله جلّ وعزّ كما ذكرنا، وأن يأخذ نفسه بقراءة القرآن فى ليله ونهاره، فى الصلاة أو فى غير الصلاة لئلا ينساه. روى مسلم عن ٱبن عمر أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنما مَثَلُ صاحبِ القرآن كَمَثَل صاحب الإبل المعقّلة إن عاهد عليها أمسكها و إن أطلقها ذهبت و إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذَكَره و إذا لم يقم به نَسِيَه". وينبغى له أن يكون لله حامدا، ولنعمه شاكرا، وله ذاكرا، وعليه متوكلا، وبه مستعينا، وإليه راغبا، وبه معتصما، وللموت ذاكرا، وله مستعدّا . وينبغى له أن يكون خائفا من ذنبه، راجيًا عَفْوَ ربه، ويكون الخوف فى صحته أغلب عليه، إذ لا يَعلم بما يُختم له، ويكون الرجاء عند حضور أجله أقوى فى نفسه، لحسن الظن بالله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن بالله الظن" . أى أنه يرحمه ويغفر له. وينبغى له أن يكون عالما بأهل زمانه، متحفّظًا من سلطانه، ساعيًا فى خلاص نفسه، ونجاة مُهْجَته، مقدّما بين يديه مايقدر عليه من عَرَض دنياه، مجاهدا لنفسه فى ذلك ما ٱستطاع . وينبغى له أن يكون أهم أموره عنده الوَرَع فى دينه، وٱستعمال تقوى الله ومراقبته فيما أمره به ونهاه عنه .

(١) آية ٩٤ سورة الشعراء .

وقال ابن مسعود : ينبغى لقارئ القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مستيقظون ، وببكائه إذا الناس يضحكون، و بصمته إذا الناس يخوضون، و بخضوعه إذا الناس يختالون، و بحزنه إذا الناس يفرحون . وقال عبد الله بن عمرو : لا ينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض، ولا يجهل مع من يجهل، ولكن يعفو و يصفح لحق القرآن؛ لأن فى جوفه كلام الله تعالى . و ينبغى له أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طُرق الشُّبهات ، و يقل الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار. و ينبغى له أن يتواضع للفقراء، ويتجنّب التكبّر والإعجاب، و يتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة، و يترك الجدال والمراء، و يأخذ نفسه بالرفق والأدب . و ينبغى له أن يكون ممن يؤمَن شرّه، و يُرجَى خيره ويُسلم من ضرّه، وألا يسمع ممن نَمّ عنده؛ و يصاحب مَن يعاونه على الخير و يدلّه على الصدق ومكارم الأخلاق، و يَزِينه ولا يَشِينه، و ينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه، فيتفع بما يقرأ و يعمل بما يتلو؛ فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟ وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه؛ فما مَثَل من هذه حالته إلّا كمَثل الحمار يحمل أسفارا . و ينبغى له أن يعرف المكىّ من المَدَنِىّ ليفرّق بذلك بين ما خاطب الله به عباده فى أوّل الإسلام ، وما ندبهم إليه فى آخر الإسلام ، وما افترض الله فى أوّل الإسلام، وما زاد عليه من الفرائض فى آخره. فالمدنىّ هو الناسخ للمكىّ فى أكثر القرآن، ولا يمكن أن ينسخ المكىُّ المَدَنِىَّ؛ لأن المنسوخ هو المتقدّم فى النزول قبل الناسخ له . ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهّل عليه معرفة ما يقرأ ، ويزيل عنه الشك فيما يتلو . وقد قال أبو جعفر الطبرىّ سمعت الجَرْمِىّ يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أفتِى الناس فى الفقه من كتاب سيبويه . قال محمد بن يزيد : وذلك أن أبا عمر الجَرْمِىّ كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث، إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير . ثم ينظر فى السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فبها يصـل الطالب إلى مراد الله عزّ وجل فى كتابه وهى تفتح له أحكام القرآن فتحاً ؛ وقد قال الضحاك فى قوله تعـالى : « وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ »(١) . قال : حَقٌّ على كل مَن تعلّم القرآن أن يكون فقيها .

وذكر ابن أبى الحوارىّ قال : أتينا فُضيل بن عِياض سـنة خمس وثمانين ومائة ونحن جماعة ، فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول ؛ فقـال بعض القوم : إن كان خارجاً لشئ فسيخرج لتلاوة القرآن ؛ فأمرنا قارئا فقرأ فاطّلع علينا من كُوّة ؛ فقلنا : السـلام عليك ورحمة الله ؛ فقـال : وعليكم السلام ؛ فقلنا : كيف أنت يا أبا علىّ ، وكيف حالك ؟ فقال : أنا مِن الله فى عافية ومنكم فى أذًى ، وإن ما أنتم فيـه حَدَثٌ فى الإسـلام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ما هكذا كنا نطلب العـلم ، ولكنا كنا نأتى المَشْيخة فلا نرى أنفسنا أهـلا للجلوس معهم ، فنجلس دونهم ونسترق السمع ، فإذا مرّ الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العـلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لمـا تريدون ؛ قال : قلنـا قد تعلمنا القرآن ؛ قال : إن فى تعلّمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم ؛ قلنا : كيف يا أبا علىّ ؟ قال : لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ، ومُحْكَمه من مُتَشابهه ، وناسخه من منسوخه ؛ إذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فُضَيْل وابنِ عُيَيْنة ، ثم قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ»(٢) .

قلت : فإذا حصلت هذه المراتب لقارئ القرآن كان ماهرًا بالقرآن ، وعالمًا بالفُرْقان ؛ وهو قريب على مَن قرّبه عليه ، ولا ينتفع بشىء مما ذكرنا حتى يُخلص النية فيه لله جل ذكره عند طلبه أو بعد طلبه كما تقدّم . فقد يبتدئ الطالب للعلم يريد به المباهاة والشرف فى الدنيا ، فلا يزال به فهم العلم حتى يتبيّن أنه على خطأ فى اعتقاده فيتوب من ذلك ويخلص النية لله تعالى فينتفع بذلك ويحسن حاله . قال الحسن : كنا نطلب العلم للدنيا فجرّنا إلى الآخرة . وقاله سفيان الثّورىّ . وقال حبيب بن أبى ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نيّة ثم جاءت النية بعد .

(١) آية ٧٩ سورة آل عمران . (٢) آيتا ٥٧ ، ٥٨ سورة يونس .

باب ما جاء فى إعراب القرآن وتعليمه والحثّ عليه ، وثواب من قرأ القرآن مُعْرَباً

قال أبو بكر بن الأنبارى : جاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه وتابعيهم رضوان الله عليهم — من تفضيل إعراب القرآن ، والحَضّ على تعليمه ، وذمّ اللحن وكراهيته — ما وجب به على قرّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد فى تعلمه .

من ذلك ما حدّثنا يحيى بن سليمان الضّبىّ قال حدّثنا محمد — يعنى ابن سعيد — قال حدّثنا أبو معاوية عن عبد الله بن سعيد المَقْبُرِىّ عن أبيه عن جدّه عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" . حدّثنى أبى قال حدّثنا إبراهيم ابن الهَيْثَم قال حدّثنا آدم — يعنى ابن أبى إياس — قال حدّثنا أبو الطيب المَرْوَزِىّ قال حدّثنا عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ القرآن فلم يُعْرِبه وُكِّل به مَلَك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات فإن أعرب بعضه وُكِّل به مَلَكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة فإن أعربه وُكِّل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة" . وروى جُوَيْبِر عن الضحاك قال قال عبد الله ابن مسعود : جوّدوا القرآن وزيّنوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه فإنه عربىّ ، والله يحب أن يُعْرَب به . وعن مجاهد عن ابن عمر قال : أعربوا القرآن . وعن محمد بن عبد الرحمن ابن زيد قال قال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : لَبَعْضُ إعراب القرآن أحبّ إلينا من حفظ حروفه . وعن الشعبىّ قال قال عمر رحمه الله : من قرأ القرآن فأعربه كان له عند الله أجر شهيد . وقال مكحول : بلغنى أن من قرأ بإعراب كان له من الأجر ضعفان ممن قرأ بغير إعراب . وروى ابن جُرَيْج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحبّوا العرب لثلاث لأنى عربىّ والقرآن عربىّ وكلام أهل الجنة عربىّ" . وروى سفيان عن أبى حمزة قال : قيل للحسن فى قوم يتعلمون العربية قال : أحْسَنُوا ، يتعلّمون لغة نبيّهم صلى الله عليه وسلم . وقيل للحسن : إن لنا إماماً يَلْحن ، قال : أخّروه .

وعن آبن أبى مليكة قال : قدم أعرابىّ فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : مَن يُقرئنى مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال : فأقرأه رجل «براءة» ؛ فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسوله» . بالجرّ، فقال الأعرابىّ : أوَ قد برئ الله من رسوله ؟ فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فبلغ عمر مقالة الأعرابىّ فدعاه فقال : يا أعرابىّ أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يُقرئنى ، فأقرأنى هذا سورة «براءة» ، فقال : «إن الله برىء من المشركين ورسوله» ؛ فقلت : أوَ قد برئ الله من رسوله ، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ؛ فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابىّ ؛ قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين؟ قال : «إن الله برىء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابىّ : وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه ؛ فأمر عمر آبن الخطاب رضى الله عنه ألّا يُقرئ الناس إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود[1] فوضع النحو .

وعن علىّ بن الجَعْد قال سمعت شُعبة يقول : مَثَلُ صاحب الحديث الذى لا يعرف العربية مَثَلُ الحمار عليه مِخلاة لا عَلَف فيها . وقال حماد بن سَلَمة : من طلب الحديث ولم يتعلم النحو — أو قال العربية — فهو كمثل الحمار تُعلَّق عليه مِخلاة ليس فيها شعير . قال آبن عطية : إعراب القرآن أصل فى الشريعة ؛ لأن بذلك تقوم معانيه التى هى الشرع .

قال آبن الأنبارىّ : وجاء عن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم ، من الاحتجاج على غريب القرآن ومُشكله باللغة والشعر ما بيّن صحة مذهب النحويين فى ذلك ، وأوضح فساد مذهب من أنكر ذلك عليهم . من ذلك ما حدّثنا عُبيد بن عبد الواحد بن شريك البزاز قال حدّثنا آبن أبى مريم قال : أنبأنا آبن فَرّوخ قال أخبرنى أسامة قال أخبرنى عكرمة أن آبن عباس قال : إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب . وحدّثنا إدريس بن عبد الكريم قال حدّثنا خلف قال حدّثنا حماد بن زيد عن علىّ بن زيد بن جُدعان قال سمعت سعيد بن جُبير و يوسف بن مِهْران يقولان : سمعنا آبن عباس يُسأل عن الشىء بالقرآن ، فيقول فيه هكذا وهكذا ، أما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا . وعن عكرمة

(١) يجوز أن يكون أمر أبى الأسود بوضع النحو تكرر من عمر ومن على .

عن ابن عباس ، وسأله رجل عن قول الله جلّ وعزّ : « وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ »[1] قال : لا تلبس ثيابك على غَدْر ، وتمثّل بقول غَيْلان الثقفيّ :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر * لبستُ ولا من سَوْءة أتقنع[2]

وسأل رجل عكرمة عن الزَّنيم قال : هو ولد الزّنى ، وتمثّل ببيت شعر :

زَنيم ليس يُعرف من أبوه * بَغِيّ الأمّ ذو حَسَبٍ لئيم

وعنه أيضا الزنيم : الدعيّ الفاحش اللئيم ، ثم قال :

زَنيم تداعاه الرجال زيادةً * كما زِيد فى عَرْض الأديم الأكارِعُ[3]

وعنه فى قوله تعالى : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ »[4] قال : ذواتا ظِلّ وأغصان ؛ ألم تسمع إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هَديل حمامةٍ * تدعو على فَنَنِ الغصون حماما

تدعو أبا فرخينِ صادف طائرا * ذا مِخْلبين من الصقور قطاما

وعن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ »[5] قال : الأرض ؛ قاله ابن عباس . وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت[6] : « عندهم لحم بحر ولحم ساهرة » . قال ابن الأنبارىّ : والرواة يروون هذا البيت :

وفيها لحم ساهِرةٍ وبَحْرٍ * وما فاهُوا به لهُم مُقيم

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله جلّ وعزّ : « لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ » ما السِّنَة ؟ قال : النُّعاس ؛ قال زُهير بن أبى سُلْمَى :

لا سِنَةٌ فى طَوالِ الليل تأخذه * ولا ينام ولا فى أمره فَنَدُ[7]

---

(١) آية ٤ سورة المدثر . (٢) أورد المؤلف فى تفسير سورة المدثر جـ ١٩ ص ٦٢ هذا البيت برواية أخرى هكذا :

فانى بحمد الله لا ثوب فاجر * لبست ولا من غدرة أتقنع

(٣) كذا فى اللسان والكامل للبرد . وفى الأصول : « أكارعه » . (٤) آية ٤٨ سورة الرحمن .

(٥) آية ١٤ سورة النازعات . (٦) كذا فى الأصول ، ولعل ابن عباس يريد ما تضمنه البيت الذى قاله أمية والذى ذكره ابن الأنبارى فيما يلى ، وسيأتى للمصنف فى تفسير سورة النازعات جـ ١٩ ص ١٩٧ هذا البيت .

(٧) الفند (بالتحريك) : ضعف الرأى من الكبر ، وقد يستعمل فى غير الكبر .

باب ما جاء فى فضل تفسير القرآن وأهله

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وأما ما جاء فى فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم ؛ فقال له رجل : جُعلت فداءك ! تصف جابرًا بالعلم وأنت أنت ! فقال : إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ »(١) . وقال مجاهد : أحَبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل . وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها . وقال الشعبىّ : رَحَل مسروق إلى البصرة فى تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشأم ؛ فتجهّز ورَحَل إلى الشأم حتى علم تفسيرها . وقال عكرمة فى قوله عز وجل : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ »(٢) طَلبتُ اسم هذا الرجل [الذى خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله(٣)] أربع عشرة سنة حتى وجدته . وقال ابن عبد البر : هو ضمرة بن حبيب ، وسيأتى . وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللَّتَيْن تظاهرتا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ما يمنعنى إلا مهابته ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة . وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كَمَثَل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما فى الكتاب ؛ ومَثَل الذى يعرف التفسير كَمَثل رجل جاءهم بمصباح فقرءوا ما فى الكتاب .

باب ما جاء فى حامل القرآن ومن هو ، وفيمن عاداه

قال أبو عمر : روى من وجوه فيها لِين عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تعظيم جلال الله إكرام ثلاثة : الإمام المُقْسط وذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه ولا الجافى عنه " . وقال أبو عمر : وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه ، وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه . وروى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " القرآن أفضل من كل شىء فمن وَقّر القرآن فقد وقّر الله ومن استخف بالقرآن استخف بحق الله تعالى حملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله المعظمون كلام الله الملبسون نور الله فمَن والاهم فقد والى الله ومن عاداهم فقد استخفّ بحق الله تعالى " .

(١) آية ٨٥ سورة القصص . (٢) آية ١٠٠ سورة النساء . (٣) الزيادة من تفسير قطب الدين الشيرازى .

باب ما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعظيم القرآن وحرمته

قال الترمذي الحكيم أبو عبدالله فى نوادر الأصول: «فمن حُرمة القرآن ألا يمسّه إلا طاهرا. ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة. ومن حرمته أن يستاك و يتخلل فيطيب فاه، إذ هو طريقه. — قال يزيد بن أبى مالك: إن أفواهكم طُرُقٌ من طرق القرآن، فطهّروها ونظّفوها ما آستطعتم. — ومن حرمته أن يتلبّس[1] كما يتلبس للدخول على الأمير لأنه مناج. ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته. — وكان أبو العالية إذا قرأ آعتم ولبس وآرتدى وآستقبل القبلة. — ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع[2]. روى شعبة عن أبى حمزة عن آبن عباس: أنه كان يكون بين يديه تَور[3] إذا تنخع مضمض، ثم أخذ فى الذكر، وكان كلما تنخع مضمض. ومن حرمته إذا تثاءب أن يمسك عن القراءة لأنه إذا قرأ فهو مخاطب ربه ومناج، والتثاؤب من الشيطان. — قال مجاهد: إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك. وقاله عكرمة. يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن — . ومن حرمته أن يستعيذ بالله عند آبتدائه للقراءة من الشيطان الرجيم، و يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إن كان آبتدأ قراءته من أوّل السورة أو من حيث بلغ. ومن حرمته إذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة. ومن حرمته أن يخلو بقراءته حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه؛ لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الآستعاذة الذى آستعاذ فى البدء. ومن حرمته أن يقرأه على تُؤَدة وترسيل وترتيل. ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به. ومن حرمته أن يقف على آية الوعد فيرغب إلى الله تعالى و يسأله من فضله، وأن يقف على آية الوعيد فيستجير بالله منه. ومن حرمته أن يقف على أمثاله فيمتثلها. ومن حرمته أن يلتمس غرائبه[4]. ومن حرمته أن يؤدّى لكل حرف حقه من الأداء حتى يبرز الكلام باللفظ تماما، فإن له بكل حرف عشر حسنات. ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدّق ربه، و يشهد بالبلاغ

(١) يقال: تلبس بالثوب بمعنى لبسه. (٢) تنخع كتنخم وزنا ومعنى. (٣) التور: إناء يشرب فيه.
(٤) فى نوادر الأصول: «إعرابه». وكلاهما مروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه" رواه الحاكم والبيهقى.

لرسوله صلى الله عليه وسلم، ويشهد على ذلك أنه حق، فيقول: صدقتَ ربَّنا وبلّغتَ رسلُك، ونحن على ذلك من الشاهدين؛ اللهم اجعلنا من شهداء الحق، القائمين بالقسط؛ ثم يدعو بدعوات. ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأها؛ فإنه روى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا؛ فأمره أن يقرأ السورة كلها أو كما قال عليه السلام. ومن حرمته إذا وضع المصحف ألا يتركه منشورا، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدًا عاليًا لسائر الكتب، علمًا كان أو غيره. ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه أو على شىء بين يديه ولا يضعه بالأرض. ومن حرمته ألا يمحوه من اللوح بالبصاق ولكن يغسله بالماء. ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقّى النجاسات من المواضع، والمواقع التى تُوطأ، فإن لتلك الغسالة حرمة، وكان مَن قبلنا من السلف منهم من يستشفى بغسالته. ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب؛ فإن ذلك جفاء عظيم، ولكن يمحوها بالماء. ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف مرّة؛ وكان أبو موسى يقول: إنى لأستحيي ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرّة. ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه، فإن العين تؤدّى إلى النفس، وبين النفس والصّدر حجاب، والقرآن فى الصدر؛ فإذا قرأه عن ظهر قلب فإنما يسمع أذنه فتؤدّى إلى النفس، فإذا نظر فى الخط كانت العين والأذن قد اشتركا فى الأداء وذلك أوفر للأداء؛ وكان قد أخذت العين حظها كالأذن. روى زيد ابن أسلم عن عطاء بن يَسار عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أعطوا أعينكم حظّها من العبادة" قالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: "النظر فى المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه". وروى مكحول عن عُبَادة بن الصامت قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظرًا". ومن حرمته ألا يتأوّله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا. — حدّثنا عمرو بن زياد الحنظلىّ قال حدّثنا هشيم بن بشير عن المغيرة عن إبراهيم قال: كان يكره أن يتأوّل شىء من القرآن عند ما يعرض له شىء من أمر الدنيا، — والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك: جئتَ على قَدَرٍ

يا موسى ؛ ومثل قوله تعالى : « كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ »(١) هذا عند حضور الطعام وأشباه هذا. ومن حرمته ألا يقال : سورة كذا ؛ كقولك : سورة النحل وسورة البقرة وسورة النساء، ولكن يقال : السورة التى يُذكر فيها كذا . —

قلت : هذا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم : "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه" خرّجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود. — ومن حرمته ألا يُتلَى منكوسًا كفعل معلمى الصبيان، يلتمس أحدهم بذلك أن يُرِىَ الحذق من نفسه والمهارة، فإن تلك مخالفة. ومن حرمته ألا يُقعِّر فى قراءته كفعل هؤلاء الهمزيين المبتدعين المتنطعين فى إبراز الكلام من تلك الأفواه المنتنة تكلُّفا ، فإن ذلك محدَث ألقاه إليهم الشيطان فقبلوه عنه. ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء كلحون أهل الفسق، ولا بترجيع النصارى ولا نوح الرهبانية، فإن ذلك كله زيغ وقد تقدم. ومن حرمته أن يُحلّل تخطيطه إذا خطه. وعن أبى حُكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة، فمرّ علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته فقال له : أجِلّ قلمك ؛ فأخذت القلم فقططته من طرفه قَطًّا، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى، فقال : هكذا، نوّره كما نوره الله عزّ وجلّ . ومن حرمته ألا يجهر بعض على بعض فى القراءة فيفسد عليه حتى يبغّض إليه ما يسمع ويكون كهيئة المغالبة . ومن حرمته ألّا يُمارِى ولا يجادل فيه فى القراءات، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ؛ فيكون قد جحد كتاب الله. ومن حرمته ألّا يقرأ فى الأسواق ولا فى مواطن اللغط واللّغو ومجمع السفهاء ؛ ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مرُّوا باللّغو مرّوا كراما، هذا لمروره بنفسه، فكيف إذا مرّ بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء . ومن حرمته ألّا يتوسد المصحف ولا يعتمد عليه، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله . ومن حرمته ألا يصغر المصحف ؛ روى الأعمش عن إبراهيم عن علىّ رضى الله عنه قال : لا يصغّر المصحف .

قلت : وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا ؛ فضربه بالدِّرّة، وقال : عظّموا القرآن . وروى عن رسول

(١) آية ٢٤ سورة الحاقة .

الله صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يقال : مُسَيْجِد أو مُصَيْحف . — ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه . ومن حرمته ألا يحلى بالذهب ولا يكتب بالذهب فتخلط به زينة الدنيا ؛ وروى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلّى المصحف أو يكتب بالذهب أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغّر . وعن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدبار(١) عليكم". وقال ابن عباس وقد رأى مصحفا زُيّن بفضة : تُغرون به السارق وزينته فى جوفه . ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ولا على حائط كما يفعل به فى المساجد المحدثة . حدّثنا محمد بن على الشقيقىّ عن أبيه عن عبد الله بن المبارك عن سفيان عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يحدّث قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب فى أرض، فقال لشاب من هُذَيل : "ما هذا" قال : من كتاب الله كتبه يهودىّ ؛ فقال : "لعن الله من فعل هذا لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه" . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط فضربه . ومن حرمته أنه إذا اغتسل بكتابته مستشفيًا من سَقم ألا يصبّه على كُنَاسة ، ولا فى موضع نجاسة، ولا على موضع يُوطأ ، ولكن ناحية من الأرض فى بُقعة لا يطؤه الناس ، أو يحفر حفيرة فى موضع طاهر حتى ينصب من جسده فى تلك الحفيرة ثم يكبسها ، أو فى نهر كبير يختلط بمائه فيجرى . ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم يقرأ من أوّل القرآن قدر خمس آيات ؛ لئلا يكون فى هيئة المهجور . وروى ابن عباس قال جاء رجل فقال: يا رسول الله، أىّ العمل أفضل؟ قال : "عليك بالحالّ المرتحل" قال : وما الحالّ المرتحل؟ قال : "صاحب القرآن يضرب من أوّله حتى يبلغ آخره ثم يضرب فى أوّله كلما حلّ ارتحل" . —

قلت : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله . ذكر أبو بكر الأنبارى أنبأنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا وكيع عن مِسْعَر عن قتادة : أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع

(١) الدبار : الهلاك . وفى نوادر الأصول : « فالدمار » بالميم بدل الباء الموحدة .

أهله ودعا . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا جرير عن منصور عن الحكم قال : كان مجاهد وعَبْدة بن أبي لُبَابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا وجّهوا إلينا : أحضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن . وأخبرنا إدريس حدّثنا خلف حدّثنا هشيم عن العوّام عن إبراهيم التّيمي قال : من ختم القرآن أوّل النهار صلّت عليه الملائكة حتى يُمسي ، ومن ختم أوّل الليل صلّت عليه الملائكة حتى يُصبح ؛ قال : فكانوا يستحبّون أن يختموا أوّلَ الليل وأوّلَ النهار . — ومن حرمته ألا يكتب التعاويذ منه ثم يدخل به في الخلاء ، إلا أن يكون في غلاف من أَدَم أو فضة أو غيره ؛ فيكون كأنه في صدرك . ومن حرمته إذا كتبه وشربه سَمّى الله على كل نَفَس وعَظّم النية فيه فإن الله يؤتيه على قدر نيّته . روى لَيْث عن مجاهد قال : لا بأس أن تكتب القرآن ثم تسقيه المريض . وعن أبي جعفر قال : من وجد في قلبه قساوةً فليكتب « يس » في جام بزعفران ثم يشربه .

قلت : ومن حرمته ألّا يقال : سورة صغيرة . وكَره أبو العالية أن يقال : سورة صغيرة أو كبيرة ؛ وقال لمن سمعه قالها : أنت أصغر منها ؛ وأما القرآن فكله عظيم ؛ ذكره مكّي رحمه الله .

قلت : وقد روى أبو داود ما يعارض هذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنه قال : مامِن المفصّل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤمّ بها الناس في الصلاة .

باب ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي ، والجرأة على ذلك ، ومراتب المفسرين

روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّر من كتاب الله إلا آيًا بعددٍ ، علّمه إياهنّ جبريل . قال ابن عطية : ومعنى هذا الحديث في مُغيّبات القرآن ، وتفسير مجمله ونحو هذا ، مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى ؛ ومن جملة مغيّباته مالم يُعْلِم الله به ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد

النَّفَخات فى الصُّور ، وكرتبة خلق السموات والأرض . روى الترمذىّ عن ابن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قال : "اتّقوا الحديث علىّ إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار" . وروى أيضا عن جُنْدب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". قال : هذا حديث غريب . وأخرجه أبو داود، وتُكُلِّم فى أحد رواته[1] . وزاد رَزِين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر . قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارىّ النحوى اللغوى فى كتاب الرّد: فُسِّر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما — من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرّض لسخط الله . والجواب الآخر — وهو أثبت القولين وأصحهما معنًى — : من قال فى القرآن قولًا يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار . ومعنى يتبوّأ : ينزل ويحل؛ قال الشاعر :

وبُوِّئْتُ فى صَمِيم مَعْشَرِها * فسَمَّ فى قَوْمِها مُبَوَّؤُها[2]

وقال فى حديث جُنْدب : فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنىّ به الهوى؛ من قال فى القرآن قولا يوافق هواه ، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه . وقال ابن عطية : « ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنًى فى كتاب الله عز وجل فيتسوّر[3] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول ؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبنىّ على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرّد رأيه » .

---

(١) قوله : أحد رواته . هو سهيل بن أبى حزم واسمه مهران ، ويقال : عبد الله .

(٢) جاء فى لسان العرب مادّة بوّأ تفسيرا لهذا البيت : « أى نزلت من الكرم فى صميم النسب » .

(٣) قوله : فيتسوّر عليه . تسوّر الحائط : هجم مثل اللص . ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا تدبر .

قلت : هذا صحيح وهو الذى آختاره غير واحد من العلماء ، فإن من قال فيه بما سنح فى وَهْمه وخطر على باله من غير آستدلال عليه بالأصول فهو مخطئ ، و إن من آستنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح .

وقال بعض العلماء : إن التفسير موقوف على السماع ؛ لقوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ »(١) . وهذا فاسد ؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الآقتصار على النقل والمسموع وترك الآستنباط ، أو المراد به أمرا آخر . و باطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه ؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرءوا القرآن وآختلفوا فى تفسيره على وجوه ، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا لآبن عباس وقال : " اللَّهُمَّ فَقِّهه فى الدِّينِ وعَلِّمه التأويل " . فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك ! وهذا بيّن لا إشكال فيه ؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « النساء » إن شاء الله تعالى . وإنما النهى يحمل على أحد وجهين :

أحدهما — أن يكون له فى الشىء رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه ؛ فيتأوّل القرآن على وَفْق رأيه وهواه ، ليحتجّ على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن مقصوده أن يُلَبِّس على خصمه ؛ وتارة يكون مع الجهل ، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ، و يرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ، فيكون قد فسّر برأيه ، أى رأيه حَمَله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن و يستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ، لكن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى : « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »(٢) و يشير إلى قلبه ، و يومئ إلى أنه المراد بفرعون ؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع ، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة ، وذلك غير جائز . وقد تستعمله

(١) آية ٥٩ سورة النساء . (٢) آية ٢٤ سورة طه .

الباطنيـة فى المقاصد الفاسـدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزّلون القرآن على وَفْق رأيهـم ومذهبهم على أمورٍ يعلمون قطعاً أنهـا غير مرادة . فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى .

الوجه الثانى — أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير آستظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة[1] ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير و بادر إلى آستنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زُمْرة من فسر القرآن بالرأى ؛ والنقلُ والسماع لا بُدّ له منـه فى ظاهر التفسير أوّلا ليتّقى به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والآستنباط . والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع فى الوصـول إلى الباطن قبـل إحكام الظاهر ؛ ألا ترى أن قوله تعـالى : « وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا[2] » معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدرى بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرّق النهى إليه . والله أعلم .

قال آبن عطية : « وكان جِلّةٌ من السلف الصالح كسعيد بن المسيّب وعامر الشعبىّ وغيرهمـا يعظّمون تفسير القرآن و يتوقّفون عنـه تورّعا وآحتياطا لأنفسهم مـع إدراكهم وتقدّمهم » . قال أبو بكر الأنبارىّ : وقد كان الأئمـة من السلف المـاضى يتورّعون عن تفسير المُشْكِل من القرآن ؛ فبعضٌ يقدّر أن الذى يفسره لا يوافق مراد الله عز وجل فيُحْجِم عن القول . و بعضٌ يُشْفق من أن يجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه و يقتفى طريقه . فلعلّ متأخّرا أن يفسر حرفاً برأيه و يخطئ فيـه و يقول : إمامى فى تفسير القـرآن بالرأى فلان الإمام من السلف . وعن آبن أبى مليكة قال : سـئل أبو بكر الصـديق رضى الله عنـه عن تفسير حرف من القرآن فقال : أىّ سماء تُظلّنى ، وأىّ أرض تُقِلّنى ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

(١) هكذا فى كل النسخ التى بأيدينا . (٢) آية ٥٩ سورة الإسراء .

قال ابن عطية «وكان جِلّةٌ من السلف كثير عددهم يفسّرون القرآن وهم أبقوا[1] على المسلمين في ذلك رضى الله عنهم؛ فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلىّ بن أبي طالب رضى الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جُبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علىّ». وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبي طالب. وكان علىّ رضى الله عنه يثنى على تفسير ابن عباس ويحضّ على الأخذ عنه، وكان ابن عباس يقول: نِعْم تَرْجُمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه علىّ رضى الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق. ويتلوه عبد الله ابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. وكل ما أخذ عن الصحابة فحَسَن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم. وعن عامر بن واثلة قال: شهدت علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه يخطب فسمعته يقول في خطبته: سلونى، فوالله لا تسألونى عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلّا حدّثتكم به، سلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبِليل نزلتْ أم بنهار، أم في سهل نزلتْ أم في جبل؛ فقام إليه ابن الكوّاء[2] فقال: يا أمير المؤمنين، ما الذاريات ذَرْوًا؟ وذكر الحديث. وعن المِنْهال بن عمرو قال قال عبد الله ابن مسعود: لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلُغه المَطِىُّ لأتيته؛ فقال له رجل: أما لقيت علىّ بن أبي طالب؟ فقال: بلى، قد لقيته. وعن مسروق قال: وجدت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مِثْل الإخاذ يُرْوِى الواحد والإخاذ يُرْوِى الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصْدرهم، وإن عبد الله بن مسعود من تلك الآخاذ[3]. ذكر هذه المناقب أبو بكر الأنبارىّ في كتاب الرّد، وقال: الإخاذ عند العرب: الموضع الذى يحبس الماء كالغدير. قال أبو بكر: حدّثنا أحمد بن الهيثم بن خالد حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدّثنا سلام عن

---

(١) من قولهم: أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته.

(٢) اسمه عبد الله بن أبي أو في اليشكرى كما في تاريخ الطبرى في عدّة مواضع.

(٣) قوله: من تلك الآخاذ. يعنى أن فيهم الصغير والكبير، والعالم والأعلم.

زيد العَمِّى[1] عن أبى الصدّيق الناجى عن أبى سعيد الخُدْرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "أرحم أمتى بها أبو بكر وأقواهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علىّ وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزّ وجلّ أُبَىّ بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جَبَل وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح وأبو هريرة وِعَاءٌ من العلم وسَلْمانُ بَحْرٌ من علم لا يُدْرَك وما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء — أو قال البطحاء — من ذى لهجة أصدق من أبى ذَرّ" .

قال ابن عطية : «ومن المبرّزين فى التابعين الحسن البصرىّ ومجاهد وسعيد بن جُبير وعلقمة . قرأ مجاهد على ابن عباس قراءةَ تَفَهّم ووقوف عند كل آية ، ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس ، وإنما أخذ عن ابن جبير ، وأما السُّدّىّ فكان عامر الشَّعْبِىّ يطعن عليه وعلى أبى صالح ، لأنه كان يراهما مقصّرين فى النظر» .

قلت : وقال يحيى بن مَعين : الكلبىّ ليس بشىء . وعن يحيى بن سعيد القَطّان عن سفيان قال قال الكلبى قال أبو صالح : كل ما حدّثتك كذب . وقال حبيب بن أبى ثابت : كنا نسميه الدَّرَوْغ زَنْ[2] — يعنى أبا صالح مولى أم هانئ — والدروغ زن : هو الكذاب بلغة الفُرْس . ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين" . خرّجه أبو عمر وغيره . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علىّ البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدِّين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف ، والانتحال للباطل ، وردّ تأويل الأبله الجاهل ، وأنه يجب الرجوع إليهم ، والمعوّل فى أمر الدِّين عليهم ، رضى الله عنهم .

(١) جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمى زيدا العمى لأنه كان ينادى من رآه بياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشىء يقول : حتى أسأل عمى . (٢) اسمه باذام ، وقيل : باذان ، بمعجمة بين ألفين . يروى عن على وابن عباس ومولاته أم هانئ ؛ كما فى تهذيب التهذيب .

قال ابن عطية : « وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضّل وعليّ بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم . ثم إن محمد بن جرير — رحمه الله — جمع على الناس أشتات التفسير ، وقرّب البعيد منها وشفى في الإسناد . ومن المبرّزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو عليّ الفارسيّ ؛ وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيرا ما أستدرك الناس عليهما . وعلى سَنَنِهما مكيّ بن أبي طالب رضي الله عنه . وأبو العباس المهدويّ متقن التأليف ، وكلهم مجتهد مأجور رحمهم الله ، ونَضّر وجوههم » .

باب تبيين الكتاب بالسنة ، وما جاء في ذلك

قال الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (١) » . وقال تعالى : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢) » . وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣) » وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عز وجل ، وقال تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٤) » . ذكر ابن عبد البر في كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى مُحْرِمًا عليه ثيابه فنهى المحرم ؛ فقال : إيتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي ؛ قال : فقرأ عليه « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » . وعن هشام بن حُجَير قال : كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : أتركهما ؛ فقال : إنما نهى عنهما أن تُتّخذا سنة ؛ فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدري أتُعَذَّب عليهما أم تُؤجر ، لأن الله تعالى قال : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (٥) » . وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه

(١) آية ٤٤ سورة النحل . (٢) آية ٦٣ سورة النور . (٣) آية ٥٢ سورة الشورى .
(٤) آية ٧ سورة الحشر . (٥) آية ٣٦ سورة الأحزاب .

ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه " .

قال الخطابى : قوله "أوتيت الكتاب ومثله معه" يحتمل وجهين من التأويل : أحدهما — أن معناه أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو . والثانى — أنه أوتى الكتاب وَحْيًا يُتْلَى ، وأوتى من البيان مثله ، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ؛ فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . وقوله : " يوشك رجل شبعان " الحديث . يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض ، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب ؛ قال : فتحيّروا وضلّوا ؛ قال والأريكة : السرير ، ويقال : إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلة[1] ، قال : وإنما أراد بالأريكة أصحاب الترفّه والدَّعَة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه . وقوله : " إلا أن يستغنى عنها صاحبها " معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها ؛ كقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ »[2] معناه تركهم الله استغناء عنهم . وقوله : " فله أن يعقبهم بمثل قراه " هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه ، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حَرَموه من قِراه . و"يعقبهم" يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة ، ومنه قوله تعالى : « وإن عاقَبْتُمْ »[3] أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم ، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه . قال : وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه ؛ قال : فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه » فإنه حديث باطل لا أصل له .

ثم البيان منه صلى الله عليه وسلم على ضربين : بيان لمجمل فى الكتاب ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى

(١) الحجلة : مثل القبة . (٢) آية ٦ سورة التغابن . (٣) آية ١٢٦ سورة النحل .

تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال صلى الله عليه وسلم إذ حج بالناس : "خذوا عنى مناسككم" . وقال : "صلّوا كما رأيتمونى أصلّى" . أخرجه البخارى . وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل : إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهْر فى كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله مفسرا! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وإن السُّنة تفسّر هذا .

وروى الأوزاعىّ عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك . وروى سعيد بن منصور : حدّثنا عيسى ابن يونس عن الأوزاعىّ عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن . وبه عن الأوزاعىّ قال قال يحيى بن أبى كثير : السنة قاضية على الكتاب ، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة . قال الفضل بن زياد : سمعت أبا عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — وسئل عن هذا الحديث الذى روى أن السُّنة قاضية على الكتاب فقال : ما أجْسُر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول : إن السنة تفسّر الكتاب وتبينه .

وبيان آخر وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

باب كيفية التعلّم والفقه لكتاب الله تعالى، وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وما جاء أنه سُهّل على من تقدّم العمل به دون حفظه

ذكر أبو عمرو الدّانى فى كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبَىّ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل ، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا . وذكر عبد الرزاق عن معمر عن عطاء ابن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمىّ قال : كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلّم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها . وفى موطإ مالك : أنه بلغه أن عبد الله

آبن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلّمها . وذكر أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى[1] « أسماء من روى عن مالك » : عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال : حدّثنا مالك عن نافع عن آبن عمر قال : تعلّم عمر البقرة فى آثنتى عشرة سنة، فلما ختمها نَحَر جزورا . وذكر أبو بكر الأنبارىّ : حدّثنى محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد بن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إنا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإن من بَعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به .

حدّثنا إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا الفضل بن دُكين حدّثنا إسماعيل آبن إبراهيم بن المهاجر عن أبيه عن مجاهد عن آبن عمر قال : كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورُزقوا العمل بالقرآن؛ وإن آخر هذه الأمة يقرءون القرآن منهم الصبى والأعمى ولا يُرزقون العمل به . حدّثنى حسن بن عبد الوهاب أبو محمد بن أبى العنبر حدّثنا أبو بكر بن حماد المقرئ قال : سمعت خلف بن هشام البزار يقول : ما أظن القرآن إلا عارية فى أيدينا، وذلك إنا رَوَيْنا أن عمر بن الخطاب حفظ البقرة فى بضع عشرة سنة، فلما حفظها نَحَر جزورا شكرًا لله، وإن الغلام فى دهرنا هذا يجلس بين يدىّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا، فما أحسب القرآن إلا عارية فى أيدينا . وقال أهل العلم بالحديث : لا ينبغى لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكَتْبه، دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وليكن تحفّظه للحديث على التدريج قليلا قليلا مع الليالى والأيام . وممن ورد عنه ذلك من حفاظ الحديث شعبة وآبن عُيَيْنة ومَعْمر، قال معمر : سمعت الزُّهرىّ يقول : من طلب العلم جُمْلَةً فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثا وحديثين، والله أعلم . وقال معاذ بن جبل : آعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا . وقال آبن عبد البر : وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم

(١) فى الأصول : « المسمى فى ذكر أسماء ... الخ » .

مثل قول معاذ من رواية عبّاد بن عبد الصمد، وفيه زيادة : أن العلماء همّتهم الدراية ، وأن السفهاء همّتهم الرواية . وروى موقوفا وهو أولى من رواية من رواه مرفوعا؛ وعباد بن عبد الصمد ليس ممن يُحتج به . ولقد أحسن القائل فى نظمه فى فضل العلم وشرف الكتاب العزيز والسُّنّة الغرّاء :

إن العلوم وإن جلّت محاسنها * فتاجُها ما به الإيمان قد وَجَبَا
هو الكتاب العزيز الله يحفظه * وبعد ذلك علْم فرّج الكُرَبَا
فذاك فاعلم حديث المصطفى فبه * نور النبوّة سنّ الشرع والأدبا
وبعد هذا علوم لا انتهاء لها * فاختر لنفسك يا من آثر الطلبا
والعلم كنز تجده فى معادنه * يأيها الطالب ابحث وانظر الكتبا
وائتل بفهم كتاب الله فيه أتت * كلّ العلوم تدبّره تر العجبا
واقرأ حديث حديث المصطفى وسَلَنْ * مولاك ما تشتهى يقضى لك الأربا
من ذاق طعماً لعلم الدين سُرّ به * إذا تزيّد منه قال واطربا

باب معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسّر منه"

روى مسلم عن أُبَىّ بن كعب : أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة(١) بنى غفار ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمّتُك القرآن على حَرْف؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تُطيق ذلك" . ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ؛ فقال : "أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك" . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك

(١) الأضاة (كحصاة) : غدير صغير . وقيل : هو مسيل الماء إلى الغدير وهو موضع قريب من مكة فوق سرف . وغفار : قبيلة من كنانة .

أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيّما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا . وروى الترمذى عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال : " ياجبريل إنى بُعثت إلى أمة أُمّيّة منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قطّ فقال لى يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف " . قال هذا : حديث صحيح . وثبت فى الأمهات : البخارى ومسلم والموطإ وأبى داود والنسائى وغيرها من المصنّفات والمسندات قصة عمر مع هشام بن حكيم ، وسيأتى بكماله فى آخر الباب مبينا إن شاء الله تعالى .

وقد اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولا ذكرها أبو حاتم محمد بن حِبّان البُستىّ ، نذكر منها فى هذا الكتاب خمسة أقوال :

الأول — وهو الذى عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عُيَيْنة وعبد الله بن وهب والطبرى والطحاوى وغيرهم : أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتقاربة بألفاظ مختلفة ، نحو أقْبِل وتعال وهَلُمّ . قال الطحاوىّ : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ إلى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكُلٌّ شافٍ كاف إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، على نحو هَلُمَّ وتعالَ وأقبِل واذهب وأسرع وعَجِّل . وروى ورقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبَىّ بن كعب أنه كان يقرأ « لِلَّذين آمَنُوا انْظُرُونا »(١) : للذين آمنوا أمهلونا ، للذين آمنو أخّرونا ، للذين آمنوا ارقبونا . وبهذا الإسناد عن أُبَىّ أنه كان يقرأ « كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ »(٢) : مرّوا فيه ، سَعَوْا فيه . وفى البخارىّ ومسلم قال الزهرى : إنما هذه الأحرف فى الأمر الواحد ليس يختلف فى حلال ولا حرام .

قال الطحاوى : إنما كانت السَّعة للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أُمّيين لا يكتب إلا القليل منهم ، فلما كان يشق على كل ذى لغة أن يتحوّل إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، فوُسِّع لهم

(١) آية ١٣ سورة الحديد . (٢) آية ٢٠ سورة البقرة .

فى آختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقا، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على تحفُّظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها . قال آبن عبد البر : فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان فى وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم آرتفعت تلك الضرورة فآرتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد .

روى أبو داود عن أُبَيّ قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أُبَيّ إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين فقال المَلَك الذى معى قل على حرفين فقيل لى على حرفين أو ثلاثة فقال المَلَك الذى معى قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شافٍ كافٍ إن قلت سميعا عليما عزيزا حكيما ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب " . وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كلام آبن مسعود نحوه . قال القاضى آبن الطيب[1] : وإذا ثبتت هذه الرواية — يريد حديث أُبَيّ — حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نُسخ، فلا يجوز للناس أن يبدّلوا آسما لله تعالى فى موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف .

القول الثانى — قال قوم : هى سبع لغات فى القرآن على لغات العرب كلها، يَمَنها ونِزارها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهل شيئا منها، وكان قد أوتى جوامع الكَلِم، وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبعة أوجه ، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن، فبعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هُذيل ، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن . قال الخطابى : على أن فى القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه ، وهو قوله : « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ »[2] . وقوله : « أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ »[3] وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله . وإلى هذا القول — بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات — ذهب أبو عبيد القاسم بن سلّام وآختاره آبن عطية . قال أبو عبيد : وبعض الأحياء

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاضى أبو بكر الباقلانى .
(٢) آية ٦٠ سورة المائدة . (٣) آية ١٢ سورة يوسف .

أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض، وذكر حديث ابن شهاب عن أنس أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف : ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم . ذكره البخارى وذكر حديث ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكَعْبَيْن ؛ كعب قريش وكعب خُزاعة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن الدار واحدة . قال أبو عبيد : يعنى أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم .

قال القاضى ابن الطيب رضى الله عنه : معنى قول عثمان فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، إذ فيه كلمات وحروف هى خلاف لغة قريش ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »(١) ولم يقل قرشيًّا ؛ وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب ، وليس لأحد أن يقول : إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عَدْنان دون قَحْطان، أو ربيعة دون مُضَر ؛ لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا .

وقال ابن عبد البر : قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ؛ لأن غير لغة قريش موجودة فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز . وقال ابن عطية : معنى قول النبىّ صلى الله عليه وسلم " أنزل القرآن على سبعة أحرف " أى فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبّر عن المعنى فيه مرّة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هُذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ ، ألا ترى أن « فطر » معناه عند غير قريش : ابتدأ [خلق الشىء وعمله](٢) فجاءت فى القرآن فلم تَتَّجِه لابن عباس؛ حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فَطَرْتُها؛ قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موضع قوله تعالى «فَاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ» . وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وبَيْنَ قَوْمِنا بالحَقِّ »(٣) حتى سمعت بنت ذى يَزَن تقول لزوجها : تعالَ أفاتِحْكَ؛ أى أحاكمك . وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »(٤) أى على تنقص لهم . وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ

(١) آية ٣ سورة الزخرف . (٢) زيادة عن ابن عطية . (٣) آية ٨٩ سورة الأعراف .
(٤) آية ٤٧ سورة النحل .

سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة : « والنَّخْلَ باسِقاتٍ »[1] ذكره مسلم فى باب (القراءة فى صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة .

القول الثالث : أن هذه اللغات السبع إنما تكون فى مُضَر، قاله قوم، واحتجوا بقول عثمان : نزل القرآن بلغة مُضَر، وقالوا : جائز أن يكون منها لقريش ، ومنها لكِنانة ، ومنها لأسد، ومنها لهُذَيل، ومنها لتَيْم ، ومنها لضَبّة، ومنها لقَيْس ؛ قالوا: هذه قبائل مُضَر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب ؛ وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر . وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا : فى مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها ، مثل كَشْكَشَة قَيْس وتَمْتَمة تميم ؛ فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا ، فيقولون فى « جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا »[2] : جعل رَبُّش تحتش سريًّا ؛ وأما تمتمة تميم فيقولون فى الناس : النات، وفى أكياس : أكيات . قالوا : وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء .

وقال آخرون : أما إبدال الهمزة عينا وإبدال حروف الحَلْق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء ، وقد قرأ به الجِلّة ، واحتجوا بقراءة ابن مسعود : لَيَسْجُنُنّه عتى حين ؛ ذكرها أبو داود؛ وبقول ذى الرُّمّة :

فعيناكِ عيناها وجِيدُكِ جِيدُها * ولَوْنُكِ إلا عَنَهَا غيرُ طائِلِ

يريد إلا أنها .

القول الرابع : ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعاً : منها ما تتغيّر حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل : « هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » وأَطْهَرَ، « ويَضِيقُ صَدْرِى » ويضيق . ومنها ما لا تتغيّر صورته ويتغيّر معناه بالإعراب، مثل: « رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » وباعد . ومنها ما تبقى صورته ويتغيّر معناه باختلاف الحروف ، مثل قوله : « نُنْشِزُهَا » وننشرها . ومنها ما تتغيّر صورته ويبقى معناه : « كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » وكالصوف المنفوش .

(١) آية ١٠ سورة ق . (٢) آية ٢٤ سورة مريم .

ومنها ما تتغير صورته ومعناه ، مثـل : « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » وطلع منضود . ومنهـا بالتقديم والتأخير كقوله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ » وجاءت [سكرة] الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان ، مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههنّ لهنّ غفور رحيم .

القول الخامس : أن المراد بالأحرف السبعة معانى كتاب الله تعـالى ، وهى أمرٌ ونهىٌ ووعد ووعيد وقَصَصٌ ومجادلة وأمثال . قال ابن عطية : وهذا ضعيف لأن هـذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شىء من المعانى . وذكر القاضى ابن الطيب فى هذا المعنى حديثا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ولكن ليست هذه هى التى أجاز لهم القراءة بها ، وإنما الحرف فى هذه بمعنى الجهة والطريقة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ »(١) فكذلك معنى هـذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك . وقد قيل : إن المراد بقوله عليه السلام " أنزل القرآن على سبعة أحرف " القراءات السبع التى قرأ بها القرّاء السبعة ؛ لأنها كلها صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس بشىء لظهور بطلانه على ما يأتى .

(فصـــل) قال كثير من علمائنا كالدّاوُدى وابن أبى صُفْرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القرّاء السـبعة ، ليست هى الأحرف السـبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها ، وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة ، وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف ، ذكره ابن النحاس وغيره . وهذه القراءات المشهورة هى اختيارات أولئك الأئمة القرّاء ، وذلك أن كل واحد منهـم اختار فيما رَوى وعلِم وجهـه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه ، وعُرف به ونُسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كَثير ؛ ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوّغه وجوّزه ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختياران أو أكثر ، وكلٌّ صحيح . وقد أجمع المسلمون فى هذه الأعصار على الاعتماد على ما صح عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا

(١) آية ١١ سورة الحج .

فى ذلك مصنفات ، فاستمرّ الإجماع على الصواب ، وحصل ماوعد الله به من حفظ الكتاب ، وعلى هذا الأئمة المتقدّمون والفضلاء المحققون كالقاضى أبى بكر بن الطيب والطبرى وغيرهما . قال ابن عطية : ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها يصلّى لأنها ثبتت بالإجماع ؛ وأما شاذّ القراءات فلا يصلّى به لأنه لم يجمع الناس عليه ، أما أن المروىّ منه عن الصحابة رضى الله عنهم وعن علماء التابعين فلا يعتقد فيه إلا أنهم رووه ، وأما مايؤثر عن أبى السمّال[1] ومن قاربه فإنه لا يوثق به . قال غيره : أما شاذ القراءة عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن ، ولا يُعمل بها على أنها منه ، وأحسنُ محاملها أن تكون بيانَ تأويل مذهب من نُسبت إليه كقراءة ابن مسعود : فصيام ثلاثة أيام متتابعات . فأما لو صَرّح الراوى بسماعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختلف العلماء فى العمل بذلك على قولين : النفى والإثبات ؛ وجه النفى أن الراوى لم يروه فى معرض الخبر بل فى معرض القرآن ، ولم يثبت فلا يثبت . والوجه الثانى أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا فقد ثبت كونه سنة ، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد .

فصل فى ذكر معنى حديث عمر وهشام . قال ابن عطية : أباح الله تعالى لنبيّه عليه السلام هذه الحروف السبعة ، وعارضه بها جبريل عليه السلام فى عرضاته على الوجه الذى فيه الإعجاز وجودة الرصف ، ولم تقع الإباحة فى قوله عليه السلام : " فاقرءوا ما تيسّر منه " بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدّل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ، وكان معرّضا أن يبدّل هذا وهذا حتى يكون غير الذى نزل من عند الله ، وإنما وقعت الإباحة فى الحروف السبعة للنبىّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته ، فأقرأ مَرّة لأُبَىّ بما عارضه به جبريل ، ومَرّة لابن مسعود بما عارضه به أيضا ؛ وعلى هذا تجىء قراءة عمر بن الخطاب لسورة « الفرقان » ، وقراءة

(١) أبو السمال (بفتح السين وتشديد الميم وباللام) : هو قعنب بن أبى قعنب العدوى البصرى ، له اختيار فى القراءات شاذ عن العامة . وقد ذكر فى الطبعة الأولى فى هذا الموضع وفى ص ٣٦٨ محرّفا ، والتصويب عن طبقات القرّاء .

هشام بن حَكيم لهـا ، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فى كل قراءة منهما وقد آختلفا : " هكذا أقرأنى جبريل " هل ذلك إلا أنه أقرأه مَرّة بهذه ومَرّة بهذه ، وعلى هذا يحمل قول أنس حين قرأ : « إنّ ناشِئَةَ اللّيلِ هى أشدّ وَطْأً وأصْوَب قِيلًا » فقيل له : إنما نقرأ « وأقوَمُ قِيلا » . فقال أنس : وأصْوَب قِيلًا، وأقْوَم قِيلًا وأهيأ، واحد؛ فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قوله تعالى : « إنّا نَحْنُ نَزّلْنَـا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُون[1] » . روى البخارىّ ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة « الفُرْقان » على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقْرأنيها ، فكِدت أن أَعْجَل عليه، ثم أمهلته حتى آنصرف ثم لَبّبته[2] بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله، إنى سمعت هذا يقرأ سورة «الفرقان» على غير ما أقرأتنيها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرْسِلْه[3] آقْرأ " فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هكذا أنزلت " ثم قال لى : " آقرأ " فقرأت فقال : " هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه " .

قلت : وفى معنى حديث عمر هـذا ، مارواه مسـلم عن أُبَىّ بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلّى، فقرأ قراءة أنكرتُها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سِوَى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ سِوَى قراءة صاحبه؛ فأمرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم فقرأا، فحَسّن النبيّ صلى الله عليـه وسلم شأنهما؛ فسُقِط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية ، فلما رأى النبيّ صلى الله عليـه وسلم ماقد غشيَنى ، ضرب فى صـدرى ففِضت عَرَقًا، وكأنما أنظر إلى الله تعالى فَرَقًا، فقال لى : "يا أُبَىّ أُرْسِلَ إلىّ أنِ آقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوّن على أمّتى فردّ إلىّ الثانيةَ آقرأه على حرفين فرددت إليه أن هوّن على أمّتى

(١) آية ٩ سورة الحجـر .
(٢) قوله : لببته بردائه . أى جمعت ثيابه عند صـدره ونحره ثم جررته .
(٣) أرسل الشىء : أطلقه .

فردّ إليّ الثالثة أقرأه على سبعة أحرف فلَكَ بكل رَدّة رَدَدْتُكَها مسألة تسألنيها فقلت اللّهمّ اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليومٍ يَرغبُ إليّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام " .

قول أُبَيّ رضى الله عنه : « فسقط فى نفسى » معناه اعترتنى حَيْرة ودهشة ؛ أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوّش عليه حاله ، ويكدّر عليه وقته ؛ فإنه عظّم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه ؛ و إلا فأىّ شىء يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ، ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النّسخ الذى هو أعظم ، فكيف بالقراءة !

ولمّا رأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما أصابه من ذلك الخاطر نبّهه بأن ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنوّر باطنه ، حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة ؛ ولما ظهر له قُبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى ، فكان هذا الخاطر من قبيل ما قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم — حين سألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلّم به — قال : " وقد وجدتموه " ؟ قالوا : نعم ، قال : " ذلك صريح الإيمان " . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وسيأتى الكلام عليه فى سورة « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

باب ذكرِ جمع القرآن ، وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقِه ما سواها ، وذِكرِ من حفظ القرآن من الصحابة رضى الله عنهم فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم

كان القرآن فى مدّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم متفرقًا فى صدور الرجال ، وقد كتب الناس منه فى صُحُف وفى جَريد وفى لِخاف وظُرَر وفى خَزَف وغير ذلك — قال الأصمعى : اللِّخاف : حجارة بيض رِقاق ، واحدتها لَخْفة . والظُّرَر : حجر له حدّ كحد السكين ، والجمع ظِرار ؛ مثل رُطَب ورِطاب ، ورُبَع ورِباع ، وظِرّان أيضا مثل صُرَد وصِردان — فلما اسْتَحرّ(١) القتلُ

(١) قوله : استحر ، أى اشتد وكثر .

بالقراء يوم اليمامة فى زمن الصديق رضى الله عنه ، وقُتل منهم فى ذلك اليوم فيما قيل سبعمائة ، أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القرّاء ، كابَىّ وآبن مسعود وزيد ، فندبا زيد بن ثابت إلى ذلك ، فجمعه غير مرتب السُّوَر ، بعد تعب شديد ، رضى الله عنه . روى البخارىّ عن زيد بن ثابت قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتَلَ أهلِ اليمامة وعنده عمر ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد آستحرّ يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلّا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن ؛ قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : هو والله خير ؛ فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى ، ورأيتُ الذى رأى عمر . قال زيد : وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لى أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتّهمك ، كنتَ تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلّفنى نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن ؛ قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو بكر : هو والله خير ؛ فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ؛ فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف (١) والعُسُب (٢) وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة « التوبة » آيتين مع خُزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » إلى آخرها . فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفّاه الله ثم عند عمر حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . وقال الليث حدثنى عبد الرحمن آبن خالد عن آبن شهاب وقال : مع أبى خزيمة الأنصارى . وقال أبو ثابت حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبى خزيمة « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » .

---

(١) الأكتاف : جمع كتف وهو عظم عريض يكون فى أصل كتف الحيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم .

(٢) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل إذا نزع منه خوصه .

وقال الترمذي في حديثه عنه : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » . قال: حديث حسن صحيح .

وفي البخاري عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا الصُّحف في المصاحف فَقَدْتُ آيةً من سورة «الأحزاب» كنت أسمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري[1] — الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين — « رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ » . وقال الترمذي عنه : فقدتُ آية من سورة « الأحزاب » كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ » فالتمستها فوجدتها عند خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، فألحقتها في سورتها .

قلت : فسقطت الآية الأولى من آخر « براءة » في الجمع الأول ، على ما قاله البخاري والترمذي ؛ وفي الجمع الثاني فقدت آية من سورة « الأحزاب » . وحكى الطبري : أن آية « براءة » سقطت في الجمع الأخير ، والأول أصح والله أعلم . فإن قيل : فما وجه جمع عثمان الناس على مصحفه ، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه ؛ قيل له : إن عثمان رضي الله عنه لم يَقْصِد بما صنع جَمْعَ الناس على تأليف المصحف ، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة : أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك ؛ على ما يأتي . وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءات بسبب تفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم ؛ ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه . وذلك أنهم اجتمعوا في غَزْوة أرْمِينِيَة فقرأت كل طائفة بما رُوِي لها ؛ فاختلفوا وتنازعوا وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه وتلاعنوا ؛ فأشفق حذيفة مما رأى منهم ؛ فلما قدم حُذيفة المدينة — فيما ذكر البخاري والترمذي — دخل إلى عثمان قبل أن يدخل إلى بيته ، فقال : أدرك هذه الأمة قبل أن تَهْلِك ! قال : فيماذا ؟ قال : في كتاب الله ، إني حضرت

(١) خزيمة ذو الشهادتين غير أبي خزيمة بالكنية (القسطلاني) .

هذه الغزوة، وجمعت ناسا من العراق والشام والحجاز؛ فوصف له ما تقدم وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلف اليهود والنصارى .

قلت : وهذا أدل دليل على بطلان من قال : إن المراد بالأحرف السبعة قراءات القراء السبعة، لأن الحق لا يختلف فيه، وقد روى سُوَيد بن غَفَلة عن علىّ بن أبى طالب أن عثمان قال : ما ترون فى المصاحف ؟ فإن الناس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : قراءتى خير من قراءتك، وقراءتى أفضل من قراءتك. وهذا شبيه بالكفر؛ قلنا : ما الرأى عندك يا أمير المؤمنين؟ قال: الرأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة، فإنكم إذا اختلفتم اليوم كان مَنْ بعدكم أشد اختلافا؛ قلنا : الرأى رأيك يا أمير المؤمنين؛ فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها إليك؛ فأرسلت بها إليه فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف . وقال عثمان للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ؛ ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق . وكان هذا من عثمان رضى الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجِلّة أهل الإسلام وشاورهم فى ذلك؛ فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت فى القراءات المشهورة عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم واطّراح ما سواها ، واستصوبوا رأيه وكان رأيا سديدا موفّقا؛ رحمة الله عليه وعليهم أجمعين . وقال الطبرى فيما روى : أن عثمان قَرَن بزيد أبَانَ بن سعيد بن العاصى وحده ؛ وهذا ضعيف . وما ذكره البخارى والترمذىّ وغيرهما أصح . وقال الطبرى أيضا : إن الصحف التى كانت عند حفصة جُعلت إمامًا فى هذا الجمع الأخير؛ وهذا صحيح .

وقال ابن شهاب : وأخبرنى عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين ، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف ويتولّاه رجل ،

والله لقد أسلمت وإنه لفى صُلب رجل كافر ! . يريد زيد بن ثابت . ولذلك قال عبد الله ابن مسعود : ياأهل العراق، اكتموا المصاحف التى عندكم وغُلُّوها، فإن الله عزّ وجلّ يقول : « وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فالقوا الله بالمصاحف، خرّجه الترمذى . وسيأتى الكلام فى هذا فى سورة « آل عمران »[1] إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر الأنبارىّ : ولم يكن الاختيار لزيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان على عبد الله ابن مسعود فى جمع القرآن، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم فى الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل، إلا لأن زيدا كان أحفظ للقرآن من عبد الله، إذ وَعاه كلّه ورسول الله صلّى الله عليه وسلم حىّ، والذى حفظ منه عبد الله فى حياة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نيّف وسبعون سورة، ثم تعلّم الباقى بعد وفاة الرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ فالذى ختم القرآن وحفظه ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار . ولا ينبغى أن يظنّ جاهل أن فى هذا طعنًا على عبد الله بن مسعود؛ لأن زيدا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبا لتقدمته عليه، لأن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كان زيد أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيرًا منهما ولا مساريًا لهما فى الفضائل والمناقب . قال أبو بكر : وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكير ذلك فشىء تَنجه الغضب ، ولا يُعمل به ولا يؤخذ به ، ولا يُشك فى أنه رضى الله عنه قد عرف بعد زوال الغضب عنه حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وبقى على موافقتهم وترك الخلاف لهم . فالشائع الذائع المتعالَم عند أهل الرواية والنقل : أن عبد الله بن مسعود تعلم بقيّة القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قال بعض الأئمة : مات عبد الله بن مسعود قبل أن يختم القرآن . قال يزيد بن هارون : المعوِّذتان بمنزلة البقرة وآل عمران ، من زعم أنهما ليستا من القرآن فهو كافر بالله العظيم؛ فقيل له : فقول عبد الله بن مسعود فيهما ؟ فقال : لا خلاف بين المسلمين فى أن عبد الله بن مسعود مات وهو لا يحفظ القرآن كله .

قلت : هذا فيه نظر، وسيأتى . وروى إسماعيل بن إسحاق وغيره قال حماد — أظنه عن أنس بن مالك ، قال : كانوا يختلفون فى الآية فيقولون أقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) فى آية ١٦١ راجع جـ ٤ ص ٢٥٦

فلان بن فلان ؛ فعسى أن يكون من المدينة على ثلاث ليال فيُرسَـل إليه فيُجاء به ، فيقال : كيف أقرأك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آية كذا وكذا؟ فيكتبون كما قال . قال آبن شهاب : وآختلفوا يومئذ فى التـابوت ، فقال زيد : التـابوه . وقال آبن الزبير وسعيد بن العاصى : التـابوت ؛ فرُفع آختلافهم إلى عثمان فقال : آكتبوه بالتـاء ؛ فإنه نزل بلسان قريش . أخرجه البخارى والترمذى . قال آبن عطية : قرأه زيد بالهاء والقرشيون بالتاء ، فأثبتوه بالتاء ، وكتبت المصاحف على ما هو عليـه غابر الدهر ، ونسخ منها عثمان نسخاً . قال غيره : قيـل سبعة ، وقيل أربعة وهو الأكثر ، ووجّه بها إلى الآفاق ، فوجّه للعراق والشام ومصر بأمّهات ، فآتخذها قرّاء الأمصار معتمد آختياراتهم ، ولم يخالف أحد منهم مصحفه على النحو الذى بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القرّاء السبعة من الآختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم آعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه ، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى بعض إشعارا بأن كل ذلك صحيح ، وأن القراءة بكل منها جائزة . قال آبن عطية : ثم إن عثمان أمر بما سواها من المصاحف أن تُحرَق أو تُخرق ، تروى بالحاء غير منقوطة وتروى بالخاء على معنى ثم تدفن ، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن .

وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرّد عن سُوَيد بن غَفَلة قال : سمعت علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه يقول : يا معشر الناس ، اتقوا الله! وإيّاكم والغُلُوّ فى عثمان ، وقولكم : حرّاق المصاحف ؛ فوالله ما حرقها إلا عن ملا منا أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . وعن عُمير بن سعيد قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . قال أبو الحسن بن بطّال : وفى أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى ، وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام ، وطرحها فى ضياع من الأرض . روى معمر عن ابن طاوس عن أبيه : أنه كان يحرق الصحف إذا آجتمعت عنده الرسائل فيها بسم الله الرحمن الرحيم . وحرق عروة آبن الزبير كتب فقـه كانت عنـده يوم الحَرّة ، وكره إبراهيم أن تحرق الصحف إذا كان فيها

ذكر الله تعالى؛ وقول من حرقها أولى بالصواب ، وقد فعله عثمان . وقد قال القاضى أبو بكر لسان الأمة : جائز للإمام تحريق الصحف التى فيها القرآن ، إذا أداه الاجتهاد إلى ذلك .

فصل — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وفى فعل عثمان رضى الله عنه ردٌّ على الحلولية(١) والحَشْوِيّة القائلين بقدم الحروف والأصوات ، وأن القراءة والتلاوة قديمة ، وأن الإيمان قديم ، والروح قديم ؛ وقد أجمعت الأمة وكل أمة من النصارى واليهود والبراهمة بل كلّ ملحد وموحد أن القديم لا يُفْعَل ولا تتعلق به قدرة قادر بوجه ولا بسبب ، ولا يجوز العدم على القديم وأن القديم لا يصير مُحْدَثا ، والمحدَث لا يصير قديما ، وأن القديم ما لا أوّل لوجوده ، وأن المحدَث هو ما كان بعد أن لم يكن ؛ وهذه الطائفة خرقت إجماع العقلاء من أهل الملل وغيرهم ؛ فقالوا : يجوز أن يصير المحدث قديما ، وأن العبد إذا قرأ كلام الله تعالى فعل كلاما لله قديما ، وكذلك إذا نحت حروفا من الآجُرّ والخشب ، أو صاغ أحرفا من الذهب والفضة ، أو نسج ثوبا فنقش عليه آية من كتاب الله فقد فعل هؤلاء كلام الله قديما ، وصار كلامه منسوجا قديما ومنحوتا قديما ومصوغا قديما ؛ فيقال لهم : ما تقولون فى كلام الله تعالى ، أيجوز أن يذاب ويمحى ويحرق ؟ فإن قالوا : نعم ، فارقوا الدين ، وإن قالوا : لا ، قيل لهم : فما قولكم فى حروف مصوّرة آية من كتاب الله تعالى من شمع ، أو ذهب أو فضة أو خشب أو كاغد فوقعت فى النار فذابت واحترقت ، فهل تقولون : إن كلام الله احترق ؟ فإن قالوا : نعم ، تركوا قولهم ؛ وإن قالوا : لا ، قيل لهم أليس قلتم : إن هذه الكتابة كلام الله وقد احترقت ! وقلتم : إن هذه الأحرف كلامه وقد ذابت ؛ فإن قالوا : احترقت الحروف وكلامه تعالى باق ، رجعوا إلى الحق والصواب ودانوا بالجواب ؛ وهو الذى قاله النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، منبّهاً على ما يقول أهل الحق : ولو كان القرآن فى إهاب ثم وقع فى النار ما احترق . وقال الله عزّ وجلّ : "أنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان" الحديث ، أخرجه مسلم . فثبت بهذا

(١) الحلولية : فرقة من المتصوفة تقول : إن الله حالٌّ فى كل شىء وفى كل جزء منه متحد به حتى جوّزوا أن يطلق على كل شىء أنه الله . والحشوية : طائفة من المبتدعة تمسكوا بالظواهر وذهبوا إلى التجسيم وغيره .

أن كلامه سبحانه ليس بحرف ولا يشبه الحروف . والكلام فى هذه المسألة يطول ، وتتميمها فى كتب الأصول ، وقد بيناها فى (الكتاب الأسنى ، فى شرح أسماء الله الحسنى) .

فصل — وقد طعن الرافضة — قبحهم الله تعالى — فى القرآن ، وقالوا : إن الواحد يكفى فى نقل الآية والحرف كما فعلتم ، فإنكم أثبتم بقول رجل واحد وهو خزيمة بن ثابت وحده آخر سورة «براءة» وقوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ» . فالجواب أن خزيمة رضى الله عنه لما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة «التوبة» . ولو لم يعرفهما لم يدر هل فَقَدَ شيئا أولا ، فالآية إنما ثبتت بالإجماع لا بخزيمة وحده . جواب ثان — إنما ثبتت بشهادة خزيمة وحده لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر بخلاف آية « الأحزاب » فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وأبى خزيمة لسماعهما إياها من النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال معناه المهلب ، وذكر أن خزيمة غير أبى خزيمة ، وأن أبا خزيمة الذى وجدت معه آية التوبة معروف من الأنصار ، وقد عرفه أنس وقال : نحن ورثناه ، والتى فى الأحزاب وجدت مع خزيمة بن ثابت فلا تعارض ؛ والقصة غير القصة لا إشكال فيها ولا التباس . وقال ابن عبد البر : « أبو خزيمة لا يوقف على صحة اسمه وهو مشهور بكنيته ؛ وهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم بن ثعلبة بن غُنْم بن مالك بن النجار ، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ، وتوفى فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو أخو مسعود بن أوس . قال ابن شهاب عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت : وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى وهو هذا ، وليس بينه وبين الحارث بن خزيمة أبى خزيمة نسب إلا اجتماعهما فى الأنصار ، أحدهما أوسىّ والآخر خَزْرَجِىّ» . وفى مسلم والبخارى عن أنس بن مالك قال : جمع القرآنَ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم أربعةٌ كلهم من الأنصار : أُبَىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد . قلت لأنس : مَن أبو زيد؟ قال : أحد عمومتى . وفى البخارىّ أيضا عن أنس قال : مات النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ،

وزيد، وأبو زيد؛ [قال][1] : ونحن ورثناه. وفى أخرى قال : مات أبو زيد ولم يترك عَقِبًا ، وكان بَدْرِيًّا، واسم أبى زيد سعد بن عُبيد . قال ابن الطَّيب رضى الله عنه : لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك ، فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلىّ وتميم الدارىّ وعُبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص . فقول أنس : لم يجمع القرآن غير أربعة ، يحتمل أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينًا مِن فى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غير تلك الجماعة ؛ فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه و بعضه عن غيره ، وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم لأجل سبقهم إلى الإسلام ، و إعظام الرسول صلى الله عليه وسلم لهم .

قلت : لم يذكر القاضى ، عبدَ الله بن مسعود وسالما مولى أبى حُذيفة رضى الله عنهما فيما رأيت ، وهما ممن جمع القرآن . روى جرير عن عبد الله بن يزيد الصهبانى عن كُميل قال قال عمر بن الخطاب : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر ومن شاء الله ، فمررنا بعبد الله بن مسعود وهو يصلى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من هذا الذى يقرأ القرآن " . فقيل له : هذا عبد الله بن أُمّ عَبْد ؛ فقال : " إن عَبْد الله يقرأ القرآن غَضًّا كما أنزل " الحديث . قال بعض العلماء : معنى قوله : " غضًّا كما أنزل " أى إنه كان يقرأ الحرف الأوّل الذى أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التى رُخّص لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه فى كل رمضان . وقد روى وكيع و جماعة معه عن الأعمش عن أبى ظبيان قال قال لى عبد الله بن عباس : أىّ القراءتين تقرأ ؟ قلت : القراءة الأولى قراءة آبنِ أُمّ عَبْد ؛ فقال لى : بل هى الآخرة ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعرض القرآن على جبريل فى كل عام مرّة ، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضه عليه مرتين ، فحضر ذلك عبد الله فعلم ما نُسخ من

(١) زيادة عن البخارى . وقوله : ونحن ورثناه . أى أبا زيد .

ذلك وما بُدِّل . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "خذوا القرآن من أربعة من آبن أمّ عبدٍ — فبدأ به — ومعاذ بن جبل وأُبَىّ بن كعب وسالم مَوْلى أبى حُذيفة" .

قلت : هذه الأخبار تدل على أن عبد الله جمع القرآن فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما تقدّم ، والله أعلم . وقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد : حدّثنا محمد بن شهريار حدّثنا حسين بن الأسود حدّثنا يحيى بن آدم عن أبى بكر عن أبى إسحاق قال قال عبد الله بن مسعود : قرأت مِن فِى رسول الله صلى الله عليه وسلم آثنتين وسبعين سورة — أو ثلاثا وسبعين سورة — وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »(١) . قال أبو إسحاق : وتعلّم عبد الله بقيّة القرآن من مُجَمِّع بن جارية الأنصارى .

قلت : فإن صح هذا ، صح الإجماع الذى ذكره يزيد بن هارون ، فلذلك لم يذكره القاضى أبو بكر بن الطيب مع من جمع القرآن وحفظه فى حياة النبى صلّى الله عليه وسلّم ، والله أعلم .

قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنى إبراهيم بن موسى الخُوزى(٢) حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا مالك بن اسماعيل حدّثنا زهير عن أبى إسحاق قال : سألت الأسود ما كان عبد الله يصنع بسورة الأعراف ؟ فقال : ما كان يعلمها حتى قدم الكوفة ، قال وقد قال بعض أهل العلم : مات عبد الله بن مسعود رحمة الله عليه قبل أن يتعلم المعوّذتين ، فلهذه العلة لم توجدا فى مصحفه ، وقيل غير هذا على ما يأتى بيانه آخر الكتاب عند ذكر « المعوّذتين » إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : والحديث الذى حدّثناه إبراهيم بن موسى حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عمر بن هارون الخراسانى عن ربيعة بن عثمان عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : كان ممن ختم القرآن ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىّ عثمان بن عفان وعلىّ بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ، حديث ليس بصحيح عند أهل العلم ، إنما هو مقصور على محمد بن كعب ، فهو مقطوع لا يؤخذ به ولا يعوّل عليه .

---

(١) آية ٢٢٢ من السورة المذكورة .

(٢) كذا فى الأصول . والذى فى التهذيب وغيره : آبن يزيد .

قلت : قوله عليه السلام " خذوا القرآن من أربعة من ابن أُم عَبْدٍ " يدل على صحته ، ومما يبين لك ذلك أن أصحاب القراءات من أهل الحجاز والشام والعراق كلٌّ منهم عَزَا قراءته التى آختارها إلى رجل من الصحابة قرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يستثن من جملة القرآن شيئا ؛ فأسند عاصم قراءته إلى عليّ وابن مسعود ، وأسند ابن كثير قراءته إلى أُبَيّ ، وكذلك أبو عمرو بن العلاء أسند قراءته إلى أُبَيّ ، وأما عبد الله بن عامر فإنه أسند قراءته إلى عثمان ؛ وهؤلاء كلهم يقولون : قرأنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسانيد هذه القراءات متصلة ورجالها ثقات . قاله الخَطّابى .

باب ما جاء فى ترتيب سُوَر القرآن وآياته ، وشكله ونقطه ، وتحزيبه وتعشيره ، وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه

قال ابن الطّيب : إن قال قائل قد آختلف السلف فى ترتيب سور القرآن ، فمنهم من كتب فى مصحفه السور على تاريخ نزولها ، وقدّم المكىّ على المدنىّ ، ومنهم من جعل فى أوّل مصحفه الحمد ، ومنهم من جعل فى أوّله : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » ، وهذا أوّل مصحف علىّ رضى الله عنه . وأما مصحف ابن مسعود فإن أوّله : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ثم البقرة ثم النساء ، على ترتيب مختلف . ومصحف أُبَيّ كان أوّله : الحمد لله ، ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام ثم الأعراف ثم المائدة ، ثم كذلك على آختلاف شديد . قال القاضى أبو بكر بن الطيب : فالجواب أنه يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هى عليه اليوم فى المصحف كان على وجه الآجتهاد من الصحابة . وذكر ذلك مكىّ رحمه الله فى تفسير سورة « براءة » وذكر أن ترتيب الآيات فى السّور ووضع البسملة فى الأوائل هو من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولمّا لم يأمر بذلك فى أوّل سورة « براءة » تُركت بلا بسملة ؛ هذا أصح ما قيل فى ذلك ، وسيأتى (١) .

وذكر ابن وهب فى جامعه قال : سمعت سليمان بن بلال يقول سمعت ربيعة يُسأل : لم قُدّمت البقرة وآل عمران ، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال

(١) راجع جـ ٨ ص ٦١

ربيعة : قد قُدِّمتا وأُلِّف القرآن على علم ممن ألّفه ، وقد اجتمعوا على العلم بذلك ، فهذا مما ننتهى إليه ، ولا نسأل عنه . وقد ذكر سُنيد قال حدّثنا معتمر عن سلام بن مسكين عن قتادة قال قال ابن مسعود : من كان منكم متأسّيا فليتأسّ بأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنهم كانوا أبرهذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلُّفًا ، وأقومها هَدْيًا ، وأحسنها حالا ؛ اختارهم الله لصحبة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم و إقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم . وقال قوم من أهل العلم : إن تأليف سُوَر القرآن على ما هو عليه فى مصحفنا كان عن توقيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأما ما روى من اختلاف مصحف أُبَيّ وعليّ وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رتّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك . روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول : إنما أُلِّف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلّم . وذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الردّ : أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ، ثم فُرِّق على النبيّ صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، وكانت السورة تنزل فى أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ، و يوقف جبريلُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم على موضع السورة والآية ؛ فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكلُّه عن محمد خاتم النبيين عليه السلام ، عن ربّ العالمين ؛ فمن أخر سورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغيّر الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق فى تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : " ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن " . وكان جبريل عليه السلام يقف على مكان الآيات .

حدّثنا حسن بن الحباب حدّثنا أبو هشام حدّثنا أبو بكر بن عيّاش عن أبى إسحاق عن البراء قال : اخر ما نزل من القرآن : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ »[1] . قال أبو بكر بن عياش : وأخطأ أبو إسحاق ، لأن محمد بن السائب حدّثنا عن أبى السائب عن ابن عباس قال : آخر ما نزل من القرآن : « وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

(١) آخر سورة « النساء » .

لَا يُظْلَمُونَ » . فقال جبريل للنبيّ عليهما السلام : يا محمد ضعها فى رأس ثمانين ومائتين من البقرة .

قال أبو الحسن بن بطّال : ومن قال بهذا القول لا يقول إن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقّف عليه فى المصحف، بل إنما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يُعلم أن أحدا منهم قال : إن ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وفى قراءة القرآن ودرسه، وأنه لا يحل لأحد أن يتلقّن الكهف قبل البقرة ولا الحج قبل الكهف؛ ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها للذى سألها : لا يضرك أيَّة قرأت قبلُ ؛ وقد كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها . وأما ما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا، وقالا : ذلك منكوس القلب؛ فإنما عَنيَا بذلك من يقرأ السورة منكوسة ، و يبتدئ من آخرها إلى أوّلها لأن ذلك حرام محظور؛ ومن الناس من يتعاطى هذا فى القرآن والشعر ليذلل لسانه بذلك و يقدر على الحفظ، وهذا حظّره الله تعالى ومنعه فى القرآن، لأنه إفساد لسوره ومخالفة لما قصد بها .

ومما يدل على أنه لا يجب إثباته فى المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل بالمدينة فتوضع فى السورة المكية، ألا ترى قول عائشة رضى الله عنها : وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده — تعنى بالمدينة — وقد قدّمنا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو ألّفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينتقض ترتيب آيات السُّوَر .

قال أبو بكر الإنبارى : حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى حدّثنا حجاج بن منهال حدّثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق،

و يأيها النبيّ لم تُحَرِّم إلى رأس العشر، و إذا زلزلت، و إذا جاء نصر الله . هؤلاء السُّوَر نزلن بالمدينة؛ وسائر القرآن نزل بمكة .

قال أبو بكر : فمن عمل على ترك الأثر والإعراض عن الإجماع ونظم السُّوَر على منازلها بمكة والمدينة، لم يدر أين تقع الفاتحة، لاختلاف الناس فى موضع نزولها، ويضطرّ إلى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، وردّ على محمد صلّى الله عليه وسلّم ما حكاه عن ربه تعالى . وقد قيل إن علة تقديم المدنىّ على المكىّ هو أن الله تعالى خاطب العرب بلغتها، وما تعرف من أفانين خطابها ومحاورتها؛ فلما كان فنٌّ من كلامهم مبنيا على تقديم المؤخر وتأخير المقدّم خوطبوا بهذا المعنى فى كتاب الله تعالى الذى لو فقدوه من القرآن لقالوا : ما باله عَرِى من هذا الباب الموجود فى كلامنا المستحْلَى من نظامنا . قال عَبِيد بن الأبرص :

أن بُدِّلتْ منهمُ وحوشًا * وغيّرتْ حالَها الخطوبُ

عيناكَ دمعُهما سَروبُ * كأنّ شأنيْهما شَعيب

أراد عيناك دمعهما سَروب لأن تبدّلت من أهلها وحوشًا، فقدّم المؤخر وأخر المقدّم ؛ ومعنى سروب : منصبّ على وجه الأرض . ومنه السارب، للذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر[1] :

* أنّى سَرَبتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقوله : شأنيهما، الشأن واحد الشئون، وهى مَواصِلُ قبائل الرأس وملتقاها، ومنها يجىء الدمع . شعيب : متفرق .

(١) هو قيس بن الخطيم . وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

وفى اللسان مادة « سرب » : « قال ابن برى : رواه ابن دريد « سربت » بياء موحدة لقوله : وكنت غير سروب . ومن رواه « سريت » بالياء باثنين فمعناه : كيف سريت ليلا، وأنت لا تبصر بها ».

(فصل) — وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مَرْوان أمر به وعمله، فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك، وألّف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من آختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمانا طويلا، إلى أن ألف آبن مجاهد كتابه فى القراءات.

وأسند الزّبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أوّل من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى؛ وذكر أيضا أن آبن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

(فصل) — وأما وضع الأعشار فقال آبن عطية: مرّ بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك. وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له عن عبد الله بن مسعود أنه كَرِه التّعشير فى المصحف، وأنه كان يَحُكّه. وعن مجاهد أنه كره التعشير والطّيب فى المصحف. وقال أشهب: سمعت مالكا وسُئل عن العُشُور التى تكون فى الصحف بالحمرة وغيرها من الألوان، فكره ذلك وقال: تعشير المصحف بالحبر لا بأس به؛ وسُئل عن المصاحف يكتب فيها خواتم السُّوَر فى كل سورة ما فيها من آية، قال: إنى أكره ذلك فى أمهات المصاحف أن يُكتب فيها شىء أو يشكل، فأما ما يتعلم به الغلمان من المصاحف فلا أرى بذلك بأسا. قال أشهب: ثم أخرج إلينا مصحفا لجدّه، كتبه إذ كتب عثمان المصاحف، فرأينا خواتمه من حبر على عمل السلسلة فى طول السطر، ورأيته معجوم الآى بالحبر. وقال قتادة: بدءوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا. وقال يحيى بن أبى كثير: كان القرآن مجرّدا فى المصاحف، فأوّل ما أحدثوا فيه النّقط على الباء والتاء والثاء، وقالوا: لا بأس به، هو نور له، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآى، ثم أحدثوا الفواتح والخواتيم. وعن أبى حمزة قال: رأى إبراهيم النَّخَعِىّ فى مصحفى فاتحة سورة كذا وكذا، فقال لى: آمحه فإن عبد الله بن مسعود قال: لا تخلطوا فى كتاب الله ما ليس فيه. وعن أبى بكر السراج قال قلت لأبى رزين: أأكتب فى مصحفى سورة كذا وكذا؛ قال: إنى أخاف أن ينشأ قوم لا يعرفونه فيظنونه من القرآن.

قال الدانى رضى الله عنه : وهـذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشـير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم ، قادهم إلى عمله الاجتهاد ؛ وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمـرة والصفرة وغيرهما ؛ على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها ، والحـرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله .

(فصل) — وأما عدد حروفه وأجزائه فروى سلام أبو محمد الحمانى أن الحجاج بن يوسف جمع القرّاء والحفاظ والكُتّاب ، فقال : أخبرونى عن القرآن كله كم من حرف هو ؟ . قال : وكنت فيهم ، فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلثمائة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبعمائة حرف وأربعون حرفا . قال : فأخبرونى إلى أىّ حرف ينتهى نصف القرآن ؟ فإذا هو فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » فى الفاء . قال : فأخبرونى بأثلاثه ؛ فإذا الثلث الأول رأس مائة من براءة ، والثلث الثانى رأس مائة أو إحدى ومائة من طسم الشعراء ، والثلث الثالث ما بقى من القرآن . قال : فأخبرونى بأسباعه على الحروف ؛ فإذا أول سبع فى النساء « فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ » فى الدال ، والسبع الثانى فى الأعراف « أُولَئِكَ حَبِطَتْ » فى التـاء ، والسبع الثالث فى الرعد « أُكُلُهَا دَائِمٌ » فى الألف من آخر أكلها ، والسبع الرابع فى الحج « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا » فى الألف ، والسبع الخامس فى الأحزاب « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَـةٍ » فى الهـاء ، والسبع السادس فى الفتح « الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فى الواو ، والسبع السابع ما بقى من القرآن .

قال سلام أبو محمد : عملناه فى أربعة أشهر ، وكان الحجاج يقرأ فى كل ليلة ربعا ، فأول ربعه خاتمة الأنعام . والربع الثانى فى الكهف « وَلْيَتَلَطَّفْ » ، والربع الثالث خاتمة الزُّمَر ، والربع الرابع ما بقى من القرآن . وفى هذه الجملة خلاف مذكور فى كتاب البيان لأبى عمرو الدانى ، من أراد الوقوف عليه وجده هناك .

(فصل) — وأما عدد آى القرآن فى المدنىّ الأول ، فقال محمد بن عيسى : جميع عدد آى القرآن فى المدنى الأول ستـة آلاف آية . قال أبو عمرو : وهو العـدد الذى رواه أهل الكوفة عن أهل المدينة ، ولم يسمّوا فى ذلك أحدا بعينه يسندونه إليه .

وأما المدنيّ الأخير فهو فى قول إسماعيل بن جعفر : ستة آلاف آية ومائتا آية وأربع عشرة آية . وقال الفضل : عدد آى القرآن فى قول المكيين ستة آلاف آية ومائتا آية وتسع عشرة آية . قال محمد بن عيسى : وجميع عدد آى القرآن فى قول الكوفيين ستة آلاف آية ومائتا آية وثلاثون وست آيات ، وهو العدد الذى رواه سليم[1] والكسائى عن حمزة ، وأسنده الكسائى إلى عليّ رضى الله عنه . قال محمد : وجميع عدد آى القرآن فى عدد البصريين ستة آلاف ومائتان وأربع آيات ، وهو العدد الذى مضى عليه سلفهم حتى الآن . وأما عدد أهل الشام فقال يحيى بن الحارث الذِّمَارى : ستة آلاف ومائتان وست وعشرون . فى رواية ستة آلاف ومائتان وخمس وعشرون ؛ نقص آية . قال ابن ذَكْوان : فظننت أن يحيى لم يعد «بسم الله الرحمن الرحيم» . قال أبو عمرو : فهذه الأعداد التى يتداولها الناس تأليفا ، ويعدّون بها فى سائر الآفاق قديما وحديثا .

وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان : جميع كلمات القرآن — فى قول عطاء بن يسار — سبعة وسبعون ألفا وأربعمائة وتسع وثلاثون كلمة ؛ وحروفه ثلثمائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وخمسة عشر حرفا .

قلت : هذا يخالف ما تقدّم عن الحمانى قبل هذا . وقال عبد الله بن كثير عن مجاهد قال : هذا ما أحصينا من القرآن ، وهو ثلثمائة ألف حرف وأحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفا ، وهذا يخالف ما ذكره قبل هذا عن الحمانى من عدّ حروفه .

باب ذكر معنى السورة والآية والكلمة والحرف

معنى السورة فى كلام العرب الإبانة لها من سورة أخرى وانفصالها عنها ، وسُمّيت بذلك لأنه يرتفع فيها من منزلة إلى منزلة . قال النابغة :

ألم تر أنّ الله أعطاكَ سُورةً * ترى كلّ مَلْك دونها يتَذبذبُ

أى منزلة شرف ارتفعت إليها عن منزل الملوك . وقيل : سُمّيت بذلك لشرفها وارتفاعها كما يقال لما ارتفع من الأرض سور . وقيل : سميت بذلك لأن قارئها يشرف على ما لم يكن

(١) فى الأصول : «مسلم» والراوى عن حمزة هو سليم بن عيسى الكوفى وهو أخص أصحاب حمزة به . (طبقات القراء) .

عنده كسُور البناء ؛ كله بغير همز . وقيل . سُمّيت بذلك ؛ لأنها قطعت من القرآن على حِدَة ، من قول العرب للبقيّة : سُؤر ، وجاء فى أسآر الناس أى بقاياهم ؛ فعلى هـذا يكون الأصل سؤرة بالهمزة ثم خُفّفت فأبدلت واوا لآنضمام ما قبلها . وقيل : سميت بذلك لتمامها وكمالها من قول العرب للناقة التامة : سُورة ، وجمع سُورة سُوَر بفتح الواو . وقال الشاعر (١) :

* سُودُ المحاجرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَر *

ويجوز أن يجمع على سُورات وسُوَرات .

وأما الآية فهى العلامة ، بمعنى أنها علامة لآنقطاع الكلام الذى قبلها من الذى بعدها وآنفصاله ، أى هى بائنـة من أختها ومنفردة . وتقول العرب : بينى وبين فلان آية ؛ أى علامة ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ » (٢) . وقال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لها فعرفتُها * لستة أعوام وذا العـامُ سابعُ

وقيل : سُمّيت آية لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه ؛ كما يقال : خرج القوم بآياتهم أى بجماعتهم . قال بُرْج بن مُسْهِر الطائى :

خَرجنا من النَّقْبَيْن لا حَىَّ مثلُنا * بآياتنا نُزجى اللِّقـاحَ المَطافلا

وقيل : سُمّيت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها . وآختلف النحويون فى أصـل آية ، فقال سيبويه : أَيَيَة على فَعَلَة مثل أكمة وشجرة ، فلما تحرّكت الياء وآنفتح ما قبلها آنقلبت ألفا فصارت آية بهمزة بعـدها مدّة . وقال الكسائى : أصلها آيِيَة على وزن فاعلة مثـل آمنة فقلبت الياء ألفا لتحرّكها وآنفتاح ما قبلها ، ثم حذفت لآلتباسها بالجمع . وقال الفرّاء : أصلها أيّية (٣) بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفا كراهة للتشديد فصارت آية وجمعها آى وآيات وآياء . وأنشد أبو زيد :

لم يُبق هذا الدهرُ من آيائه * غيرَ أثافيـهِ وأرْمِـدائه

---

(١) هو الراعى . وصدر البيت : * هنّ الحرائرُ لا ربات أخمرة *

(٢) آية ٢٤٨ سورة « البقرة » . (٣) قال فى اللسان مادة (أيا) : أياء جمع الجمع نادر .

وأما الكلمة فهى الصورة القائمة بجميع ما يختلط بها من الشُّبهات[1] أى الحروف، وأطول الكلم فى كتاب الله عزّ وجلّ ما بلغ عشرة أحرف، نحو قوله تعالى: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ»[2]. و «أَنُلْزِمُكُمُوهَا»[3] وشبههما؛ فأما قوله: «فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»[4] فهو عشرة أحرف فى الرسم[5] وأحد عشر فى اللفظ. وأقصرهن ما كان على حرفين نحو ما ولا ولك وله، وما أشبه ذلك. ومن حروف المعانى ما هو على كلمة واحدة، مثل همزة الاستفهام وواو العطف، إلا أنه لا ينطق به مفردا. وقد تكون الكلمة وحدها آية تامة نحو قوله تعالى: «وَالْفَجْرِ». «وَالضُّحَى». «وَالْعَصْرِ». وكذلك «الٓمٓ». و«الٓمٓصٓ». و«طه». و«يٰسٓ». و«حٰمٓ» فى قول الكوفيين، وذلك فى فواتح السور، فأما فى حشوهن فلا. قال أبو عمرو الدانى: ولا أعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله فى الرحمن: «مُدْهَامَّتَانِ»[6] لا غير. وقد أتت كلمتان متصلتان وهما آيتان، وذلك فى قوله: «حٰمٓ عٓسٓقٓ» على قول الكوفيين لا غير. وقد تكون الكلمة فى غير هذا: الآية التامة، والكلام القائم بنفسه، وإن كان أكثر أو أقل، قال الله عزّ وجلّ: «وَتَمَّتْ[7] كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» قيل: إنما يعنى بالكلمة ها هنا قوله تبارك وتعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا[8] فِي الْأَرْضِ» إلى آخر الآيتين، وقال عزّ وجلّ «وَأَلْزَمَهُمْ[9] كَلِمَةَ التَّقْوَى». قال مجاهد: لا إله إلا الله. وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". وقد تسمّى العرب القصيدة بأسرها، والقصة كلها، كلمة فيقولون: قال قُسٌّ فى كلمته كذا، أى فى خطبته؛ وقال زُهير فى كلمته كذا، أى فى قصيدته؛ وقال فلان فى كلمته يعنى فى رسالته؛ فتسمى جملة الكلام كلمة إذ كانت الكلمة منها، على عادتهم فى تسميتهم الشىء باسم ما هو منه وما قارب وجاوره، وكان بسبب منه، مجازا واتساعا.

وأما الحرف فهو الشُّبهة القائمة وحدها من الكلمة، وقد يسمى الحرف كلمة والكلمة حرفا على ما بيناه من الاتساع والمجاز. قال أبو عمرو الدانى: فإن قيل فكيف يسمى ما جاء من

(١) لم نر هذا التعبير لغير المؤلف، وقد سبق التعبير به فى ص ١٦ من هذا الجزء. (٢) سورة النور آية ٥٥
(٣) سورة هود آية ٢٨ (٤) سورة الحجر آية ٢٢ (٥) كأنه اعتبر هاء الضمير كلمة أخرى فى الرسم فقط.
(٦) سورة الرحمن آية ٦٤ (٧) سورة الأعراف آية ١٣٧ (٨) سورة القصص آية ٥ (٩) سورة الفتح آية ٢٦

حروف الهجاء فى الفواتح على حرف واحد نحو «ص» و «ق» و «ن» حرفا أو كلمة ؟ قلت : كلمة لا حرفا ، وذلك من جهة أن الحرف لا يسكت عليـه ، ولا ينفرد وحده فى الصـورة ولا ينفصل ممـا يختلط به ؛ وهـذه الحروف مسكوت عليها منفردة منفصـلة كانفراد الكلم وآنفصالها ، فلذلك سُمّيت كلمات لا حروفا . قال أبو عمرو : وقد يكون الحرف فى غير هذا : المذهبَ والوجهَ ، قال الله عزّ وجلّ : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ » أى على وجه ومذهب ، ومن ذلك قول النبىّ صلى الله عليـه وسلم : " أنزل القرآن على سـبعة أحرف " أى سبعة أوجه من اللغات ، والله أعلم .

باب هل ورد فى القرآن كلمات خارجة عن لغات العرب أو لا

لا خلاف بين الأئمة أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب ، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العرب ؛ كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط .

وآختلفوا هل وقع فيـه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب ؛ فذهب القـاضى أبو بكر بن الطيب والطبرىّ وغيرهما إلى أن ذلك لا يوجد فيه ، وأن القرآن عربىّ صريح ، وما وجد فيـه من الألفاظ التى تنسب إلى سائر اللغات إنمـا آتفق فيها أن تواردت اللغات عليها فتكلمت بهـا العرب والفرس والحبشة وغيرهم ، وذهب بعضهم إلى وجودها فيه ، وأن تلك الألفاظ لقلتهـا لا تُخرج القرآن عن كونه عربيًّـا مبينًا ، ولا رسولَ الله عن كونه متكلما بلسان قومه . فالمشكاة : الكُوّة . ونشأ : قام من الليل ؛ ومنه « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ » و « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ » أى ضعفين . و « فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ » أى الأسد ؛ كله بلسان الحبشة . والغَساق : البارد المُنْتن بلسان الترك . والقسطاس : الميزان ؛ بلغة الروم . والسِّجيل : الحجـارة والطين بلسان الفرس . والطُّور الجبل . والْيَمّ : البحر بالسريانية . والتَّنُّور : وجه الأرض بالعجمية .

قال آبن عطية : «حقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها فى الأصل أعجمية لكن آستعملتها العرب وعرّبتها فهى عربية بهـذا الوجه . وقد كان للعرب العاربة التى نزل القرآن بلسانهـا بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات ، و برحلتى قريش ، وكسفر مُسافر بن أبى عمرو إلى الشام ،

وكسفر عمر بن الخطاب وكسفر عمرو بن العاصى وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة ، وكسفر الأعشى إلى الحيرة ، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة فى اللغة ؛ فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها ، وجرت إلى تخفيف ثقل العُجْمة ، واستعملتها فى أشعارها ومحاوراتها ، حتى جرت مجرى العربى الصحيح ، ووقع بها البيان ؛ وعلى هذا الحد نزل بها القرآن . فإن جهلها عربىٌّ ما فكجهله الصريح بما فى لغة غيره ، كما لم يعرف ابن عباس معنى « فاطر » إلى غير ذلك . قال ابن عطية : « وما ذهب إليه الطبرى رحمه الله من أن اللغتين اتفقتا فى لفظة لفظةٍ فذلك بعيد ؛ بل إحداهما أصل والأخرى فرع فى الأكثر[1] ؛ لأنا لا ندفع أيضا جواز الاتفاق قليلا شاذا » .

قال غيره : والأول أصح . وقوله : هى أصل فى كلام غيرهم دَخيلة فى كلامهم ، ليس بأولى من العكس ، فإن العرب لا يخلو أن تكون تخاطبت بها أو لا ، فإن كان الأول فهى من كلامهم ، إذ لا معنى للغتهم وكلامهم إلا ما كان كذلك عندهم ، ولا يبعد أن يكون غيرهم قد وافقهم على بعض كلماتهم ، وقد قال ذلك الإمام الكبير أبو عبيدة .

فإن قيل : ليست هذه الكلمات على أوزان كلام العرب فلا تكون منه . قلنا : ومن سلّم لكم أنكم حصرتم أوزانهم حتى تخرجوا هذه منها ؛ فقد بحث القاضى عن أصول أوزان كلام العرب ورد هذه الأسماء إليها على الطريقة النحوية ، وأما إن لم تكن العرب تخاطبت بها ولا عرفتها استحال أن يخاطبهم الله بما لا يعرفون ، وحينئذ لا يكون القرآن عربيا مبينا ، ولا يكون الرسول مخاطبا لقومه بلسانهم ، والله أعلم .

باب ذكر نكت فى إعجاز القرآن ، وشرائط المعجزة وحقيقتها

المعجزة واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم ، وسُمّيت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها ، وشرائطها خمسة ، فإن اختل منها شرط لا تكون معجزة .

(١) فى الأصول : « والأخرى فرع ، لا أنا ندفع ... الخ » . والزيادة والتصويب عن ابن عطية .

فالشرط الأول من شروطها أن تكون مما لا يقدر عليها إلا الله سبحانه . وإنما وجب حصول هـذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آت فى زمان يصح فيه مجىء الرسل وآدّعى الرسالة وجعل معجزته أن يتحرّك ويسكن ويقوم ويقعد لم يكن هذا الذى آدّعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه لقدرة الخلق على مثله ، وإنما يجب أن تكون المعجزات كفَلْق البحر ، وآنشقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليها البشر .

والشرط الثانى هو أن تخرق العادة . وإنما وجب آشتراط ذلك لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار وطلوع الشمس من مشرقها ؛ لم يكن فيما آدّعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال وإن كان لا يقدر عليها إلا الله ، فلم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه على ما هى عليه فى حين دعواه ، ودعواه فى دلالتها على نبوّته كدعوى غيره ؛ فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول عليه السلام له وجه يدل على صدقه ، وذلك أن يقول : الدليل على صدقى أن يخرق الله تعالى العادة من أجل دعواى عليه الرسالة ، فيقلب هذه العصا ثعبانا ، ويشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة ، أو ينبع الماء من بين أصابعى كما ينبعه من العين ، أو ما سوى ذلك من الآيات الخارقة للعادات ، التى ينفرد بها جبار الأرض والسموات ؛ فتقوم له هـذه العلامات مقام قول الرب سبحانه ، لو أسمعنا كلامه العزيز وقال : صدق ، أنا بعثته . ومثال هذه المسألة — ولله ولرسوله المثل الأعلى — ما لو كانت جماعة بحضرة ملك من ملوك الأرض ، وقال أحد رجاله وهو بمرأى منه والملك يسمعه : الملك يأمركم أيها الجماعة بكذا وكذا ، ودليل ذلك أن الملك يصدّقنى بفعل من أفعاله ، وهو أن يخرج خاتمه من يده قاصدا بذلك تصديقى ؛ فإذا سمع الملك كلامه لهم ودعواه فيهم ، ثم عمل ما آستشهد به على صدقه ، قام ذلك مقام قوله لو قال : صدق فيما آدّعاه علىّ . فكذلك إذا عمل الله عملا لا يقدر عليه إلا هو ، وخرق به العادة على يد الرسول ، قام ذلك الفعل مقام كلامه تعالى لو أسمعناه وقال : صدق عبدى فى دعوى الرسالة ، وأنا أرسلته إليكم فاسمعوا له وأطيعوا .

والشرط الثالث هو أن يستشهد بها مدّعى الرسالة على الله عزّ وجلّ ؛ فيقول : آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا أو يحرّك الأرض عند قولى لها : تزلزلى ؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدَّى به .

الشرط الرابع هو أن تقع على وَفْق دعوى المتحدِّى بها المستشهد بكونها معجزة له ، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدّعى للرسالة : آية نبوّتى ودليل حجتى أن تنطق يدى أو هذه الدابة فنطقت يده أو الدابة بأن قالت : كذب وليس هو نبيّ ، فإن هذا الكلام الذى خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدّعى للرسالة ، لأن ما فعله الله لم يقع على وَفْق دعواه . وكذلك ما يروى أن مُسَيْلِمة الكذاب لعنه الله تفل فى بئر ليكثر ماؤها فغارت البئر وذهب ما كان فيها من الماء ، فما فعل الله سبحانه من هذا ، كان من الآيات المكذبة لمن ظهرت على يديه ، لأنها وقعت على خلاف ما أراده المتنبئ الكذاب .

والشرط الخامس من شروط المعجزة ألا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدّى على وجه المعارضة ؛ فإن تم الأمر المتحدّى به المستشهد به على النبوّة على هذا الشرط مع الشروط المتقدّمة ، فهى معجزة دالة على نبوّة من ظهرت على يده ، فإن أقام الله تعالى من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ماعمل بطل كونه نبيًّا ، وخرج عن كونه معجزا ولم يدل على صدقه ، ولهذا قال المولى سبحانه : « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » وقال : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ » . كأنه يقول : إن ادّعيتم أن هذا القرآن من نظم محمد صلى الله عليه وسلم وعمله فاعملوا عشر سُوَر من جنس نظمه ، فإذا عجزتم بأسركم عن ذلك فاعلموا أنه ليس من نظمه ولا من عمله .

لا يقال : إن المعجزات المقيّدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدجال فيما رويتم عن نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ماهو معروف مشهور ؛ فإنا نقول : ذلك يدّعى الرسالة ، وهذا يدّعى الربوبيّة وبينهما من الفرقان مابين البصراء والعميان ، وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق

إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله تعالى الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملّة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدّجال فيه التصوير والتغيير من حال الى حال، وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات، تعالى ربّ البريّات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

فصل — إذا ثبت هـذا فاعلم أن المعجزات على ضربين : الأوّل — ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم . والثانى — ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده، ووقع لسامعها العلم بذلك ضرورة؛ ومن شرطه أن يكون الناقلون له خَلْقا كثيرا وجَمًّا غفيرا، وأن يكونوا عالمين بما نقلوه علما ضروريا، وأن يستوى فى النقل أوّلهم وآخرهم ووسطهم فى كثرة العدد، حتى يستحيل عليهم التواطؤ على الكذب؛ وهذه صفة نقل القرآن، ونقل وجود النبيّ عليه الصلاة والسلام، لأن الأمة رضى الله عنها لم تزل تنقل القرآن خَلَفًا عن سَلَف والسّلَفُ عن سلفه إلى أن يتصل ذلك بالنبيّ عليه السلام المعلوم وجوده بالضرورة، وصدقه بالأدلة المعجزات؛ والرسول أخذه عن جبريل عليه السلام عن ربه عزّ وجلّ، فنقَل القرآن فى الأصل رسولان معصومان من الزيادة والنقصان، ونقله إلينا بعدهم أهل التواتر الذين لا يجوز عليهم الكذب فيما ينقلونه ويسمعونه، لكثرة العدد، ولذلك وقع لنا العلم الضرورىّ بصدقهم فيما نقلوه من وجود محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ظهور القرآن على يديه وتحدّيه به . ونظير ذلك من علم الدنيا علم الإنسان بما نقل اليه من وجود البلدان؛ كالبصرة والشام والعراق وخُراسان والمدينة ومكة، وأشباه ذلك من الأخبار الكثيرة الظاهرة المتواترة؛ فالقرآن معجزة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم الباقية بعده إلى يوم القيامة، ومُعجزة كلّ نبيّ انقرضت بانقراضه، أو دخلها التبديل والتغيير، كالتوراة والإنجيل .

ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة :

منها : النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها ؛ لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء، وكذلك قال رب العزة الذى تَوَلَّى نظمه : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » . وفى صحيح مسلم أن أُنيسا أخا أبى ذَرّ قال لأبى ذَرّ : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ؛ قلت : فما يقول الناس ؟ قال يقولون : شاعر، كاهن ، ساحر ؛ وكان أُنيس أحد الشعراء، قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أَقْراء[1] الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق و إنهم لكاذبون. وكذلك أقرّ عُتْبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لمّا قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حم » فُصِّلت ، على ما يأتى بيانه هنالك[2] ؛ فإذا اعترف عُتبة على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة، بأنه ما سمع مثل القرآن قطّ كان فى هذا القول مُقِرًّا بإعجاز القرآن له ولضُربائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه.

ومنها : الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

ومنها : الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك فى سورة «ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ»[3] إلى آخرها، وقوله سبحانه : « وَالْأَرْضَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[4] إلى آخر السورة، وكذلك قوله سبحانه : «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»[5] إلى آخر السورة. قال ابن الحصار: فمن علم أن الله سبحانه وتعالى هو الحق، علم أن مثل هذه الجزالة لا تصح فى خطاب غيره؛ ولا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول : «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ»[6]، ولا أن يقول : « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ »[7] .

قال ابن الحصار : وهذه الثلاثة من النَّظم، والأسلوب ، والجزالة، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية؛ و بمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر؛ وبها وقع التحدّى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن

(١) أقراء الشعر : أنواعه وطرقه و بحوره وأنحازه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٧ .
(٣) راجع جـ ١٧ ص ١ (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ٩ ص ٣٧٦
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٠٠ (٧) راجع جـ ٩ ص ٢٩٦

ينضاف إليها أمر آخر من الوجوه العشرة ؛ فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار، وهى أقصر سـورة فى القرآن ، وقد تضمنت الإخبار عن مُغيَّبَيْن : أحدهما — الإخبار عن الكَوْثر وعظمه وسعته وكثرة أوانيه ، وذلك يدل على أن المصدّقين به أكثر من أتباع سـائر الرسل . والثانى — الإخبار عن الوليد بن المغيرة، وقد كان عنـد نزول الآية ذا مال وولد ، على ما يقتضيه قوله الحق : « ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا »(١) ثم أهلك الله — سبحانه — ماله وولده، وانقطع نسله .

ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى ؛ حتى يقـع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

ومنها : الإخبار عن الأمور التى تقدّمت فى أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمّىّ ما كان يَتْلُو من قبله من كتاب ، ولا يَخُطّه بيمينه ؛ فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية فى دهرها ؛ وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه ، وتحدّوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السـلام ، وحال ذى القرنين ؛ فجـاءهم — وهو أمىّ من أُمّة أُمّيّة ، ليس لهـا بذلك علم — بمـا عرفوا من الكتب السالفة صحته ؛ فتحققوا صدقه .

قال القاضى ابن الطيب : — ونحن نعلم ضرورة — أن هذا ممـا لا سبيل إليه إلا عن تعلّم ؛ وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار ، وحملة الأخبار ، ولا متردّدا إلى المتعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه ؛ عُلِم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوَحْى .

ومنها : الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس فى العِيان ، فى كل ما وعد الله سبحانه ؛ وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه . وإلى وعد مقيّـد بشرط ، كقوله : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ »(٢) « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ »(٣) « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا »(٤) و « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ »(٥) ، وشبه ذلك .

ومنهـا : الإخبار عن المغيّبات فى المستقبل التى لا يطلع عليهـا إلا بالوحى ؛ فمن ذلك :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٧٠ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٦١ . (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٣٩ .
(٤) راجع جـ ١٨ ص ١٥٧ . (٥) راجع جـ ٨ ص ٤٤ .

ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ »[١] الآية . ففعل ذلك . وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله فى إظهار دينه ، ليثقوا بالنصر ، وليستيقنوا بالنُّجْح ، وكان عمر يفعل ذلك ؛ فلم يزل الفتح يتوالى شرقا وغربا ، برا وبحرا ، قال الله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »[٢] وقال : « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ »[٣] . وقال « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ »[٤] وقال : « الم . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »[٥] . فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لا يقف عليها إلا رَبُّ العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، فدل على أن الله تعالى قد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه .

ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام ، فى الحلال والحرام ، وفى سائر الأحكام .

ومنها : الحِكَم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمىّ .

ومنها : التناسب فى جميع ما تضمّنه ظاهرا و باطنا من غير اختلاف ، قال الله تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[٦] .

قلت : فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم ، و وجه حادى عشر قاله النَّظّام و بعض القَدَرية : أن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصَّرْفَةُ عند التحدّى بمثله . وأن المنع والصَّرْفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحدّيهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وهذا فاسد ، لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ؛ فلو قلنا إن المنع والصَّرْفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الإجماع ، و إذا كان كذلك عُلِم أن نفس القرآن هو المُعْجِز ، لأن فصاحته و بلاغته أمر خارق للعادة ، إذ لم يوجد قطّ كلامٌ على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دلّ على أن المنع والصّرفة لم يكن معجزا . واختلف من قال بهذه الصّرْفة

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢١ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٣٦٩ . (٥) راجع جـ ١٤ ص ١ . (٦) راجع جـ ٥ ص ٢٩٠

على قولين : أحدهما — أنهم صُرِفوا عن القدرة عليه ؛ ولو تعرّضوا له لعجزوا عنه . الثانى — أنهم صرِفوا عن التعرّض له مع كونه فى مقدورهم ؛ ولو تعرّضوا له لجاز أن يقدِروا عليه .

قال ابن عطية : « وجه التحدّى فى القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه . ووجه إعجازه : أن الله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم بإحاطته أىّ لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبيّن المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلومٌ ضرورةً أنّ بَشَرًا لم يكن محيطا قطّ ؛ فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة . وبهذا النظر يبطل قول من قال : إن العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صُرِفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه . والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قطّ فى قدرة أحد من المخلوقين ، و يظهر لك قصور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا ، ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامّة فيبدّل فيها وينقّح ، ثم لا تزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نُزِعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد » .

ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جلّ ذكره ، ذكر فى آية واحدة أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، و بشارتين وهو قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ (١) » الآية . وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن حكمته وقدرته ، وذلك مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، وأنبأ سبحانه عن الموت ، وحسرة الفوت ، والدار الآخرة وثوابها وعقابها ، وفوز الفائزين ، وتردّى المجرمين ، والتحذير من الاغترار بالدنيا ، ووصفها بالقلة بالإضافة إلى دار البقاء بقوله تعالى : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٢) » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين ، وعواقب المهلكين ، فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ

(١) آية ٧ سورة القصص . (٢) آية ١٨٥ سورة آل عمران .

مَنْ أَغْرَقْنَا[1] » . وأنبأ جلّ وعزّ عن أمر السفينة وإجرائها وإهلاك الكفرة ، واستقرار السفينة واستوائها ، وتوجيه أوامر التسخير إلى الأرض والسماء بقوله عزّ وجلّ : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » إلى قوله : « وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إلى غير ذلك .

فلما عجزت قريش عن الإتيان بمثله وقالت : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تقوّله ، أنزل الله تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ[2] » . ثم أنزل تعجيزا أبلغ من ذلك فقال : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ[3] » . فلما عجزوا حطّهم عن هذا المقدار ، إلى مثل سورة من السُّوَر القصار ، فقال جلّ ذكره : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ[4] » . فأُفحموا عن الجواب ، وتقطّعت بهم الأسباب ، وعدلوا إلى الحروب والعناد ، وآثروا سَبْيَ الحريم والأولاد ؛ ولو قدروا على المعارضة لكان أهْوَنَ كثيرا ، وأبلغَ فى الحجة وأشدّ تأثيرا . هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللحن[5] ، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسن[6] .

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ؛ بل تجاوزت حدّ الإحسان والإجادة إلى حيّز الإرباء والزيادة . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أُوتِى من جوامع الكلم ، وآختص به من غرائب الحِكَم ؛ إذا تأمّلتَ قولَه صلّى الله عليه وسلّم فى صفة الجنان ، وإن كان فى نهاية الإحسان ، وجدته منحطًّا عن رتبة القرآن ؛ وذلك فى قوله عليه السلام : "فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَر على قلب بَشَر" فأين ذلك من قوله عزّ وجلّ « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » . وقوله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . هذا أعدل وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ؛ على أنه لا يعتبر إلا فى مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال آتسع فيه مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ؛ وبهذا قامت الحجة على العرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة ؛ كما قامت الحجة فى معجزة عيسى عليه السلام على الأطباء ، ومعجزة موسى

(١) آية ٤٠ سورة العنكبوت . (٢) آية ٣٣ ، ٣٤ سورة الطور . (٣) آية ١٣ سورة هود .
(٤) آية ٢٣ سورة البقرة . (٥) اللحن (بالتحريك) : الفطنة واللغة . (٦) اللسن (بالتحريك) : الفصاحة .

عليه السلام على السحرة ؛ فإن الله سبحانه إنما جعل معجزات الأنبياء عليهم السلام بالوجه الشهير أبرع ما يكون فى زمان النبيّ الذى أراد إظهاره ؛ فكان السحر فى زمان موسى عليه السلام قد انتهى إلى غايته ؛ وكذلك الطّب فى زمن عيسى عليه السلام ، والفصاحة فى زمن محمد صلّى الله عليه وسلّم .

باب التنبيه على أحاديث وضعت فى فضل سُوَر القرآن وغيره

لا آلتفات لما وضعه الواضعون ، وآختلقه المختلقون ، من الأحاديث الكاذبة ، والأخبار الباطلة ، فى فضل سُوَر القرآن ، وغير ذلك من فضائل الأعمال ؛ قد آرتكبها جماعة كثيرة ، آختلفت أغراضهم ومقاصدهم فى آرتكابها ؛ فمن قوم من الزنادقة مثل : المغيرة بن سعيد الكوفى ، ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة ، وغيرهما ، وضعوا أحاديث وحدّثوا بها ليُوقِعوا بذلك الشك فى قلوب الناس ؛ فما رواه محمد بن سعيد عن أنس بن مالك فى قوله صلى الله عليه وسلم : "أنا خاتم الأنبياء لا نبيّ بعدى إلا ما شاء الله" ، فزاد هذا الآستثناء لما كان يدعو إليه من الإلحاد والزندقة .

قلت : وقد ذكره آبن عبد البر فى كتاب (التمهيد) ولم يتكلم عليه ؛ بل تأول الاستثناء على الرؤيا ؛ فالله أعلم .

ومنهم قوم وضعوا الحديث لِهَوًى يدعون الناس إليه ؛ قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب : إن هذه الأحاديث دِين ، فآنظروا ممن تأخذون دينكم ، فإنا كنا إذا هَوِينا أمْرًا صَيّرناه حديثا .

ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَةً كما زعموا ، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال ، كما رُوى عن أبى عِصمة نوح بن أبى مريم المَرْوَزِيّ ، ومحمد بن عكاشة الكِرمانى ، وأحمد بن عبد الله الجُوَيبارِى ، وغيرهم . قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عِكرمة عن آبن عباس فى فضل سُوَر القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن وآشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومَغازى محمد بن إسحاق ؛ فوضعت هذا الحديث حسبة . قال أبو عمرو عثمان بن

الصلاح فى كتاب (علوم الحديث) له : وهكذا الحديث الطويل الذى يروى عن أُبَيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فى فضل القرآن سورة سورة؛ وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه، وإنّ أثر الوضع عليه لبيّن . وقد أخطأ الواحدىّ المفسّر ومن ذكره من المفسرين فى إيداعه تفاسيرهم .

ومنهم قوم من السؤّال والمُكدين يقفون فى الأسواق والمساجد، فيضعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث بأسانيد صحاح قد حفظوها، فيذكرون الموضوعات بتلك الأسانيد؛ قال جعفر بن محمد الطيالسى : صلّى أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين ، فى مسجد الرُّصافة ، فقام بين أيديهما قاصّ فقال : حدّثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن مَعين قالا أنبأنا عبد الرزاق قال أنبأنا مَعْمر عن قَتادة عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : من قال لا إله إلا الله يُخلق من كل كلمةٍ منها طائر منقاره من ذهب وريشه مرجان . وأخذ فى قصةٍ نحوٍ من عشرين ورقة؛ فجعل أحمد ينظر إلى يحيى ويحيى ينظر إلى أحمد ؛ فقال : أنت حدّثته بهذا ؟ فقال : والله ما سمعت به إلا هذه الساعة؛ قال : فسكتا جميعا حتى فرغ من قصصه، فقال له يحيى : من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال : أحمد بن حنبل ويحيى بن معين؛ فقال أنا آبن معين، وهذا أحمد بن حنبل، ما سمعنا بهذا قط فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان ولا بدّ من الكذب فعلى غيرنا ؛ فقال له : أنت يحيى بن معين ؟ قال : نعم، قال : لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحمق، وماعلمته إلا هذه الساعة؛ فقال له يحيى : وكيف علمت أنى أحمق ؟ قال : كأنه ليس فى الدنيا يحيى بن مَعين وأحمد بن حنبل غيرك، كتبت عن سبعة عشر أحمد بن حنبل غير هذا . قال : فوضع أحمد كُمّه على وجهه وقال : دعه يقوم؛ فقام كالمستهزئ بهما . فهؤلاء الطوائف كَذَبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن يجرى مجراهم . يُذكر أن الرشيد كان يعجبه الحَمام واللَّهْو به ؛ فأُهْدى إليه حمام وعنده أبو البَخْتَرِىّ[1]

(١) أبو البخترى : هو وهب بن وهب بن كثير . انتقل من المدينة إلى بغداد فى خلافة هارون الرشيد فولاه القضاء بعسكر المهدى (المحلة المعروفة بالرصافة بالجانب الشرق من بغداد) ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بكار الزبيرى وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفى سنة ماتين .

القاضى فقال : روى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا سَبَق إلا فى خُفٍّ أو حافر أو جَناح" فزاد : أو جناح، وهى لفظة وضعها للرشيد ، فأعطاه جائزة سَنِيّة ؛ فلما خرج قال الرشيد : والله لقد علمت أنه كذاب، وأمر بالحمَام أن يذبح؛ فقيل له : وما ذنب الحمام؟ قال : من أجله كُذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فترك العلماء حديثه لذلك، ولغيره من موضوعاته ، فلا يكتب العلماء حديثه بحال .

قلت : فلو آقتصر النـاس على ما ثبت فى الصحاح والمسانيد وغيرهما من المصنفات التى تداولها العلماء، ورواها الأئمة الفقهاء، لكان لهم فى ذلك غُنْية، وخرجوا عن تحذيره صلى الله عليه وسلم حيث قال : "آتقوا الحديث عنّى إلا ما علمتم فمن كذب علىّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار" الحديث . فتخويفه صلى الله عليه وسلم أمته بالنار على الكذب، دليل على أنه كان يعلم أنه سيُكذب عليه . فحذارِ مما وضعه أعداء الدين ، وزنادقة المسلمين ، فى باب الترغيب والترهيب وغير ذلك ؛ وأعظمهم ضررا أقوام من المنسوبين إلى الزهد ، وضعوا الحديث حِسبة فيما زعموا، فتقبل الناس موضوعاتهم، ثقة منهم بهم، وركونا إليهم، فضلّوا وأضلّوا .

باب ما جاء من الحجة فى الرّد على من طعن فى القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان

لا خلاف بين الأمة ولا بين الأئمة أهل السُّنّة، أن القرآن آسم لكلام الله تعالى الذى جاء به محمد صلّى الله عليه وسلّم معجزةً له — على نحو ما تقدّم — وأنه محفوظ فى الصدور، مقروءٌ بالألسنة، مكتوبٌ فى المصاحف ؛ معلومةٌ على الآضطرار سُوَرُه وآياته، مُبرّأةٌ من الزيادة والنقصان حروفه وكلماته ؛ فلا يحتاج فى تعريفه بحدّ ، ولا فى حصره بعدّ، فمن آدّعى زيادة عليه أو نقصانا منه، فقد أبطل الإجماع، وبهَت الناس، وردّ ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن المنزل عليه، وردّ قوله تعالى : « قُل لَّئِنِ آجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1]، وأبطل آية رسوله

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٦

عليه السلام، لأنه إذ ذاك يصير القرآن مقدورا عليه، حين شِيب بالباطل، ولمّا قدر عليه لم يكن حجة ولا آية، وخرج عن أن يكون معجزا .

فالقائل بأن القرآن فيه زيادة ونقصان رادٌّ لكتاب الله ولمَا جاء به الرسول، وكان كمن قال : الصلوات المفروضات خمسون صلاة، وتزوُّجُ تسع من النساء حلال، وفرض الله أياما مع شهر رمضان، إلى غير ذلك مما لم يثبت فى الدين، فإذا ردّ هذا بالإجماع، كان الإجماع على القرآن أثبت وآكد وألزم وأوجب .

قال الإمام أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنبارى : ولم يزل أهل الفضل والعقل يعرفون من شرف القرآن وعلو منزلته ، ما يوجبه الحق والإنصاف والديانة ، وينفون عنه قول المبطلين، وتمويه الملحدين وتحريف الزائغين، حتى نبغ فى زماننا هذا زائغ زاغ عن الملة، وهجم على الأمة بما يحاول به إبطال الشريعة التى لا يزال الله يؤيدها، ويثبت أُسّها، ويُنمى فرعها، ويحرسها من معايب أُولِى الجَنَف والجَوْر، ومكايد أهل العداوة والكفر .

فزعم أن المصحف الذى جمعه عثمان رضى الله عنه — باتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تصويبه فيما فعل — لا يشتمل على جميع القرآن، إذ كان قد سقط منه خمسمائة حرف ، قد قرأت ببعضها وسأقرأ ببقيتها، فمنها : « والعصر ونوائب الدهر » فقد سقط من القرآن على جماعة المسلمين « ونوائب الدهر » . ومنها : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها» . فادّعى هذا الإنسان أنه سقط على أهل الإسلام من القرآن : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ، وذكر مما يدعى حروفا كثيرة .

وادّعى أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم زادوا فى القرآن ما ليس فيه ، فقرأ فى صلاة الفرض والناس يسمعون : « الله الواحد الصمد » فأسقط من القرآن « قل هو » وغيّر لفظ

« أحد » وادّعى أن هذا هو الصواب والذى عليه الناس هو الباطل والمحال، وقرأ فى صلاة الفرض : « قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون » وطعن فى قراءة المسلمين .

وادّعى أن المصحف الذى فى أيدينا اشتمل على تصحيف حروف مفسدة مغيّرة، منها : « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١)، فادّعى أن الحكمة والعزة لايشاكلان المغفرة، وأن الصواب : « وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم » . وترامى به الغىّ فى هذا وأشكاله حتى ادّعى أن المسلمين يصحّفون : « وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً » والصواب الذى لم يغيّر عنده : « وكان عبدًا لله وجيها » ، وحتى قرأ فى صلاة مفترضة على ما أخبرنا جماعة سمعوه وشهدوه : « لا تحرّك به لسانك إن علينا جمعه وقراءته فإذا قرأناه فاتّبع قراءته ثم إن علينا نبأ به» . وحكى لنا آخرون عن آخرين أنهم سمعوه يقرأ : «ولقد نصركم الله ببدر بسيف عَلِيّ وأنتم أذلة» . وروى هؤلاء أيضا لنا عنه قال : «هذا صراط علىّ مستقيم» . وأخبرونا أنه أدخل فى آية من القرآن ما لا يضاهى فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل فى لسان قومه الذين قال الله عزّ وجلّ فيهم : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » فقرأ : « أليس قلت للناس » فى موضع : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ » وهذا لا يعرف فى نحو المعربين ، ولا يحمل على مذاهب النحويين؛ لأن العرب لم تقل : ليس قمت، فأما : لست قمت، بالتاء فشاذّ قبيح خبيث ردىء ؛ لأن ليس لا تجحد الفعل الماضى ، ولم يوجد مثل هذا إلا فى قولهم : أليس قد خلق الله مثلهم؛ وهو لغة شاذة لا يُحمل كتاب الله عليها .

وادّعى أن عثمان رضى الله عنه لما أسند جمع القرآن إلى زيد بن ثابت لم يُصب؛ لأن عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب كانا أولى بذلك من زيد لقول النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : " أقرأ أمتى أُبَىّ بن كعب " ولقوله عليه السلام : " مَن سَرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أُمّ عَبْد " . وقال هذا القائل : لى أن أخالف مصحف عثمان كما خالفه أبو عمرو بن العلاء، فقرأ : « إنّ هذيْن »(٢)، « فأصدق وأكون »، « وبشر عبادىَ الذين » بفتح الياء ، « فما أتانىَ الله » بفتح الياء . والذى فى المصحف : « إِنَّ هَـذَانِ »(٢) بالألف ،

(١) آية ١١٨ سورة المائدة . (٢) بتشديد النون، قراءة نافع .

« فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ » بغير واو ، « فَبَشِّرْ عِبَادِ » ، « فَمَا أَتَانِ اللهُ » بغير ياءين فى الموضعين . وكما خالف آبن كثير ونافع وحمزة والكسائى مصحف عثمان فقرءوا : « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ »(١) بإثبات نونين ، يفتح الثانية بعضهم و يسكنها بعضهم ، وفى المصحف نون واحدة ؛ وكما خالف حمزة المصحف فقرأ : « أَتَمُدُّونِ بِمَالٍ » بنون واحدة ووقف على الياء ، وفى المصحف نونان ولا ياء بعدهما ؛ وكما خالف حمزة أيضا المصحف فقرأ : « ألا إنّ ثمودَا كفروا ربّهم » بغير تنوين ، و إثبات الألف يوجب التنوين ؛ وكل هذا الذى شنّع به على القرّاء ما يلزمهم به خلافٌ للمصحف .

قلت : قد أشرنا إلى العدّ فيما تقدّم مما آختلفت فيه المصاحف ، وسيأتى بيان هذه المواضع فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

قال أبو بكر : وذكر هذا الإنسان أن أُبَىّ بن كعب هو الذى قرأ « كأن لم تغن بالأمس وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » وذلك باطل ؛ لأن عبد الله بن كثير قرأ على مجاهد ، ومجاهد قرأ على آبن عباس ، وآبن عباس قرأ القرآن على أُبَىّ بن كعب « حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » ، فى رواية وقرأ أُبَىّ القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؛ وهذا الإسناد متّصل بالرسول عليه السلام نقله أهل العدالة والصّيانة ، و إذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرٌ لم يؤخذ بحديث يخالفه . وقال يحيى بن المبارك اليزيدى : قرأت القرآن على أبى عمرو بن العلاء ، وقرأ أبو عمرو على مجاهد ، وقرأ مجاهد على آبن عباس ، وقرأ آبن عباس على أُبَىّ بن كعب ، وقرأ أُبَىّ على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وليس فيها « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » فمن جحد أن هذه الزيادة أنزلها الله تعالى على نبيّه عليه السلام فليس بكافر ولا آثم .

حدّثنى أبَىٌّ نبّأنا نصر بن داود الصاغانى نبأنا أبو عبيد قال : ما يُروَى من الحروف التى تخالف المصحف الذى عليه الإجماع من الحروف التى يعرف أسانيدَها الخاصةُ دون العامة فيما نقلوا فيه عن أُبَىّ : « وما كان الله ليهلكها إلا بذنوب أهلها » ؛ وعن آبن عباس « ليس

(١) يلاحظ أن الذى فى المصحف نونان .

عليكم جُناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » . ومما يحكون عن عمر بن الخطاب أنه قرأ : «غير المغضوب عليهم وغير الضالين» مع نظائر لهذه الحروف كثيرة، لم ينقلها أهل العلم على أن الصلاة بها تحلّ ، ولا على أنها معارَض بها مصحف عثمان ؛ لأنها حروف لو جحدها جاحد أنها من القرآن لم يكن كافرا ؛ والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا ، حكمه حكم المرتد يُستتاب ؛ فإن تاب و إلا ضُربت عنقه . وقال أبو عبيد: لم يزل صَنيع عثمان رضى الله عنه فى جمعه القرآن يُعتدّ له بأنه من مناقبه العظام ؛ وقد طعن عليه فيه بعض أهل الزَّيْغ فانكشف عواره، ووضحت فضائحه . قال أبو عبيد : وقد حدّثت عن يزيد بن زُرَيع عن عمران بن جرير عن أبى مِجْلَز قال : طعن قوم على عثمان رحمه الله — بجُحْفِهم — جَمْعَ القرآن، ثم قرءوا بما نُسخ . قال أبو عبيد : يذهب أبو مجلز إلى أن عثمان أسقط الذى أسقط بعلم كما أثبت الذى أثبت بعلم . قال أبو بكر : وفى قوله تعالى « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » دلالة على كفر هذا الإنسان ؛ لأن الله عزّ وجلّ قد حفظ القرآن من التغيير والتبديل، والزيادة والنقصان ؛ فإذا قرأ قارئ : « تَبَّتْ يَدَا أبى لهب وقد تَبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ومُرَيَّته حمالة الحطب فى جيدها حبل من ليف » فقد كَذَب على الله جلّ وعلا وقَوَّله مالم يقل، و بدّل كتابه وحرّفه، وحاول ما قد حفظه منه ومنع من اختلاطه به ؛ وفى هذا الذى أتاه توطئة الطريق لأهل الإلحاد، ليُدخلوا فى القرآن مايحلّون به عُرا الإسلام، و يَنسُبونه إلى قوم كهؤلاء القوم الذين أحالوا هذا بالأباطيل عليهم . وفيه إبطال الإجماع الذى به يحرس الإسلام، و بثباته تقام الصلوات، وتُؤدّى الزكوات وتحترى المتعبّدات . وفى قول الله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » دلالة على بدعة هذا الإنسان وخروجه إلى الكفر، لأن معنى « أحكمت آياته» : منع الخلق من القدرة على أن يزيدوا فيها، أو ينقصوا منها أو يعارضوها بمثلها، وقد وجدنا هذا الإنسان زاد فيها : وكفى الله المؤمنين القتال بعلىّ وكان الله قويا عزيزا . فقال فى القرآن هُجرًا ، وذكر علياً فى مكان لو سمعه يذكره فيه لأمضى عليه الحدّ ، وحكم عليه بالقتل . وأسقط من كلام الله

« قل هو » وغيّر « أحد » فقرأ : الله الواحد الصمد . وإسقاط ما أسقطه نَفْيٌ له وكُفر ، ومَن كفر بحرف من القرآن فقد كفر به كله وأبطل معنى الآية ؛ لأن أهل التفسير قالوا : نزلت الآية جوابا لأهل الشرك لمّا قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : صِفْ لنا رَبَّك ، أمن ذهب أم من نحاس أم من صُفْر ؟ فقال الله جلّ وعزّ ردّا عليهم : «قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ» ففى «هو» دلالة على موضع الردّ ومكان الجواب ؛ فاذا سقط بطل معنى الآية ، ووضح الافتراء على الله عزّ وجلّ ، والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال لهذا الإنسان ومَن ينتحل نصرته : أخبرونا عن القرآن الذى نقرؤه ولا نعرف نحن ولا مَنْ كان قبلنا من أسلافنا سواه ؛ هل هو مشتمل على جميع القرآن من أوّله إلى آخره ، صحيح الألفاظ والمعانى عارٍ عن الفساد والخلل ؟ أم هو واقع على بعض القرآن والبعض الآخر غائب عنا كما غاب عن أسلافنا والمتقدّمين من أهل ملّتنا ؟ فإن أجابوا بأن القرآن الذى معنا مشتمل على جميع القرآن لا يسقط منه شيء ، صحيح اللفظ والمعانى ، سليمها من كل زلل وخلل ؛ فقد قضوا على أنفسهم بالكفر حين زادوا فيه « فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غِسْلين من عين تجرى من تحت الجحيم » فأىّ زيادة فى القرآن أوضح من هذه ، وكيف تخلط بالقرآن وقد حرسه الله منها ومنع كل مُفْتر ومُبْطل من أن يلحق به مثلها ، وإذا تُؤمِّلتْ وبُحث عن معناها وُجدت فاسدة غير صحيحة ، لا تشاكل كلام البارئ تعالى ولا تخلط به ، ولا توافق معناه ، وذلك أن بعدها « لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ » فكيف يؤكل الشراب ، والذى أتى به قبلها : فليس له اليوم هاهنا حميم وليس له شراب إلا من غسلين من عين تجرى من تحت الجحيم لا يأكله إلا الخاطئون . فهذا متناقض يفسد بعضه بعضا ، لأن الشراب لا يؤكل ، ولا تقول العرب : أكلت الماء ، لكنهم يقولون : شربته وذقته وطعمته ، ومعناه فيما أنزل الله تبارك وتعالى على الصحة فى القرآن الذى مَن خالف حَرْفًا منه كفر . « وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ » لا يأكل الغسلين إلا الخاطئون أو لا يأكل الطعام إلا الخاطئون . والغسلين : ما يخرج من أجوافهم من الشحم وما يتعلق به من الصَّديد وغيره ؛ فهذا طعام يؤكل عند البَلِيّة والنِّقمة ، والشراب محال أن

يؤكل. فإن آدّعى هذا الإنسان أن هذا الباطل الذى زاده من قوله «من عين تجرى من تحت الجحيم» ليس بعدها «لا يأكله إلا الخاطئون» ونفى هذه الآية من القرآن لتصح له زيادته، فقد كفر لما جحد آية من القرآن. وحسبك بهذا كله ردّا لقوله، وخزيا لمقاله. وما يؤثر عن الصحابة والتابعين أنهم قرءوا بكذا وكذا إنما ذلك على جهة البيان والتفسير، لا أن ذلك قرآن يُتلى، وكذلك ما نُسخ لفظه وحكمه أو لفظه دون حكمه ليس بقرآن؛ على ما يأتى بيانه عند قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ»[1] إن شاء الله تعالى.

القول فى الآســـتعاذة

وفيها آثنتا عشرة مسألة:

الأولى — أمَر الله تعالى بالآستعاذة عند أوّل كل قراءة فقال تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ» أى إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضى موقع المستقبل كما قال الشاعر:

وإنى لآتيكم لذكرى الذى مضى * من الودّ وآستئناف ما كان فى غدِ

أراد ما يكون فى غد؛ وقيل: فى الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا فى المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: «ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى» المعنى فتدلى ثم دنا؛ ومثله: «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ» وهو كثير.

الثانيـــة — هـذا الأمر على النّدْب فى قول الجمهور فى كل قراءة فى غير الصـلاة. وآختلفوا فيه فى الصلاة. حكى القاش عن عطاء: أن الآستعاذة واجبة. وكان آبن سيرين والنّخعى وقوم يتعوّذون فى الصلاة كل ركعة، ويمتثلون أمر الله فى الآستعاذة على العموم، وأبو حنيفة والشافعىّ يتعوّذان فى الركعة الأولى من الصلاة ويريان قراءة الصلاة كلها كقراءة واحدة؛ ومالك لا يرى التعوّذ فى الصلاة المفروضة ويراه فى قيام رمضان.

الثالثـــة — أجمع العلماء على أن التعوّذ ليس من القرآن ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهذا اللفظ هو الذى عليه الجمهور من العلماء فى التعوّذ لأنه

(١) راجع جـ ٢ ص ٦١

لفظ كتاب الله تعالى . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ فقال لى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : " يا بن أُمّ عَبْد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنى جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم " .

الرابعة — روى أبو داود وابن ماجه فى سُننهما عن جُبَير بن مُطْعِم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى صلاة فقال عمرو[1] : لا أدرى أى صلاة هى؟ فقال : " الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا — ثلاثا — الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا — ثلاثا — وسبحان الله بكرة وأصيلا — ثلاثا — أعوذ بالله من الشيطان من نَفْخه ونَفْثه وهَمْزه " . قال عمرو : هَمْزُه المُؤْتَةُ ، ونَفْثُه الشِّعر ، ونَفْخُه الكِبْر . وقال ابن ماجه : المُؤْتَة يعنى الجنون . والنَّفْث : نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه . والكِبر : التِّيهُ . وروى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قام من الليل كبّر ثم يقول : " سبحانك اللّهُمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك — ثم يقول : — لا إله إلا الله — ثلاثا ثم يقول : — الله أكبر كبيرا — ثلاثا — أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه " ؛ ثم يقرأ . وروى سليمان بن سالم عن ابن[2] القاسم رحمه الله أن الاستعاذة : أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . قال ابن عطية : « وأما المقرئون فأكثروا فى هذا من تبديل الصفة فى اسم الله تعالى وفى الجهة الأخرى ، كقول بعضهم : أعوذ بالله المجيد ، من الشيطان المريد ، ونحو هذا مما لا أقول فيه : نِعمت البِدْعة ، ولا أقول : إنه لا يجوز » .

الخامسة — قال المَهْدَوِىّ : أجمع القرّاء على إظهار الاستعاذة فى أوّل قراءة سورة «الحمد» إلا حمزة فإنه أسرّها . وروى السُّدِّى[3] عن أهل المدينة أنهم كانوا يفتتحون القراءة بالبسملة . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِىّ عن بعض المفسرين أن التعوّذ فرض ، فإذا نسيه

---

(١) لعله عمرو بن مرة المذكور فى سند هذا الحديث (انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ١٣٩ وسنن أبى داود جـ ١ ص ٧٧ طبع مصر) . (٢) فى بعض النسخ : « أبى القاسم » . (٣) فى بعض النسخ : « المسيبى » .

القارئ وذكره فى بعض الحزب قطع وتعوذ، ثم ابتدأ من أوله . وبعضهم يقول : يستعيذ ثم يرجع إلى موضعه الذى وقف فيه؛ وبالأول قال أسانيد الحجاز والعراق؛ وبالثانى قال أسانيد الشام ومصر .

السادسة — حكى الزهراوى قال : نزلت الآية فى الصلاة وندبنا إلى الاستعاذة فى غير الصلاة وليس بفرض . قال غيره : كانت فرضًا على النبى صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم تأسينا به .

السابعة — رُوِى عن أبى هريرة أن الاستعاذة بعد القراءة ؛ وقاله داود . قال أبو بكر بن العربى : «انتهى العى بقوم إلى أن قالوا : إذا فرغ القارئ من قراءة القرآن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم » . وقد روى أبو سعيد الخُدْرِى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ فى صلاته قبل القراءة؛ وهذا نص . فإن قيل : فما العائدة فى الاستعاذة من الشيطان الرجيم وقت القراءة ؟ قلنا : فائدتها امتثال الأمر ؛ وليس للشرعيات فائدة إلا القيام بحق الوفاء لها فى امتثالها أمرًا أو اجتنابها نهيًا؛ وقد قيل : فائدتها امتثال الأمر بالاستعاذة من وسوسة الشيطان عند القراءة؛ كما قال تعالى : « وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ »(١) . قال ابن العربى : «ومن أغرب ما وجدناه قول مالك فى المجموعة فى تفسير هذه الآية : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(٢) قال : ذلك بعد قراءة أم القرآن لمن قرأ فى الصلاة، وهذا قول لم يرد به أثر، ولا يعضُده نظر؛ فإن كان هذا كما قال بعض الناس : إن الاستعاذة بعد القراءة، كان تخصيص ذلك بقراءة أم القرآن فى الصلاة دعوى عريضة، ولا تشبه أصل مالك ولا فهمه؛ فالله أعلم بسر هذه الرواية » .

الثامنة — فى فضل التعوذ . روى مسلم عن سليمان بن صُرَد قال : استَبَّ رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم فجعل أحدُهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه؛ فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقام إلى الرجل رجل ممن سمع النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل تدرى ما قال

(١) آية ٥٢ سورة الحج . (٢) آية ٩٨ سورة النحل .

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آنفا ؟ قال : " إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " . فقال له الرجل : أمجنونا ترانى ! أخرجه البخارى أيضا . وروى مسلم أيضا عن عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بينى و بين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك شيطان يقال له خَنْزَب[1] فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه وآتفل عن يسارك ثلاثا " قال : ففعلت فأذهبه الله عنى . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سافر فأقبل عليه الليل قال : " يا أرضُ ربّى وربّك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما خلق فيك ومن شر مايَدِبّ عليك ومن أسد وأسْود ومن الحية والعقرب ومن ساكنى البلد ووالد وما ولد " . وروَتْ خَوْلة بنت حَكيم قالت : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول : " مَن نزل منزلا ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل " . أخرجه المُوَطّا ومسلم والترمذىّ وقال : حديث حسن غريب صحيح . وما يُتعوّذ منه كثير ثابت فى الأخبار، والله المستعان .

التاسعة — معنى الآستعاذة فى كلام العرب : الآستجارة والتحيّز إلى الشيء، على معنى الآمتناع به من المكروه، يقال : عُذت بفلان وآستعذت به، أى لجأت إليه . وهو عياذى، أى ملجئى . وأعذت غيرى به وعوّذته بمعنًى . ويقال : عَوْذٌ بالله منك، أى أعوذ بالله منك، قال الراجز :

قالت وفيها حَيْدَةٌ وذُعْر ٭ عَوْذٌ بربّى منكمُ وحُجْر

والعرب تقول عند الأمر [تنكره][2] : حُجْرًا له (بالضم) أى دفعًا، وهو آستعاذة من الأمر . والعوذة والمعاذة والتعويذ كله بمعنًى . وأصل أعوذ : أعُوذ نقلت الضمة إلى العين لآستثقالها على الواو فسكنت .

---

(١) قوله : يقال له خنزب . فى نهاية ابن الأثير : «قال أبو عمرو : وهو لقب له، والخنزب (بالفتح) : قطعة لحم منتنة ويروى بالكسر والضم» .

(٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (حجر) .

العـاشرة — الشيطان واحد الشياطين، على التكسير والنون أصلية، لأنه من شَطَن إذا بَعُدَ عن الخير. وشطنت داره أى بعدت، قال الشاعر[1] :

نأتْ بسعادَ عنك نَوًى شَـطُونُ * فبانتْ والفـؤادُ بها رهـينُ

وبئر شَطُون أى بعيدة القعر. والشَّطَن : الحبل، سُمِّىَ به لبعد طرفيه وامتداده. ووصف أعرابى فرسا [لا يُخْفَى][2] فقال : كأنه شيطان فى أشطان. وسُمِّىَ الشـيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده، وذلك أن كل عاتٍ متمردٍ من الجنّ والإنس والدواب شيطان، قال جرير :

أيامَ يدعونَنى الشيطانَ من غَزَلٍ * وهُنّ يَهْـوَيْنَنى إذ كنتُ شـيطانَا

وقيل : إن شـيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك[3]، فالنون زائدة. وشاط إذا احترق. وشيّطت اللحم إذا دخته ولم تنضجه. واشتاط الرجل إذا احتدّ غضبا. وناقة مِشياط التى يطير فيها السِّمَن. واشتاط إذا هلك، قال الأعشى :

قد تَخضب العَيْر من مكنون فائله[4] * وقـد يَشِيط على أرماحنا البَـطَلُ

أى يهلك. ويرد على هذه الفرقة أن سيبويه حكى أن العرب تقول : تَشَيْطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بيّن أنه تفعيل من شطن، ولو كان من شاط لقالوا : تشيّط، ويرد عليهم أيضا بيت أُمَيّة بن أبى الصَّلْت :

أيُّمـا شاطنٍ عَصَـاه عَكَاه[5] * ورماه فى السجن والأغلال

فهذا شاطن من شطن لا شك فيه.

الحادية عشرة — الرجيم أى المبعـد من الخير المهان. وأصـل الرجم : الرمى بالحجارة، وقد رجمته أرجمه، فهو رجيم ومرجوم. والرجم : القتل واللعن والطرد والشتم، وقـد قيل هذا كله فى قوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ». وقول أبى إبراهيم : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ »[6]. وسيأتى إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو النابغة الذبيانى، كما فى لسان العرب مادة (شطن). (٢) الزيادة عن لسان العرب مادة (شطن).
(٣) فى الأصول : «إذا بطل» والتصويب عن اللسان. (٤) القائل : عرق فى الفخذين يكون فى خربة الورك يتحدر فى الرجلين. (٥) عكاه فى الحديد والوثاق إذا شدّه. (٦) راجع جـ ١١ ص ١١١ وجـ ١٣ ص ١٢١

الثانية عشرة — روى الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند الصّفا وهو مقبل على شخص في صورة الفيل وهو يلعنه، قلت : ومن هذا الذي تلعنه يا رسول الله؟ قال : "هذا الشيطان الرجيم" فقلت : يا عدو الله، والله لأقتلنّك ولأريحنّ الأمة منك؛ قال : ما هذا جزائي منك؛ قلت : وما جزاؤك مني يا عدو الله ؟ قال : والله ما أبغضك أحدٌ قطّ إلا شَرِكتُ أباه في رَحِم أمّه .

البسملة

وفيها سبع وعشرون مسئلة :

الأولى — قال العلماء : «بسم الله الرحمن الرحيم» قَسَم من ربّنا أنزله عند رأس كل سورة، يقسم لعباده إن هذا الذي وضعت لكم يا عبادي في هذه السورة حق ، وإني أفي لكم بجميع ما ضمنت في هذه السورة من وعدي ولطفي وبرّي . و « بسم الله الرحمن الرحيم » مما أنزله الله تعالى في كتابنا وعلى هذه الأمة خصوصا بعد سليمان عليه السلام . وقال بعض العلماء : إن « بسم الله الرحمن الرحيم » تضمّنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات ؛ وهذا صحيح .

الثانية — قال سعيد بن أبي سكينة : بلغني أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه نظر إلى رجل يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال له : جوّدها فإن رجلا جوّدها فغفر له . قال سعيد : وبلغني أن رجلا نظر إلى قرطاس فيه « بسم الله الرحمن الرحيم » فقبّله ووضعه على عينيه فغفر له . ومن هذا المعنى قصة بِشْرٍ الحافي ، فإنه لما رفع الرقعة التي فيها اسم الله وطيبها طُيّب اسمه[1] ، ذكره القشيري . وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله

(١) نص القصة كما في وفيات الأعيان والرسالة القشيرية : « ... وسبب توبته أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوبا فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدراهم كانت معه غالية فطيّب بها الورقة وجعلها في شق حائط ، فرأى في النوم كأن قائلا يقول له : يا بشر، طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخرة . فلما انتبه من نومه تاب .

صلى الله عليـه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " إذا عثرت بك الدابة فلا تقل تَعِس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت و يقول بقوته صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب " . وقال علىّ بن الحسين فى تفسير قوله تعالى : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا »(١) قال معناه : إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » . وروى وَكيع عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله آبن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جُنّة من كل واحد . فالبسملة تسعة عشر حرفا على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم : « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » وهم يقولون فى كل أفعالهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » فمن هنالك هى قوّتهم ، و ببسم الله آستضلعوا . قال آبن عطية : ونظير هذا قولهم فى ليلة القدر : إنها ليلة سبع وعشرين ، مراعاة للفظة « هى » من كلمات سورة « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » . ونظيره أيضا قولهم فى عدد الملائكة الذين آبتدروا قول القائل : ربّنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركا فيه ، فإنها بضعة وثلاثون حرفا ؛ فلذلك قال النبى صلّى الله عليه وسلّم : " لقد رأيت بضعا وثلاثين مَلَكا يبتدرونها أيّهم يكتبها أوّل " . قال آبن عطية : وهذا من مُلَح التفسير وليس من متين العلم .

الثالثـــة — روى الشعبى والأعمش أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يكتب « بآسمك اللّهُمّ » حتى أُمِر أن يكتب « بسم الله » فكتبها ؛ فلما نزلت : « قُلِ آدْعُوا اللَّهَ أَوِ آدْعُوا الرَّحْمَنَ » كتب « بسم الله الرحمن » فلما نزلت : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » كتبها . وفى مصنف أبى داود قال الشعبى وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمارة : إن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى نزلت سورة « النمل » .

الرابعـــة — رُوى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال : البسملة تِيجان السُّوَر .

قلت : وهذا يدل على أنها ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها . وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى على ثلاثة أقوال :

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٧١

(الأول) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها؛ وهو قول مالك .

(الثانى) أنها آية من كل سورة؛ وهو قول عبد الله بن المبارك .

(الثالث) قال الشافعى : هى آية فى الفاتحة ؛ وتردد قوله فى سائر السُّوَر ؛ فمرّة قال : هى آية من كل سورة ، ومرّة قال : ليست بآية إلا فى الفاتحة وحدها . ولا خلاف بينهم فى أنها آية من القرآن فى سورة النمل .

واحتج الشافعى بما رواه الدَّارَقُطْنِيّ[1] من حديث أبى بكر الحنفى عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبى بلال عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرِيّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها". رفع هذا الحديث عبدالحميد ابن جعفر، وعبد الحميد هذا وثّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد ويحيى بن معين؛ وأبوحاتم يقول فيه : محلّه الصدق ؛ وكان سفيان الثورىّ يضعّفه ويحمل عليه . ونوح بن أبى بلال ثقة مشهور .

وحجة ابن المبارك وأحد قولى الشافعى ما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما؛ فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله؟ قال : "نزلت علىّ آنفًا سورة" فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» . وذكر الحديث، وسيأتى بكماله فى سورة الكوثر إن شاء الله تعالى[2] .

الخامسة — الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ؛ لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد و إنما طريقه التواتر القطعى الذى لا يختلف فيه . قال ابن العربى : « ويكفيك أنها

---

(١) ورد سند هذا الحديث مضطربا فى الأصول والتصويب عن سنن الدارقطنى وتهذيب التهذيب . وعبدالحميد بن جعفر هذا ، يكنى أبا الفضل ، ويقال : أبو حفص ، وليس من كنيته أبو بكر . ويروى عنه أبو بكر الحنفى . راجع تهذيب التهذيب .

(٢) راجع جـ ٢٠ ص ٢١٦ .

ليست من القرآن آختـلاف الناس فيهـا ، والقرآن لا يختلف فيه » . والأخبـار الصحاح التى لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا فى النمل وحدها . روى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عزّ وجلّ قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد «الحمد لله رب العالمين» قال الله تعالى حَمِدنى عبدى و إذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أثنى علىّ عبدى و إذا قال العبد « مالكِ يومِ الدينِ » قال مَجّدنى عبدى — وقال مرة فوّض إلى عبدى — فإذا قال «إيّاك نعبد و إيّاك نستعين» قال هذا بينى و بين عبدى ولعبدى ما سأل فإذا قال «آهدِنا آلصراط آلمستقيم صراط آلذين أنعمت عليهم غير آلمغضوبِ عليهم ولا آلضالين » قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل " . فقوله سبحانه : "قسمت الصلاة" يريد الفاتحة، وسماها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها ؛ بجعل الثلاث الآيات الأوَل لنفسه ، وآختص بها تبارك آسمه ، ولم يختلف المسلمون فيها . ثم الآية الرابعة جعلها بينه و بين عبده ؛ لأنها تضمنت تذلّل العبد وطلب الآستعانة منـه ، وذلك يتضمن تعظيم الله تعـالى ، ثم ثلاث آيات تمّة سبع آيات . ومما يدل على أنها ثلاث قوله : "هؤلاء لعبدى" أخرجه مالك ؛ ولم يقل : هاتان ؛ فهذا يدل على أن « أنعمت عليهم » آية . قال آبن بكير قال مالك : « أنعمت عليهم » آية ، ثم الآية السابعة إلى آخرها . فثبت بهـذه القسمة التى قسمها الله تعالى و بقوله عليـه السلام لأُبَىّ : " كيف تقرأ إذا آفتتحت الصـلاة " قال : فقرأت « الحمـد لله رب آلعالمين » حتى أتيت على آخرها — أنّ البسملة ليست بآية منها ، وكذا عدّ أهل المدينة وأهل الشام وأهل البصرة ؛ وأكثر القرّاء عدّوا «أنعمت عليهم» آية ، وكذا روى قتادة عن أبى نَضْرة عن أبى هريرة قال : الآية السادسـة « أنعمت عليهم » . وأمّا أهل الكوفة من القرّاء والفقهاء فإنهـم عدّوا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » ولم يعدّوا « أنعمت عليهم » .

فإن قيل : فإنها ثبتت فى المصحف وهى مكتوبة بخطه ونقلت نقله ، كما نقلت فى النمل ، وذلك متواتر عنهم . قلنا : ما ذكرتموه صحيح ؛ ولكن لكونها قرآنا ، أولكونها فاصلة بين السور

— كما روى عن الصحابة : كنا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود — أو تبركا بها، كما قد اتفقت الأمة على كتبها فى أوائل الكتب والرسائل ؟ كل ذلك محتمل . وقد قال الجُرَيرى[1] : سئل الحسن عن « بسم الله الرحمن الرحيم » قال : فى صدور الرسائل . وقال الحسن أيضا : لم تنزل « بسم الله الرحمن الرحيم » فى شىء من القرآن إلا فى «طسّ» «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» . والفيصل أن القرآن لا يثبت بالنظر والاستدلال ، وإنما يثبت بالنقل المتواتر القطعى الاضطرارى . ثم قد اضطرب قول الشافعى فيها فى أول كل سورة فدل على أنها ليست بآية من كل سورة ؛ والحمد لله .

فإن قيل : فقد روى جماعة قرآنيتها ، وقد تولى الدارَقُطْنِيّ جمع ذلك فى جزء صححه . قلنا : لسنا ننكر الرواية بذلك وقد أشرنا إليها ، ولنا أخبار ثابتة فى مقابلتها ، رواها الأئمة الثقات والفقهاء الأثبات . روت عائشة فى صحيح مسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين، الحديث . وسيأتى بكماله . وروى مسلم أيضا عن أنس بن مالك قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين؛ لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا فى أول قراءة ولا فى آخرها .

ثم إن مذهبنا يترجّح فى ذلك بوجه عظيم ، وهو المعقول؛ وذلك أن مسجد النبىّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة انقضت عليه العصور ، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لَدُن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمان مالك ، ولم يقرأ أحد فيه قطّ « بسم الله الرحمن الرحيم » اتباعا للسُّنّة ؛ وهذا يردّ أحاديثكم .

بَيْدَ أن أصحابنا استحبّوا قراءتها فى النفل ؛ وعليه تحمل الآثار الواردة فى قراءتها أو على السَّعة فى ذلك . قال مالك : ولا بأس أن يقرأ بها فى النافلة ومن يَعرِض القرآن عرضا .

---

(١) الجريرى (بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما ، نسبة الى جرير بن عباد بن ضبيعة) : وهو سعيد بن إياس الجريرى أبو مسعود البصرى .

وجملة مذهب مالك وأصحابه : أنها ليست عندهم آية من فاتحة الكتاب ولا غيرها ، ولا يقرأ بها المصلّى فى المكتوبة ولا فى غيرها سرًّا ولا جهرا ؛ ويجوز أن يقرأها فى النوافل . هـذا هو المشهور من مذهبه عنـد أصحابه . وعنـه رواية أخرى أنها تقرأ أوّل السورة فى النوافل ، ولا تقرأ أوّل أم القرآن . وروى عنـه آبن نافع آبتـداء القراءة بها فى الصلاة الفرض والنفل ولا تترك بحال . ومن أهـل المدينة من يقول : إنه لابدّ فيها من « بسم الله الرحمن الرحيم » منهم آبن عمر ، وآبن شهاب ؛ وبه قال الشافعى وأحمـد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد . وهـذا يدل على أن المسألة مسئلة آجتهادية لا قطعية ، كما ظنـه بعض الجهال من المتفقهة الذى يلزم على قوله تكفير المسلمين ؛ وليس كما ظن لوجود الآختلاف المذكور ؛ والحمد لله .

وقد ذهب جمع من العلماء إلى الإسرار بها مع الفاتحة ؛ منهم : أبو حنيفة والثّوْرِى ؛ وروى ذلك عن عمر وعلىّ وآبن مسعود وعمّار وآبن الزبير ؛ وهو قول الحكم وحماد ؛ وبه قال أحمد آبن حنبل وأبو عبيـد ؛ ورُوِىَ عن الأوزاعىّ مثـل ذلك ؛ حكاه أبو عمر بن عبـد البرّ فى (الآستذكار) . وآحتجوا من الأثر فى ذلك بما رواه منصور بن زاذان عن أنس بن مالك قال : صلّى بنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعنا قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » . وما رواه عمار بن رُزَيق[1] عن الأعمش عن شعبة عن ثابت عن أنس قال : صلّيت خلف النبىّ صلى الله عليه وسلم وخلف أبى بكر وعمر ، فلم أسمع أحدا منهم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم .

قلت : هذا قول حسن ، وعليه تتفق الآثار عن أنس ولا تتضاد ويخرج به من الخلاف فى قراءة البسملة . وقـد رُوى عن سعيد بن جبير قال : كان المشركون يحضرون بالمسجد ؛ فإذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم » قالوا : هذا محمد يذكر رحمان اليمامة — يعنون مُسَيْلِمة — فأمر أن يخافت ببسم الله الرحمن الرحيم ، ونزل : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » . قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله : فبقى ذلك إلى يومنا هـذا على

(١) كذا فى تهذيب التهذيب . وفى الأصول : « عمار عن رزيق » وهو خطأ .

ذلك الرسم وإن زالت العلة، كما بقى الرَّمَل فى الطواف وإن زالت العلة، وبقيت المخافتة فى صلاة النهار وإن زالت العلة .

السادسة — اتفقت الأمة على جواز كَتْبها فى أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل؛ فإن كان الكتاب ديوان شعر فروَى مُجالد عن الشَّعْبِي قال : أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وقال الزهرى : مضت السُّنّة ألا يكتبوا فى الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » . وذهب إلى رسم التسمية فى أول كتب الشعر سعيد بن جُبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين . قال أبو بكر الخطيب : وهو الذى نختاره ونستحبه .

السابعة — قال الماوردى ويقال لمن قال بسم الله : مُبَسْمِل، وهى لغة مُوَلّدة، وقد جاءت فى الشعر؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

لقد بَسْملتْ ليلَى غداةَ لقيتُها ✻ فيا حَبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ

قلت : المشهور عن أهل اللغة بسمل . قال يعقوب بن السِّكيت والمُطَرِّز والثعالبى وغيرهم من أهل اللغة : بسمل الرجل، إذا قال : بسم الله . يقال : قد أكثرت من البسملة؛ أى من قول بسم الله . ومثله حَوْقَل الرجل، إذا قال : لا حَوْلَ ولا قوّة إلا بالله . وهَلّل، إذا قال : لا إله إلا الله . وسَبْحَل، إذا قال : سبحان الله . وحَمْدَل، إذا قال : الحمد لله . وحَيْصَل، إذا قال : حىّ على الصلاة . وجَعْفَل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطَبْقَل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودَمْعَز، إذا قال : أدام الله عِزّك . وحَيْفَل، إذا قال : حىّ على الفلاح . ولم يذكر المُطَرِّز : الحَيْصَلة، إذا قال : حىّ على الصلاة . وجعفل، إذا قال : جُعلت فِداك . وطبقل، إذا قال : أطال الله بقاءك . ودمعز، إذا قال : أدام الله عزك .

الثامنة — ندب الشرع إلى ذكر البسملة فى أول كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر؛ والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال؛ قال الله تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » . « وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . وقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : "أغلق بابك وآذكر آسم الله وأطفئ مصباحك وآذكر آسم الله وخَمِّر[1] إناءك وآذكر آسم الله وأَوْكِ سقاءك وآذكر آسم الله" . وقال : "لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال بسم الله اللّهمّ جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد فى ذلك لم يضره شيطان أبدا" . وقال لعمر بن أبى سلمة : "ياغلام سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يَليكَ" وقال : "إنّ الشيطان ليستحل الطعام ألا يذكر آسم الله عليه" وقال : "من لم يذبح فليذبح بآسم الله" . وشكا إليه عثمان بن أبى العاص وجَعًا يجده فى جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثا وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر" . هذا كله ثابت فى الصحيح . وروى آبن ماجه والترمذىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "سَتْرُ ما بين الجن وعورات بنى آدم إذا دخل الكَنِيف أن يقول بسم الله" . وروى الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مس طهوره سَمّى الله تعالى، ثم يُفرغ الماء على يديه .

التاسعة — قال علماؤنا : وفيها ردّ على القَدَرِيَّة وغيرهم ممن يقول : إن أفعالهم مقدورة لهم . وموضع الآحتجاج عليهم من ذلك أنّ الله سبحانه أمرنا عند الآبتداء بكل فعل أن نفتتح بذلك، كما ذكرنا .

فمعنى « بسم الله » ، أى بالله . ومعنى « بالله » ، أى بخلقه وتقديره يوصل إلى ما يوصل إليه . وسيأتى لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : معنى قوله « بسم الله » يعنى بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته، وهذا تعليم من الله تعالى عباده، ليذكروا آسمه عند آفتتاح القراءة وغيرها، حتى يكون الآفتتاح ببركة الله جلّ وعزّ .

العاشرة — ذهب أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنّى إلى أن «آسم» صلة زائدة، وآستشهد بقول لَبِيد :

إلى الحَوْل ثم آسم السلام عليكما * ومَن يَبْك حَوْلًا كاملًا فقد آعتذر

(١) التخمير : التغطية . والوكاء : الخيط الذى تشد به الصرة والكيس وغيرهما . أى شدوا رءوس الأسقية بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أو يسقط فيها شىء .

فذكر « آسم » زيادة، وإنما أراد : ثم السلام عليكما .

وقد آستدل علماؤنا بقول لَبيد هذا على أن الآسم هو المسمَّى . وسيأتى الكلام فيه فى هذا الباب وغيره، إن شاء الله تعالى .

الحادية عشرة — آختلف فى معنى زيادة « آسم » ؛ فقال قُطْرُب : زِيدت لإجلال ذكره تعالى وتعظيمه . وقال الأخفش : زيدت ليخرج بذكرها من حكم القَسَم إلى قصد التبرك؛ لأن أصل الكلام : بالله .

الثانية عشرة — آختلفوا أيضا فى معنى دخول الباء عليه، هل دخلت على معنى الأمر؟ والتقدير : آبدأ بسم الله . أو على معنى الخبر؟ والتقدير : آبتدأت بسم الله؛ قولان : الأول للفرّاء ، والثانى للزجاج . فـ « باسم » فى موضع نصب على التأويلين . وقيل : المعنى آبتدائى بسم الله؛ فـ « بسم الله » فى موضع رفع خبر الآبتداء . وقيل : الخبر محذوف؛ أى آبتدائى مستقرّ أو ثابت بسم الله؛ فإذا أظهرته كان «بسم الله» فى موضع نصب بثابت أو مستقرّ، وكان بمنزلة قولك : زيد فى الدار . وفى التنزيل « فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَـٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى » فـ « عنده » فى موضع نصب؛ رُوى هذا عن نحاة أهل البصرة . وقيل : التقدير آبتدائى بسم الله موجود أو ثابت، فـ « باسم » فى موضع نصب بالمصدر الذى هو آبتدائى .

الثالثة عشرة — « بسم الله » ، تكتب بغير ألف آستغناء عنها بباء الإلصاق فى اللفظ والخط لكثرة الآستعمال؛ بخلاف قوله : « آقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ » فإنها لم تحذف لقلة الآستعمال . وآختلفوا فى حذفها مع الرحمن والقاهر؛ فقال الكسائى وسعيد الأخفش : تُحذف الألف . وقال يحيى بن وَثّاب : لا تُحذف إلا مع « بسم الله » فقط، لأن الآستعمال إنما كَثُر فيه .

الرابعة عشرة — وآختلف فى تخصيص باء الجر بالكسر على ثلاثة معان؛ فقيل : ليناسب لفظها عملها . وقيل : لمّا كانت الباء لا تدخل إلا على الأسماء خُصّت بالخفض

الذى لا يكون إلا فى الأسماء . الثـالث : ليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف آسمًا ؛ نحو الكاف فى قول الشاعر[(١)] :

* ورُحْنَا بِكَابْنِ المـاءِ يُجْنَبُ وسْـطَنا *

أى بمثل آبن المـاء أو ما كان مثله .

الخامسة عشرة — آسمٌ ، وزنه اِفْعٌ ، والذاهب منه الواو ؛ لأنه من سَمَوْت ، وجمعه أسماء ، وتصغيره سُمَيّ . وآختلف فى تقدير أصله ، فقيل : فِعْل ، وقيل : فُعْل . قال الجوهرى : وأسماء يكون جمعا لهذا الوزن ، وهو مثل جِذع وأجذاع ، وقُفل وأقفال ؛ وهـذا لا تدرك صيغته إلا بالسماع . وفيـه أربع لغات : اِسم بالكسر ، واُسم بالضم . قال أحمد بن يحيى : مَن ضمّ الألف أخذه من سَمَوْت أسمو ، ومن كسر أخذه من سميت أسمى . ويقـال : سِمٌ وسُمٌ ، ويُنْشَد :

واللهُ أسمـاك سُمًا مباركا * آثـرك الله بـه إيثاركا

وقال آخر :

وعامُنـا أعجبَنـا مقـدّمه * يُدْعَى أبا السَّمْحِ وقِرْضَابٌ سُمُهْ

* مُبْتَرِكًا[(٢)] لكل عظم يَلْحُمُهْ *

قرضب الرجل : إذا أكل شيئا يابسا ، فهو قرضاب . « سُمه » بالضم والكسر جميعا . ومنه قول الآخر :

* باسم الذى فى كل سورةٍ سُمه *

وسكنت السين من « باسم » آعتلالا[(٣)] على غير قيـاس ، وألفه ألف وصل ، وربمـا جعلها الشاعر ألف قطع للضرورة ؛ كقول الأَحْوَص :

وما أنا بالمَخْسُوس فى جِذْم مالكٍ * ولا مَن تَسَمَّى ثم يلتزم الإسمـا[(٤)]

---

(١) هو آمرؤ القيس . وتمام البيت وشرحه يأتى فى ص ٢١١ من هذا الجزء . (٢) رجل مبترك : معتمد على الشىء مُلِحّ . ويلحمه : ينزع عنه اللحم .

(٣) كان الأصل آسم نقلت حركة الهمزة إلى السين ثم حذفت الهمزة ولما وصلت الباء به سكنت السين تخفيفا .

(٤) المخسوس : المرذول . وجذم كل شىء : أصله . ومالك : جدّ أعلى للشاعر .

السادسة عشرة — تقول العرب فى النسب إلى الاسم : سُمَوِىّ، وإن شئت اسْمِىّ، تركته على حاله، وجمعه أسماء، وجمع الأسماء أسامٍ . وحكى الفرّاء : أعيذك بأسماوات الله .

السابعة عشرة — اختلفوا فى اشتقاق الاسم على وجهين ؛ فقال البصريون : هو مشتق من السُّمُوّ وهو العلوّ والرفعة، فقيل : اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به . وقيل : لأن الاسم يسمو بالمسمّى فيرفعه عن غيره . وقيل : إنما سُمِّىَ الاسم اسما لأنه علا بقوّته على قسمى الكلام : الحرف والفعل ؛ والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل ؛ فلعُلُوّه عليهما سمى اسما ؛ فهذه ثلاثة أقوال .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السِّمَة وهى العلامة ؛ لأن الاسم علامة لمن وضع له ؛ فأصل اسم على هذا «وسم» . والأول أصح ؛ لأنه يقال فى التصغير سمى وفى الجمع أسماء ؛ والجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها ؛ فلا يقال : وسيم ولا أوسام . ويدل على صحته أيضا فائدة الخلاف وهى :

الثامنة عشرة — فإن من قال الاسم مشتق من العُلُوّ يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفا قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فنائهم، ولا تأثير لهم فى أسمائه ولا صفاته ؛ وهذا قول أهل السُّنة . ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول : كان الله فى الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفاتٍ، فإذا أفناهم بقى بلا اسم ولا صفة ؛ وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم فى الخطإ من قولهم : إنّ كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك ! وعلى هذا الخلاف وقع الكلام فى الاسم والمُسَمَّى وهى :

التاسعة عشرة — فذهب أهل الحق — فيما نقل القاضى أبو بكر بن الطيّب — إلى أن الاسم هو المسمى، واختاره ابن فُورَك ؛ وهو قول أبى عبيدة وسيبويه . فإذا قال قائل : الله عالم ؛ فقوله دالّ على الذات الموصوفة بكونه عالما، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه . وكذلك إذا قال : الله خالق ؛ فالخالق هو الرب، وهو بعينه الاسم . فالاسم عندهم هو المسمّى بعينه من غير تفصيل .

قال ابن الحصار : مَن ينفى الصفات من المبتدعة يزعم أن لا مدلول للتسميات إلا الذات ، ولذلك يقولون : الاسم غير المسمَّى ، ومَن يثبت الصفات يثبت للتسميات مدلولات هى أوصاف الذات وهى غير العبارات وهى الأسماء عندهم . وسيأتى لهذه مزيد بيان فى « البقرة » و « الأعراف » إن شاء الله تعالى .

الموفية عشرين — قوله : « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسمّ به غيره ؛ ولذلك لم يُثَنّ ولم يجمع ؛ وهو أحد تأويل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى من تسمّى باسمه الذى هو « الله » . فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهيّة ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيق ، لا إله إلا هو سبحانه . وقيل : معناه الذى يستحق أن يُعبد . وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ولا يزال ؛ والمعنى واحد .

الحادية والعشرون — واختلفوا فى هذا الاسم هل هو مشتق أو موضوع للذات عَلَم؟ . فذهب إلى الأول كثير من أهل العلم . واختلفوا فى اشتقاقه وأصله ؛ فروى سيبويه عن الخليل أن أصله إلاه ، مثل فِعَال ؛ فأدخلت الألف واللام بدلا من الهمزة . قال سيبويه : مثل الناس أصله أناس . وقيل : أصل الكلمة «لاه» وعليه دخلت الألف واللام للتعظيم ، وهذا اختيار سيبويه . وأنشد :

لاهِ ابنُ عَمِّكَ لا أفضلتَ فى حسَبٍ * عنّى ولا أنت ديّانِى فتخــزونى

كذا الرواية : فتخزونى ، بالخاء المعجمة ومعناه : تسوسنى .

وقال الكسائى والفرّاء : معنى « بسم الله » بسم الإله ؛ فحذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى فى الثانية فصارتا لامًا مشدّدة ؛ كما قال عزّ وجلّ : «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى» ومعناه : لكن أنا ، كذلك قرأها الحسن . ثم قيل : هو مشتق من « وَلَه » إذا تحيّر ؛ والوله : ذهاب العقل . يقال : رجل وَالِهٌ وامرة والهة ووَالِهٌ ، وماء مولٌ (١) : أرسل فى الصحارى . فالله سبحانه تتحير

(١) قوله : ماء مولٌ . هو بضم الميم وتخفيف اللام ، وتشدّد وتفتح الواو .

الألباب وتذهب فى حقائق صفاته والفكر فى معرفته . فعلى هذا أصل « إلاه » « ولاه » وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت فى إشاح ووشاح ، و إسادة ووسادة ؛ ورُوى عن الخليل . ورُوى عن الضحاك أنه قال : إنما سُمّى « الله » إلهاً ، لأن الخلق يتألّهون إليه فى حوائجهم ، ويتضرّعون إليه عند شدائدهم . وذُكر عن الخليل بن أحمد أنه قال : لأن الخلق يألَهُون إليه (بنصب اللام) ويألِهُون أيضا (بكسرها) وهما لغتان . وقيل : إنه مشتق من الارتفاع ؛ فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع : لاهًا ، فكانوا يقولون إذا طلعت الشمس : لاهت . وقيل : هو مشتق من أله الرجل إذا تعبّد . وتألّه إذا تنسّك ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « وَيَذَرَكَ وَ إلَاهَتَكَ » على هذه القراءة ؛ فإن ابن عباس وغيره قالوا : وعبادتك .

قالوا : فاسم الله مشتق من هذا ، فالله سبحانه معناه المقصود بالعبادة ، ومنه قول الموحدين : لا إله إلا الله ، معناه لا معبود غير الله . و « إلا » فى الكلمة بمعنى غير ، لا بمعنى الاستثناء . وزعم بعضهم أن الأصل فيه « الهاء » التى هى الكناية عن الغائب ، وذلك أنهم أثبتوه موجودا فى فطر عقولهم فأشاروا إليه بحرف الكناية ثم زيدت فيه لام الملك إذ قد علموا أنه خالق الأشياء ومالكها فصار « لَهُ » ثم زيدت فيه الألف واللام تعظيما وتفخيما .

القول الثانى : ذهب إليه جماعة من العلماء أيضا منهم الشافعىّ وأبو المعالى والخطابى والغزالى والمفضّل وغيرهم ، ورُوِىَ عن الخليل وسيبويه : أن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه . قال الخطابى : والدليل على أن الألف واللام من بِنْية هذا الاسم ، ولم يدخلا للتعريف : دخول حرف النداء عليه ؛ كقولك : يا الله ، وحروف النداء لا تجتمع مع الألف واللام للتعريف ؛ ألا ترى أنك لا تقول : يا الرحمن ولا يا الرحيم ، كما تقول : يا الله ، فدل على أنهما من بِنْية الاسم . والله أعلم .

الثانية والعشرون — واختلفوا أيضا فى اشتقاق اسمه الرحمن ؛ فقال بعضهم : لا اشتقاق له لأنه من الأسماء المختصة به سبحانه ، ولأنه لو كان مشتقًّا من الرحمة لاتصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال : الله رَحْمنٌ بعباده ، كما يقال : رحيم بعباده . وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة

لم تنكره العرب حين سمعوه، إذ كانوا لا ينكرون رحمة ربّهم، وقد قال الله عزّ وجلّ : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ» الآية. ولما كتب عليّ رضى الله عنه فى صلح الحُدَيْبِيَة بأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سُهيل بن عمرو : أما «بسم الله الرحمن الرحيم» فما ندرى ما «بسم الله الرحمن الرحيم»! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللّهمّ، الحديث . قال ابن العربى : إنما جهلوا الصفة دون الموصوف، واستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن؟ ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ قال ابن الحصّار : وكأنه رحمه الله لم يقرأ الاية الأخرى : «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ» . وذهب الجمهور من الناس إلى أن «الرحمن» مشتق من الرحمة مبنى على المبالغة ؛ ومعناه ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها، فلذلك لا يُثَنّى ولا يجمع كما يُثَنّى «الرحيم» ويُجمع .

قال ابن الحصار : ومما يدل على الاشتقاق ما خرّجه الترمذى وصحّحه عن عبد الرحمن ابن عَوف أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرّحِم وشققت لها اسمًا من اسمى فمن وَصَلها وَصَلته ومَن قَطَعها قطعته" . وهذا نص فى الاشتقاق، فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب له لجهلهم بالله وبما وجب له .

الثالثة والعشرون — زعم المبرد فيما ذكر ابن الأنبارى فى كتاب «الزاهر» له : أن «الرحمن» اسم عبرانىّ بجاء معه بـ «الرحيم» . وأُنشد[1] :

لن تُدرِكوا المجدَ أو تَشْروا عباءَكُم * بالخَزِّ أو تجعلوا اليَنْبُوتَ ضَمْرانا

أو تتركون[2] إلى القَسَّيْن هِجْرَتَكم * ومَسْحَكم صُلْبَهم رَحمانَ قُربانا

قال أبو إسحاق الزجاج فى معانى القرآن : وقال أحمد بن يحيى : «الرحيم» عربىّ و «الرحمان» عبرانىّ، فلهذا جمع بينهما . وهذا القول مرغوب عنه .

وقال أبو العباس : النعت قد يقع للمدح ؛ كما تقول : قال جرير الشاعر . وروى مُطَرِّف عن قتادة فى قول الله عزّ وجلّ : «بسم الله الرحمن الرحيم» قال : مدح نفسه. قال أبو إسحاق :

(١) قائله جرير . واليَنْبوت : ضرب من الشجر .

(٢) انظر شرح القاموس واللسان مادة «رحم» .

وهذا قولٌ حَسَن . وقال قُطْرُب : يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد . قال أبو إسحاق : وهذا قولٌ حَسَن ، وفى التوكيد أعظم الفائدة ، وهو كثير فى كلام العرب ، ويستغنى عن الاستشهاد ؛ والفائدة فى ذلك ما قاله محمد بن يزيد : إنه تفضّلٌ بعد تفضّل ، وإنعامٌ بعد إنعام ، وتقويةٌ لمطامع الراغبين ، ووعدٌ لا يخيب آمله .

الرابعة والعشرون — واختلفوا هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين ؟ فقيل : هما بمعنًى واحد ؛ كندمان ونديم . قاله أبو عبيدة . وقيل : ليس بناء فَعلان كفَعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل ؛ نحو قولك : رجل غضبان ، للمتلئ غضباً . وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول . قال عَمَّلَّس[1] :

فأما إذا عَضّت بك الحربُ عضّةً * فإنك معطوفٌ عليك رَحيمُ

فـ«الرحمن» خاصّ الاسم عام الفعل . و «الرحيم» عام الاسم خاصّ الفعل . هذا قول الجمهور .

قال أبو علىّ الفارسىّ : «الرحمن» اسم عامّ فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله . «والرحيم» إنما هو فى جهة المؤمنين ؛ كما قال تعالى : « وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا »[2] . وقال العرزمىّ : «الرحمن» بجميع خلقه فى الأمطار ونِعَم الحواس والنِّعم العامة ، و«الرحيم» بالمؤمنين فى الهداية لهم ، واللطف بهم . وقال ابن المبارك : «الرحمن» إذا سُئل أعطى ، و«الرحيم» إذا لم يُسأل غَضِب . وروى ابن ماجه فى سُنَنه والترمذىّ فى جامعه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "مَن لم يسأل الله يغضب عليه" لفظ الترمذىّ . وقال ابن ماجه : "مَن لم يَدْعُ اللهَ سبحانه غضِب عليه" . وقال : سألت أبا زرعة عن أبى صالح هذا ، فقال : هو الذى يقال له : الفارسىّ[3] وهو خُوزِىّ ولا أعرف اسمه . وقد أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقال :

---

(١) هو عملس بن عقبل ؛ كما فى هامش بعض نسخ الأصل ولسان العرب مادة رحم . (٢) هو عبد الملك ابن أبى سليمان العرزمى ؛ كما فى الخلاصة . (٣) نسبة إلى خوزستان بلاد بين فارس والبصرة .

الله يَغْضب إن تركتَ سـؤاله * وبُنَيّ آدم حين يُسأل يغضب

وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرقّ من الآخر ، أى أكثر رحمة .

قال الخطابىّ : وهذا مشكل ؛ لأن الرقة لا مدخل لها فى شىء من صفات الله تعالى . وقال الحسين بن الفضل البَجَلى : هذا وَهَم من الراوى ، لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى فى شىء ، و إنما هما اسمان رفيقان أحدهما أرفق من الآخر ، والرفق من صفات الله عز وجل ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله رفيق يُحب الرفق و يُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العُنْف " .

الخامسة والعشرون — أكثر العلماء على أن « الرحمن » مختص بالله عزّ وجلّ ، لا يجوز أن يُسَمَّى به غيره ، ألا تراه قال : « قُـلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ »[1] فعادل الاسم الذى لا يَشركه فيه غيره . وقال : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَـةً يُعْبَدُونَ »[2] فأخبر أن « الرحمن » هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ . وقد تجاسر مُسَيْلِمة الكذاب — لعنه الله — فتسمى برحمان اليمامة ، ولم يتسمّ به حتى قَرع مسامِعَه نَعْتُ الكذاب فألزمه الله تعالى نَعْت الكذاب لذلك ، و إن كان كلّ كافرٍ كاذبا ، فقد صار هذا الوصف لمُسَيْلِمة عَلَمًا يُعرف به ، ألزمه الله إياه . وقد قيل فى اسمه الرحمن : إنه اسم الله الأعظم ؛ ذكره ابن العربىّ .

السادسة والعشرون — «الرحيم» صفة مطلقة للمخلوقين ، ولما فى «الرحمن» من العموم قدّم فى كلامنا على «الرحيم» مع موافقة التنزيل ؛ قاله المهدوى . وقيل : إن معنى «الرحيم» أى بالرحيم وصلتم إلى الله و إلى الرحمن ، فـ«الرحيم» نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نعته تعالى بذلك فقال : « رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن و بالرحيم ؛ أى و بمحمد صلى الله عليه وسلم وصلتم إلىّ ، أى باتباعه و بما جاء به وصلتم إلى ثوابى وكرامتى والنظر إلى وجهى ؛ والله أعلم .

(١) آية ١١٠ سورة الإسراء جـ ١٠ ص ٣٤٢ (٢) آية ٤٥ سورة الزخرف جـ ١٦ ص ٩٥

السابعة والعشرون — رُوى عن علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال فى قوله «بسم الله» : إنه شفاء من كل داء، وعَوْنٌ على كل دواء . وأما «الرحمن» ، فهو عَوْنٌ لكلّ مَن آمن به، وهو آسم لم يُسَمّ به غيره . وأما «الرحيم» ، فهو لمن تاب وآمن وعمل صالحا .

وقد فسّره بعضهم على الحروف؛ فرُوى عن عثمان بن عفّان أنه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال : " أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه وأما السين فسناء الله وأما الميم فملك الله وأما الله فلا إله غيره وأما الرحمن فالعاطف على البَرّ والفاجر من خلقه وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصّة " . ورُوى عن كعب الأحبار أنه قال : الباء بهاؤه والسين سناؤه فلا شىء أعلى منه والميم ملكه وهو على كل شىء قدير فلا شىء يعازّه . وقد قيل : إن كل حرف هو آفتتاح آسم من أسمائه؛ فالباء مفتاح آسمه بصير ، والسين مفتاح آسمه سميع ، والميم مفتاح آسمه مليك ، والألف مفتاح آسمه الله ، واللام مفتاح آسمه لطيف ، والهاء مفتاح آسمه هادى ، والراء مفتاح آسمه رازق ، والحاء مفتاح آسمه حليم ، والنون مفتاح آسمه نور ؛ ومعنى هذا كله دعاء الله تعالى عند آفتتاح كل شىء .

الثامنة والعشرون — وآختلف فى وصل «الرحيم» بـ«الحمد لله» ؛ فرُوِىَ عن أمّ سَلمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الرحيمْ . ألحمد» يسكّن الميم ويقف عليها، ويبتدئ بألف مقطوعة. وقرأ به قوم من الكوفيين . وقرأ جمهور الناس : «الرحيمِ ٱلحمد» ، تُعرب «الرحيم» بالخفض ويوصل الألف من «الحمد» . وحكى الكسائى عن بعض العرب أنها تقرأ «الرحيمَ الحمد» ، بفتح الميم وصلة الألف؛ كأنه سكنت الميم وقطعت الألف ثم ألقيت حركتها على الميم وحذفت . قال آبن عطية : ولم نُرْوَ هذه قراءة عن أحد فيما علمت . وهذا نظر يحيى بن زياد فى قوله تعالى: « الٓمٓ ٱللَّه » .

تفسير سورة الفاتحة

"بحول الله وكرمه"

وفيها أربعة أبواب :

الباب الأول – فى فضائلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل

الأولى – روى الترمذىّ عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهى مقسومة[1] بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل" . أخرج مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب : أن أبا سعيد مولى [عبد الله بن] عامر بن كريز أخبره أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نادى أُبَىّ بن كعب وهو يصلّى؛ فذكر الحديث . قال ابن عبد البر : أبو سعيد لا يوقف له على اسم وهو معدود فى أهل المدينة، روايته عن أبى هريرة وحديثه هذا مرسل؛ وقد روى هذا الحديث عن أبى سعيد بن المُعَلَّى رجلٌ من الصحابة لا يوقف على اسمه أيضا؛ رواه عنه حفص بن عاصم، وعبيد بن حُنين .

قلت : كذا قال فى التمهيد : «لا يوقف له على اسم» . وذكر فى كتاب الصحابة الاختلاف فى اسمه . والحديث خرّجه البخارى عن أبى سعيد بن المُعَلَّى قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت : يارسول الله إنى كنت أصلى؛ فقال : "ألم يقل الله «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ»[2] " – ثم قال : – "إنى لأعلمنّك سورة هى أعظم السُّوَر فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد" ثم أخذ بيدى، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنّك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : "الحمد لله ربّ العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيتُه". قال ابن عبد البر وغيره : أبو سعيد بن المعلى

(١) أى وقال الله هى مقسومة .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٨٩

من جِلّة الأنصار، وسادات الأنصار، تفرّد به البخارى، واسمه رافع، ويقال: الحارث بن نُفيع بن المعلى، ويقال: أوس بن المعلى، ويقال: أبو سعيد بن أوس بن المعلى؛ تُوُفّى سنة أربع وسبعين وهو ابن أربع وستين [سنة](١)، وهو أوّل من صلّى إلى القِبلة حين حُوّلت، وسيأتى(٢). وقد أسند حديثَ أُبَىّ يزيدُ بن زُرَيع قال: حدّثنا روح بن القاسم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أُبَىّ وهو يصلى؛ فذكر الحديث بمعناه.

وذكر ابن الأنبارى فى كتاب الرّد له: حدّثنى أبى حدّثنى أبو عبيد الله الورّاق حدّثنا أبو داود حدّثنا شَيبان عن منصور عن مجاهد قال: إنّ إبليس — لعنه الله — رَنّ أربع رنات: حين لُعن، وحين أهبط من الجنة، وحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، وحين أنزلت فاتحة الكتاب، وأنزلت بالمدينة.

الثانية — اختلف العلماء فى تفضيل بعض السُّوَر والآى على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنى على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعرى، والقاضى أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حِبان البُسْتىّ، وجماعة من الفقهاء. ورُوى معناه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك فى قول الله تعالى: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا» قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يُشعر بنقص المفضول؛ والذاتيّة فى الكل واحدة، وهى كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه. قال البُسْتىّ: ومعنى هذه اللفظة "ما فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل أم القرآن": أن الله تعالى لا يُعطى لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثل

---

(١) قال ابن حجر فى الإصابة: «وهو خطأ، فإنه يستلزم أن تكون قصته مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو صغير، وسياق الحديث يأبى ذلك».

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٩.

ما يُعطى لقـارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة . قال ومعنى قوله : " أعظم سـورة " أراد به فى الأجر، لا أن بعض القرآن أفضـل من بعض . وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: «وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ» وآية الكرسى . وآخر سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيّته وصفاته ليس موجودا مثلًا فى «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» وما كان مثلها .

والتفصيل إنما هو بالمعانى العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق . وممن قال بالتفضيل إسحاق بن رَاهُوَيْه[1] وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو آختيار القاضى أبى بكر بن العـربىّ وآبن الحصار، لحديث أبى سـعيد بن المُعَلَّى وحديث أُبَىّ بن كعب أنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " يا أُبَىّ أىّ آية معك فى كتاب الله أعظم " قال فقلت : «اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ» . قال : فضرب فى صدرى وقال: "لِيَهْنِكَ العِلْمُ يا أبا المنذر" أخرجه البخارى ومسلم .

قال آبن الحصار : عجبى ممن يذكر الآختلاف مع هذه النصوص .

وقال آبن العربى : قوله : " ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها " وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزّلة والزبور وغيرها؛ لأن هـذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشىء أفضلَ الأفضل، صار أفضلَ الكل؛ كقولك : زيد أفضل العلمـاء، فهو أفضل النـاس .

وفى الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها؛ حتى قيل : إن جميع القرآن فيها . وهى خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن . ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القُرْبة إلا بها، ولا يلحق عمـل بثوابها، وبهـذا المعنى صارت أم القرآن العظيم،

(١) ضبطه آبن خلكان فقال : « بفتح الراء وبعد الألف هاء ساكنة ثم واو مفتوحة وبعـدها ياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها هاء ساكنة، وقيل فيه أيضا : راهويه، بضم الهـاء وسكون الواو وفتح الياء » .

كما صارت «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن ، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ ، و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» فيها التوحيد كله ، وبهذا المعنى وقع البيان فى قوله عليه السلام لأُبىّ . " أىّ آية فى القرآن أعظم " قال : «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ» . وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها كما صار قوله : " أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له " أفضل الذكر ؛ لأنها كلمات حَوَت جميع العلوم فى التوحيد ، والفاتحةُ تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير ، ولا يستبعد ذلك فى قدرة الله تعالى .

الثالثة — روى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، وشَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وقُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، هذه الآيات معلّقات بالعرش ليس بينهن و بين الله حجاب " . أسنده أبو عمرو الدانى فى كتاب البيان له .

الرابعة — فى أسمائها ، وهى اثنا عشر اسما :

(الأول) الصلاة[1] ، قال الله تعالى[2] : " قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين " الحديث . وقد تقدّم .

(الثانى) [سورة] الحمد ، لأن فيها ذكر الحمد ؛ كما يقال : سورة الأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ونحوها .

(الثالث) فاتحة الكتاب ، من غير خلاف بين العلماء ؛ وسُمّيت بذلك لأنه تُفتتح قراءة القرآن بها لفظا ، وتُفتتح بها الكتابة فى المصحف خطًّا ، وتُفتتح بها الصلوات .

(الرابع) أم الكتاب ، وفى هذا الاسم خلاف ، جوّزه الجمهور ، وكرهه أنس والحسن وابن سيرين . قال الحسن : أم الكتاب الحلال والحرام ، قال الله تعالى : «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» . وقال أنس وابن سيرين : أم الكتاب اسم اللّوح المحفوظ . قال الله تعالى : «وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ» .

(١) فى تفسير الألوسى وغيره : سورة الصلاة . (٢) أى فى الحديث القدسى .

(الخامس) أم القرآن، وآختلف فيه أيضا، بجوّزه الجمهور، وكرهه أنس وآبن سيرين ؛ والأحاديث الثابتـة ترد هذين القولين . روى الترمذىّ عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" قال : هذا حديث حسن صحيح . وفى البخارى قال : وسُمِّيت أم الكتاب لأنه يُبتـدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويُبدأ بقراءتها فى الصلاة . وقال يحيى بن يَعْمر : أُمّ القُرَى : مكة ، وأُمّ خُراسان : مَرْو ، وأم القرآن : سورة الحمد . وقيل : سُمِّيت أم القرآن لأنهـا أوّله ومتضمّنة لجميع علومه ، وبه سُمِّيت مكة أم القُرَى لأنها أوّل الأرض ومنها دُحيت ، ومنه سُمِّيت الأم أُمًّا لأنها أصل النّسل ، والأرض أمّا ، فى قول أُميّة بن أبى الصَّلْت :

فالأرض مَعْقِلُنا وكانت أمّنا * فيهـا مقـابرنا وفيهـا نولد

ويقال لراية الحـرب : أمّ ؛ لتقدمها وآتباع الجيش لهـا . وأصل أم أُمّهة ، ولذلك تجمع على أمهات ، قال الله تعالى : « وَأُمَّهَاتُكُمْ » . ويقال أمّات بغير هاء . قال :

* فَرَجْتَ الظَّلَامَ بِأُمَّاتِكا *

وقيل : إن أمّهات فى الناس ، وأُمّات فى البهائم ؛ حكاه آبن فارس فى المجمل .

(السادس) المثانى ، سميت بذلك لأنهـا تُثنّى فى كل ركعة . وقيل : سميت بذلك لأنها آستثنيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذُخْرًا لها .

(السابع) القرآن العظيم ، سميت بذلك لتضمنها جميع علوم القرآن ، وذلك أنهـا تشتمل على الثناء على الله عز وجلّ بأوصاف كماله وجلاله ، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها ، والآعتراف بالعجز عن القيام بشىء منها إلا بإعانته تعالى ، وعلى الآبتهال إليـه فى الهداية إلى الصراط المستقيم ؛ وكفاية أحوال الناكثين ، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

(الثامن) الشفاء ، روى الدارمىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم"[1] .

---

(١) الذى فى مسند الدارمى عن عبد الملك بن عمير : قال قال رسول الله "فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء" .

(التاسع) الرُّقْيَة، ثبت ذلك من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ وفيه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى رَقَى سَيِّد الحىّ : "ما أدراك أنها رُقْية" فقال : يا رسول الله شىء أُلْقِىَ فى رُوعِى؛ الحديث . خرّجه الأئمة، وسيأتى بتمامه .

(العاشر) الأساس، شكا رجل إلى الشعبىّ وجع الحاصرة؛ فقال : عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول : لكل شىء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دُحِيَت؛ وأساس السموات عَرِيبا[1]، وهى السماء السابعة؛ وأساس الأرض عجيبا ، وهى الأرض السابعة السفلى؛ وأساس الجنان جنة عدن، وهى سُرّة الجنان عليها أسّست الجنة؛ وأساس النار جهنم، وهى الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح ؛ وأساس بنى إسرائيل يعقوب؛ وأساس الكتب القرآن؛ وأساس القرآن الفاتحة؛ وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تُشْفَى[2] .

(الحادى عشر) الوافية، قاله سفيان بن عُيَيْنة، لأنها لا تتنصف ولا تحتمل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها فى ركعة، ونصفها الآخر فى ركعة لأجزأ؛ ولو نصفت الفاتحة فى ركعتين لم يجز .

(الثانى عشر) الكافية، قال يحيى بن أبى كثير : لأنها تكفى عن سواها ولا يكفى سواها عنها . يدل عليه ما روى محمد بن خلّاد الاسكندرانى قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أم القرآن عِوَض من غيرها وليس غيرها منها عِوَضًا" .

الخامسة — قال المهلب : إن موضع الرقية منها إنما هو «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» . وقيل : السورة كلها رقية، لقوله عليه السلام للرجل لما أخبره : "وما أدراك أنها رقية" ولم يقل : أن فيها رقية؛ فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية؛ لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه، كما تقدّم والله أعلم .

(١) وفى بعض الأصول : غريبا (بالغين المعجمة) .

(٢) كذا فى نسخ الأصل . ولو كان جوابا للأمر لكان « تشف » مجزوما .

السادسـة — ليس فى تسميتها بالمثانى وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عزّ وجلّ : «كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ» فأطلق على كتابه : مثانى؛ لأن الأخبار تثنى فيه. وقد سميت السبع الطُّوَل أيضا مثانى؛ لأن الفرائض والقصص تثنى فيها . قال ابن عباس : أوتى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى ؛ قال : السبع الطُّوَل . ذكره النسائى ، وهى من « البقرة » إلى «الأعراف» ست، واختلفوا فى السابعة، فقيل : يونس، وقيل : الأنفال والتوبة؛ وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير . وقال أعشى همدان :

فلِجُوا المسجدَ وادعـوا ربَّكم * وادرسوا هذى المثانى والطُّوَل

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « الحجر »[1] إن شاء الله تعالى .

السابعـة — المثانى جمع مثنى ، وهى التى جاءت بعد الأولى ، والطُّوَل جمع أَطْوَل . وقـد سُمِّيت الأنفال من المثانى لأنها تتلو الطُّوَل فى القدر . وقيل : هى التى تزيد آياتهـا على المفصّل وتنقص عن المئين . والمئون : هى السُّوَر التى تزيد كل واحدة منها على مائة آية .

الباب الثانى — فى نزولها وأحكامها ، وفيه عشرون مسألة

الأولى — أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات؛ إلا ما روى عن حسين الجُعْفى : أنها ست؛ وهذا شاذ . وإلا ما روى عن عمرو بن عبيد أنه جعل « إياك نعبد » آية، وهى على عدّه ثمانى آيات؛ وهذا شاذ . وقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي» وقوله : "قسمت الصلاة" الحديث، يردّ هذين القولين .

وأجمعت الأمة أيضا على أنها من القرآن . فإن قيل : لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود فى مصحفه ، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن ، كالمعوّذتين عنده .

فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنبارى قال : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا سليمان ابن الأشعث حدّثنا ابن أبى قُدامة حدّثنا جَرير عن الأعمش قال : أظنه عن إبراهيم قال :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٩

قيل لعبد الله بن مسعود : لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب فى مصحفك ؟ قال : لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة . قال أبو بكر : يعنى أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن قبل السورة المتلوّة بعدها ، فقال : آختصرت بإسقاطها ، ووثقت بحفظ المسلمين لها ، ولم أثبتها فى موضع فيلزمنى أن أكتبها مع كل سورة ، إذ كانت تتقدمها فى الصلاة .

الثانية — آختلفوا أهى مَكيّة أم مَدَنيّة ؟ . فقال آبن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — وآسمه رُفيع — وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهرى وغيرهم : هى مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة ، ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السَّمَرْقَنْدِىّ فى تفسيره . والأوّل أصح لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ » والحِجْرُ مكية بإجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حُفظ أنه كان فى الإسلام قطّ صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ؛ يدل على هذا قوله عليه السلام : " لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب " . وهذا خبر عن الحُكم ، لا عن الآبتداء ، والله أعلم .

وقد ذكر القاضى آبن الطيب آختلاف الناس فى أوّل ما نزل من القرآن ؛ فقيل : المدّثر ، وقيل : آقرأ ، وقيل : الفاتحة . وذكر البَيْهَقِى فى دلائل النبوّة عن أبى ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا " قالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدّى الأمانة ، وتَصِل الرحِم ، وتَصْدُقُ الحديث . فلما دخل أبو بكر — وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمّ — ذكرت خديجة حديثه له ، قالت : ياعَتِيق ، اذهب مع محمد إلى وَرَقة بن نَوْفل . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده ، فقال : آنطلق بنا إلى وَرَقة ، فقال : "ومن أخبرك" . قال : خديجة ، فآنطلقا إليه فقصا عليه ، فقال : "إذا خلوتُ وحدى سمعتُ نداء خلفى يا محمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض " فقال : لا تفعل ، إذا أتاك فآثبُت حتى تسمع ما يقول ثم آئتنى فأخبرنى . فلما خلا ناداه : يا محمد ، قل « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين —

حتى بلغ — ولا الضالين» ، قل : لا إله إلا الله. فأتى ورقة فذكر ذلك له ؛ فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بَشّر به عيسى بن مريم ، وأنك على مثل ناموس موسى ، وأنك نبيّ مرسل ، وأنك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، و إن يدركنى ذلك لأجاهدنّ معك . فلما تُوُفّى ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لقد رأيت القَسّ فى الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدّقنى" يعنى ورقة . قال البَيْهَقِىّ رضى الله عنه : هذا منقطع . يعنى هـذا الحديث ، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزل عليه «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» و «يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» .

الثالثـــة — قال ابن عطية : ظنّ بعض العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بسورة الحمد ؛ لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سمع نَقيضا[1] من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فُتح اليوم لم يُفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه مَلَك ، فقال : هذا ملَك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم ؛ فسلّم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يُؤتهما نبيّ قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ؛ لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيتَه . قال ابن عطية : وليس كما ظنّ ، فإن هـذا الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام تقدّم المَلَك إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مُعْلِماً به و بما ينزل معه ؛ وعلى هذا يكون جبريل شارك فى نزولها ؛ والله أعلم .

قلت : الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل عليه السلام لم يعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم بشىء من ذلك . وقد بينا أن نزولها كان بمكة ، نزل بها جبريل عليه السلام ، لقوله تعالى : «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» وهذا يقتضى جميع القرآن ، فيكون جبريل عليه السلام نزل بتلاوتها بمكة ، ونزل المَلَك بثوابها بالمدينة . والله أعلم . وقد قيل : إنها مكية مدنية ، نزل بها جبريل مرتين ؛ حكاه الثعلبى . وما ذكرناه أولى . فإنه جمع بين القرآن والسُّنة ، ولله الحمد والمِنّـــة .

(١) النقيض : الصوت .

الرابعة — قد تقدم أن البسملة ليست بآية منها على القول الصحيح ، و إذا ثبت ذلك فحكم المصلّى إذا كبّر أن يصله بالفاتحة ولا يسكت ، ولا يذكر توجيهاً ولا تسبيحاً ، لحديث عائشة وأنس المتقدّمَيْن وغيرهما ، وقد جاءت أحاديث بالتوجيه والتسبيح والسكوت ، قال بها جماعة من العلماء ؛ فروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما أنهما كانا يقولان إذا ٱفتتحا الصلاة : سبحانك اللّهُمّ و بحمدك ، تبارك ٱسمك ، وتعالى جَدّك ، ولا إله غيرك . و به قال سفيان وأحمد و إسحاق وأصحاب الرأى . وكان الشافعىّ يقول بالذى رُوى عن علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ٱفتتح الصلاة كبّر ثم قال : " وَجّهت وجهى " الحديث ، ذكره مسلم ، وسيأتى بتمامه فى آخر سورة الأنعام ، وهناك يأتى القول فى هذه المسألة مستوفًى إن شاء الله[1] .

قال ٱبن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبّر فى الصلاة سكت هُنَيْهَةً قبل أن يقرأ يقول : " اللّهُمّ باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب اللّهُمّ نَقّنِى من خطاياى كما يُنَقّى الثوب الأبيض من الدّنَس اللّهمّ ٱغسلنى من خطاياى بالماء والثّلج والبَرَد " وٱستعمل ذلك أبو هريرة . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : للإمام سكتتان فٱغتنموا فيهما القراءة . وكان الأوزاعىّ وسعيد بن عبد العزيز وأحمد بن حنبل يميلون إلى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب .

الخامسة — وٱختلف العلماء فى وجوب قراءة الفاتحة فى الصلاة ؛ فقال مالك وأصحابه : هى متعيّنة للإمام والمنفرد فى كل ركعة . قال ٱبن خُوَيْزِ مَنْدَاد البصرى المالكى : لم يختلف قول مالك أنه من نَسِيَها فى صلاة ركعة من صلاة ركعتين أن صلاته تبطل ولا تجزيه . وٱختلف قولُه فيمن تركها ناسيًا فى ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ؛ فقال مرة : يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى : يسجد سجدتى السهو ؛ وهى رواية ٱبن عبد الحكم وغيره عن مالك . قال ٱبن خُويز منداد وقد قيل : إنه يعيد تلك الركعة و يسجد للسهو بعد السلام . قال ٱبن عبد البرّ : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة و يأتى بركعة بدلًا منها ، كمن

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ .

أسقط سجدة سهوًا . وهو آختيار آبن القاسم . وقال الحسن البصرى وأكثر أهل البصرة والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومى المدنى : إذا قرأ بأم القرآن مرة واحدة فى الصلاة أجزأه ولم تكن عليه إعادة ؛ لأنها صلاة قد قرأ فيها بأم القرآن ؛ وهى تامة لقوله عليه السلام : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن " وهذا قد قرأ بها .

قلت : ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى كل ركعة ، وهو الصحيح على ما يأتى . ويحتمل لا صلاة لمن لم يقرأ بها فى أكثر عدد الركعات ، وهذا هو سبب الخلاف والله أعلم.

وقال أبو حنيفة والثورى والأوزاعىّ : إن تركها عامدا فى صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه ، على آختلاف عن الأوزاعىّ فى ذلك . وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن : أقله ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الدَّين . وعن محمد بن الحسن أيضا قال : أسوّغ الآجتهاد فى مقدار آية ومقدار كلمة مفهومة ، نحو : « الحمد لله » . ولا أسوّغه فى حرف لا يكون كلاما .

وقال الطبرىّ : يقرأ المصلّى بأم القرآن فى كل ركعة ، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آيها وحروفها . قال آبن عبد البرّ : وهذا لا معنى له ؛ لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ؛ ومحال أن يجىء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر عليها ، وإنما عليه أن يجىء بها ويعود إليها ، كسائر المفروضات المتعيّنات فى العبادات.

السادسة — وأما المأموم فإن أدرك الإمام راكعًا فالإمام يحمل عنه القراءة ؛ لإجماعهم على أنه إذا أدركه راكعًا أنه يكبّر ويركع ولا يقرأ شيئا ، وإن أدركه قائما فإنه يقرأ ، وهى المسألة :

السابعة — ولا ينبغى لأحد أن يدع القراءة خلف إمامه فى صلاة السِّر ؛ فإن فعل فقد أساء ، ولا شىء عليه عند مالك وأصحابه . وأما إذا جهر الإمام وهى المسألة :

الثامنة — فلا قراءة بفاتحة الكتاب ولا غيرها فى المشهور من مذهب مالك ؛ لقول الله تعالى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مالى أنازع القرآن " ، وقوله فى الإمام : " إذا قرأ فأنصتوا " ، وقوله : " من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة " .

وقال الشافعي فيما حكى عنه البُوَيْطِيّ وأحمد بن حنبل : لا تجزئ أحداً صلاةٌ حتى يقرأ بفاتحة الكتاب فى كل ركعة، إماماً كان أو مأموما، جَهَر إمامُه أو أسرّ. وكان الشافعيّ بالعراق يقول فى المأموم: يقرأ إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جَهَر؛ كمشهور مذهب مالك. وقال بمصر: فيما يجهر فيه الإمام بالقراءة قولان : أحدهما أن يقرأ، والآخر يجزئه ألا يقرأ و يكتفى بقراءة الإمام . حكاه ابن المنذر . وقال ابن وهب وأشهب وابن عبدالحكم وابن حبيب والكوفيون : لا يقرأ المأموم شيئا، جَهَر إمامه أو أسرّ؛ لقوله عليه السلام : "فقراءة الإمام له قراءة" وهذا عام، ولقول جابر : مَن صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يُصَلّ إلا وراء الإمام .

التاسعة — الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعى وأحمد ومالك فى القول الآخر، وأن الفاتحة متعيّنة فى كل ركعة لكل أحد على العموم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب"، وقوله : "مَن صلى صلاةً لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" ثلاثا . وقال أبو هريرة : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى أنه : "لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد" أخرجه أبو داود . كما لا ينوب سجود ركعة ولا ركوعها عن ركعة أخرى ، فكذلك لا تنوب قراءة ركعة عن غيرها؛ و به قال عبد الله بن عَوْن وأيوب السّختيانى وأبو ثَور وغيره من أصحاب الشافعيّ وداود بن عليّ، وروى مثله عن الأوزاعيّ؛ و به قال مكحول .

وروى عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وأبى هريرة وأُبَيّ بن كعب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص وعُبادة بن الصّامت وأبى سعيد الخُدْرى وعثمان ابن أبى العاص وخَوّات بن جُبير أنهم قالوا : لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . وهو قول ابن عمر والمشهور من مذهب الأوزاعى؛ فهؤلاء الصحابة بهم القُدوة، وفيهم الأُسْوة، كلهم يوجبون الفاتحة فى كل ركعة .

وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى فى سُننه ما يرفع الخلاف و يزيل كل احتمال فقال : حدّثنا أبو كُريب حدّثنا محمد بن فضيل، ح، وحدّثنا سُوَيد بن سعيد

حدّثنا علىّ بن مُسْهر جميعاً عن أبى سفيان السّعدى عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا صلاة لمن لم يقرأ فى كل ركعة بالحمد لله وسورة فى فريضة أو غيرها" . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أنه عليه السلام قال للذى علمه الصلاة : "وافعل ذلك فى صلاتك كلها" وسيأتى . ومن الحجة فى ذلك أيضا مارواه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصارى قال : أبطأ عُبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ؛ فأقام أبو نعيم المؤذن الصلاة فصلّى أبو نعيم بالناس ، وأقبل عُبادة بن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبى نعيم ، وأبو نعيم يجهر بالقراءة ؛ فجعل عُبادة يقرأ بأم القرآن ؛ فلما انصرف قلت لعبادة : سمعتك تقرأ بأم القرآن وأبو نعيم يجهر ؟ قال : أجل ! صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الصلوات التى يُجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه ؛ فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : "هل تقرءون إذا جهرتُ بالقراءة" ؟ فقال بعضنا : إنا نصنع ذلك ؛ قال : "فلا . وأنا أقول مالى يُنازعنى القرآن فلا تقرءوا بشىء من القرآن إذا جَهرتُ إلا بأم القرآن" . وهذا نص صريح فى المأموم . وأخرجه أبو عيسى الترمذى من حديث محمد بن إسحاق بمعناه ؛ وقال : حديث حسن . والعمل على هذا الحديث فى القراءة خلف الإمام عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم والتابعين ؛ وهو قول مالك بن أنس وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يرون القراءة خلف الإمام . وأخرجه أيضا الدَّارَقُطْنِىّ وقال : هذا إسناد حسن ، ورجاله كلهم ثقات ؛ وذكر أن محمود بن الربيع كان يسكن إيلياء[1] ، وأن أبا نعيم أول من أذّن فى بيت المَقْدِس . وقال أبو محمد عبد الحق : ونافع بن محمود لم يذكره البخارىّ فى تاريخه ولا ابن أبى حاتم ؛ ولا أخرج له البخارى ومسلم شيئا . وقال فيه أبو عمر : مجهول . وذكر الدار قطنىّ عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام ، فأمرنى أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ؛ قلت : وإن جهرت ؟ قال : وإن جهرتُ . قال الدار قطنىّ : هذا إسناد صحيح . ورُوى عن جابر بن عبد الله

(١) إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس .

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الإمام ضامن فما صنع فاصنعوا " . قال أبو حاتم : هذا يصح لمن قال بالقراءة خلف الإمام ؛ وبهذا أفتى أبو هريرة الفارسيّ أن يقرأ بها فى نفسه حين قال له : إنى أحيانا أكون وراء الإمام ، ثم آستدل بقوله تعالى[1] : " قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ما سأل " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين " الحديث .

العاشرة — أمّا ما آستدل به الأوّلون بقوله عليه السلام : " و إذا قرأ فأنصتوا " أخرجه مسلم من حديث أبى موسى الأشعرىّ ؛ وقال : وفى حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة " و إذا قرأ فأنصتوا " قال الدارقطنىّ : هذه اللفظة لم يتابع سليمان التيمى فيها عن قتادة ؛ وخالفه الحفاظ من أصحاب قتادة فلم يذكروها ؛ منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبى عَرُوبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعَدِىّ بن أبى عمارة . قال الدّارَقُطْنِىّ : فإجماعهم يدل على وَهَمه . وقد روى عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمى ؛ ولكن ليس هو بالقوىّ ، تركه القَطّان . وأخرج أيضا هذه الزيادة أبو داود من حديث أبى هريرة وقال : هذه الزيادة " إذا قرأ فأنصتوا " ليست بمحفوظة . وذكر أبو محمد عبد الحق : أن مسلما صَحّح حديثَ أبى هريرة وقال : هو عندى صحيح .

قلت : ومما يدل على صحتها عنده إدخالها فى كتابه من حديث أبى موسى و إن كانت مما لم يجمعوا عليها . وقد صححها الإمام أحمد بن حنبل وآبن المنذر . وأما قوله تعالى : «وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا » فإنه نزل بمكة ، وتحريم الكلام فى الصلاة نزل بالمدينة — كما قال زيد بن أرقم — فلا حجة فيها ؛ فإن المقصود كان المشركين ، على ما قال سعيد بن المسيّب . وقد روى الدّارَقُطْنِىّ عن أبى هريرة أنها نزلت فى رفع الصوت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة . وقال : عبد الله بن عامر ضعيف . وأما قوله عليه السلام : " مالى أنازع القرآن " فأخرجه مالك عن آبن شهاب عن آبن أُكَيمة اللّيثى ، وآسمه فيما قال مالك : عمرو ،

(١) أى فى الحديث القدسى .

وغيره يقول عامر، وقيل يزيد، وقيل عمارة، وقيل عباد، يكنى أبا الوليد تُوُفِّى سنة إحدى ومائة وهو ابن تسع وسبعين سنة، لم يَرْوِ عنه الزهرى إلا هذا الحديث الواحد، وهو ثقة، وروى عنه محمد بن عمرو وغيره. والمعنى فى حديثه: لا تجهروا إذا جهرت فإن ذلك تنازع وتجاذب وتخالج، اقرءوا فى أنفسكم. يُبَيِّنه حديثُ عبادةَ وفُتْيَا الفاروق وأبى هريرة الراوى للحديثين. فلو فهم المنع جملة من قوله: "مالى أنازع القرآن" لما أفتى بخلافه؛ وقول الزهرى فى حديث ابن أُكَيمة: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جَهَر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقراءة، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد بالحمد على ما بينا؛ وبالله توفيقنا.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة" فحديث ضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك، وأبو حنيفة[1] وهو ضعيف؛ كلاهما عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد عن جابر. أخرجه الدارقطنىّ وقال: رواه سفيان الثورى وشعبة وإسرائيل ابن يونس وشريك وأبو خالد الدالانى وأبو الأحوص وسفيان بن عُيينة وجَرير بن عبد الحميد وغيرهم، عن موسى بن أبى عائشة عن عبد الله بن شدّاد مرسلًا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو الصواب. وأما قول جابر: من صلى ركعة لم يقرأ فيها بأم القرآن فلم يصل إلا وراء الإمام؛ فرواه مالك عن وهب بن كَيسان عن جابر قولَه. قال ابن عبد البر: ورواه يحيى ابن سلام صاحب التفسير عن مالك عن أبى نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم. وصوابه موقوف على جابر كما فى المُوَطّأ. وفيه من الفقه إبطالُ الركعة التى لا يُقرأ فيها بأم القرآن؛ وهو يشهد لصحة ما ذهب إليه ابن القاسم ورواه عن مالك فى إلغاء الركعة والبناء على غيرها ولا يعتدّ المصلى بركعة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب. وفيه أيضا أن الإمام قراءته لمن خلفه قراءة؛ وهذا مذهب جابر وقد خالفه فيه غيره.

---

(١) قد ترجمه ابن حجر فى التهذيب وابن خلكان فى الوفيات ولم يذكرا عنه ضعفا فى الحديث ولكن ابن سعد فى الطبقات قد وصفه بذلك.

الحادية عشرة — قال ابن العربي : لما قال صلى الله عليه وسلم : " لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب " واختلف الناس فى هذا الأصل هل يُحمل هذا النفى على التمام والكمال ، أو على الإجزاء ؟ اختلفت الفَتْوَى بحسب اختلاف حال الناظر ، ولما كان الأشهر فى هذا الأصل والأقوى أن النفى على العموم ، كان الأقوى من رواية مالك أن من لم يقرأ الفاتحة فى صلاته بطلت . ثم نظرنا فى تكرارها فى كل ركعة ؛ فمن تأوّل قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " افعل ذلك فى صلاتك كلها " لزمه أن يعيد القراءة كما يعيد الركوع والسجود . والله أعلم .

الثانية عشرة — ما ذكرناه فى هذا الباب من الأحاديث والمعانى فى تعيين الفاتحة يرد على الكوفيين قولهم فى أن الفاتحة لا تتعيّن ، وأنها وغيرها من آى القرآن سواء . وقد عيّنها النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله كما ذكرناه ؛ وهو المبيّن عن الله تعالى مراده فى قوله : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد روى أبو داود عن أبى سعيد الخُدْرِيّ قال : أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر . فدلّ هذا الحديث على أن قوله عليه السلام للأعرابى : " اقرأ ما تيسّر معك من القرآن " ما زاد على الفاتحة ، وهو تفسير قوله تعالى : « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ » . وقد روى مسلم عن عُبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن — زاد فى رواية — فصاعدا " . وقوله عليه السلام : " هى خِداج — ثلاثا — غير تمام " أى غير مجزئة بالأدلة المذكورة . والخِداج : النقص والفساد . قال الأخفش : خدجت الناقة ؛ إذا ألقت ولدها لغير تمام ، وأخدجت إذا قذفت به قبل وقت الولادة وإن كان تام الخلق .

والنظر يوجب فى النقصان ألا تجوز معه الصلاة ؛ لأنها صلاة لم تتم ؛ ومَن خرج من صلاته وهى لم تتم فعليه إعادتها كما أمر ، على حسب حكمها . ومن ادّعى أنها تجوز مع إقراره بنقصها فعليه الدليل ، ولا سبيل إليه من وجه يُلزم ، والله أعلم .

الثالثة عشرة — روى عن مالك أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة ؛ وكذلك كان الشافعيّ يقول بالعراق فيمن نسيها ، ثم رجع عن هذا بمصر فقال : لا تجزئ صلاة مَن يحسن

فاتحة الكتاب إلا بها، ولا يجزئه أن ينقص حرفا منها ؛ فإن لم يقرأها أو نقص منها حرفا أعاد صلاته وإن قرأ بغيرها . وهذا هو الصحيح فى المسألة . وأما ما روى عن عمر رحمه الله أنه صلّى المغرب فلم يقرأ فيها ، فذُكر ذلك له فقال : كيف كان الركوع والسجود ؟ قالوا : حسن ، قال : لا بأس إذًا ، فحديث منكر اللفظ منقطع الإسناد ، لأنه يرويه إبراهيم بن الحارث التيمى عن عمر ، ومَرّة يرويه إبراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ؛ وقد ذكره مالك فى الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بِأَخَرَةٍ[1] ، وقال ليس عليه العمل لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "كل صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن فهى خِداج" وقد روى عن عمر أنه أعاد تلك الصلاة ؛ وهو الصحيح عنه . روى يحيى بن يحيى النيسابورى قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعىّ عن همام بن الحارث أن عمر نسى القراءة فى المغرب فأعاد بهم الصلاة . قال ابن عبد البر : وهذا حديث متصل شهده همّام من عمر ؛ روى ذلك من وجوه . وروى أشهب عن مالك قال : سئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ؟ فقال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله — وأنكر الحديث — وقال : يرى الناس عمر يصنع هذا فى المغرب ولا يسبحون به ! أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

الرابعة عشرة — أجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءة ، على ما تقدّم من أصولهم فى ذلك . وأجمعوا على أن لا توقيت فى ذلك بعد فاتحة الكتاب ؛ إلا أنهم يستحبون ألا يقرأ مع فاتحة الكتاب إلا سورة واحدة لأنه الأكثر مما جاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال مالك : وسنة القراءة أن يقرأ فى الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة ، وفى الأخريين بفاتحة الكتاب . وقال الأوزاعىّ : يقرأ بأم القرآن فإن لم يقرأ بأم القرآن وقرأ بغيرها أجزأه ، وقال : وإن نسى أن يقرأ فى ثلاث ركعات أعاد . وقال الثّورِىّ : يقرأ فى الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة ، ويسبّح فى الأخريين إن شاء ، وإن شاء قرأ ، وإن لم يقرأ ولم يسبح جازت

(١) أى بتأخر وبعد عن الخير .

صلاته ، وهو قول أبي حنيفة وسائر الكوفيين . قال ابن المنذر : وقد روينا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اقرأ في الأُولَيَيْن وسبح في الأخريين ، وبه قال النَّخَعِيّ . قال سفيان : فإن لم يقرأ في ثلاث ركعات أعاد الصلاة لأنه لا تجزئه قراءة ركعة . قال : وكذلك إن نسي أن يقرأ في ركعة من صلاة الفجر . وقال أبو ثور : لا تجزئ صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة ، كقول الشافعي المصري ، وعليه جماعة أصحاب الشافعي . وكذلك قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد المالكي ؛ قال : قراءة الفاتحة واجبة عندنا في كل ركعة ، وهذا هو الصحيح في المسألة . روى مسلم عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليين بفاتحة الكتاب وسورتين ، ويسمعنا الآية أحيانا ، وكان يطوّل في الركعة الأولى من الظهر ويقصر الثانية ، وكذلك في الصبح . وفي رواية : ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب ؛ وهذا نص صريح وحديث صحيح لما ذهب إليه مالك ، ونصٌّ في تعيُّن الفاتحة في كل ركعة ؛ خلافا لمن أبى ذلك ، والحجّة في السُّنة لا فيما خالفها .

الخامسة عشرة — ذهب الجمهور إلى أن ما زاد على الفاتحة من القراءة ليس بواجب ؛ لما رواه مسلم عن أبي هريرة قال : في كل صلاة قراءة ؛ فما أسمعنا النبيّ صلى الله عليه وسلم أسمعناكم ، وما أخفى منّا أخفينا منكم ؛ فمن قرأ بأمّ القرآن فقد أجزأت عنه ، ومن زاد فهو أفضل . وفي البخاري : وإن زدت فهو خير . وقد أبى كثير من أهل العلم ترك السورة لضرورة أو لغير ضرورة ؛ منهم عمران بن حصين وأبو سعيد الخُدْرِي وخَوّات بن جبير ومجاهد وأبو وائل وابن عمر وابن عباس وغيرهم ؛ قالوا : لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها من القرآن ؛ فمنهم من حدّ آيتين ، ومنهم من حَدّ آية ، ومنهم من لم يَحُدّ ، وقال : شيء من القرآن معها ؛ وكل هذا موجب لتعلّم ما تيسّر من القرآن على كل حال مع فاتحة الكتاب ؛ لحديث عُبادة وأبي سعيد الخدري وغيرهما . وفي المُدَوّنة : وكيع عن الأعمش عن خَيْثَمة قال : حدّثني من سمع عمر بن الخطاب يقول : لا تجزئ صلاة من لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب وشيء معها . واختلف المذهب في قراءة السورة على ثلاثة أقوال : سنة ، فضيلة ، واجبة .

السادسة عشرة — من تعذّر ذلك عليه بعد بلوغ مجهوده فلم يقدر على تعلم الفاتحة أو شيء من القرآن ولا عَلِق منه بشيء ، لزمه أن يذكر الله فى موضع القراءة بما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله ، إذا صلّى وحده أو مع إمام فيما أسَرّ فيه الإمام ؛ فقد روى أبو داود وغيره عن عبد الله بن أبى أَوْفَى قال : جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : إنى لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئا ، فعلمنى ما يجزئنى منه ؛ قال : " قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله " ؛ قال : يا رسول الله ، هذا لله ، فمالى ؟ قال : " قل اللّهُمّ ارحمنى وعافنى واهدنى وارزقنى " .

السابعة عشرة — فإن عجز عن إصابة شيء من هـذا اللفظ فلا يدع الصـلاة مع الإمام جهدَه ؛ فالإمام يحمل ذلك عنه إن شاء الله ؛ وعليه أبدًا أن يجهد نفسه فى تعلم فاتحة الكتاب فما زاد ، إلى أن يحول الموت دون ذلك وهو بحال الاجتهاد فيعذره الله .

الثـامنة عشرة — من لم يواته لسانُه إلى التكلم بالعربيـة من الأعجمين وغيرهم تُرجم له الدعاء العربى بلسانه الذى يفقه لإقامة صلاته ؛ فإن ذلك يجزئه إن شاء الله تعالى .

التاسعة عشرة — لا تجزئ صلاة من قرأ بالفارسية وهو يحسن العربية فى قول الجمهور . وقال أبو حنيفة : تجزئه القراءة بالفارسية وإن أحسن العربية ؛ لأن المقصود إصابة المعنى . قال ابن المنـذر : لا يجزئه ذلك ؛ لأنه خلاف ما أمر الله به ، وخلاف ما علم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وخلاف جماعات المسلمين . ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال .

الموفية عشرين — من افتتح الصلاة كما أمر وهـو غير عالم بالقراءة ، فطرأ عليه العلم بها فى أثناء الصلاة ، ويتصوّر ذلك بأن يكون سمع من قرأها فعَلِقت بحفظه من مجرّد السماع فلا يستأنف الصـلاة ؛ لأنه أدّى ما مضى على حسب ما أُمِر به ؛ فلا وجه لإبطاله . قاله فى كتاب ابن سحنون .

الباب الثالث ـ فى التأمين، وفيه ثمان مسائل

الأولى ـ ويسنّ لقارئ القرآن أن يقول بعد الفراغ من الفاتحة بعد سكتة على نون « ولا الضالين » : آمين؛ ليتميّز ما هو قرآن مما ليس بقرآن .

الثانية ـ ثبت فى الأمهات من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أمّن الإمام فأمّنوا فإنه مَن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ماتقدّم من ذنبه". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فترتبت المغفرة للذنب على مقدّمات أربع تضمّنها هذا الحديث؛ الأولى : تأمين الإمام، الثانية : تأمين مَن خلفه، الثالثة : تأمين الملائكة، الرابعة : موافقة التأمين؛ قيل فى الإجابة، وقيل فى الزمن، وقيل فى الصفة من إخلاص الدعاء، لقوله عليه السلام : "ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاهٍ" .

الثالثة ـ روى أبو داود عن أبى مُصَبِّح المَقْرَائىّ قال : كنا نجلس إلى أبى زُهير النميرىّ وكان من الصحابة، فيحدّث أحسن الحديث، فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال : اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة. قال أبو زهير : ألا أخبركم عن ذلك، خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فأتينا على رجل قد ألحّ فى المسئلة، فوقف النبىّ صلى الله عليه وسلم يسمع منه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أوجب إن ختم" فقال له رجل من القوم : بأىّ شىء يختم ؟ قال : "بآمين فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب" فانصرف الرجل الذى سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فأتى الرجل فقال له : اختم يا فلان وأبشر . قال ابن عبد البر : أبو زهير النميرى اسمه يحيى بن نفير روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لا تقتلوا الجراد فإنه جند الله الأعظم". وقال وهب بن مُنَبِّه : آمين أربعة أحرف يخلق الله من كل حرف مَلَكًا يقول : اللّهُمّ اغفر لكل من قال آمين . وفى الخبر "لقّنى جبريل آمين عند

فراغى من فاتحة الكتاب وقال إنه كالخاتم على الكتاب" وفى حديث آخر : "آمين خاتم رب العالمين". قال الهَرَوِىّ قال أبو بكر : معناه أنه طابع الله على عباده ؛ لأنه يدفع [به عنهم](١) الآفات والبلايا ؛ فكان كخاتم الكتاب الذى يصونه ، ويمنع من إفساده و إظهار ما فيه . وفى حديث آخر : "آمين درجة فى الجنة". قال أبو بكر : معناه أنه حرف يكتسب به قائله درجة فى الجنة .

الرابعـــة — معنى آمين عند أكثر أهل العلم : اللهُمّ آستجب لنا ؛ وُضِع موضع الدعاء. وقال قوم : هو آسم من أسماء الله ؛ رُوى عن جعفر بن محمد ومجاهد وهلال بن يِسَاف ورواه آبن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ولم يصح ؛ قاله آبن العربى . وقيل معنى آمين : كذلك فليكن ؛ قاله الجوهرى . وروى الكلبى عن أبى صالح عن آبن عباس قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معنى آمين ؟ قال : "رَبِّ آفعل" . وقال مُقاتل : هو قوّة للدعاء، وآستنزال للبركة . وقال الترمذى : معناه لا تخيّب رجاءنا .

الخامســـة — وفى آمين لغتان : المدّ على وزن فاعيل كياسين . والقصر على وزن يمين. قال الشاعر فى المدّ :

يا ربّ لا تسلُبَنّى حبّهـا أبدًا * ويرحمُ الله عبـــدا قال آمينا

وقال آخـــر :

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حـــتى أبلّغهـا ألفين آمينـا

وقال آخر فى القصر :

تبـاعد منّى فُطْحُلٌ إذ سألتُه * أمينَ فزاد الله ما بيننا بُعـدَا

وتشديد الميم خطأ ؛ قاله الجوهرى . وقد روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد ؛ وهو قول الحسين بن الفضل ؛ مِن أمّ إذا قصد، أى نحن قاصدون نحوك ؛ ومنه قوله : « وَلَا آمِّينَ

(١) الزيادة عن اللسان مادة (أمن) .

البَيْتَ الحَرَامَ » . حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِى . قال الجوهرى : وهو مبنىٌّ على الفتح مثل أين وكيف ؛ لاجتماع الساكنين . وتقول منه : أمَّن فلان تأمينا .

السادسة — اختلف العلماء هل يقولها الإمام وهل يجهر بها ؛ فذهب الشافعى ومالك فى رواية المدنيّين إلى ذلك . وقال الكوفيون وبعض المدنيين : لا يجهر بها . وهو قول الطبرى ؛ وبه قال ابن حبيب من علمائنا . وقال ابن بكير : هو مخيّر . وروى ابن القاسم عن مالك أن الإمام لا يقول آمين وإنما يقول ذلك مَن خلفه ؛ وهو قول ابن القاسم والمصريين من أصحاب مالك . وحجتهم حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَبنا فبيّن لنا سنّتنا وعلّمنا صلاتنا فقال : " إذا صلّيتم فأقيموا صفوفكم ثم ليَؤمّكم أحدكم فإذا كبّر فكبّروا وإذا قال غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله " وذكر الحديث ، أخرجه مسلم . ومثله حديث سُمَىٍّ عن أبى هريرة ؛ وأخرجه مالك . والصحيح الأول لحديث وائل بن حُجْر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ « ولا الضالين » قال : « آمين » يرفع بها صوته ؛ أخرجه أبو داود والدّارَقُطْنِيّ ، وزاد « قال أبو بكر : هذه سُنّة تفرّد بها أهل الكوفة ، هذا صحيح والذى بعده » . وترجم البخارى « باب جَهْر الإمام بالتأمين » .

وقال عطاء : «آمين» دعاء ، أمّن ابنُ الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد لَلَجَّة(١) . قال الترمذى : وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ومَن بعدهم ، يَرَون أن يرفع الرجل صوته بالتأمين لا يخفيها . وبه يقول الشافعى وأحمد وإسحاق . وفى المُوَطّأ والصحيحين قال ابن شهاب : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « آمين » . وفى سنن ابن ماجه عن أبى هريرة قال : ترك الناس آمين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال : « غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضالين » قال : « آمين » حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتجّ بها المسجد . وأما حديث أبى موسى وسُمَىّ فمعناهما التعريف بالموضع الذى يقال فيه آمين ؛ وهو إذا قال الإمام : « ولا الضالين » ليكون قولهما معًا ، ولا يتقدّموه بقول : آمين ؛

(١) اللجة : الصوت .

لما ذكرناه، والله أعلم . ولقوله عليه السلام : " إذا أمّن الإمام فأمّنوا " . وقال ابن نافع فى كتاب ابن الحارث : لا يقولها المأموم إلا أن يسمع الإمامَ يقول : « ولا الضالين » . وإذا كان ببُعْد لا يسمعه فلا يقل . وقال ابن عبدوس : يتحرّى قدر القراءة ويقول : آمين.

السابعـــة — قال أصحاب أبى حنيفة : الإخفاء بآمين أولى من الجهر بها لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً » . قالوا : والدليل عليه ما رُوى فى تأويل قوله تعالى : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا » . قال : كان موسى يدعو وهارون يؤمّن ؛ فسماهما الله داعِيَيْن .

الجـواب : أنّ إخفاء الدعاء إنما كان أفضل لما يدخله من الرياء . وأما ما يتعلق بصلاة الجماعة فشهودها إشهار شعارٍ ظاهر ، وإظهارُ حق يُندب العباد إلى إظهاره ؛ وقد ندب الإمام إلى إشهار قراءة الفاتحة المشتملة على الدعاء والتأمين فى آخرها ؛ فإذا كان الدعاء مما يسنّ الجهر فيه فالتأمين على الدعاء تابع له وجارٍ مجراه ؛ وهذا بيّن .

الثامنـــة — كلمة آمين لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام . ذكر الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) : حدّثنا عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدّثنا أبى قال حدّثنا رَزين مؤذن مسجد هشام بن حسان قال حدّثنا أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أعطى أمتى ثلاثا لم تُعط أحدا قبلهم السلام وهو تحية أهل الجنة وصفوف الملائكة وآمين إلا ما كان من موسى وهارون " قال أبو عبد الله : معناه أن موسى دعا على فرعون ، وأمّن هارون ، فقال الله تبارك اسمه عندما ذكر دعاء موسى فى تنزيله : « قد أُجِيبتْ دَعْوَتُكُمَا » ولم يذكر مقالة هارون ؛ وقال موسى : ربّنا ، فكان من هارون التأمين، فسماه داعيا فى تنزيله، إذ صيّر ذلك منه دَعوة . وقد قيل : إن آمين خاص لهذه الأمة ؛ لما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما حسدتكم اليهود على شىء ما حسدتكم على السلام والتأمين " أخرجه ابن ماجه من حديث حماد بن سلمة عن سُهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عائشة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال ... ؛ الحديث . وأخرج أيضا من

حديث ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ماحسدتكم اليهود على شيء ماحسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين" . قال علماؤنا[1] رحمة الله عليهم : إنما حَسَدَنا أهل الكتاب لأن أولها حمدٌ لله وثناءٌ عليه ثم خضوع له واستكانة، ثم دعاء لنا بالهداية إلى الصراط المستقيم، ثم الدعاء عليهم مع قولنا آمين .

الباب الرابع – فيما تضمّنته الفاتحة من المعانى والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ستّ وثلاثون مسئلة

الأولى – قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ روى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى الحمد لى". وروى مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشّربة فيحمده عليها" . وقال الحسن : ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها . وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما أنعم الله على عبد نعمةً فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ". وفى (نوادر الأصول) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أن الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك" . قال أبو عبد الله : معناه عندنا أنه قد أُعطى الدنيا ، ثم أُعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية والكلمة باقية، هى من الباقيات الصالحات، قال [الله تعالى: «وَالْبَاقِيَاتُ الصالِحَاتُ][2] خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » . وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أُعطى أكثر مما أخذ . فصيّر الكلمة إعطاءً من العبد، والدنيا أخذًا من الله، فهذا

(١) هذا حمل منهم للحديث على الفاتحة مع آمين فى آخرها .

(٢) زيادة عن نوادر الأصول .

فى التدبير[1] . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ؛ وكلاهما من الله فى الأصل ، الدنيا منه والكلمة منه ؛ أعطاه الدنيا فأغناه ، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة . وروى ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : "أن عبدا من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء وقالا يارَبَّنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها قال الله عزّ وجلّ وهو أعلم بما قال عبده ماذا قال عبدى قالا يارب إنه قد قال يارَبّ لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها" .

قال أهل اللغة : أعضل الأمر : اشتد واستغلق ؛ والمعضّلات (بتشديد الضاد) : الشدائد . وعضّلت المرأة والشاة : إذا نَشِب ولدها فلم يسهل مخرجه ؛ بتشديد الضاد أيضا ؛ فعلى هذا يكون : أَعْضَلت الملكين أو عَضَّلت الملكين بغير باء . والله أعلم . ورُوى عن مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الطُّهور شَطْرُ الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" وذكر الحديث .

الثانيـة — اختلف العلماء أيُّما أفضل ؛ قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ؛ لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ؛ ففى قوله توحيد وحمد ؛ وفى قوله لا إله إلا الله توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ؛ لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" . واختار هذا القول ابن عطية قال : والحاكم بذلك قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له" .

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى التذكير » .

الثالثة — أجمع المسلمون على أن الله محمود على سائر نعمه، وأن مما أنعم الله به الإيمان؛ فدلّ على أن الإيمان فعله وخلقه؛ والدليل على ذلك قوله : « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . والعالَمون جملة المخلوقات، ومن جملتها الإيمان، لا كما قال القَدَرِيَّةُ : إنه خَلْقٌ لهم؛ على ما يأتي بيانه .

الرابعة — الحمد في كلام العرب معناه الثناء الكامل؛ والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا؛ وقد جُمع لفظ الحمد جمع القلة في قول الشاعر :

وأبلج محمودِ الثّناءِ خَصَصْتُه * بأفْضَلِ أقوالي وأفْضَلِ أحْمُدي

فالحمد نقيض الذم، تقول : حمدت الرجل أحْمَدُه حَمْدًا فهو حميد ومحمود؛ والتحميد أبلغ من الحمد . والحمد أعمّ من الشكر، والمحمَّد : الذي كثرت خصاله المحمودة . قال الشاعر :

* إلى الماجد القَرْم الجَوَاد المُحَمَّدِ * (١)

وبذلك سُمّي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الشاعر :

فَشَقّ له من اسمه ليُجِلَّه * فذو العَرْش محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

والمَحْمَدة : خلاف المذمّة . وأَحْمَد الرجلُ : صار أمره إلى الحمد . وأحمدته : وجدته محمودا؛ تقول : أتيت موضع كذا فأحمدته؛ أي صادفته محمودا موافقًا، وذلك إذا رضيت سكناه أو مرعاه . ورجل حُمَدَة — مثل هُمَزَة — يكثر حمد الأشياء ويقول فيها أكثر مما فيها . وحَمَدة النار — بالتحريك — : صوت التهابها .

الخامسة — ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضي . وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «الحقائق» له عن جعفر الصادق وابن عطاء . قال ابن عطاء : معناه الشكر لله؛ إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه . واستدل الطبري على أنهما بمعنًى بصحة قولك : الحمد لله شكرا . قال ابن عطية : وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه؛ لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد؛ لأنه على نعمة من النعم . وقال بعض العلماء : إن الشكر أعمّ من الحمد؛ لأنه باللسان وبالجوارح

(١) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه .

والقلب ؛ والحمد إنما يكون باللسان خاصّة . وقيل : الحمد أعم ؛ لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد . ورُوى عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله كلمةُ كل شاكر ، وإن آدم عليه السلام قال حين عَطَس : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السلام : « فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »(١) وقال إبراهيم عليه السلام : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ »(٢) . وقال فى قصة داود وسليمان : « وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ »(٣) . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا »(٤) . وقال أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »(٥) . « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »(٦) . فهى كلمة كلّ شاكر .

قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان(٧) . وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر ؛ والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا ؛ فصار الحمد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر . ويُذكر الحمد بمعنى الرضا ؛ يقال : بلوته فحمدته ، أى رضيته . ومنه قوله تعالى : « مَقَامًا مَحْمُودًا »(٨) . وقال عليه السلام : " أحمد إليكم غسل الإحليل " أى أرضاه لكم . ويذكر عن جعفر الصادق فى قوله « الحمد لله » : من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ؛ لأن الحمد حاء وميم ودال ؛ فالحاء من الوحدانية ، والميم من الملك ، والدال من الدّيمومية ؛ فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه ، وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن إبراهيم فى تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك . والثانى أن ترضى بما أعطاك . والثالث ما دامت قوته فى جسدك ألا تعصيه ؛ فهذه شرائط الحمد .

---

(١) آية ٢٨ سورة المؤمنون . (٢) آية ٣٩ سورة إبراهيم . (٣) آية ١٥ سورة النمل .
(٤) آية ١١١ سورة الإسراء . (٥) آية ٣٤ سورة فاطر . (٦) آية ١٠ سورة يونس .
(٧) عقب ذلك ابن عطية فى تفسيره بقوله : فالحامد من الناس قسمان : الشاكر والمثنى بالصفات . وبه يتضح كلام المؤلف .
(٨) آية ٧٩ سورة الاسراء .

السادسة — أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن فى ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيّه عليه السلام، فقال: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»[1]. وقال عليه السلام: "احْثُوا فى وجوه المدّاحين التراب" رواه المقداد. وسيأتى القول فيه فى «النساء»[2] إن شاء الله تعالى.

فمعنى «الحمدلله رب العالمين»: أى سبق الحمد منّى لنفسى قبل أن يَحْمَدنى أحد من العالمين، وحَمْدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة، وحَمْدى الخلق مشوب بالعلل. قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع و يدفع عنها المضار. وقيل: لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده، حَمِد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل؛ فاستفراغ طَوْق عباده هو محل العجز عن حمده. ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله: "لا أُحصى ثناء عليك". وأنشدوا:

إذا نَحْنُ أثنَيْنَا عليــك بصالحٍ * فأنْتَ كما نُثْنِي وفوقَ الذى نُثْنِي

وقيل: حَمِد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده فحَمِد نفسه عنهم؛ لتكون النعمة أهنأ لديهم، حيث أسقط عنهم به ثقل المِنّة.

السابعة — وأجمع القرّاء السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من «الحمد لله». ورُوى عن سفيان بن عُيينة ورُؤْبة بن العَجّاج: «الحمدَ لله» بنصب الدال؛ وهذا على إضمار فعل. ويقال: «الحمدُ لله» بالرفع مبتدأ وخبر، وسبيل الخبر أن يفيد؛ فما الفائدة فى هذا؟ فالجواب أن سيبويه قال: إذا قال الرجل الحمدُ لله بالرفع ففيه من المعنى مثل ما فى قولك: حمدت الله حمدا؛ إلا أن الذى يرفع الحمد يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله؛ والذى ينصب الحمد يخبر أن الحمد منه وحده لله. وقال غير سيبويه. إنما يتكلم بهذا تعرّضًا لعفو الله ومغفرته وتعظيما له وتمجيدا؛ فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال. وفى الحديث: "مَن شغل بذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين". وقيل: إن مدحه عزّ وجلّ لنفسه وثناءه عليها ليعلّم ذلك عباده؛ فالمعنى على هذا: قولوا الحمد لله. قال الطبرى: «الحمد لله»

(١) آية ٣٢ سورة النجم. (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦

ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمرَ عباده أن يثنوا عليه؛ فكأنه قال : قولوا الحمد لله؛ وعلى هذا يجىء قولوا إياك . وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه؛ كما قال الشاعر :

وأعلَمُ أننى سأكونُ رَمْسًا * إذا سار النواعِجُ(١) لا يسير

فقال السائلون لمن حفرتم * فقال القائلون لهم وزير

المعنى : المحفور له وزير، فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه، وهذا كثير. وروى عن ابن أبى عَبلة : « الحمد لله » بضم الدال واللام على إتباع الثانى الأول؛ وليتجانس اللفظ، وطلبُ التجانس فى اللفظ كثير فى كلامهم؛ نحو : أُجُوءُك، وهو منحدرٌ من الجبل، بضم الدال والجيم . قال :

* ... أضرب الساقينُ أُمّك هابل *

بضم النون لأجل ضم الهمزة . وفى قراءةٍ لأهل مكة « مُرُدفين » بضم الراء إتباعا للميم، وعلى ذلك « مُقُتلين » بضم القاف . وقالوا : لإمِّك، فكسروا الهمزة إتباعا للّام؛ وأنشد للنعمان بن بشير :

ويلِ أمِّها فى هَـواءِ الجَوّ طالبـةً * ولا كهذا الذى فى الأرضِ مَطْلوبُ(٢)

الأصل : ويلٌ لأمها؛ فحذفت اللام الأولى واستثقل ضم الهمزة بعد الكسرة فنقلها للام ثم أتبع اللام الميمَ . وروى عن الحسن بن أبى الحسن وزيد بن علىّ : « الحمدِ للهِ» بكسر الدال على إتباع الأول الثانى .

الثامنـة — قوله تعالى : رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أى مالكهم، وكل من ملك شيئا فهو رَبّه؛ فالربُّ : المـالك . وفى الصحاح : والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال فى غيره إلا بالإضافة؛ وقد قالوه فى الجاهلية للملِك، قال الحارث بن حِلِّزة :

وهُوَ الربّ والشَّهيدُ على يَوْ * مِ الخِيارَيْنِ(٣) والبَلاءُ بَلاءُ

(١) النواعج من الإبل : السِّراع . (٢) وصف عقابا تتبع ذئبا لتصيده . وهذا البيت نسبه سيبويه فى كتابه مرة للنعمان (جـ ٢ ص ٢٧٢) وأخرى لامرئ القيس (جـ ١ ص ٣٥٣) . ونسبه البغدادى فى خزانة الأدب فى الشاهد ٢٦٦ لامرئ القيس أيضا . وقد ورد فى ديوانه : * لا كالذى فى هواء الجو... * وعلى هذا لا شاهد فيه . (٣) الخياران : موضع غزا أهله المنذر بن ماء السماء .

والرب : السيد؛ ومنه قوله تعالى : «اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ»[1] . وفي الحديث : "أن تلد الأمة ربتها" أي سيدتها؛ وقد بيناه في كتاب (التذكرة) . ولربّ : المصلح والمدبّر والجابر والقائم . قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربّه يربّه فهو ربّ له ورابٌّ؛ ومنه سمي الربانيون لقيامهم بالكتب . وفي الحديث : "هل لك من نعمة تربّها عليه" أي تقوم بها وتصلحها . والربّ : المعبود؛ ومنه قول الشاعر :

أَرَبٌّ يبول الثُّعْلُبَانُ برأسه * لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بالتْ عليه الثَّعالِبُ

ويقال على التكثير[2] : رباه وربّبه وربّته؛ حكاه النحاس . وفي الصحاح : وربّ فلانٌ ولده يُربُّه ربًّا، وربّبه وتربّبه بمعنًى؛ أي رباه . والمَرْبوب : المربّى .

التاسعة — قال بعض العلماء : إن هذا الاسم هو اسم الله الأعظم؛ لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر «آل عمران»[3] وسورة «إبراهيم»[4] وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الربّ والمَرْبوب، مع ما يتضمّنه من العطف والرحمة والافتقار في كل حال .

واختلف في اشتقاقه؛ فقيل : إنه مشتق من التربية؛ فالله سبحانه وتعالى مدبّر لخلقه ومربّيهم، ومنه قوله تعالى : «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»[5] . فسمى بنت الزوجة رَبيبة لتربية الزوج لها .

فعلى أنه مدبر لخلقه ومربيهم يكون صفة فعل؛ وعلى أن الربّ بمعنى المالك والسيد يكون صفة ذات .

العاشرة — متى أدخلت الألف واللام على «ربّ» اختص الله تعالى به؛ لأنها للعهد، وإن حذفنا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده، فيقال : الله ربّ العباد، وزيد ربّ الدار؛ فالله سبحانه ربّ الأرباب؛ يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل ربّ سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فمُملَّك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما

(١) آية ٤٢ سورة يوسف . (٢) في النحاس : «على التكبير» . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٨ (٥) آية ٢٣ سورة النساء .

يملك شيئا دون شيء ؛ وصفة الله تعالى مخالفة لهـذه المعانى ، فهذا الفرق بين صـفة الخالق والمخلوقين .

الحادية عشرة — قوله تعـالى : ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ آختلف أهل التأويل فى «العالمين» آختلافا كثيرا ؛ فقال قتادة : العالمَون جمع عالَم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم . وقيل : أهل كل زمان عالم ؛ قاله الحسين بن الفضل ؛ لقوله تعالى : «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ[1] مِنَ الْعَالَمِينَ» أى من الناس . وقال العَجّاج :

* فَخَنْدِفٌ هامةُ هذا العأْلَمِ[2] *

وقال جَرير بن الخَطَفَى :

تَنَصَّفُه البريّةُ وهْوَ سامٍ * ويُضحِى العالَمون له عِيالا

وقال آبن عباس : العالَمون الجنّ والإنس ؛ دليله قوله تعالى : «لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ[3] نَذِيرًا» ولم يكن نذيرا للبهائم . وقال الفرّاء وأبو عبيدة : العـالَم عبارة عمن يعقل ؛ وهم أربعة أمم : الإنس والجنّ والملائكة والشياطين . ولا يقال للبهائم : عالَم ؛ لأن هذا الجمع إنما هو جَمْع مَن يعقل خاصّة .

قال الأعشى :

* ما إنْ سمعتُ بمثلهم فى العالَمينا *

وقال زيد بن أسلم : هم المرتزقون ؛ ونحوه قول أبى عمرو بن العلاء : هم الروحانيون . وهو معنى قول آبن عباس أيضـا : كل ذى رُوح دبّ على وجه الأرض . وقال وَهْب بن مُنَبِّه : إن لله عزّ وجلّ ثمانية عشر ألف عالَم ؛ الدنيا عالَم منها . وقال أبو سعيد الخُـدْرِى : إن لله أربعين ألف عالَم ؛ الدنيـا مِن شرقها إلى غربها عالَمٌ واحد . وقال مُقاتل : العالَمون ثمانون ألف عالَم ، أربعون ألف عالَم فى البر ، وأربعون ألف عالم فى البحر . وروى الربيـع آبن أنس عن أبى العالية قال : الجنّ عالَم ، والإنس عالَم ؛ وسـوى ذلك للأرض أربع زوايا فى كل زاوية ألف وخمسمائة عالَم ، خلقهم لعبادته .

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥ (٢) خندف آسم قبيلة من العرب ، وذكر العلامة الشنقيطى أن العجاج كان ينشد : العألم ؛ بالهمز والإسكان . (٣) سورة الفرقان آية ١

قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال ؛ لأنه شامل لكل مخلوق وموجود ؛ دليله قوله تعالى : « قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (١) . قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا » . ثم هو مأخوذ من العَلَم والعَلامة ؛ لأنه يدل على مُوجده . كذا قال الزجاج قال : العالَم كل ما خلقه الله فى الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العَلَم والعَلامة والمَعْلَم : ما دَلّ على الشيء ؛ فالعالَم دالٌّ على أن له خالقا ومدبرا ، وهذا واضح . وقد ذُكر أن رجلا قال بين يدى الجُنَيد : الحمد لله ؛ فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : رَبّ العالمين ؛ فقال الرجل : ومَن العالَمين حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخى ؟ فإن المحدَث إذا قُرن مع القديم لا يبقى له أثر .

الثانية عشرة — يجوز الرفع والنصب فى «ربّ» فالنصب على المدح ، والرفع على القطع ؛ أى هو رب العالمين .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ وصف نفسه تعالى بعد «رَبّ العالمين» ، بأنه « الرحمن الرحيم » ؛ لأنه لما كان فى اتصافه بـ « رب العالمين » ترهيبٌ قَرَنه بـ « الرحمن الرحيم » ، لما تضمن من الترغيب ؛ ليجمع فى صفاته بين الرهبة منه ، والرغبة إليه ؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع ؛ كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٢) . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . وقال : « غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ (٣) » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنّته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِطَ من جنّته أحد " . وقد تقدّم ما فى هذين الاسمين من المعانى ، فلا معنى لإعادته .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع (٤) بنصب مالك ؛ وفيه أربع لغات : مالك ومَلِك ومَلْك — مخففة من مَلِك — ومَلِيك ؛ قال الشاعر :

وأيام لنا غُرٍّ طِوال * عصينا المَلْك فيها أن نَدينا

(١) آية ٢٣ سورة الشعراء . (٢) آية ٤٩ — ٥٠ سورة الحجر . (٣) آية ٣ سورة غافر .
(٤) هو عمرو بن كلثوم .

وقال آخـر[1] :

فاقنعْ بما قَسَم المليكُ فإنّما ... قَسَم الخـلائقَ بيننا علّامُها

الخلائق : الطبائع التى جُبِل الإنسان عليها . وروى عن نافع إشباع الكسرة فى «مَلِك» فيقرأ «مَلِكِى» على لغة من يشبع الحركات، وهى لغة للعرب ذكرها المهدوى وغيره .

الخامسة عشرة — آختلف العلماء أيّما أبلغ : ملِك أو مالك ؟ والقراءتان مَرْوِيّتان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر. ذكرهما الترمذى ؛ فقيل : «مَلِك» أعمّ وأبلغ من «مالك» إذ كل مَلِك مالك، وليس كل مالك مَلِكا ؛ ولأن أمر الملِك نافذ على المـالك فى مِلْكه، حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك ؛ قاله أبو عبيدة والمبرد . وقيل : «مالك» أبلغ ؛ لأنه يكون مالكا للنـاس وغيرهم ؛ فالمـالك أبلغ تصرُّفًا وأعظم ؛ إذ إليه إجراء قوانين الشرع، ثم عنده زيادة التّملك .

وقال أبو علىّ : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض مَن آختار القراءة بـ«ملك» أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كلّ شىء بقوله : «رَبِّ الْعَالَمِينَ» فلا فائدة فى قراءة من قرأ «مالك» لأنها تكرار . قال أبو علىّ : ولا حجة فى هذا ؛ لأن فى التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدُّم العام ثم ذِكر الخاص كقوله : « هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » فالخالق يعمّ . وذكر المصوّر لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ؛ وكما قال تعـالى : « وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » بعد قوله : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » . والغيب يعمّ الآخرة وغيرها ؛ ولكن ذكرها لعظمها، والتنبيه على وجوب آعتقادها، والردّ على الكفرة الجاحدين لها ؛ وكما قال : «الرحمن الرحيم» فذكر «الرحمن» الذى هو عام وذكر «الرحيم» بعده، لتخصيص المؤمنين به فى قوله : «وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا» . وقال أبو حاتم : إن «مالكا» أبلغ فى مدح الخالق من «ملِك»، و«ملك» أبلغ فى مدح المخلوقين من مالك ؛ والفرق بينهما أن المـالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا، وآختار هـذا القول القاضى أبو بكر بن العربى وذكر ثلاثة

(١) هو لبيد بن ربيعة العامرى .

أوجه ؛ الأول : أنك تضيفه إلى الخاص والعام ؛ فتقول : مالك الدار والأرض والثوب ؛ كما تقول : مالك الملوك . الثانى : أنه يطلق على مالك القليل والكثير ؛ وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا . والثالث : أنك تقول : مالك المُلْك ؛ ولا تقول : ملك المُلْك . قال ابن الحصار : إنما كان ذلك لأن المراد من «مالك» الدلالة على الملك ـ بكسر الميم ـ وهو لا يتضمن «المُلْك» ـ بضم الميم ـ و «ملك» يتضمن الأمرين جميعا فهو أولى بالمبالغة . ويتضمن أيضا الكمال ، ولذلك استحق الملك على من دونه ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ»[1] ، ولهذا قال عليه السلام : "الإمامة فى قريش" وقريش أفضل قبائل العرب ، والعرب أفضل من العجم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار ، وذلك أمر ضرورى فى الملك ، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره ، قهره عدوه وغلبه غيره وأزدرته رعيته ؛ ويتضمن البطش والأمر والنهى والوعد والوعيد ؛ ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام : «مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا»[2] إلى غير ذلك من الأمور العجيبة والمعانى الشريفة التى لا توجد فى المالك .

قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة حرف ؛ فلقارئه عشر حسنات زيادة عمن قرأ ملك . قلت : هذا نظر إلى الصيغة لا إلى المعنى ، وقد ثبتت القراءة بملك ، وفيه من المعنى ما ليس فى مالك ، على ما بينا والله أعلم .

السادسة عشرة — لا يجوز أن يتسمى أحد بهذا الاسم ولا يدعى به إلا الله تعالى ؛ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض" وعنه أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك — زاد مسلم — لا مالك إلا الله عز وجل" قال سفيان[3] : «مثل : شاهانْ شاهْ . وقال

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) سورة النمل آية ٢٠ ، ٢١

(٣) سفيان هذا ، أحد رواة سند هذا الحديث .

أحمد بن حنبل : سألت أبا عمرو الشيبانىّ عن آخنع ؛ فقال : أوْضع » . وعنـه قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : " أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل [كان] يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله سبحانه" . قال ابن الحصار : وكذلك «ملك يوم الدين» و «مالك الملك» لا ينبغى أن يُختلف فى أن هذا محرّم على جميع المخلوقين كتحريم ملك الأملاك سواء ، وأما الوصف بمـالك وملك وهى :

السابعة عشرة — فيجوز أن يوصف بهما من اتصف بمفهومهما ؛ قال الله العظـيم : «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا»(١) . وقال صلى الله عليه وسلم : " ناس من أمتى عُرِضُوا علىّ غُزاةً فى سبيل الله يركبون ثَبَجَ(٢) هذا البحر ملوكا على الأسِرّة أو مثل الملوك على الأسرة" .

الثامنـــة عشرة — إن قال قائل : كيف قال « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» ويوم الدين لم يوجد بعدُ ، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجده ؟ قيل له : اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك ، واسم الفاعل فى كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده وهو بمعنى الفعل المستقبل ويكون ذلك عندهم كلاما سديدا معقولا صحيحا ؛ كقولك : هذا ضارب زيد غدا ؛ أى سيضرب زيدا . وكذلك : هذا حاجّ بيت الله فى العـام المقبل ، تأويله سيحج فى العـام المقبل ؛ أفلا ترى أن الفعل قد يُنسب إليـه وهو لم يفعله بعدُ ، وإنمـا أريد به الاستقبال ؛ فكذلك قوله عزّ وجلّ : «مالك يوم الدين» على تأويل الاستقبال ، أى سيملك يوم الدِّين أو فى يوم الدين إذا حضر .

ووجه ثان : أن يكون تأويل المـالك راجعا إلى القدرة ؛ أى إنه قادر فى يوم الدين ، أو على يوم الدين وإحداثه ؛ لأن المـالك للشىء هو المتصرف فى الشىء والقادر عليه ؛ والله عزّ وجلّ مالك الأشياء كلها ومصرفها على إرادته ، لا يمتنع عليه منها شىء .

والوجه الأول أمَسّ بالعربية وأنفذ فى طريقها ؛ قاله أبو القاسم الزجاجى .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٧ (٢) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

ووجه ثالث : فيقال لِمَ خصص يوم الدِّين وهو مالك يوم الدين وغيره ؟ قيل له : لأن فى الدنيا كانوا منازعين فى الملك ، مثل فرعون ونمروذ وغيرهما ، وفى ذلك اليوم لا ينازعه أحد فى ملكه ، وكلهم خضعوا له ، كما قال تعالى : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ »(١) فأجاب جميع الخلق : « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » فلذلك قال : مالك يوم الدين ؛ أى فى ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجازٍ غيره ؛ سبحانه لا إله إلا هو .

التاسعة عشرة — إنْ وُصف الله سبحانه بأنه مَلِكٌ كان ذلك من صفات ذاته ، وإن وُصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله .

الموفية العشرين — اليوم : عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس ، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما . وقد يطلق اليوم على الساعة منه ؛ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »(٢) . وجمع يوم أيام ؛ وأصله أَيْوَام فأدغم ؛ وربما عبّروا عن الشدة باليوم ، يقال : يوم أيْوَم ، كما يقال : ليلةٌ لَيْلاء . قال الراجز(٣) :

* نِعْمَ أخو الهيجاء فى اليوم اليَمِى *

وهو مقلوب منه(٤) ، أخّر الواو وقدّم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طَرَفا ؛ كما قالوا : أدْلٍ فى جمع دَلْوٍ .

الحادية والعشرون — الدِّين : الجزاء على الأعمال والحساب بها ؛ كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم ، وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ويدل عليه قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ »(٥) أى حسابهم . وقال : « الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » و « الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »(٦) وقال : « أَئِنَّا لَمَدِينُونَ »(٧) أى مجزيُّون محاسبون . وقال لَبيد :

---

(١) سورة غافر آية ١٦ . (٢) سورة المائدة آية ٣ . (٣) هو أبو الأخزر الحمانى كما فى اللسان مادة « يوم » . (٤) قوله : « وهو » أى اليمى . (٥) سورة النور آية ٢٥ . (٦) سورة الجاثية آية ٢٨ . (٧) سورة الصافات آية ٥٣

حصَادُك يومًا ما زرعتَ وإنما * يُدَانُ الفتى يومًا كما هو دائن

آخـر :

إذا ما رمـونا رميناهـمُ * ودِنّاهُم مثـل ما يُقرضـونا

آخـر :

وأعلم يقينـا (١) أن مُلْكك زائلٌ * وأعلم أنّ كما تَدين تُدانُ

وحكى أهل اللغة : دِنْته بفعله دَيْنًا (بفتح الدال) ودِينا (بكسرها) جزيته ؛ ومنه الدّيّان فى صفة الرب تعالى أى المجازى ؛ وفى الحديث : " الكيِّس من دان نفسه " أى حاسب . وقيل : القضاء . روى عن ابن عباس أيضا ؛ ومنه قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ ما كانت حَمُولة (٢) مَعْبَـدٍ * على جُدّها (٣) حَرْبًا لدِينِكَ من مُضَرْ

ومعانى هذه الثلاثة متقاربة . والدِّين أيضا : الطاعة ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم :

وأيامٍ لنـا غُـرٍّ طِـوالٍ * عَصينا المَـلْكَ فيها أن ندِينا

فعلى هذا هو لفظ مشترك وهى :

الثانيـة والعشرون — قال ثَعْلَب : دان الرجل إذا أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عَزّ، ودان إذا ذلّ، ودان إذا قهر؛ فهو من الأضداد . ويطلق الدِّين على العادة والشأن، كما قال :

* كدِينك من أمّ الحُوَيْرث قبلها *

وقال المُثَقِّب [يذكر ناقته] :

تقول إذا درَأتُ لها وضِينِي (٤) * أهـذا دينُـه أبدًا ودِينى

(١) فى اللسان مادة (دين) : « قال خو يلد بن نوفل الكلابى للحارث بن أبى شمر الغسانى وكان قد اغتصبه أبنته :

يا حار أيقن أن ملكك زائل * ... ... » الخ

(٢) الحمولة : الإبل التى يحمل عليها . (٣) الجُدّة (بالضم) : البئر الجيدة الموضع من الكلإ . والخطاب لعمرو بن هند وقد أغار على إبل معبد أخى طرفة . (٤) درأت وضين البعير : إذا بسطته على الأرض ثم أبركته عليه لتشدّه به . والوضين : بطان منسوج بعضه على بعض يشدّ به الرحل على البعير .

والدِّين : سيرة الملك . قال زُهير :

لئن حللتَ بجوّ فى بنى أسد * فى دِين عمرو وحالت بيننا فَدَكُ (١)

أراد فى موضع طاعة عمرو . والدِّين : الدّاء ؛ عن اللحيانى . وأنشد :

* يادِينَ قلبِك من سَلْمَى وقد دِينَا *

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين ؛ لأنّ من أوّل السورة إلى هاهنا خبرًا عن الله تعالى وثناءً عليه ، كقوله : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢) » . ثم قال : «إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً» . وعكسه : «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ (٣) فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ » على ما يأتى . و﴿ نَعْبُدُ ﴾ معناه نطيع ؛ والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق مُعبَّد إذا كان مذلّلا للسالكين ؛ قاله الهَرَوِىّ . ونُطقُ المكلّف به إقرارٌ بالربوبية وتحقيقٌ لعبادة الله تعالى ؛ إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك . ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أى نطلب العَوْن والتأييد والتوفيق .

قال السُّلَمِىّ فى حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغانى يقول : من أقرّ بـ « إياك نعبد و إياك نستعين » فقد برئ من الجَبْر والقَدَر .

الرابعة والعشرون — إن قيل : لم قدّم المفعول على الفعل ؟ قيل له : قدّم اهتماما ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابيا سبّ آخر فأعرض المسبوبُ عنه ؛ فقال له الساب : إياك أعْنى : فقال له الآخر : وعنك أُعرض ؛ فقدّما الأهم . وأيضا لئلا يتقدّم ذكر العبد والعبادة على المعبود ؛ فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك ؛ فيقدّم الفعل على كناية المفعول ، و إنما يتبع لفظ القرآن . وقال العَجّاج :

إيّاك أدْعُو فتقبّل مَلَقِى * واغفِر خطاياى وكثّر ورقى

(١) جو (بالجيم) كما فى الأصول والديوان . قال البكرى فى معجمه : «انه موضع فى ديار بنى أسد» واستشهد ببيت زهير هذا وفى القاموس وشرحه فى مادة الخو — بالخاء المعجمة — : «و يوم خو لبنى أسد ، قال زهير — وذكر البيت — قال أبو محمد الأسود ومن رواه بالجيم فقد أخطأه وكان هذا اليوم لهم على بنى يربوع . » . وفدك : موضع بخيبر .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ١٤٥ . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ .

ويروى : وثَمِّر . وأما قول الشاعر (١) :

* إليكَ حتى بَلَغَتْ إيّاكا *

فشاذٌّ لا يقاس عليـه . والورِق بكسر الراء من الدراهم ، و بفتحها المـال . وكرر الاسم لئلا يتوهّم إياك نعبد ونستعين غيرك .

الخامسة والعشرون — الجمهور من القرّاء والعلماء على شدّ الياء من «إياك» فى الموضعين . وقرأ عمرو بن فائد : «إيَاك» بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لثقلها وكون الكسرة قبلها . وهذه قراءة مرغوب عنها، فإن المعنى يصير : شمسَك نعبد أو ضوءك ؛ وإيَاةُ الشمس (بكسر الهمزة) : ضوءها، وقد تُفتح . وقال (٢) :

سَقَتْهُ إيَاةُ الشّمس إلا لِثاتِه * أُسِفَّ فلم تَكْدِم عليـــه بإثمد

فإن أسقطت الهـاء مددت . ويقال : الإياة للشمس كالهالة للقمر ، وهى الدّارة حولها . وقرأ الفضل الرّقاشىّ : «أياك» (بفتح الهمزة) وهى لغة مشهورة . وقرأ أبو السَّوّار الغَنَوِى : «هياك» فى الموضعين، وهى لغة، قال :

فهِيَاكَ والأمرَ الذى إن توسّعتْ * مواردُه ضاقت عليـك مصادره

السادسة والعشرون — وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

عطف جملة على جملة . وقرأ يحيى بن وثّاب والأعمش : «نِستعين» بكسر النون، وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة، ليدل على أنه من آستعان، فكُسرت النون كما تُكسر ألف الوصل . وأصـل «نستعين» نستعوِن، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر

---

(١) هو حميد الأرقط . والمعنى : سارت هذه الناقة إليك حتى بلغتك .

(٢) قائله طرفة بن العبد . والهاء فى «سقته» و «لثاته» يعود على الثغر ، وكذا المضمر الذى فى «أسف» . ومعنى سقته : حسنته وبيضته وأشربته حسنا . و «أسف» : ذرّ عليه . و «فلم تكدم عليه» : أى لم تعضض عظما فيؤثر فى ثغرها . (عن شرح المعلقات) .

آستعانة ، والأصل آستعوان ؛ قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفا ولا يلتقى ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة ، وقيل الأولى لأن الثانية للمعنى ، ولزمت الهاء عِوَضًا .

السابعة والعشرون — قوله تعالى : ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝

اهدنا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب ؛ والمعنى : دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقُربك . قال بعض العلماء : جعل الله جلّ وعزّ عظم الدعاء وجملته موضوعا فى هذه السورة ، نصفها فيه مجمع الثناء ، ونصفها فيه مجمع الحاجات ، وجعل هذا الدعاء الذى فى هذه السورة أفضل من الذى يدعو به [الداعى] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين ، فأنت تدعو بدعاء هو كلامه الذى تكلم به ؛ وفى الحديث : "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" . وقيل المعنى : أرشدنا باستعمال السُّنن فى أداء فرائضك ؛ وقيل : الأصل فيه الإمالة ؛ ومنه قوله تعالى : «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»[1] أى مِلْنا ؛ وخرج عليه السلام فى مرضه يتهادى بين آثنين ، أى يتمايل . ومنه الهدية ؛ لأنها تمال من مِلك إلى مِلك . ومنه الهَدْىُ للحيوان الذى يساق إلى الحَرَم ؛ فالمعنى مِل بقلوبنا إلى الحق . وقال الفُضيل بن عِيَاض : «الصراط المستقيم» طريق الحج ، وهذا خاص والعموم أولى . قال محمد بن الحنفية فى قوله عزّ وجل « آهدِنا الصراط المستقيم » : هو دين الله الذى لا يقبل من العباد غيره . وقال عاصم الأحْوَل عن أبى العالية : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده . قال عاصم فقلت للحسن : إن أبا العالية يقول : « الصراط المستقيم » رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، قال : صدق ونصح .

الثامنة والعشرون — أصل الصراط فى كلام العرب الطريق ؛ قال عامر بن الطُّفيل :

شحنّا أرْضَهم بالخَيْل حتى * تركناهم أذَلّ من الصّراط

وقال جرير :

أمير المؤمنين على صراط * إذا آعْوَجّ الموارِدُ مُسْتقيم

وقال آخر :

* فصَدّ عن نَهْج الصّراط الواضح *

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٩٦

وحكى النقاش : الصراط الطريق بلغة الروم ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف جدًا .
وقُرئ : السراط (بالسين) من الاسْتراط بمعنى الابتلاع ؛ كأن الطريق يسترط من يسلكه .
وقرئ بين الزاى والصاد . وقرئ بزاى خالصة والسين الأصل . وحكى سَلَمَة عن الفرّاء قال :
الزراط بإخلاص الزاى لغة لعُذْرة وكَلْب وبنى القَيْن ، قال : وهؤلاء يقولون [فى أصدق] :
أزدق . وقد قالوا : الأَزْد والأَسْد ، ولسق به ولصق به . و « الصِّرَاطَ » نصب على المفعول
الثانى ؛ لأن الفعل من الهداية يتعدّى إلى المفعول الثانى بحرف جر ؛ قال الله تعالى : « فَاهْدُوهُمْ »(١)
إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » . و بغير حرف كما فى هذه الآية . « المستقيم » صفة لـ « الصراط » ،
وهو الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا »(٢)
فَاتَّبِعُوهُ » وأصله مُسْتَقْوِم ، نقلت الحركة إلى القاف وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

التاسعة والعشرون — صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ .

صراط بدل من الأول بدل الشىء من الشىء ؛ كقولك : جاءنى زيد أبوك . ومعناه :(٣)
أدِم هدايتنا ، فإن الإنسان قد يُهدَى إلى الطريق ثم يُقطع به . وقيل : هو صراط آخر ،
ومعناه العلم بالله جلّ وعزّ والفهم عنه ؛ قاله جعفر بن محمد . ولغة القرآن « الَّذِين » فى الرفع
والنصب والجر ؛ وهُذَيل تقول : اللَّذُون فى الرفع ، ومن العرب من يقول : اللذو ،(٤) ومنهم
من يقول : الذى ؛(٥) وسيأتى .

وفى « عليهم » عشر لغات ؛ قرئ بعامتها : « عليُهْم » بضم الهاء وإسكان الميم . « وعليهِم »
بكسر الهاء وإسكان الميم . و « عليهِمى » بكسر الهاء والميم وإلحاق ياء بعد الكسرة .
و « عليهِمُو » بكسر الهاء وضم الميم وزيادة واو بعد الضمة . و « عليهُمُو » بضم الهاء والميم
كلتيهما وإدخال واو بعد الميم . و « عليهُمْ » بضم الهاء والميم من غير زيادة واو . وهذه الأوجه
الستة مأثورة عن الأئمة من القرّاء . وأوجه أربعة منقولة عن العرب غير محكية عن القرّاء :

(١) راجع جـ ١٥ ص ٧٣ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ (٣) أى قوله تعالى : « اهدنا »
وما بعده . (٤) قال أبو حيان فى البحر : واستعماله بحذف النون جائز . كذا فى اللسان .
(٥) أى إفرادا أو جمعا فى الرفع والنصب والجر ؛ كما يؤخذ من لسان العرب .

« عليهِمى » بضم الهاء وكسر الميم و إدخال ياء بعد الميم ؛ حكاها الحسن[1] البصرى عن العرب . و « عليهُم » بضم الهاء وكسر الميم من غير زيادة ياء . و « عليهِمُ » بكسر الهاء وضم الميم من غير إلحاق واو . و « عليهِمِ » بكسر الهاء والميم ولا ياء بعد الميم . وكلها صواب ؛ قاله ابن الأنبارى .

الموفية الثلاثين — قرأ عمر بن الخطاب وابن الزبير رضى الله عنهما « صراط من أنعمت عليهم » . واختلف الناس فى المُنْعَم عليهم ؛ فقال الجمهور من المفسرين : إنه أراد صراط النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين . وانتزعوا ذلك من قوله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا »[2] . فالآية تقتضى أن هؤلاء على صراط مستقيم ، وهو المطلوب فى آية الحمد ؛ وجميع ما قيل إلى هذا يرجع ، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان .

الحادية والثلاثون — فى هذه الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية فى صدور أفعاله منه ، طاعةً كانت أو معصيةً ؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله ، فهو غير محتاج فى صدورها عنه إلى ربه ؛ وقد أكذبهم الله تعالى فى هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم ؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية ، ولا كرروا السؤال فى كل صلاة ؛ وكذلك تضرعهم إليه فى دفع المكروه ، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا : « صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ » . فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألّا يُضلّهم ، وكذلك يدعون فيقولون : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا »[3] الآية .

الثانية والثلاثون — غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

اختلف فى « المغضوب عليهم » و « الضالين » من هم ؟ فالجمهور أن المغضوب عليهم اليهود ، والضالين النصارى ؛ وجاء ذلك مفسرا عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى حديث عَدِىّ بن حاتم وقصة إسلامه ، أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ، والترمذى فى جامعه . وشهد لهذا التفسير

(١) فى بعض نسخ الأصل : « الأخفش البصرى » وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٧١ (٣) راجع جـ ٤ ص ١٩

أيضا قوله سبحانه فى اليهود : « وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » وقال : « وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ »(١) وقال فى النصارى : « قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »(٢) . وقيل : «المغضوب عليهم» المشركون . و «الضالين» المنافقون . وقيل : «المغضوب عليهم» هو من أسقط فرض هذه السورة فى الصلاة ؛ و «الضالين» عن بركة قراءتها . حكاه السُّلَمِيّ فى حقائقه والماوردى فى تفسيره ؛ وليس بشىء . قال الماوردى : وهذا وجه مردود ؛ لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم . وقيل : «المغضوب عليهم» باتباع البدع ؛ و «الضالين» عن سنن الهدى .

قلت : وهذا حسن ؛ وتفسير النبىّ صلى الله عليه وسلم أولَى وأعلى وأحسن . و «عليهم» فى موضع رفع ، لأن المعنى غضب عليهم . والغضب فى اللغة الشدّة . ورجل غضوب أى شديد الخُلُق . والغَضُوب : الحية الخبيثة لشدّتها . والغَضْبَة : الدَّرَقَة من جلد البعير يُطوى بعضها على بعض ؛ سُمِّيت بذلك لشدّتها . ومعنى الغضب فى صفة الله تعالى إرادة العقوبة ، فهو صفة ذات ، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته ؛ أو نفس العقوبة ، ومنه الحديث : " إن الصدقة لتطفئ غضب الرب " فهو صفة فعل .

الثالثة والثلاثون — ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ الضلال فى كلام العرب هو الذهاب عن سنَن القصد وطريق الحق ؛ ومنه : ضل اللبن فى الماء أى غاب . ومنه : «أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ» أى غبنا بالموت وصرنا ترابا ؛ قال :

ألم تَسْأَلْ فَتُخْبِرَكَ الدِّيارُ * عن الحَىِّ المُضَلَّلِ أَيْنَ ساروا

والضَّلِيلَة : حجر أملس يردّده الماء فى الوادى . وكذلك الغضبة : صخرة فى الجبل مخالفةٌ لونَه ، قال :

* أَوْ غَضْبَةٍ فى هَضْبَةٍ ما أَمْنَعا *

الرابعة والثلاثون — قرأ عمر بن الخطاب وأبَىّ بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين » وروى عنهما فى الراء النصب والخفض فى الحرفين ؛ فالخفض على البدل من «الذين»

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٥ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٥٢

أو من الهاء والميم فى «عليهم» ؛ أو صفة للذين والذين معرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ولا النكرات بالمعارف، إلا أنّ الذين ليس بمقصود قصدهم فهو عام ؛ فالكلام بمنزلة قولك : إنى لأمُرّ بمثلك فأكرمه ؛ أو لأن «غير» تعرّفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما، كما تقول : الحىّ غير الميت ؛ والساكن غير المتحرّك ، والقائم غير القاعد، قولان : الأوّل للفارسىّ، والثانى للزمخشرىّ . والنصب فى الراء على وجهين : على الحال من الذين، أو من الهاء والميم فى عليهم ، كأنك قلت : أنعمت عليهم لا مغضوبا عليهم . أو على الاستثناء ، كأنك قلت : إلا المغضوب عليهم . ويجوز النصب بأعنى ؛ وحُكى عن الخليل .

الخامسة والثلاثون — «لا» فى قوله «ولا الضالين» اختلف فيها، فقيل هى زائدة ؛ قاله الطبرىّ . ومنه قوله تعالى : « مَامَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ »(١) . وقيل : هى تأكيد دخلت لئلا يتوهم أن الضالين معطوف على الذين، حكاه مكىّ والمهدوىّ. وقال الكوفيون : «لا» بمعنى غير، وهى قراءة عمر وأُبَىّ ؛ وقد تقدّم .

السادسة والثلاثون — الأصل فى «الضالين» : الضاللين حذفت حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام فى اللام فاجتمع ساكنان مدّة الألف واللام المدغمة. وقرأ أيوب السختيانىّ : «ولا الضألين» بهمزة غير ممدودة ؛ كأنه فرّ من التقاء الساكنين وهى لغة. حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن عُبيد يقرأ : « فَيَوْمَئِذٍ لَايُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ(٢) وَلَا جَأَنٌّ » . فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب : دأبّة وشأبّة . قال أبو الفتح : وعلى هذه اللغة قول كُثَيِّر :

* إذا ما العَوالى بالعبيط احمأرّت(٣) *

نُجز تفسير سورة الحمد ؛ ولله الحمد والمنّة .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ (٢) راجع جـ ١٧ ص ١٧٤ (٣) كذا ورد هذا الشطر فى جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عطية وأبى حيان والبيت كما فى ديوانه واللسان مادة (جنن) :

وأنت ابنَ لَيْلَى خير قومك مشهدا * اذا ما احمأرّت بالعبيط العوامل

وهو من قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان . وعوالى الرماح : أسنتها ؛ واحدتها عالية . والعبيط : الدم الطرى . واحمرّ الشىء واحمأرّ بمعنى .

تفسير سورة البقرة

"بحول الله وكرمه ، لا رَبَّ سواه"

وأوّل مبدوء به الكلامُ فى نزولها وفضلها وما جاء فيها ؛ وهكذا كلّ سورة إن وجدنا لها ذلك ؛ فنقول :

سـورة البقرة مَدَنِيّـة ، نزلت فى مُدَد شتّى . وقيل : هى أوّل سـورة نزلت بالمدينة ، إلا قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ »(١) فإنه آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النَّحْر فى حِجّة الوَدَاع بِمِنًى ؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن .

وهـذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم . ويقال لهـا : فسطاط القرآن ؛ قاله خالد ٱبن مَعْدَان . وذلك لعظمها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها . وتعلّمها عمر رضى الله عنه بفقهها وما تحتوى عليه فى ٱثنتى عشرة سنة ، وٱبنُه عبدُ الله فى ثمـانى سنين كما تقدّم .

قال ٱبن العربى : سمعت بعض أشياخى يقول : فيها ألفُ أمْر وألف نَهْى وألف حُكْم وألف خبر . وبَعثَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم بَعْثًا وهم ذوو عدد وقدّم عليهم أحدثَهم سِـنًّا لحفظه سورة البقرة ، وقال له : "ٱذهب فأنت أميرهم" أخرجه الترمذى عن أبى هريرة وصححه . وروى مسلم عن أبى أُمامة الباهلىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ٱقرءوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركَها حسرة ولا يستطيعها البَطَلة"(٢) ، قال معاوية : بلغنى أن البطلة : السحرة . وروى أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم مقابر إنّ الشيطان ينفر من البيت الذى تُقرأ فيـه سورة البقرة" . وروى الدارمىّ عن عبد الله قال : ما من بيت يُقرأ فيـه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان وله ضراط . وقال : إن لكل شىء سَناما وإن سَنام القرآن سورةُ البقرة ، وإن لكل شىء لُبابا وإن لُباب القرآن المفصّل . قال أبو محمد الدارمىّ : اللُّباب : الخالص . وفى صحيح البُسْتِىّ

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥ (٢) معاوية هذا ، هو أحد رواة سند هذا الحديث .

عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل شيء سَناما وإن سَنام القرآن سورة البقرة ومن قرأها فى بيته ليلاً لم يدخل الشيطان بيته ثلاثَ ليال ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيتـه ثلاثة أيام " . قال أبو حاتم البُسْتِيّ : قوله صـلى الله عليه وسـلم : " لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام " أراد : مردة الشياطين . وروى الدّارِميّ فى مسنده عن الشَّعْبِيّ قال قال عبدالله : مَن قرأ عشر آيات مِن سـورة البقرة فى ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة حتى يُصبح ؛ أربعا من أوّلها وآية الكرسى وآيتين بعدها وثلاثا خواتيمها ، أوّلهـا : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ » . وعن الشعبى عنـه : لم يَقربه ولا أهلَه يومئذ شـيطان ولا شيء يكرهه ، ولا يُقْرَأْن على مجنون إلا أفاق . وقال المغيرة بن سبيع — وكان من أصحاب عبد الله — : لم ينس القرآن . وقال إسحاق بن عيسى : لم ينس ما قـد حَفِظ . قال أبو محمد الدارمى : منهم من يقول : المغيرة بن سُمَيع .

وفى كتاب الاستيعاب لابن عبد البر : وكان لَبِيد بن ربيعة [بن عامر](١) بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من شعراء الجاهلية ، أدرك الإسلام فحَسُن إسلامه وترك قولَ الشعر فى الإسلام ، وسأله عمر فى خلافته عن شعره واستنشده ؛ فقرأ سورة البقرة ؛ فقال : إنما سألتك عن شعرك ؛ فقال : ما كنتُ لأقول بيتًا من الشعر بعد إذ علّمنى الله البقرة وآل عمران ؛ فأعجب عمر قولُه ؛ وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة . وقد قال كثير من أهل الأخبار : إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم . وقال بعضهم : لم يقل فى الإسلام إلا قوله :

الحمـــد لله إذ لم يأتنى أجـــلِى * حتى اكتسيتُ من الإسلام سِرْبالا

قال ابن عبد البر : وقد قيل إن هذا البيت لقَرَدَة بن نُفَاثَة السّلولى ، وهو أصح عندى . وقال غيره : بل البيت الذى قاله فى الإسلام :

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه * والمرءُ يصلحه القَرِينُ الصالح

وسيأتى ما ورد فى آية الكرسى وخواتيم البقرة(٢) ، ويأتى فى أول سورة آل عمران(٣) زيادة بيان لفضل هذه السورة ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة عن كتاب الاستيعاب (جـ ١ ص ٢٣٥) طبع الهند .
(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٨ ، ٤٣١
(٣) راجع جـ ٤ ص ٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

" رب يسّر وأعن "

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

آختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور؛ فقال عامر الشَّعْبِيّ وسفيان الثَّوْرِيّ وجماعةٌ من المحدّثين : هى سِرّ الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كُتُبه سِرّ . فهى من المتشابه الذى آنفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن يُتكلّم فيها (١) ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ عن عمر وعثمان وآبن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطّعة من المكتوم الذى لا يُفَسَّر . وقال أبو حاتم : لم نجد الحروف المقطّعة فى القرآن إلا فى أوائل السُّوَر ، ولا ندرى ما أراد الله جلّ وعزّ بها .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنبارى : حدّثنا الحسن بن الحُبَاب حدّثنا أبو بكر بن أبى طالب حدّثنا أبو المنذر الواسطى عن مالك بن مِغْوَل عن سعيد بن مسروق عن الربيع بن خُثَيم (٢) قال : إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ماشاء ، فأما ما آستأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون . قال أبو بكر : فهذا يوضّح أن حروفا من القرآن سُترت معانيها عن جميع العالَم ، آختباراً من الله عزّ وجلّ وآمتحانا ؛ فمن آمن بها أثيب وسعد ، ومَن كفر وشكّ أثم وبَعُد . حدّثنا أبو يوسف بن يعقوب القاضى حدّثنا محمد بن أبى بكر حدّثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن عمارة عن حُرَيث بن ظُهَير عن عبد الله قال : ما آمن مؤمن أفضل من إيمانٍ بغيب ؛ ثم قرأ : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » .

(١) فى نسخة من الأصل : « ولا يجوز أن نتكلم فيها ... ونمرّ كما » الخ . وفى نسخة : « ونقرّ كما جاءت » .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : « فى التقريب الربيع بن خثيم ، بضم المعجمة وفتح المثلثة . ولكن فى الخلاصة بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

(٣) فى نسخة من الأصل : « تجزون به » .

قلت : هـذا القول فى المتشابه وحكمه ، وهو الصحيح على مايأتى بيانه فى (آل عمران) إن شاء الله تعـالى[1] . وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيهـا ، ونلتمس الفوائد التى تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليهـا ؛ واختلفوا فى ذلك على أقوال عديدة ؛ فروى عن ابن عباس وعلى أيضا : أن الحروف المقطعة فى القرآن اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما : هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العـرب حين تحـدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم ؛ ليكون عجزهم عنـه أبلغ فى الحجـة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم . قال قُطْرُب : كانوا ينفرون عند استماع القرآن ، فلما سمعوا : « الٓمٓ » و « المٓصٓ » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له صلّى الله عليه وسلّم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم و يقيم الحجة عليهم . وقال قوم : روى أن المشركين لمـا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة وقالوا : «لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ»[2] نزلت ليستغربوها فيفتحون لهـا أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة . وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيّتها ؛ كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : الألف مفتاح اسمه الله ، واللام مفتاح اسمـه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيـد . وروى أبو الضُّحَى عن ابن عباس فى قوله : « الٓمٓ » قال : أنا الله أعلم ، « الٓرٰ » أنا الله أرى ، « المٓصٓ » أنا الله أفصل . فالألف تؤدّى عن معنى أنا ، واللام تؤدّى عن اسم الله ، والميم تؤدّى عن معنى أعلم . واختار هذا القول الزجاج وقال : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدّى عن معنًى ؛ وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لهـا ووضعًا بدل الكلمات التى الحروف منها ، كقوله :

* فقلت لهـا قِفِى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت . وقال زهير :

بالخـير خيراتٍ وإن شـرًّا فَا * ولا أريـد الشر إلا أنْ تَا

أراد : وإن شرًّا فشرٌّ . وأراد : إلا أن تشاء .

(١) راجع جـ ٤ ص ٩ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٦

وقال آخر :

نادوهـم أَلَا ٱلجُمُـو أَلَا تَا * قالـوا جميعا كلهـم أَلَا فَا

أراد : ألا تركبون ، قالوا : ألا فاركبوا . وفى الحـديث : "مَن أعان على قتـل مسلم بشـطر كلمة" قال شقيق : هو أن يقول فى ٱقتـل : أقْ ؛ كما قال عليه السـلام "كفى بالسيف شا" معناه : شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسُّوَر . وقال الكلبى : هى أقسام أقسم الله تعـالى بها لشرفها وفضلها ، وهى من أسمائه ؛ عن ٱبن عباس أيضا . وردّ بعض العلماء هذا القول فقال : لا يصح أن يكون قَسَمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إنّ وقـد ولقد وما ؛ ولم يوجد هاهنا حرف من هذه الحروف ، فلا يجوز أن يكون يمينا . والجواب أن يقال : موضع القَسَم قوله تعـالى : « لَا رَيْبَ فِيهِ » فلو أن إنسانا حلف فقال : والله هذا الكتاب لَا رَيْبَ فيه ؛ لكان الكلام سديدا ، وتكون « لا » جواب القَسَم . فثبت أن قول الكلبى وما رُوى عن ٱبن عباس سديد صحيح .

فإن قيل : ما الحكمة فى القَسَم من الله تعـالى ، وكان القوم فى ذلك الزمان على صنفين : مصدّق ، ومكذّب ؛ فالمصدق يصدق بغير قَسَم ، والمكذب لا يصدق مع القَسَم ؟ . قيل له : القرآن نزل بلغـة العرب ؛ والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه ؛ والله تعـالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنـده . وقال بعضهم : « الٓمٓ » أى أنزلت عليك هـذا الكتاب من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله : « الٓمٓ » قال ٱسم من أسماء القرآن . وروى عن محمد بن علىّ الترمذى أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام والقصص فى الحروف التى ذكرها فى أوّل السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبىّ أو وَلِىّ ، ثم بيّن ذلك فى جميع السورة ليفقّه الناس . وقيل غير هذا من الأقوال ؛ فالله أعلم .

والوقف على هـذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها . وٱختلف : هل لها محل من الإعراب ؟ فقيل : لا ؛ لأنها ليست أسماء متمكنة ، ولا أفعالا مضارعة ؛ وإنما هى بمنزلة حروف التهجّى فهى مَحْكِيّة . هذا مذهب الخليل وسيبويه .

ومن قال : إنها أسماء السُّور فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر ؛ أى هـذه « الٓمٓ » ؛ كما تقول : هذه سورة البقرة . أو تكون رفعًا على الابتداء والخبر ذلك ؛ كما تقول : زيد ذلك الرجل . وقال ابن كَيْسان النحوى : « الٓمٓ » فى موضع نصب ؛ كما تقول : اقرأ « الٓمٓ » أو عليك « الٓمٓ » . وقيل : فى موضع خفض بالقسم ؛ لقول ابن عباس : إنها أقسام أقسم الله بها .

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ قيل : المعنى هذا الكتاب . و«ذلك» قد تستعمل فى الإشارة إلى حاضر ، و إن كان موضوعا للإشارة إلى غائب ؛ كما قال تعالى فى الإخبار عن نفسه جلّ وعزّ : « ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ »(١) ؛ ومنه قول خُفَاف بن نُدْبة :

أقول له والرّمحُ يأطِرُ(٢) مَتْنَه ۞ تأمّل خُفافا إننى أنا ذلكا

أى أنا هذا . فـ«ذلك» إشارة إلى القرآن ، موضوع موضع هذا ، تلخيصه : الٓمٓ هذا الكتاب لا ريب فيه . وهذا قول أبى عبيدة وعكرمة وغيرهما ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ(٣) إِبْرَاهِيمَ » « تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ(٤) نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ » أى هذه ؛ لكنها لما انقضت صارت كأنها بَعُدَت فقيل تلك . وفى البخارى « وقال معمر ذلك الكتاب هذا القرآن » . ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان ودلالة ؛ كقوله : « ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ(٥) يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » هذا حكم الله .

قلت : وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك» ؛ ومنه قوله عليه السلام فى حديث أُمّ حَرَام : " يركبون ثَبَجَ(٦) هذا البحر " أى ذلك البحر ؛ والله أعلم . وقيل : هو على بابه إشارة إلى غائب .

واختلف فى ذلك الغائب على أقوال عشرة ؛ فقيل : «ذلك الكتاب» أى الكتاب الذى كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق لا رَيْب فيه ؛ أى لا مبدِّل له . وقيل : ذلك الكتاب ؛ أى الذى كتبتُ على نفسى فى الأزل " أن رحمتى سبقت غضبى " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتى تغلب غضبى " فى رواية : " سبقت " . وقيل :

(١) سورة السجدة آية ٦ (٢) يأطر : يثنى . (٣) سورة الأنعام آية ٨٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٢ (٥) سورة الممتحنة آية ١٠ (٦) ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

إن الله تعالى قد كان وعد نبيّه عليه السلام أن ينزل عليه كتابا لا يمحوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حِمَار المجاشعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانَ" الحديث . وقيل : الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة . وقيل : إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيّه صلى الله عليه وسلم بمكة : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا »(١) لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستشرفًا لإنجاز هذا الوعد من ربّه عزّ وجلّ ؛ فلما أنزل عليه بالمدينة : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ » كان فيه معنى هذا القرآن الذى أنزلته عليك بالمدينة، ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أوحيه إليك بمكة . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى ما فى التوراة والإنجيل . و « الٓمٓ » اسم للقرآن ؛ والتقدير هذا القرآن ذلك الكتاب المفسر فى التوراة والإنجيل ؛ يعنى أن التوراة والإنجيل يشهدان بصحته ويستغرق ما فيهما ويزيد عليهما ماليس فيهما . وقيل : إن «ذلك الكتاب» إشارة إلى التوراة والإنجيل كليهما ؛ والمعنى : الٓمٓ ذانك الكتابان أومثل ذَيْنِك الكتابين ؛ أى هذا القرآن جامع لما فى ذَيْنِك الكتابين ؛ فعبّر بـ«ذلك» عن الاثنين بشاهد من القرآن ؛ قال الله تبارك وتعالى : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ »(٢) أى عَوان بين تَيْنك : الفارض والبكر ؛ وسيأتى . وقيل : إن «ذلك» إشارة إلى اللَّوْح المحفوظ . وقال الكسائى : «ذلك» إشارة إلى القرآن الذى فى السماء لم ينزل بعدُ . وقيل : إن الله تعالى قد كان وعد أهل الكتاب أن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم كتابا ؛ فالإشارة إلى ذلك الوعد . قال المبرّد : المعنى هذا القرآن ذلك الكتاب الذى كنتم تستفتحون به على الذين كفروا . وقيل : إلى حروف المعجم فى قول من قال : « الم » الحروف التى تحدّيتُكم بالنظم منها .

والكتاب مصدر من كَتَب يَكْتُب إذا جمع ؛ ومنه قيل : كَتِيبة ؛ لاجتماعها . وتكتّبت الخيل صارت كتائب . وكتبتُ البغلةَ : إذا جمعتَ بين شُفْرَىْ رَحِمها بحلْقة أو سَيْر ؛ قال :

لا تأمَنَنَّ فزاريًّا خَلَوْتَ به * على قَلُوصك واكتُبْها بأسيار

(١) سورة المزمل آية ٥ (٢) آية ٦٨ راجع ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

والكُتْبة (بضم الكاف) : الخُرْزَة، والجمع كُتَبٌ. والكَتْبُ : الخَرْز. قال ذو الرُّمة :

وَفْراءَ غَرْفِيَّةٍ أثأى خوارِزُها * مُشَلْشَلٌ ضيّعَتْه بينها الكُتَبُ (١)

والكتاب : هو خط الكاتب حروف المعجم مجموعة أومتفرقة؛ وسُمِّيَ كتابا وإن كان مكتوبا؛ كما قال الشاعر :

تُؤمِّلُ رجْعةً منِّى وفيها * كتابٌ مثلَ ما لصِق الغِراء

والكتاب : القَرْض والحُكم والقدَر؛ قال الجَعْدِيّ :

يا بنةَ عمِّى كتاب الله أخرجنى * عنكم وهل أمنعنّ الله ما فعلا

قوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ﴾ نفى عام؛ ولذلك نُصب الريب به . وفى الرَّيْب ثلاثة معان :

أحدها — الشك؛ قال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

ليس فى الحق يا أُمَيْمَةُ رَيْبٌ * إنما الرَّيبُ مايقول الجهول

وثانيها — التُّهَمة؛ قال جَميل :

بُثَينةُ قالت يا جَميلُ أَرَبْتَنِي * فقلت كلانا يا بثين مُرِيب

وثالثها — الحاجة؛ قال (٢) :

قضينا من تِهامةَ كلَّ رَيْبٍ * وخَيْبَرَ ثم أَجْمَعْنَا السُّيوفا

فكتاب الله تعالى لا شك فيه ولا ارتياب؛ والمعنى : أنه فى ذاته حق وأنه منزل من عند الله، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا مُحْدَث، وإن وقع ريب للكفار . وقيل : هو خبر ومعناه النهى؛ أى لا ترتابوا، وتم الكلام كأنه قال ذلك الكتاب حقا. وتقول : رابنى هذا الأمرُ إذا أدخل عليك شكًّا وخوفًا . وأراب : صار ذا رِيبة؛ فهو مُرِيب . ورابنى أمره . ورَيْبُ الدهر : صروفه .

قوله تعالى : ﴿فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه ست مسائل :

(١) قوله : «وفراء» أى واسعة و«غرفية» : مدبوغة بالغرف، وهو نبت تدبغ به الجلود . والثأى والثأى (بسكون الهمزة وفتحها) : خرم خرز الأديم . والمشلشل : الذى يكاد يتصل قطره وسيلانه لتتابعه .

(٢) هو كعب بن مالك الأنصارى؛ كما فى اللسان مادة (ريب) .

الأولى — قوله تعالى : ﴿فِيهِ﴾ الهاء فى «فيه» فى موضع خفض بنى، وفيه خمسة أوجه؛ أجودها : فيهِ هُـدى . ويليه فيهُ هُدى (بضم الهاء بغير واو)[1] وهى قراءة الزُّهْرِى وسـلَّام أبى المنذر. ويليه فيهِى هُدى (بإثبات الياء) وهى قراءة ابن كثير. ويجوز فيهُو هُدى (بالواو). ويجوز فيه هدى (مدغما) وارتفع «هدى» على الابتداء والخبر «فيه». والهُدَى فى كلام العرب معناه الرشد والبيان؛ أى فيه كشف لأهل المعرفة ورشدٌ وزيادةُ بيان وهُدًى .

الثانيـــة — الهُدَى هُديان : هُـدَى دلالة ، وهو الذى تقدر عليه الرسل وأتباعهم ؛ قال الله تعالى : « وَلِكُلِّ قَوْمٍ[2] هَادٍ ». وقال : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ[3] مُسْتَقِيمٍ » فأثبت لهم الهدى الذى معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى الذى معناه التأييـد والتوفيـق، فقال لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى[4] مَنْ أَحْبَبْتَ » فالهدى على هـذا يجىء بمعنى خلق الإيمان فى القلب؛ ومنه قوله تعالى : «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ» وقوله : « وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » . والْهُدَى : الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرفت . قال أبو المعالى : وقد ترد الهـداية والمراد بهـا إرشاد المؤمنـين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى فى صفة المجاهدين : «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ[5] . سَيَهْدِيهِمْ» ومنه قوله تعالى : فَاهْدُوهُمْ[6] إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » معناه فاسلكوهم إليها .

الثالثـــة — الهدى لفظ مؤنّث . قال الفرّاء : بعض بنى أسـد تؤنّث الهدى فتقول : هذه هُدَى حسـنة . وقال اللّحيانى : هو مذكّر؛ ولم يعرب لأنه مقصور والألف لا تتحرّك ، ويتعدّى بحرف وبغير حرف وقد مضى فى «الفاتحة»[7]، تقول : هدَيْتُه الطريق وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار؛ أى عرّفته . الأولى لغة أهل الحجاز، والثانية حكاها الأخفش . وفى التنزيل : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ[7] الْمُسْتَقِيمَ » و «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا[8] لِهَذَا» » . وقيل : إن الهُدَى اسم من أسماء النهار؛ لأن الناس يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربهم؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

(١) أى بعد الهاء من «فيه» .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٥
(٣) راجع جـ ١٦ ص ٦٠
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٩
(٥) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٠
(٦) راجع جـ ١٥ ص ٧٣
(٧) راجع ص ١٤٦ من هذا الجزء .
(٨) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨

[حتى آستبنتُ الهُدَى والبِيدُ هاجمةٌ * يَخشعْنَ فى الآل غُلْفًا أو يُصلِّينا] (١)

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ خصّ الله تعالى المتقين بهدايته و إن كان هدى للخلق أجمعين تشريفًا لهم ؛ لأنهـم آمنوا وصدّقوا بما فيـه . وروى عن أبى رَوْق أنه قال : «هُدًى للمتقين» أى كرامة لهم ؛ يعنى إنما أضاف إليهم إجلالا لهم وكرامةً لهم و بيانًا لفضلهم . وأصل «للمتقين» : للموتقيين بياءين مخففتين ، حذفت الكسرة من الياء الأولى لثقلها ثم حذفت الياء لآلتقاء الساكنين وأبدلت الواو تاء على أصلهم فى آجتماع الواو والتاء وأدغمت التـاء فى التاء فصار للمتقين .

الخامســـة — التقوى يقال أصلها فى اللغـة قلّة الكلام ؛ حكاه آبن فارس . قلت : ومنه الحديث : "التَّقِيُّ مُلْجَم والمتَّقِي فوق المؤمن والطائع" وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى ، مأخوذ من آتقاء المكروه بما تجعله حاجزا بينك و بينه ؛ كما قال النابغة :

سقط النَّصِيفُ (٢) ولم ترد إسقاطه * فتناولتـــه وآتقتـــنا باليـــد

وقال آخر :

فألقت قناعًا دونه الشمس وآتّقت * بأحسن موصـــولين كَفٍّ ومِعصِم

وخرّج أبو محمد عبد الغنى الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِى أبى عبيدة عن عاصم بن بَهْدَلَة عن زِرِّ بن حُبيش عن آبن مسـعود قال قال يوما لآبن أخيـه : يآبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قال : نعـم ؛ قال : لا خير فيهـم إلا تائب أو تقى . ثم قال : يآبن أخى ترى النـاس ما أكثرهم ؟ قلت : بلى ؛ قال : لا خير فيهـم إلا عالم أو متعـلم . وقال أبو يزيد البِسْطامى : المتّقى من إذا قال قال لله ، ومن إذا عمل عمل لله . وقال أبو سليمان الدّارانى : المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حبّ الشهوات . وقيـل : المتقى الذى آتقى الشرك و برئ من النفاق . قال آبن عطية : وهذا فاسد ؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق . وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه أُبَيًّا عن التقوى ؛ فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم ؛

(١) هذا البيت ساقط فى جميع الأصول ؛ والزيادة من اللسان مادة (هدى) والبحر المحيط فى هذا الموضوع .

(٢) النصيف : ثوب تجلل به المرأة فوق ثيابها كلها ؛ سمى نصيفا لأنه نصف بين الناس و بينها فحجز أبصارهم عنها .

قال : فما عملت فيه ؟ قال : تشمَّرت وحذرت ؛ قال : فذاك التقوى . وأخذ هـذا المعنى ابن المُعتَزّ فنظمه :

خَلِّ الذنوب صـغيرها * وكبيرها ذاك التّـقى
واصـنع كماشٍ فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنّ صـغيرة * إن الجبـال من الحصى

السادسـة — التقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان ؛ كما قال أبو الدرداء وقد قيل له : إن أصحابك يقولون الشِّعر وأنت ما حُفظ عنك شيء ؛ فقال :

يريد المـرء أن يُؤْتَى مُنَاه * ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المـرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وروى ابن ماجه فى سـننه عن أبى أُمامة عن النبىّ صلّى الله عليه وسـلّم أنه كان يقول : " ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سَرّته وإن أقسم عليها أبَرّته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وما له " .

والأصـل فى التقوى : وَقْوَى على وزن فَعْلَى فقلبت الواو تاء من وَقَيْته أقيه أى منعته ؛ ورجلٌ تِقىّ أى خائف ، أصله وقِى ؛ وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة ؛ كما قالوا : تُجاه وتُراث، والأصل وُجاه ووُراث .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

فيها ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض نعت «للمتقين» ، ويجوز الرفع على القطع أى هم الذين، ويجوز النصب على المدح . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون . والإيمان فى اللغة : التصديق ؛ وفى التنزيل : « وَمَا أَنتَ[1] بِمُؤْمِنٍ لَّنَا » أى بمصـدق ؛ ويتعدّى بالباء واللام ؛ كما قال : « وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ[2] دِينَكُمْ » « فَمَآ ءَامَنَ[3] لِمُوسَىٰ » . وروى حجاج بن حجاج

(١) سورة يوسف آية ١٧ (٢) سورة آل عمران آية ٧٣ (٣) سورة يونس آية ٨٣

الأحول — ويلقب بزِقّ العَسَل — قال سمعت قتادة يقول : يابن آدم ، إن كنت لا تريد أن تأتى الخير إلا عن نشاط فإن نفسك مائلة إلى السّأمة والفَتْرَة والملّة ؛ ولكنّ المؤمن هو المتحامل[1] ، والمؤمن هو المُتقوِّى ، والمؤمن هو المتشدّد ، وإن المؤمنين هم العجّاجون[2] إلى الله الليل والنهار ؛ والله ما يزال المؤمن يقول : ربّنا ربّنا فى السرّ والعلانية حتى أستجاب لهم فى السر والعلانية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الغيب فى كلام العرب : كل ما غاب عنك ، وهو من ذوات الياء ؛ يقال منه : غابت الشمس تَغيب ؛ والغيبة معروفة . وأغابت المرأة فهى مُغيبة إذا غاب عنها زوجها ؛ ووقعنا فى غَيبة وغَيابة ، أى هبطة من الأرض ؛ والغيابة : الأَجَمة ، وهى جماع الشجر يغاب فيها ؛ ويسمى المطمئن من الأرض : الغيب ، لأنه غاب عن البصر .

الثالثـــة — وٱختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ؛ فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية : الله سبحانه . وضعّفه ٱبن العربى . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار . قال ٱبن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها .

قلت : وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : فأخبرنى عن الإيمان . قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقَدَر خيره وشره " . قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : «الذين يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» .

قلت : وفى التنزيل : « وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ »[3] وقال : « الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ »[4] . فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مَرْئِىّ فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والٱستدلال ؛

(١) تحامل فى الأمر وبه : تكلفه على مشقة وإعياء . (٢) العج : رفع الصوت بالتلبية .
(٣) سورة الأعراف آية ٧ . (٤) سورة الأنبياء آية ٤٩ .

فهم يؤمنون أن لهم ربًّا قادرا يجازى على الأعمال، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس، لعلمهم بأطلاعه عليهم، وعلى هـذا تتفق الآى ولا تتعارض؛ والحمد لله. وقيل: «بالغيب» أى بضمائرهم وقلوبهم بخلاف المنافقين؛ وهذا قول حسن. وقال الشاعر:

وبالغيب آمنّا وقـد كان قومُنا * يصلّون للأوثان قبل محمّد

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها فى أوقاتها؛ على ما يأتى بيانه. يقال: قام الشىء أى دام وثبت؛ وليس من القيام على الرِّجْل؛ وإنمـا هو من قولك: قام الحق أى ظهـر وثبت؛ قال الشاعر:

* وقامت الحرب بنـا على ساق *

وقال آخر:

وإذا يقال أتيتُم لم يبرحـوا * حتى تُقيم الخيلُ سُوقَ طِعانِ

وقيل: «يقيمون» يديمون، وأقامه أى أدامه؛ وإلى هذا المعنى أشار عمر بقوله: من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لمـا سواها أضيع.

الخامسـة — إقامة الصلاة معروفة؛ وهى سنة عند الجمهور، وأنه لا إعادة على تاركها. وعند الأوزاعى وعطاء ومجاهـد وابن أبى ليلى هى واجبة وعلى من تركها الإعادة؛ وبه قال أهل الظـاهر، وروى عن مالك، واختـاره ابن العربى قال: لأن فى حديث الأعرابى "وأقم" فأمره بالإقامة كما أمره بالتكبير والاستقبال والوضوء.

قال: فأما أنتم الآن وقد وقفتم على الحـديث فقد تعيّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتى مالك الموافقة للحديث وهى أن الإقامة فرض. قال ابن عبد البر قوله صلى الله عليه وسـلم: "وتحريمها التكبير" دليل على أنه لم يدخل فى الصـلاة من لم يُحْرِم، فمـا كان قبل الإحرام فحكمه ألا تعاد منه الصلاة إلا أن يجمعوا على شىء فيسلم للاجمـاع كالطهارة والقبلة والوقت ونحو ذلك. وقال بعض علمائنا: مَن تركها عمدا أعاد الصلاة، وليس ذلك لوجوبهـا إذ لو كان ذلك لاستوى سهوها وعمدها، وإنما ذلك للاستخفاف بالسنن، والله أعلم.

السادســة — وآختلف العلمـاء فيمن سمع الإقامة هل يُسرع أوْ لا؟ فذهب الأكثر إلى أنه لا يسرع وإن خاف فوت الركعة لقوله عليه السلام: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تَسعَون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتمُّوا". رواه أبو هريرة أخرجه مسلم . وعنه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا تُوِّب بالصلاة فلا يَسْعَ إليها أحدكم ولكن ليَمْشِ وعليه السَّكِينة والوقار صَلِّ ما أدركت وآقضِ ما سبقك" . وهذا نص . ومن جهة المعنى أنه إذا أسرع آنبهر[1] فشوّش عليه دخوله فى الصلاة وقراءتها وخشوعها . وذهب جماعة من السلف منهم آبن عمر وآبن مسعود على آختلاف عنه أنه إذا خاف فواتها أسرع . وقال إسحاق : يسرع إذا خاف فوات الركعة ؛ وروى عن مالك نحوه، وقال : لا بأس لمن كان على فرس أن يحرّك الفرس ؛ وتأوّله بعضهم على الفرق بين الماشى والراكب ؛ لأن الراكب لا يكاد أن ينهر كما ينهر الماشى .

قلت : وآستعمال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل حال أولى ، فيمشى كما جاء الحديث وعليه السكينة والوقار ؛ لأنه فى صلاة ومحال أن يكون خبره صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أخبر؛ فكما أن الداخل فى الصلاة يلزم الوقار والسكون كذلك الماشى، حتى يحصل له التشبه به فيحصل له ثوابه . ومما يدل على صحة هذا ما ذكرناه من السنة، وما خرّجه الدارمى فى مسنده قال : حدّثنا محمد بن يوسف قال حدّثنا سفيان عن محمد بن عجلان عن المقبرى عن كعب بن عُجْرَة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا توضأت فعمدت إلى المسجد فلا تُشَبِّكَنّ بين أصابعك فإنك فى صلاة" . فمنع صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث وهو صحيح مما هو أقل من الإسراع وجعله كالمصلّى ؛ وهذه السنن تبيّن معنى قوله تعالى : «فَٱسْعَوْا[2] إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ» وأنه ليس المراد به الآشتداد على الأقدام، وإنما عنى العمل والفعل؛ هكذا فسره مالك . وهو الصواب فى ذلك والله أعلم .

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس من الإعياء .
(٢) سورة الجمعة آية ٩

السابعـــة — وآختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام: "وما فاتكم فأتمّوا" وقوله: "وآقض ما سبقك" هل هما بمعنًى واحد أو لا؟ فقيل: هما بمعنًى واحد وأن القضاء قد يطلق ويراد به التمام، قال الله تعالى: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ»(١) وقال: «فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ»(٢). وقيل: معناهما مختلف وهو الصحيح؛ ويترتب على هذا الخلاف فيما يدركه الداخل هل هو أول صلاته أو آخرها؟ فذهب إلى الأول جماعة من أصحاب مالك — منهم آبن القاسم — ولكنه يقضى ما فاته بالحمد وسورة، فيكون بانيا فى الأفعال قاضيا فى الأقوال. قال آبن عبد البر: وهو المشهور من المذهب. وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: وهو الذى عليه أصحابنا، وهو قول الأوزاعى والشافعى ومحمد بن الحسن وأحمد بن حنبل والطبرى وداود آبن علىّ. وروى أشهب وهو الذى ذكره آبن عبد الحكم عن مالك، ورواه عيسى عن آبن القاسم عن مالك، أن ما أدرك فهو آخر صلاته، وأنه يكون قاضيا فى الأفعال والأقوال؛ وهو قول الكوفيين. قال القاضى أبو محمد عبد الوهاب: وهو مشهور مذهب مالك. قال آبن عبد البر: من جعل ما أدرك أوّلَ صلاته فأظنهم راعوا الإحرام؛ لأنه لا يكون إلا فى أول الصلاة، والتشهد والتسليم لا يكون إلا فى آخرها؛ فمن هاهنا قالوا: إن ما أدرك فهو أول صلاته، مع ما ورد فى ذلك من السنة من قوله: "فأتموا" والتمام هو الآخر.

وآحتج الآخرون بقوله: "فآقضوا" والذى يقضيه هو الفائت، إلا أن رواية من روى «فأتموا» أكثر، وليس يستقيم على قول من قال: إن ما أدرك أول صلاته ويطرد، إلا ما قاله عبد العزيز بن أبى سَلَمة الماجِشُون والمزنى وإسحاق وداود من أنه يقرأ مع الإمام بالحمد وسورة إن أدرك ذلك معه؛ وإذا قام للقضاء قرأ بالحمد وحدها؛ فهؤلاء آطرد على أصلهم قولهم وفعلهم؛ رضى الله عنهم.

الثامنـــة — الإقامة تمنع من آبتداء صلاة نافلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة" خرّجه مسلم وغيره؛ فأما إذا شرع فى نافلة

(١) سورة الجمعة آية ١٠. (٢) سورة البقرة آية ٢٠٠

فلا يقطعها ؛ لقوله تعالى : « وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ »(١) وخاصة إذا صلى ركعة منها . وقيل : يقطعها لعموم الحديث فى ذلك . والله أعلم .

التاسعة — واختلف العلماء فيمن دخل المسجد ولم يكن ركع ركعتى الفجر ثم أقيمت الصلاة ؛ فقال مالك : يدخل مع الإمام ولا يركعهما ؛ وإن كان لم يدخل المسجد فإن لم يخف فوات ركعة فليركع خارج المسجد ، ولا يركعهما فى شىء من أفنية المسجد — التى تصلّى فيها الجمعة — اللاصقة بالمسجد ؛ وإن خاف أن تفوته الركعة الأولى فليدخل وليصل معه ؛ ثم يصليهما إذا طلعت الشمس إن أحب ؛ ولأنْ يصلّيهما إذا طلعت الشمس أحبّ إلىّ وأفضل من تركهما وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن خشى أن تفوته الركعتان ولا يدرك الإمام قبل رفعه من الركوع فى الثانية دخل معه ، وإن رجا أن يدرك ركعة صلى ركعتى الفجر خارج المسجد ، ثم يدخل مع الإمام . وكذلك قال الأوزاعى ؛ إلا أنه يجوِّز ركوعهما فى المسجد مالم يخف فوت الركعة الأخيرة . وقال الثورى : إن خشى فوت ركعة دخل معهم ولم يصلهما وإلا صلاهما وإن كان قد دخل المسجد . وقال الحسن بن حَىّ ويقال ابن حَيّان : إذا أخذ المقيم فى الإقامة فلا تطوّع إلا ركعتى الفجر . وقال الشافعى : من دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة دخل مع الإمام ولم يركعهما لا خارج المسجد ولا فى المسجد . وكذلك قال الطبرى وبه قال أحمد بن حنبل وحكى عن مالك ؛ وهو الصحيح فى ذلك ؛ لقوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " . وركعتا الفجر إما سنة ، وإما فضيلة ، وإما رَغِيبة ؛ والحجة عند التنازع حجة السُّنة . ومن حجة قول مالك المشهور وأبى حنيفة ما روى عن ابن عمر أنه جاء والإمام يصلى صلاة الصبح فصلاهما فى حُجرة حفصة ، ثم إنه صلى مع الإمام . ومن حجة الثورى والأوزاعى ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه دخل المسجد وقد أقيمت الصلاة فصلى إلى أُسْطُوَانَة(٢) فى المسجد ركعتى الفجر ، ثم دخل الصلاة بمحضر من حذيفة وأبى موسى رضى الله عنهما . قالوا : وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن

(١) سورة محمد آية ٣٣ (٢) الأسطوانة : العامود .

المكتوبة خارج المسجد جاز له ذلك فى المسجد ، روى مسلم عن عبد الله بن مالك ابن بُحَينة[1] قال : أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يصلى والمؤذن يقيم ، فقال : "أتصلى الصبح أربعا" ! وهذا إنكار منه صلى الله عليه وسلم على الرجل لصلاته ركعتى الفجر فى المسجد والإمام يصلى ، ويمكن أن يستدل به أيضا على أن ركعتى الفجر إن وقعت فى تلك الحال صَحّت ؛ لأنه عليه السلام لم يقطع عليه صلاته مع تمكنه من ذلك ، والله أعلم .

العـاشرة – الصلاة أصلها فى اللغة الدعاء ، مأخوذة من صَلّى يصلّى إذا دعا ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إذا دُعى أحدكم إلى طعام فليُجب فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليُصَلّ " أى فليدْعُ . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة المعروفة ، فيصلى ركعتين وينصرف ؛ والأول أشهر وعليه من العلماء الأكثر . ولما وَلدت أسماءُ عبدَ الله بن الزبير أرسلته إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ قالت أسماء : ثم مسحه وصلّى عليه ، أى دعا له . وقال تعالى : « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ »[2] أى ادع لهم .

وقال الأعشى :

تقول بِنْتِى وقد قَرُبتُ مرتحلا * يا ربّ جنّب أبى الأوْصاب والوجَعا
عليك مثلَ الذى صلّيتِ فاغْتمِضى * نوماً فإن لجَنْبِ المرء مُضطجَعا

وقال الأعشى أيضا :

وقابلها الرّيحُ فى دَنّها * وصلّى على دَنّها وارْتَسَمْ

ارتسم الرجل : كبّر ودعا ؛ قاله فى الصحاح . وقال قوم : هى مأخوذة من الصَّلا وهو عِرْق فى وسط الظهر ويفترق عند العَجْب فيكتنفه ؛ ومنه أُخِذ المُصَلّى فى سبق الخيل ؛ لأنه يأتى فى الحَلْبة ورأسه عند صَلْوَى السابق ؛ فاشتقت الصلاة منه ، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فشبهت بالمُصَلّى من الخيل ، وإما لأن الراكع تثنى صَلَوَاه . والصَّلا : مَغْرِز الذَّنَب من الفرس ،

(١) « بحينة » : أمه ، وهى بنت الحارث بن عبد المطلب . وأبوه مالك بن القشب بن فضلة الأزدى .
(٢) سورة التوبة آية ١٠٣

والاثنان صلوان . والمُصَلِّى : تالى السابق ؛ لأن رأسه عند صَلاه . وقال علىّ رضى الله عنه : سَبَقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصَلَّى أبو بكر وثلّث عمر . وقيل : هى مأخوذة من اللزوم ؛ ومنه صَلِىَ بالنار إذا لزمها ؛ ومنه « تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً »(١) . قال الحارث بن عُبَاد :

لم أكن من جُنَاتِها علم اللّـ * ـهُ وإنّى بحرّها اليومَ صالِ

أى ملازم لحرّها ؛ وكأنّ المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحدّ الذى أمر الله تعالى به . وقيل : هى مأخوذة من صَلَيت العود بالنار إذا قوّمته وليّنته بالصّلاء . والصِّلاء : صِلاء النار بكسر الصاد ممدود ؛ فإن فتحت الصاد قَصَرْت ، فقلت صَلا النار ، فكأنّ المصلى يقوّم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع ؛ قال الخارزنجى(٢) :

فلا تعْجل بأمرك واستدمْهُ * فما صَلَّى عصاكَ(٣) كمستديمِ

والصلاة : الدعاء . والصلاة : الرحمة ؛ ومنه : " اللّهمّ صلّ على محمد " الحديث . والصلاة : العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ(٤) » الآية ؛ أى عبادتهم . والصلاة : النافلة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ(٥) » . والصلاة التسبيح ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ(٦) » أى من المصلين . ومنه سُبْحة الضحى . وقد قيل فى تأويل « نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ(٧) » : نصلّى . والصلاة : القراءة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ(٨) » فهى لفظ مشترك . والصلاة : بيت يصلّى فيه ؛ قاله ابن فارس . وقد قيل : إن الصلاة اسم عَلَم وضع لهذه العبادة ؛ فإن الله تعالى لم يُخلِ زمانا من شرع ، ولم يُخلَ شرع من صلاة ؛ حكاه أبو نصر القشيرى .

قلت : فعلى هذا القول لا اشتقاق لها ؛ وعلى قول الجمهور وهى : —

الحادية عشرة — اختلف الأصوليون هل هى مبقاة على أصلها اللغوى الوضعى الابتدائى ، وكذلك الإيمان والزكاة والصيام والحج ، والشرع إنما تصرف بالشروط والأحكام ، أو هل

---

(١) سورة الغاشية آية ٤ .
(٢) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان والتاج مادة (صلا) : « ... قيس بن زهير » .
(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى اللسان : « عصاه » .
(٤) سورة الأنفال آية ٣٥ .
(٥) سورة طه آية ١٣٢ .
(٦) سورة الصافات آية ١٤٣ .
(٧) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٨) سورة الإسراء آية ١١٠ .

تلك الزيادة من الشرع تصيّرها موضوعة كالوضع الابتدائى من قبل الشرع . هنا اختلافهم والأول أصح ؛ لأن الشريعة ثبتت بالعربية ، والقرآن نزل بها بلسان عربى مبين ؛ ولكن للعرب تحكّماً فى الأسماء ، كالدابة وضعت لكل ما يدبّ ؛ ثم خصصها العرف بالبهائم ؛ فكذلك لعرف الشرع تحكّم فى الأسماء ، والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف فى المراد بالصلاة هنا ؛ فقيل : الفرائض . وقيل : الفرائض والنوافل معًا ؛ وهو الصحيح ؛ لأن اللفظ عام والمتّقى يأتى بهما .

الثالثة عشرة — الصلاة سبب للرزق ؛ قال الله تعالى : «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ» الآية ؛ على ما يأتى بيانه فى « طه »[1] إن شاء الله تعالى . وشفاء من وجع البطن وغيره ؛ روى ابن ماجه عن أبى هريرة قال : هجّر[2] النبىّ صلى الله عليه وسلم فهجّرتُ فصليتُ ثم جلستُ ؛ فالتفت إلىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " أشكمت دَرْدَه " قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : " قم فصلّ فإن فى الصلاة شفاء " . فى رواية : " أشكمت درد " يعنى تشتكى بطنك بالفارسية ؛ وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه[3] أمرٌ فزع إلى الصلاة .

الرابعة عشرة — الصلاة لا تصح إلا بشروط وفروض ؛ فمن شروطها : الطهارة ، وسيأتى بيان أحكامها فى سورة النساء[4] والمائدة[5] ، وستر العورة ، يأتى فى الأعراف[6] القول فيها إن شاء الله تعالى .

وأما فروضها : فاستقبال القبلة ، والنية ، وتكبيرة الإحرام والقيام لها ، وقراءة أم القرآن والقيام لها ، والركوع والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من الركوع والاعتدال فيه ، والسجود والطمأنينة فيه ، ورفع الرأس من السجود ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والسجود الثانى والطمأنينة فيه . والأصل فى هذه الجملة حديث أبى هريرة فى الرجل الذى علّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم الصلاة لما أخلّ بها ، فقال له : " إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة ثم كبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعا ثم ارفع

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٦٣ (٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء ، والمبادرة إليه .
(٣) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه ، وقيل : ضغطه . (٤) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ فما بعد .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٨٠ فما بعد . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ فما بعد .

حتى تعتـدل قائما ثم آسجد حتى تطمئن ساجدا ثم آرفع حتى تطمئن جالسا ثم آفعـل ذلك فى صلاتك كلهـا " خرّجه مسلم . ومثله حديث رفاعة بن رافع، أخرجه الدّارَقُطْنِيّ وغيره . قال علماؤنا : فبيّن قوله صلى الله عليه وسلم أركان الصلاة ، وسكت عن الإقامة ورفع اليدين وعن حدّ القراءة وعن تكبير الانتقالات ، وعن التسبيح فى الركوع والسجود، وعن الجلسة الوسطى، وعن التشهد وعن الجلسة الأخيرة وعن السلام. أما الإقامة وتعيين الفاتحة فقد مضى الكلام فيهما[1] . وأما رفع اليـدين فليس بواجب عند جماعة العلمـاء وعامة الفقهاء ؛ لحديث أبى هريرة وحديث رفاعة بن رافع . وقال داود و بعض أصحابه بوجوب ذلك عنـد تكبيرة الإحرام . وقال بعض أصحابه : الرفع عنـد الإحرام وعند الركوع وعند الرفع من الركوع واجب ، و إنّ من لم يرفع يديه فصلاته باطلة ؛ وهو قول الحميدى، ورواية عن الأوزاعى . وآحتجوا بقوله عليه السلام : " صلُّوا كما رأيتمونى أصلّى " أخرجه البخارى . قالوا : فوجب علينا أن نفعل كما رأيناه يفعل ؛ لأنه المبلِّغ عن الله مرادَه . وأما التكبير ما عدا تكبيرة الإحرام فمسنون عند الجمهور للحديث المذكور . وكان آبن قاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير فى الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسهو قبـل السلام ، و إن لم يسجد بطلت صلاته ؛ و إن نسى تكبيرة واحدة أو آثنتين سجد أيضا للسهو ، فإن لم يفعل فلا شىء عليـه ؛ وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيهـا . وهـذا يدل على أن عُظْم التكبير وجملته عنده فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنـه . وقال أَصْبَغ بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم : ليس على من لم يكبّر فى الصلاة من أوّلها إلى آخرها شىء إذا كبر تكبيرة الإحرام، فإن تركه ساهيا سجد للسهو ، فإن لم يسجد فلا شىء عليـه ؛ ولا ينبغى لأحد أن يترك التكبير عامدا ؛ لأنه سنة من سنن الصلاة، فإن فعل فقد أساء ولا شىء عليه وصلاته ماضية .

قلت : هذا هو الصحيح، وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهـل الحديث والمـالكيين غيرَ من ذهب مذهب آبن القاسم . وقد ترجم البخارى

---

(١) راجع ص ١١٧، ١٦٤ من هذا الجزء .

رحمه الله (باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود) وساق حديث مُطَرِّف بن عبد الله قال : صلّيت خلف علىّ بن أبى طالب أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، وإذا رفع رأسه كبّر، وإذا نهض من الركعتين كبّر؛ فلما قضى الصلاة أخذ بيدى عمرانُ بن حصين فقال : لقد ذكرنى هـذا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو قال : لقـد صلى بنا صلاة محمد صلى الله عليه وسلم. وحديثَ عكرمة قال: رأيت رجلا عند المقام يكبر فى كل خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع؛ فأخبرت ابن عباس فقال: أو ليس تلك صلاة النبى صلى الله عليه وسلم لا أمَّ لك(١)! فدلّك البخارى رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم. روى أبو إسحاق السَّبِيعى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : صلّى بنا علىّ يومَ الجَمَل صلاة أذكرنا بهـا صلاة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، كان يكبر فى كل خفض ورفع، وقيـام وقعود؛ قال أبو موسى : فإما نسيناها وإما تركناها عمدا .

قلت: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته! ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرض، والشىء إذا لم يجب أفراده لم يجب جميعه؛ وبالله التوفيق .

الخـامسة عشرة — وأما التسبيح فى الركوع والسجود فغير واجب عند الجمهور للحديث المذكور؛ وأوجبـه إسحاق بن رَاهَوَيْه، وأن من تركه أعاد الصلاة، لقوله عليـه السلام : " أما الركوع فعظموا فيه الربّ وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم".

السادسة عشرة — وأما الجلوس والتشهد فاختلف العلماء فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : الجلوس الأول والتشهد له سنتان . وأوجب جماعة من العلمـاء الجلوس الأول وقالوا : هو مخصوص من بين سائر الفروض بأن ينوب عنه السجود كالعَرايا(٢) من المُزَابنة(٣)، والقِراض(٤) من الإجارات، وكالوقوف بعد الإحرام لمن وجد الإمام راكعا. واحتجوا بأنه لو كان سنة ما كان

(١) قوله : لا أم لك . فى نهاية ابن الأثير : « هو ذم وسب . أى أنت لقيط لا تُعرف لك أم . وقيـل : قد يقع مدحا بمعنى التعجب منه وفيه بُعدٌ » .

(٢) العرايا : نخل كانت توهب ثمارها للساكن فلا يستطيعون أن ينتظروا بها رخص لهم أن يبيعوها بما شاءوا من التمـر .

(٣) المزابنة : بيـع الرطب على رءوس النخل بالتمر كيلا ، وبيع الزبيب بالكرم .

(٤) القراض (بالكسر) : إجارة على التجر فى مال يجزء من ربحه .

العامد لتركه تبطل صلاته كما لا تبطل بترك سنن الصلاة . آحتج من لم يوجبه بأن قال : لو كان من فرائض الصلاة لرجع الساهى عنه إليه حتى يأتى به، كما لو ترك سجدة أو ركعة، ويراعى فيه مايراعى فى الركوع والسجود من الولاء والرتبة، ثم يسجد لسهوه كما يصنع من ترك ركعة أو سجدة وأتى بهما . وفى حديث عبد الله بن بُحَيْنة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام من ركعتين ونسى أن يتشهد فسبّح الناس خلفه كيما يجلس فثبت قائما فقاموا، فلما فرغ من صلاته سجد سجدتى السهو قبل التسليم، فلو كان الجلوس فرضا لم يسقطه النسيان والسهو، لأن الفرائض فى الصلاة يستوى فى تركها السهو والعمد إلا فى المؤثم .

وآختلفوا فى حكم الجلوس الأخير فى الصلاة وما الغرض من ذلك . وهى : —

السابعة عشرة — على خمسة أقوال :

أحدها : أن الجلوس فرض والتشهد فرض والسلام فرض . وممن قال ذلك الشافعى وأحمد بن حنبل فى رواية، وحكاه أبو مصعب فى مختصره عن مالك وأهل المدينة، وبه قال داود . قال الشافعى : من ترك التشهد الأول والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فلا إعادة عليه وعليه سجدتا السهو لتركه . وإذا ترك التشهد الأخير ساهيا أو عامدا أعاد . وآحتجوا بأن بيان النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فرض، لأن أصل فرضها مجمل يفتقر إلى البيان إلا ما خرج بدليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتمونى أصلى " .

القول الثانى : أنّ الجلوس والتشهد والسلام ليس بواجب، وإنما ذلك كله سنة مسنونة، هذا قول بعض البصريين، وإليه ذهب إبراهيم بن عُلَيّة، وصرح بقياس الجلسة الأخيرة على الأولى، فخالف الجمهور وشذّ، إلا أنه يرى الإعادة على من ترك شيئا من ذلك كله . ومن حجتهم حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: "إذا رفع الإمام رأسه من آخر سجدةٍ فى صلاته ثم أحدث فقد تمت صلاته " وهو حديث لا يصح على ما قاله أبو عمر، وقد بيناه فى كتاب المقتبس[1] . وهذا اللفظ إنما يُسقط السلام لا الجلوس .

(١) فى بعض الأصول : « المفتين » .

القول الثالث : إن الجلوس مقدار التشهد فرض ، وليس التشهد ولا السلام بواجب فرضا . قاله أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيين . واحتجوا بحديث ابن المبارك عن الإفريقى عبد الرحمن بن زياد وهو ضعيف ؛ وفيه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا جلس أحدكم فى آخر صلاته فأحدث قبل أن يسلّم فقد تمت صلاته " . قال ابن العربى : وكان شيخنا فخر الإسلام ينشدنا فى الدرس :

ويرى الخروج من الصلاة بضَرْطَة * أين الضَّراطُ من السلامِ عليكُمُ

قال ابن العربى : وسلك بعض علمائنا من هذه المسئلة فرعين ضعيفين ، أما أحدهما : فروى عبد الملك عن عبد الملك أن من سلّم من ركعتين متلاعبا ، فخرج البيان أنه إن كان على أربع أنه يجزئه ، وهذا مذهب أهل العراق بعينه . وأما الثانى : فوقع فى الكتب المنبوذة أن الإمام إذا أحدث بعد التشهد متعمدا وقبل السلام أنه يجزئُ مَن خلفَه ، وهذا مما لا ينبغى أن يلتفت إليه فى الفتوى ؛ وإن عمرت به المجالس للذكرى .

القول الرابع : أن الجلوس فرض والسلام فرض ، وليس التشهد بواجب . وممن قال هذا مالك بن أنس وأصحابه وأحمد بن حنبل فى رواية . واحتجوا بأن قالوا : ليس شىء من الذكر يجب إلا تكبيرة الإحرام ، وقراءة أم القرآن .

القول الخامس : أن التشهد والجلوس واجبان ، وليس السلام بواجب ؛ قاله جماعة منهم إسحاق بن رَاهَوَيْه ، واحتج إسحاق بحديث ابن مسعود حين علّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم التشهد وقال له : " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك وقضيت ما عليك " . قال الدَّارَقُطْنِيّ : قوله " إذا فرغت من هذا فقد تمت صلاتك " أدرجه بعضهم عن زهير فى الحديث ، ووصله بكلام النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفصله شَبَابَة عن زهير وجعله من كلام ابن مسعود ، وقوله أشبه بالصواب من قول من أدرجه فى حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَبَابَة ثقة . وقد تابعه عَفّان بن الربيع على ذلك ، جعل آخر الحديث من كلام ابن مسعود ولم يرفعه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

الثامنة عشرة — وٱختلف العلماء فى السلام؛ فقيل : واجب، وقيل : ليس بواجب . والصحيح وجوبه لحديث عائشة وحديث علىّ الصحيح خرّجه أبو داود والترمذىّ ورواه سفيان الثورىّ عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن علىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم" وهذا الحديث أصل فى إيجاب التكبير والتسليم، وأنه لا يجزئ عنهما غيرهما كما لا يجزئ عن الطهارة غيرها بٱتفاق . قال عبد الرحمن بن مهدى : لو ٱفتتح رجل صلاته بسبعين ٱسما من ٱسماء الله عز وجلّ ولم يكبر تكبيرة الإحرام لم يجزه، وإن أحدث قبل أن يسلم لم يجزه؛ وهذا تصحيح من عبد الرحمن بن مهدى لحديث علىّ ، وهو إمام فى علم الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه . وحَسْبُك به !

وقد ٱختلف العلماء فى وجوب التكبير عند الٱفتتاح وهى : —

التاسعة عشرة — فقال ٱبن شهاب الزهرى وسعيد بن المسيّب والأوزاعى وعبد الرحمن وطائفة : تكبيرة الإحرام ليست بواجبة . وقد روى عن مالك فى المأموم ما يدل على هذا القول؛ والصحيح من مذهبه إيجاب تكبيرة الإحرام وأنها فرض وركن من أركان الصلاة ؛ وهو الصواب وعليه الجمهور، وكل من خالف ذلك فمحجوج بالسنة .

الموفية عشرين — وٱختلف العلماء فى اللفظ الذى يدخل به فى الصلاة؛ فقال مالك وأصحابه وجمهور العلماء : لا يجزئ إلا التكبير، لا يجزئ منه تهليل ولا تسبيح ولا تعظيم ولا تحميد . هذا قول الحجازيين وأكثر العراقيين؛ ولا يجزئ عند مالك إلا « الله أكبر » لا غير ذلك . وكذلك قال الشافعى وزاد : ويجزئ «الله الأكبر» و «الله الكبير» . والحجة لمالك حديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ « الحمد لله رب العالمين » . وحديث علىّ : وتحريمها التكبير . وحديث الأعرابى : فكبّر . وفى سنن ٱبن ماجه حدّثنا أبو بكر بن أبى شيبة وعلىّ بن محمد الطنافسى قالا : حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنى عبد الحميد بن جعفر قال حدّثنا محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت أبا حميد الساعدى

يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة آستقبل القبلة ورفع يديه وقال : « الله أكبر » وهذا نص صريح وحديث صحيح فى تعيين لفظ التكبير؛ قال الشاعر :

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيء * محاولةً وأعظمه جنـودا

ثم إنه يتضمن القدم، وليس يتضمنه كبير ولا عظيم، فكان أبلغ فى المعنى؛ والله أعلم .

وقال أبو حنيفة : إن آفتتح بلا إله إلا الله يجزيه، وإن قال : اللهم آغفر لى لم يجزه، وبه قال محمد بن الحسن . وقال أبو يوسف : لا يجزئه إذا كان يحسن التكبير . وكان الحكم ابن عتيبة يقول : إذا ذكر الله مكان التكبير أجزأه . قال آبن المنـذر : ولا أعلمهم يختلفون أن من أحسن القراءة فهلّل وكبّر ولم يقرأ أن صلاته فاسـدة، فمن كان هـذا مذهبه فاللازم له أن يقول لا يجزيه مكان التكبير غيره، كما لا يجزئ مكان القراءة غيرها . وقال أبو حنيفة : يجزئه التكبير بالفارسـية وإن كان يحسن العربية . قال آبن المنـذر : لا يجزيه لأنه خلاف ما عليه جماعات المسلمين، وخلاف ما علّم النبىّ صلى الله عليه وسلم أمته، ولا نعلم أحدا وافقه على ما قال . والله أعلم .

الحادية والعشرون — وآتفقت الأمة على وجوب النية عند تكبيرة الإحرام إلا شيئا روى عن بعض أصحابنا يأتى الكلام عليه فى آية الطهارة؛ وحقيقتها قصد التقرّب إلى الآمر بفعل ما أمر به على الوجه المطلوب منه . قال آبن العربى : والأصل فى كل نية أن يكون عقدها مع التلبس بالفعل المنوىّ بهـا، أو قبل ذلك بشرط آستصحابها، فإن تقدّمت النية وطرأت غفلة فوقع التلبس بالعبادة فى تلك الحالة لم يعتد بها . كما لا يعتد بالنية إذا وقعت بعد التلبس بالفعل، وقد رخص فى تقديمها فى الصوم لعظم الحرج فى آقترانها بأوّله . قال آبن العربىّ : وقال لنا أبو الحسن القروىّ بثَغْر عسقلان : سمعت إمام الحرمين يقول : يحضر الإنسان عند التلبس بالصلاة النية، ويجرد النظر فى الصانع وحدوث العالم والنبوّات حتى ينتهى نظره إلى نية الصلاة، قال : ولا يحتاج ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكون ذلك فى أوحى[1] لحظة، لأن

(١) أوحى : أسرع .

تعليم الجمل يفتقر إلى الزمان الطويل، وتذكارها يكون فى لحظة، ومن تمام النية أن تكون مستصحبة على الصلاة كلها، إلا أن ذلك لما كان أمرا يتعذر عليه سمح الشرع فى عزوب النية فى أثنائها. سمعت شيخنا أبا بكر الفهرى بالمسجد الأقصى يقول قال محمد بن سحنون: رأيت أبى سحنونا ربما يكمل الصلاة فيعيدها؛ فقلت له ما هذا؟ فقال: عَزَبت نيتى فى أثنائها فلأجل ذلك أعدتها.

قلت: فهذه جملة من أحكام الصلاة، وسائر أحكامها يأتى بيانها فى مواضعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى؛ فيأتى ذكر الركوع وصلاة الجماعة والقبلة والمبادرة إلى الأوقات، وبعض صلاة الخوف فى هذه السورة، ويأتى ذكر قصر الصلاة وصلاة الخوف، فى «النساء»(١) والأوقات فى «هود»(٢) وسبحان(٣) والروم»(٤) وصلاة الليل فى «المزمل»(٥) وسجود التلاوة فى «الأعراف»(٦) وسجود الشكر فى «ص»(٧) كلٌّ فى موضعه إن شاء الله تعالى.

الثانيـة والعشرون — قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ رزقناهم: أعطيناهم، والرزق عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالا كان أو حراما، خلافا للمعتزلة فى قولهم: إن الحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، وإن الله لا يرزق الحرام وإنما يرزق الحلال، والرزق لا يكون إلا بمعنى الملك.

قالوا: فلو نشأ صبى مع اللصوص ولم يأكل شيئا إلا ما أطعمه اللصوص إلى أن بلغ وقوى وصار لصا، ثم لم يزل يتلصص ويأكل ما تلصصه إلى أن مات، فإن الله لم يرزقه شيئا إذ لم يملكه، وإنه يموت ولم يأكل من رزق الله شيئا.

وهذا فاسد، والدليل عليه أن الرزق لو كان بمعنى التمليك لوجب ألا يكون الطفل مرزوقا، ولا البهائم التى ترتع فى الصحراء، ولا السِّخال من البهائم، لأن لبن أمهاتها ملك لصاحبها دون السخال.

ولما أجتمعت الأمة على أن الطفل والسخال والبهائم مرزوقون، وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين علم أن الرزق هو الغذاء ولأن الأمة مجمعة على أن العبيد والإماء مرزوقون،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ فما بعد. (٢) راجع جـ ٩ ص ١٠٩ فما بعد. (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٠٣ فما بعد. (٤) راجع جـ ١٤ ص ١٤ فما بعد. (٥) راجع جـ ١٩ ص ٥١ فما بعد. (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعد. (٧) راجع جـ ١٥ ص ١٨٣.

وأن الله تعالى يرزقهم مع كونهم غير مالكين ؛ فعلم أن الرزق ما قلناه لا ما قالوه . والذى يدل على أنه لا رازق سواه قوله الحق : «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ (١) ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ» وقال : «إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو (٢) ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ» وقال : «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ (٣) فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا» وهذا قاطع ؛ فالله تعالى رازق حقيقة وآبن آدم رازق تجوّزا ، لأنه يملك ملكا منتزعا كما بيناه فى الفاتحة (٤) ؛ مرزوق حقيقة كالبهائم التى لا ملك لها ؛ إلا أن الشىء إذا كان مأذونا له فى تناوله فهو حلال حكما ، وما كان منه غير مأذون له فى تناوله فهو حرام حكما ؛ وجميع ذلك رزق .

وقد خَرَّج بعض النبلاء من قوله تعالى : «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ (٥) وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» فقال : ذكر المغفرة يشير إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرزق مصدر رزق يرزق رَزقا ورِزقا ، فالرَّزق بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم ، وجمعه أرزاق ؛ والرزق : العطاء . والرازقية : ثياب كتان [بيض (٦)] . وآرتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة ؛ هكذا قال أهل اللغة . وقال آبن السكيت : الرزق بلغة أَزْدِ شَنُوءَة : الشكر ؛ وهو قوله عزّ وجلّ : « وَتَجْعَلُونَ (٧) رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أى شكركم التكذيب . ويقول : رزقنى أى شكرنى .

الرابعة والعشرون — قوله تعالى : ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ينفقون : يخرجون . والإنفاق : إخراج المال من اليد ؛ ومنه نَفَق البيع : أى خرج من يد البائع إلى المشترى . ونَفَقت الدابةُ : خرجت روحها ؛ ومنه النافقاء لجُحْر اليربوع الذى يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى . ومنه المنافق ؛ لأنه يخرج من الإيمان أو يخرج الإيمان من قلبه . ونَيْفَق السراويل معروفة وهو مخرج الرِّجل منها . ونَفِق الزاد : فنى وأنفقه صاحبه . وأنفق القوم : فنى زادهم ؛ ومنه قوله تعالى: « إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ (٨) ٱلْإِنْفَاقِ » .

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ فما بعد . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٥٥ (٣) راجع جـ ٩ ص ٦ فما بعد .
(٤) راجع ص ١٤٠ فما بعدها من هذا الجزء . (٥) راجع جـ ١٤ ص ٢٨٤ (٦) الزيادة عن اللسان مادة (رزق) . (٧) راجع جـ ١٧ ص ٢٢٨ فما بعد . (٨) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥

الخامسة والعشرون — واختلف العلماء فى المراد بالنفقة هاهنا؛ فقيل: الزكاة المفروضة — روى عن ابن عباس — لمقارنتها الصلاة . وقيل : نفقة الرجل على أهله — روى عن ابن مسعود — لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دينارٌ أنفقتَه فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رَقَبة ودينار تَصدّقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجرًا الذى أنفقتـه على أهلك" . وروى عن ثَوْبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أفضلُ دينارٍ ينفقه الرجل دينارٌ ينفقه على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عزّ وجلّ ودينارٌ ينفقه على أصحابه فى سبيل الله" قال أبو قِلابة[1]: وبدأ بالعيال [ثم] قال أبو قِلابة : وأىُّ رَجلٍ أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار يعفّهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم . وقيل : المراد صدقة التطوّع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتى إلا بلفظها المختص بها وهو الزكاة؛ فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت الفرض والتطوّع ، فإذا جاءت بلفظ الإنفاق لم تكن إلا التطوّع . قال الضحاك : كانت النفقة قربانا يتقربون بهـا إلى الله جلّ وعزّ على قدر جِدَتهم حتى نزلت فرائض الصدقات والناسخات[2] فى «براءة» . وقيـل : إنه الحقوق الواجبة العارضـة فى الأموال ما عدا الزكاة؛ لأن الله تعالى لمـا قرنه بالصـلاة كان فرضا، ولمـا عدل عن لفظها كان فرضا سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح، لأنه خرج مخرج المدح فى الإنفاق مما رزقوا ، وذلك لا يكون إلا من الحلال ، أى يؤتون ما ألزمهـم الشرع من زكاة وغيرها ممـا يعنّ فى بعض الأحوال مع ما ندبهم إليـه . وقيـل : الإيمان بالغيب حظ القلب . وإقام الصـلاة حظ البـدن، ومما رزقناهم ينفقون حظ المـال، وهذا ظاهر. وقال بعض المتقدّمين فى تأويل قوله تعالى: «ومِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» أى مما علّمناهم يعلّمون؛ حكاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشـيرى .

---

(١) أبو قلابة : أحد رواة سند هذا الحديث . (٢) مثل قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية . جـ ٨ ص ٢٤٤ فقد قال ابن العربى إنها ناسخة لآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية انظر صفحة ٣٨١ من الجزء الأول من تفسيره المطبوع بمصر سنة ١٣٣١ هـ . وكذلك روى الجصاص نسخها بما عن عمر بن عبد العزيز .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

قيل : المراد مؤمنو أهل الكتاب ؛ كعبد الله بن سَلَام وفيه نزلت ، ونزلت الأولى فى مؤمنى العرب . وقيل : الآيتان جميعا فى المؤمنين ، وعليه فإعراب «الذين» خفضٌ على العطف ، ويصح أن يكون رفعًا على الاستئناف أى وهم الذين . ومن جعلها فى صنفين فإعراب «الذين» رفع بالابتداء ، وخبره «أولئك على هُدًى» ويحتمل الخفض عطفا .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يعنى الكتب السالفة ؛ بخلاف ما فعله اليهود والنصارى حسب ما أخبر الله عنهم فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا » الآية (١) . ويقال : لما نزلت هذه الآية : «الذين يؤمنون بالغيب » قالت اليهود والنصارى : نحن آمنّا بالغيب ، فلما قال : « وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ » قالوا : نحن نقيم الصلاة ، فلما قال « ومما رزقناهم ينفقون » قالوا : نحن ننفق ونتصدّق ، فلما قال : « وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ » نفروا من ذلك . وفى حديث أبى ذَرّ قال قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزل الله ؟ قال : " مائة كتاب وأربعة كتب أنزل الله على شِيث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ (٢) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان " . الحديث أخرجه الحسين الآجُرّى وأبو حاتم البُسْتِىّ .

وهنا مسئلة — إن قال قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها مع تنافى أحكامها ؟ قيل له فيه جوابان : أحدهما — أن الإيمان بأن جميعها نزل من عند الله ؛ وهو قول من أسقط التعبد بما تقدّم من الشرائع . الثانى — أن الإيمان بما لم ينسخ منها ؛ وهذا قول من أوجب التزام الشرائع المتقدّمة ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أى وبالبعث والنشر هم عالمون . واليقين : العلم دون الشك ؛ يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ (بالكسر) يَقَنًا ، وأيقنتُ وآستيقنتُ وتيقّنتُ كله بمعنًى ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) أخنوخ هو إدريس عليه السلام .

وأنا على يقين منه. وإنما صارت الياء واوا فى قولك: مُوقِن، للضمة قبلها، وإذا صغرته رددته إلى الأصـل فقلت مُيَيْقِن. والتصغير يردّ الأشياء إلى أصولها وكذلك الجمع. وربما عبروا باليقين عن الظن، ومنه قول علمائنا فى اليمين اللَّغْو: هو أن يحلف بالله على أمر يوقنه ثم يتبين له أنه خلاف ذلك فلا شىء عليه؛ قال الشاعر(١):

تَحَسَّبَ هَوَاشٌ وأيقنَ أنني * بها مُفْتِدٍ من واحِدٍ لا أُغَامِرُهْ

يقول: تشمّم الأسـد ناقتى، يظنّ أنى مُفْتَدٍ بها منه، وأستحمى نفسى فأتركها له ولا أقتحم المهالك بمقاتلته. فأما الظن بمعنى اليقين فورد فى التنزيل وهو فى الشعر كثير؛ وسيأتى. والآخرة مشتقة من التأخر لتأخرها عنا وتأخرنا عنها، كما أن الدنيا مشتقة من الدّنو؛ على ما يأتى.

قوله تعـالى: أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

قال النحاس أهل نجد يقولون: أُلَاكَ، وبعضهم يقول: أُلَالِكَ؛ والكاف للخطاب. قال الكسائى: من قال أولئك فواحده ذلك، ومن قال أُلَاك فواحده ذاك، وأُلَالِك مثل أولئك؛ وأنشد ابن السِّكِّيت:

أُلَالِكَ قومى لم يكونوا أُشَابَةً(٢) * وهل يَعِظُ الضِّلِّيل إلا أُلَالِكَا

وربما قالوا: أولئك فى غير العقلاء؛ قال الشاعر:

ذُمَّ المنازل بعد منزلة اللِّوَى * والعيشَ بعـد أولئك الأيامِ

وقال تعالى: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا»(٣) وقال علماؤنا: إن فى قوله تعالى: «مِن رَّبِّهِمْ» ردّا على القدرية فى قولهم: يخلقون إيمانهم وهداهم، تعالى الله عن قولهم! ولو كان كما قالوا لقال: «من أنفسهم»(٤)، وقد تقدّم الكلام فيه وفى الهُدى(٥) فلا معنى لإعادة ذلك.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ «هم» يجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وخبره «المفلحون»، والثانى وخبره خبر الأول، ويجوز أن تكون «هم» زائدة - يسميها البصريون فاصلة والكوفيون عمادا - و «المفلحون» خبر «أولئك».

(١) هو أبو سدرة الأسدى، ويقال: الهجيمى.
(٢) الأشابة من الناس: الأخلاط. والأشابة فى الكسب: ما خالطه الحرام الذى لا خير فيه والسحت.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٥٩
(٤) راجع المسئلة الحادية والثلاثين ص ١٤٩.
(٥) راجع المسئلة الثانية ص ١٦٠ من هذا الجزء.

والفَلْح أصله فى اللغة الشق والقطع ؛ قال الشاعر :

* إن الحـديد بالحـديد يُفْلَح *

أى يشق ؛ ومنه فلاحة الأرضين إنما هو شقها للحرث ، قاله أبو عبيد . ولذلك سُمّى الأَكَّارُ[1] فلّاحا . ويقال للذى شُقّت شفته السفلى أفلح ، وهو بَيّن الفَلَحة ، فكأن المفلح قد قطع المصاعب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل فى الفوز والبقاء، وهو أصله أيضا فى اللغة، ومنه قول الرجل لامرأته : أستَفْلِحى بأمْرِك ، معناه فوزى بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حَىّ مدرك الفلاح * أدركه مُلاعب الرماح

وقال الأضْبط بن قُرَيع السعدىّ فى الجاهلية الجهلاء :

لكلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ * والمُسْىُ والصُّبْحُ لا فَلاح معَهْ

يقول : ليس مع كرّ الليل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلادا كلّها حلّ قبلنا * ونرجو الفلاح بعد عاد وحِمْيَرَ

أى البقاء . وقال عبيد :

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضَّـ * ـعف وقـد يُخَـدَّعُ الأريبُ

أى أبق بما شئت من كَيْس وحُمْق فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل . فمعنى «وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون» : أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى إسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوْا من شر ما منه هربوا، والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السَّحور؛ ومنه الحديث : حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وما الفلاح؟ قال : السَّحور . أخرجه أبو داود . فكأنّ معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمّاه فلاحا . والفلاح (بتشديد اللام) : المُكارِى فى قول القائل[2] :

لها رِطلٌ تَكيلُ الزيت فيه * وفَلّاحٌ يسوق لها حِمارَا

ثم الفلاح فى العُرْف : الظفر بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب .

(١) الذى يحرث الأرض . (٢) هو عمرو بن أحمد الباهلى ؛ كما فى اللسان مادة (فلح) .

مسئلة — إن قال قائل كيف قرأ حمزة : عليهُم و إليهُم ولديهُم ؛ ولم يقرأ من ربهُم ولا فيهُم ولا جَنَّتَيْهُم؟ فالجواب أن عليهم و إليهم ولديهم الياء فيه منقلبة من ألف، والأصل علاهم ولداهم و إلاهم فأقرت الهاء على ضمتها؛ وليس ذلك فى فيهم ولا من ربهم ولا جَنَّتَيْهِم، ووافقه الكسائى فى « عليهم الذِّلة » و « إليهم آثنين » على ما هو معروف من القراءة عنهما.

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

لما ذكر المؤمنين وأحوالهم ذكر الكافرين ومآلهم . والكفر ضد الإيمان وهو المراد فى الآية . وقد يكون بمعنى جحود النعمة والإحسان ؛ ومنه قوله عليه السلام فى النساء فى حديث الكسوف : " ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء " قيل : بِمَ يا رسول الله ؟ قال : "بكفرهن" ؛ قيل أيكفرن بالله ؟ قال : "يكفرن العَشير و يكفرن الإحسان لو أحسنتَ إلى إحداهن الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط " أخرجه البخارى وغيره .

وأصل الكَفْر فى كلام العرب : الستر والتغطية ؛ ومنه قول الشاعر :

* فى ليلة كَفَر النُّجُومَ غَمَامُها *

أى سترها . ومنه سُمّى الليل كافرًا؛ لأنه يغطى كل شىء بسواده؛ قال الشاعر (١) :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رَثِيدًا بَعْدَ مَا * أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فى كافر

ذكاء (بضم الذال والمدّ) : آسم للشمس ؛ ومنه قول الآخر :

فوردَتْ قبل آنبلاج الفجرِ * وآبنُ ذُكاءٍ كَامِنٌ فى كَفْر

أى فى ليل . والكافر أيضا : البحر والنهر العظيم . والكافر: الزارع؛ والجمع كُفّار ، قال الله تعالى : « كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ (٢) نَبَاتُهُ » . يعنى الزُّرّاع لأنهم يغطون الحب . ورماد

(١) هو ثعلبة بن صعيرة المازنى ، يصف الظليم والنعامة ورواحهما إلى بيضهما عند غروب الشمس . والثقل (بالتحريك) هنا : بيض النعام المصون . والرثيد : المنضد بعضه فوق بعض أو إلى جنب بعض . وألقت يمينها فى كافر : أى بدأت فى المغيب . اللسان مادة (كفر) .

(٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥

مكفور : سفت الريح عليه التراب . والكافر من الأرض : ما بَعُد عن الناس لا يكاد ينزله ولا يمرّ به أحد؛ ومَن حلّ بتلك المواضع فهم أهل الكفور. ويقال الكفور : القُرَى .

قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ معناه معتدل عندهم الإنذار وتركه ؛ أى سواء عليهم هذا. وجىء بالاستفهام من أجل التسوية ؛ ومثله قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ »(١) . وقال الشاعر(٢) :

وليلٍ يقول الناسُ من ظلماته * سواء صحيحات العيون وعورها

قوله تعالى : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ الإنذار الإبلاغ والإعلام ، ولا يكاد يكون إلا فى تخويف يتّسع زمانه للاحتراز ، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعارا ولم يكن إنذارا؛ قال الشاعر :

أنذرتَ عَمرًا وهو فى مَهَـلٍ * قبلَ الصباح فقد عصى عَمْرُو

وتَناذَر بنو فلان هذا الأمر إذا خَوَّفه بعضُهم بعضا .

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل: هى عامة ومعناها الخصوص فيمن حقّت عليه كلمة العذاب ، وسبق فى علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم أن فى الناس مَن هذه حاله دون أن يعيّن أحدا . وقال ابن عباس والكلبى : نزلت فى رؤساء اليهود ، منهم حُيَىّ بن أَخْطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ؛ والأوّل أصح ، فإن من عيّن أحدا فإنما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر ، وذلك داخل فى ضمن الآية .

قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ موضعه رفعٌ خبر «إنّ» أى إن الذين كفروا لا يؤمنون. وقيل: خبر « إنّ » «سواء» وما بعده يقوم مقام الصلة ؛ قاله ابن كَيسان. وقال محمد بن يزيد : «سواء» رفع بالابتداء ، « أأنذرتهم أم لم تنذرهم » الخبر ، والجملة خبر « إنّ» . قال النحاس : أى إنهم تَبالَهُوا فلم تغن فيهم النذارة شيئا . واختلف القراء فى قراءة «أأنذرتهم» فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٢٥ .

(٢) هو أعشى قيس الملقب بالأعشى الأكبر .

والأعمش وعبد الله بن أبى إسحاق: « آنذرتهم » بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية، وآختارها الخليل وسيبويه، وهى لغة قريش وسعد بن بكر، وعليها قول الشاعر[1]:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ * وبَيْنَ النَّقا آنْتِ أمْ أمُّ سالِمِ

فجاء « آنت » ألفًا واحدة. وقال آخر:

تطالَلْتُ فاستَشْرَفْتُهُ فعرفتُهُ * فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

وروى عن آبن مُحَيْصِن أنه قرأ: « أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ » بهمزة لا ألف بعدها، فحذف لآلتقاء الهمزتين، أو لأن أم تدل على الاستفهام؛ كما قال الشاعر:

تَرُوحُ مِن الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ * وماذا يَضيرُكَ لو تَنْتَظِرْ

أراد: أتروح؛ فاكتفى بأم من الألف. وروى عن آبن أبى إسحاق أنه قرأ: « أأنذرتهم » فحقق الهمزتين وأدخل بينهما ألفا لئلا يجمع بينهما. قال أبو حاتم: ويجوز أن تدخل بينهما ألفا وتخفف الثانية؛ وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا. وقرأ حمزة وعاصم والكسائى بتحقيق الهمزتين: « أأنذرتهم » وهو آختيار أبى عبيد؛ وذلك بعيد عند الخليل. وقال سيبويه: يشبه فى الثقل ضَنِنُوا. قال الأخفش: ويجوز تخفيف الأولى من الهمزتين وذلك ردىء؛ لأنهم إنما يخففون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة. قال أبو حاتم: ويجوز تخفيف الهمزتين جميعا. فهذه سبعة أوجه من القراءات، ووجه ثامن يجوز فى غير القرآن؛ لأنه مخالف للسواد[2]. قال الأخفش سعيد: تبدل من الهمزة هاء تقول: هأنذرتهم؛ كما يقال هيّاك وإياك؛ وقال الأخفش فى قوله تعالى: « هَا أَنْتُمْ » إنما هو أأنتم.

قوله تعالى: خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ بيّن سبحانه فى هذه الآية المانع لهم من الإيمان بقوله: « ختم الله ». والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومختّم؛ شدّد للمبالغة. ومعناه

(١) هو ذو الرمة كما فى كتاب سيبويه، والمفصل للزمخشرى. (٢) السواد من الناس هم الجمهور الأعظم.

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء؛ ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك ، حتى لا يوصل إلى ما فيه ، ولا يوضع فيه غير ما فيه .

وقال أهل المعـانى : وصف الله تعـالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف : بالختم والطبع والضيق والمرض والرَّيْن والموت والقساوة والانصراف والحَمِيّة والإنكار . فقال فى الإنكار : « قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ »[1] . وقال فى الحَمِيّـة : « إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا[2] فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ » . وقال فى الانصراف : « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »[3] . وقال فى القساوة : « فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ »[4] . وقال : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ[5] مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » . وقال فى الموت : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ »[6] . وقال : « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ »[7] . وقال فى الرَّيْن : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[8] . وقال فى المرض : « فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » . وقال فى الضيق : « وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا »[9] . وقال فى الطبع : « فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ »[10] . وقال : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ »[11] . وقال فى الختم : « خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ » . وسيأتى بيانها كلها فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — الختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنًى كما فى هذه الآية . فالختم على القلوب : عدم الوعى عن الحق — سبحانه — مفهوم مخاطبـاته والفكر فى آياته . وعلى السمع : عدم فهمهم للقرآن إذا تلى عليهم أو دعُـوا إلى وحدانيته . وعلى الأبصار : عدم هدايتهـا للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته ؛ هذا معنى قول ٱبن عباس وٱبن مسعود وقتادة وغيرهم .

الثالثـــة — فى هذه الآية أدَلّ دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمـان ؛ فاعتبروا أيها السامعون ، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمـانهم وهداهم ؛ فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جَهَدوا ؛

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٨ (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠٠
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٥) راجع جـ ١ ص ٤٦٢ (٦) راجع جـ ٧ ص ٧٨
(٧) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ (٩) راجع جـ ٧ ص ٨١
(١٠) راجع جـ ١٨ ص ١٢٤ (١١) راجع جـ ٦ ص ٧

وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، فمتى يهتدون ، أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلِلِ[1] الله فما له من هادٍ » ! وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

فإن قالوا : إن معنى الختم والطبع والغشاوة التسميةُ والحكم والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل . قلنا : هـذا فاسد ، لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ؛ لا يجوز أن تكون حقيقته التسمية والحكم ؛ ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه ، كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما ، لا التسمية والحكم . هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم ؛ كما قال تعالى : « بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي عليه السلام والملائكة والمؤمنين ممتنع ؛ فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون ؛ لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ؛ ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنًى غير التسمية والحكم ؛ و إنما هو معنًى يخلقه الله فى القلب يمنع من الإيمان به ؛ دليله قوله تعالى : « كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ[2] . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ » . وقال : « وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ[3] » . أى لئلا يفقهوه ، وما كان مثله .

الرابعـة — قوله : ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليل على فضل القلب على جميع الجوارح . والقلب للإنسان وغيره . وخالص كل شيء وأشرفه قلبه ؛ فالقلب موضع الفكر . وهو فى الأصل مصدر قَلَبْتُ الشيء أقلِبه قلبا إذا رددته على بداءته . وقلبت الإناء : رددته على وجهه . ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذى هو أشرف الحيوان ، لسرعة الخواطر إليه ، ولترددها عليه ؛ كما قيل :

ما سُمِّيَ القلب إلا من تقلُّبِـه * فاحذرْ على القلب من قَلْبٍ وتحويل

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٧ و ٢٧١ .

ثم لما نقلت العرب هذا المصدر لهذا العضو الشريف التزمت فيه تفخيم قافه ، تفريقًا بينه وبين أصله . روى ابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَثَلُ القلب مَثَلُ ريشة تقلّبها الرياح بفلاة" . ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول : "اللّهمّ يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على طاعتك" . فإذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقوله مع عظيم قدره وجلال منصبه فنحن أولى بذلك اقتداء به ؛ قال الله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ » (١) . وسيأتى .

الخامسة — الجوارح وإن كانت تابعة للقلب فقد يتأثر القلب — وإن كان رئيسها ومِلِكها — بأعمالها للارتباط الذى بين الظاهر والباطن ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إن الرجل ليصدُقُ فتُنكت فى قلبه نكتة بيضاء وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسودّ قلبه" . وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : "أن الرجل ليصيب الذنب فيسودّ قلبه فإن هو تاب صقل قلبه" . قال : وهو الرَّين الذى ذكره الله فى القرآن فى قوله : « كَلَّا بَلْ رَانَ (٢) عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وقال مجاهد : القلب كالكف يقبض منه بكل ذنب إصبع ، ثم يطبع .

قلت : وفى قول مجاهد هذا ، وقوله عليه السلام : "إن فى الجسد مُضْغةً إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب —" دليل على أن الختم يكون حقيقيا ؛ والله أعلم . وقد قيل : إن القلب يشبه الصَّنَوْبرة ، وهو يَعْضُد قول مجاهد ؛ والله أعلم .

وقد روى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدّثنا "أن الأمانة نزلت فى جِذْر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلِموا من القرآن وعلِموا من السُّنة" . ثم حدّثنا عن رفع الأمانة قال : "ينام الرجل النَّومةَ فتُقْبَض الأمانةُ من قلبه فيظَل أثرها مثلَ الوَكْت ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فَنَفِط فتراه مُنْتَبِرًا وليس فيه شىء — ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله — فيُصبِح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّى الأمانة حتى يقال إن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٠ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٥٧ .

فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلَده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت لئن كان مسلما ليردّنه علىّ دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردّنه علىّ ساعيه[1] وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانا وفلانا".

ففى قوله: "الوَكْت" وهو الأثر اليسير. ويقال للبُسْر إذا وقعت فيه نكتة من الإرطاب: قد وَكَت، فهو مُوَكِّت. وقوله: "المَجْل"، وهو أن يكون بين الجلد واللحم ماء، وقد فسّره النبىّ صلى الله عليه وسلم بقوله: "كجمرٍ دحرجته" أى دوّرته على رجلك فنفط. "فتراه مُنْتَبِرًا" أى مرتفعا - ما يدل على أن ذلك كله محسوس فى القلب يفعل فيه، وكذلك الختم والطبع، والله أعلم.

وفى حديث حذيفة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "تُعْرَض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا فأىُّ قلب أُشْرِبَها نُكِت فيه نُكتةٌ سوداء وأىّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيضَ مثل الصَّفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض والآخرُ أسودُ مُرْبادٌّ[2] كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا يُنْكر منكرا إلّا ما أُشْرب من هواه ..." وذكر الحديث. "مُجَخِّيًا": يعنى مائلا.

السادسة — القلب قد يعبر عنه بالفؤاد والصدر، قال الله تعالى: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ[3]». وقال: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ[4]» يعنى فى الموضعين قلبك. وقد يعبر به عن العقل، قال الله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ[5] لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ» أى عقل؛ لأن القلب محل العقل فى قول الأكثرين. والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد، والله أعلم.

السابعة — قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استدل بها من فضّل السمع على البصر لتقدمه عليه، وقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ[6]». وقال: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ[7] وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ». قال: والسمع يُدْرَك به من الجهات الست، وفى النور والظلمة؛ ولا يُدْرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة، وبواسطة من ضياء وشعاع. وقال أكثر المتكلمين

(١) ساعيه: هو رئيسهم الذى يصدرون عن رأيه ولا يمضون أمرا دونه. (النهاية). (٢) ويروى: «مربد» أى اختلط سواده بكدرة.
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٨ (٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٠٤
(٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٣ (٦) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ (٧) راجع جـ ١٠ ص ١٥١

بتفضيل البصر على السمع ؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الأصوات والكلام ، والبصر يدرك به الأجسام والألوان والهيئات كلها . قالوا : فلما كانت تعلقاته أكثر كان أفضل ؛ وأجازوا الإدراك بالبصر من الجهات الست .

الثامنة — إن قال قائل : لِمَ جمع الأبصار ووحّد السمع ؟ قيل له : إنما وحّده لأنه مصدر يقع للقليل والكثير ؛ يقال : سمعت الشيء أسمعه سَمْعًا وسماعا ، فالسّمع مصدر سمعت ؛ والسمع أيضا اسم للجارحة المسموع بها سُمِّيت بالمصدر . وقيل : إنه لما أضاف السمع إلى الجماعة دل على أنه يراد به أسماع الجماعة ، كما قال الشاعر[1] :

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأما عِظامُها * فبيضٌ وأما جلدها فصَلِيبُ

إنما يريد جلودها فوحّد ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للجماعة جلد واحد .

وقال آخر[2] في مثله :

لا تُنكِرِ القتلَ وقد سُبِينَا * في حَلْقِكم عَظْمٌ وقد شَجِينَا

يريد في حلوقكم ؛ ومثله قول الآخر :

كأنّه وجهُ تُرْكِيَّيْن قد غضبا * مستهدف لطعان غير تذبيب

وإنما يريد وجهين ، فقال وجه تركيين ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجه واحد ؛ ومثله كثير جدا . وقرئ : « وعلى أسماعهم » ويحتمل أن يكون المعنى وعلى مواضع سمعهم ؛ لأن السمع لا يختم وإنما يختم موضع السمع ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقد يكون السمع بمعنى الاستماع ؛ يقال : سَمْعُك حديثي — أي استماعك إلى حديثي — يعجبني ؛ ومنه قول ذي الرُّمة يصف ثورا تَسمَّع إلى صوت صائد وكلاب :

وقد تَوَجَّسَ رِكْزًا مُقْفِرٌ نَدُسٌ * بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سَمعه كَذِبُ

---

(١) هو علقمة بن عبدة . وصف طريقا بعيدا شاقا على من سلكه . بجيف الحسرى وهى المعيبة من الإبل مستقرة فيه . وقوله : فأما عظامها فبيض ، أى أكلت السباع والطير ما عليها من اللحم فتعرت وبدا وضحها . وقوله : وأما جلدها الخ ، أى محرم يابس لأنه ملق بالفلاة لم يدبغ ، ويقال : الصليب هنا الودك ؛ أى قد سال ما فيه من رطوبة لإحماء الشمس عليه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٢) هو المسيب بن زيد مناة الغنوى ؛ كما فى كتاب سيبويه .

أى ما فى آستماعه كذب ؛ أى هو صادق الآستماع . والنَّدُس : الحاذق . والنَّبْأة : الصوت الخفى ، وكذلك الركز . والسِّمع (بكسر السين وإسكان الميم) : ذِكر الإنسان بالجميل ؛ يقال : ذهب سِمْعه فى الناس أى ذكره . والسِّمْع أيضا : ولد الذئب من الضبع . والوقف هنا : «وعلى سمعهم» . و «غِشَاوَةٌ» رفع على الآبتداء وما قبله خبر . والضمائر فى «قلوبهم» وما عُطف عليه لمن سبق فى علم الله أنه لا يؤمن من كفار قريش ، وقيل من المنافقين ، وقيل من اليهود ، وقيل من الجميع ، وهو أصوب ؛ لأنه يعم . فالختم على القلوب والأسماع . والغشاوة على الأبصار . والغشاء : الغطاء . وهى :

التاسعة — ومنه غاشية السَّرْج ؛ وغشيت الشيء أغشيه . قال النابغة :

هلّا سألت بنى ذُبْيان ما حسبى * إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأشْمَطَ (١) البَرَمَا

وقال آخر (٢) :

صحبتُكَ إذ عينى عليها غشاوةٌ * فلما آنجلَتْ قطّعتُ نفسى أَلُومُها

قال آبن كَيسان : فإن جمعت غشاوة قلت : غشاء بحذف الهاء . وحكى الفرّاء : غشاوى مثل أداوى . وقرئ : «غشاوةً» بالنصب على معنى وجعل ، فيكون من باب قوله :

* علفتُها تِبْنًا وماء باردا *

وقول الآخر (٣) :

يا ليت زوجَك قد غدا * متقلِّدا سيفًا ورُمْحَا

المعنى وأسقيتها ماء ، وحاملا رمحا ؛ لأن الرمح لا يتقلد . قال الفارسى : ولا تكاد تجد هذا الآستعمال فى حال سَعة وآختيار ؛ فقراءة الرفع أحسن ، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة . قال : ولم أسمع من الغشاوة فعلًا متصرفا بالواو . وقال بعض المفسرين : الغشاوة على الأسماع والأبصار ؛ والوقف على «قلوبهم» . وقال آخرون : الختم فى الجميع ، والغشاوة هى الختم ؛ فالوقف على هذا على «غشاوة» . وقرأ الحسن «غُشاوة» بضم الغين ، وقرأ أبو حَيْوَة بفتحها ؛ وروى عن

(١) الأشمط : الذى خالطه الشيب . والبرم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ويأكل معهم من لحمه .

(٢) هو الحارث بن خالد المخزومى ؛ كما فى اللسان مادة (غشا) . (٣) هو عبد الله بن الزبعرى ؛ كما فى الكامل للمبرد ص ١٨٩ طبع أوربا .

أبى عمرو: غشوة ؛ ردّه إلى أصل المصدر . قال ابن كيسان : ويجوز غَشْوة وغُشْوة وأجودها غِشاوة ؛ كذلك تستعمل العرب فى كل ما كان مشتملا على الشىء، نحو عِمامة وكِنانة وقِلادة وعِصابة وغير ذلك .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أى للكافرين المكذبين ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ نعته . والعذاب مثل الضرب بالسوط والحرق بالنار والقطع بالحديد ؛ إلى غير ذلك مما يؤلم الإنسان . وفى التنزيل : «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »وهو مشتق من الحبس والمنع ؛ يقال فى اللغة : أَعْذِبه عن كذا أى احبسه وامنعه ؛ ومنه سمى عذوبة الماء ؛ لأنها قد أعذبت . واستعذب بالحبس فى الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : أَعْذِبُوا نساءكم عن الخروج ؛ أى احبسوهن . وعنه رضى الله عنه وقد شيّع سَرِيَّةً فقال : أَعْذِبُوا عن ذكر النساء [أنفسكم] فإن ذلك يَكْسِرُكم عن الغزو ؛ وكل من منعته شيئا فقد أعذبته ؛ وفى المثل : « لأجنّك لحاما معذِبا » أى مانعا عن ركوب الناس . ويقال : أَعْذَبَ أى امتنع . وأَعْذَبَ غيره ، . فهو لازم ومتعدٍّ ؛ فسمى العذاب عذابا لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — روى ابن جُريج عن مجاهد قال : نزلت أربع آيات من سورة البقرة فى المؤمنين ، واثنتان فى نعت الكافرين ، وثلاث عشرة فى المنافقين . وروى أسباط عن السدّى فى قوله : «وَمِنَ النَّاسِ» قال : هم المنافقون . وقال علماء الصوفية : الناس اسم جنس ، واسم الجنس لا يخاطب به الأولياء .

الثانيـــة — واختلف النحاة فى لفظ الناس ؛ فقيل : هو اسم من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانة ؛ على غير اللفظ ، وتصغيره نُوَيس . فالناس من النَّوْس وهو الحركة ؛ يقال : ناس ينوس أى تحرّك ؛ ومنه حديث أم زَرْع : « أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَىَّ » . وقيل : أصله من نسى ؛ فأصل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦٦

ناس نسى قلب فصار نيس تحركت الياء فانفتح ماقبلها فانقلبت ألفا، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس . قال ابن عباس : نسى آدم عهـد الله فسُمِّيَ إنسانا . وقال عليـه السلام : "نسى آدم فنسِيَتْ ذريّتُه" . وفى التنزيل : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ» (١) وسيأتى . وعلى هذا فالهمزة زائدة؛ قال الشاعر :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنّما * سُمِّيتَ إنسـانًا لأنّـك ناسِى

وقال آخـــر :

فإنْ نَسِيتَ عهودا منك سالفةً * فاغفرْ فأوّلُ ناسٍ أوّلُ الناس

وقيل : سمى إنسانا لِأُنْسه بحواء . وقيل : لِأُنْسه بربه، فالهمزة أصلية؛ قال الشاعر :

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلّا لِأُنْسِهِ * ولا القلبُ إلّا أنّه يَتَقَلَّبُ

الثالثـــة — لمـا ذكر الله جلّ وتعالى المؤمنين أوّلا، وبدأ بهم لشرفهم وفضلهم، ذكر الكافرين فى مقابلتهم؛ إذ الكفر والإيمان طرفان. ثم ذكر المنافقين بعدهم وألحقهم بالكافرين قبلهم؛ لنفى الإيمان عنهم بقوله الحق : « وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» . ففى هذا ردّ على الكَرّامِيّة حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يعتقد بالقلب؛ واحتجوا بقوله تعالى : « فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ (٢) بِمَا قَالُوا » . ولم يقل: بما قالوا واضمروا؛ وبقوله عليه السلام : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا منّى دماءهم وأموالهم" . وهذا منهم قصور وجمود، وتركُ نظرٍ لمـا نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد؛ وقـد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "الإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان" . أخرجه ابن ماجه فى سُنَنه . فما ذهب إليه محمد بن كَرّام السّجستانى وأصحابه هو النفاق وعَيْن الشقاق؛ ونعوذ بالله من الخذلان وسوء الاعتقاد .

الرابعـــة — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحبه الله ويواليه ، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه؛ فكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه . وكلّ مَن علم الله أنه يوافى بالكفر، فالله مبغض له، ساخط

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠

عليـه ، معادٍ له ، لا لأجل إيمانه ، ولكن لكفره وضلاله الذى يوافى به . والكافر ضربان : كافر يُعاقَب لامحالة ، وكافر لا يُعاقَب . فالذى يُعاقَب هو الذى يُوافِى بالكفر ، فالله ساخط عليه معادٍ له . والذى لا يعاقب هو الموافى بالإيمان ، فالله غير ساخط على هذا ولا مبغض له ، بل محبّ له موالٍ ؛ لا لكفره لكن لإيمانه الموافى به . فلا يجوز أن يطلق القول وهى : —

الخامســـة — بأن المؤمن يستحق الثواب ، والكافر يستحق العقاب ، بل يجب تقييده بالموافاة . ولأجل هذا قلنا : إن الله راض عن عمر فى الوقت الذى كان يعبد الأصنام ، ومريد لثوابه ودخوله الجنة ؛ لا لعبادته الصنم ، لكن لإيمانه الموافى به . وإن الله تعالى ساخط على إبليس فى حال عبادته ؛ لكفره الموافى به .

وخالفت القَدَرِيةُ فى هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطا على إبليس وقت عبادته ، ولا راضيا عن عمر وقت عبادته للصنم . وهذا فاسد ؛ لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافى به إبليس لعنه الله ، وبما يوافى به عمر رضى الله عنه فيما لم يزل ؛ فثبت أنه كان ساخطا على إبليس محبا لعمر . ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار ، بل هو ساخط عليه ؛ وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وإنما الأعمال بالخواتيم" ولهذا قال علماء الصوفية : ليس الإيمان ما يتزيّن به العبـد قولا وفعلا ؛ لكن الإيمان جَرْىُ السعادة فى سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا ، وربما يكون حقيقة .

قلت : هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : "إن أحدَكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك عَلَقَة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مُضْغَةً مثلَ ذلك ثم يُرسِل الله الملَك فينفُخ فيه الرُّوح ويُؤمَر بأربع كلمات بكَتْب رزقه وأجله وعَمَله وشَقِىٌّ أو سعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليَعْمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيَسْبِق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيَسْبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" . فإن قيل وهى : —

السادســـة — فقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد المصرى من حديث محمد بن سعيد الشامى المصلوب فى الزندقة، وهو محمد بن أبى قيس، عن سليمان بن موسى وهو الأشدق، عن مجاهد بن جبر عن ٱبن عباس أخبرنا أبو رَزِين العقيلى قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأشر بن أنا وأنت يا أبا رزين من ابن لم يتغيّر طعمه " قال قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : " أما مررتَ بأرض لك مُجْدبة ثم مررت بها مخصبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخصبة " قلت : بلى . قال : " كذلك النشور " قال قلت : كيف لى أن أعلم أنى مؤمن ؟ قال : " ليس أحد من هذه الأمة — قال ٱبن أبى قيس : أو قال من أمتى — عمل حسنة وعلم أنها حسنة وأن الله جازيه بها خيرا أو عمل سيئة وعلم أنها سيئة وأن الله جازيه بها شرا أو يغفرها إلا مؤمن " .

قلت : وهـذا الحديث وإن كان سـنده ليس بالقوى فإن معناه صحيح وليس بمعارض لحديث ٱبن مسعود؛ فإن ذلك موقوف على الخاتمة؛ كما قال عليه السلام : " وإنما الأعمال بالخواتيم " . وهذا إنما يدل على أنه مؤمن فى الحال؛ والله أعلم .

السابعـــة — قال علماء اللغة : إنما سُمِّىَ المنافق منافقًا لإظهاره غير ما يضمر؛ تشبيها باليربوع، له جحر يقال له : النافقاء، وآخر يقال له : القاصعاء . وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرَقّ التراب؛ فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج؛ فظاهر جُحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر؛ وقد تقدّم هذا المعنى.

قوله تعالى : يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

قال علماؤنا : معنى « يخادعون الله » أى يخادعونه عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل المخادع . وقيـل : فى الكلام حذف، تقديره : يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسـلم؛ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسـوله خداعا له؛ لأنه دعاهم برسالته؛ وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان

خلاف ما أبطنوه من الكفر، ليَحْقنوا دماءهم وأموالهم ، ويظنون أنهـم قد نجوْا وخدعوا ؛ قاله جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغـة : أصل الخدع فى كلام العرب الفساد ؛ حكاه ثعلب عن آبن الأعرابى . وأنشد :

أبْيَضُ اللَّوْنِ لذيذٌ طعْمُه * طيِّبُ الرِّيق إذا الرِّيقُ خَدَعْ(١)

قلت : فـ « يخادعون الله » على هذا، أى يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وكذا جاء مفسَّرًا عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم على مايأتى . وفى التنزيل : « يُرَاءُونَ النَّاسَ »(٢) . وقيل : أصله الإخفاء؛ ومنه مخدع البيت الذى يحرز فيه الشىء؛ حكاه آبن فارس وغيره . وتقول العرب : آنخدع الضب فى جُحره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ نفى و إيجاب ؛ أى ماتحلّ عاقبة الخدع إلا بهم . ومن كلامهم : مَن خَدَع من لايُخْدع فإنما يَخْدع نفسه . وهذا صحيح؛ لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن ؛ وأما من عرف البواطن فمن دخل معـه فى الخداع فإنمـا يخدع نفسه . ودلّ هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع؛ وقد تقدّم من قوله عليه السـلام أنه قال : " لا تخادع الله فإنه مَن يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر " قالوا : يارسول الله، وكيف يُخادَع اللهُ ؟ قال : " تعمل بما أمرك الله به وتطلب به غيره " . وسيأتى بيان الخدع من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » . وقرأ نافع وآبن كثير وأبو عمرو : «يخادعون» فى الموضعين؛ ليتجانس اللفظان . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى وآبن عامر : «يخدعون» الثانى . والمصدر خِدْع (بكسر الخاء) وخديعة؛ حكى ذلك أبو زيد . وقرأ مُورِّق العجلىّ : « يُخَدِّعون الله » (بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال) على التكثير . وقرأ أبو طالوت عبد السلام بن شـدّاد والجارود بضم الياء و إسكان الخـاء وفتح الدال، على معنى وما يخدعون إلا عن أنفسهم ، فحذف حرف الجر؛ كما قال تعالى : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » أى من قومه .

(١) قاله سويد بن أبى كاهل . يصف ثغر آمرأة .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى يفطنون أنّ وبال خدعهم راجع عليهم ؛ فيظنون أنهم قد نجوا بخـدعهم وفازوا ؛ و إنمـا ذلك فى الدنيـا ، وفى الآخرة يقال لهم : « ٱرْجِعُـوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا » على ما يأتى[1] . قال أهل اللغة : شَعَرْتُ بالشيء أى فطِنت له ؛ ومنه الشاعر لفطنته ؛ لأنه يفطن لمـا لا يَفْطُن له غيره من غريب المعانى . ومنه قولهم : لَيْتَ شِعْرِى ؛ أى ليتنى علمت .

قوله تعالى : فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَـا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ ابتداء وخبر . والمرض عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم . وذلك إما أن يكون شكا ونفاقا ، و إما جَحْداً وتكذيبًا . والمعنى : قلوبهم مرضى لخلوّها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد . قال ٱبن فارس اللغوى : المرض كل ما خرج به الإنسان عن حدّ الصحة من علّة أو نفاق أو تقصير فى امر . والقراء مجمعون على فتح الراء من « مَرَض » إلا ما روى الأصمعى عن أبى عمرو أنه سكّن الراء .

قوله تعالى : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ قيل : هو دعاء عليهم . ويكون معنى الكلام : زادهم الله شكًّا ونفاقًا جزاء على كفرهم وضعفا عن الٱنتصار وعجزا عن القدرة ؛ كما قال الشاعر :

يا مُرْسِـلَ الرِّيح جَنوبًا وصَبَا * إذْ غَضِبَتْ زيدٌ فزِدْها غضبَا

أى لا تهدها على الٱنتصار فيما غضبت منه . وعلى هـذا يكون فى الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين والطرد لهم ؛ لأنهم شَرّ خلق الله . وقيل : هو إخبار من الله تعـالى عن زيادة مرضهم ؛ أى فزادهم الله مرضا إلى مرضهم ؛ كما قال فى آية أخرى : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ »[2] . وقال أرباب المعانى : « فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ » أى بسكونهم إلى الدنيا وحبّهم لها وغفلتهم عن الآخرة و إعراضهم عنها . وقوله : « فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا » أى وَكَلَهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرّغوا من ذلك إلى ٱهتمام بالدين . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » بما يفنى عما يبقى . وقال الجُنَيْد : عِللُ القلوب من ٱتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن .

(١) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٩٩

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ « أليم » فى كلام العرب معناه مؤلم أى موجع ، مثل السميع بمعنى المُسْمِع ؛ قال ذو الرُّمّة يصف إبلا :

ونرفع من صُدورِ شَمَرْدَلاتٍ * يَصُكّ وجوهَها وَهَجٌ أَلِيمُ (١)

وآلم إذا أوْجع . والإيلام : الإيجاع . والألم : الوجع ، وقد ألِم يألَم ألَمًا . والتألُّم : التوجّع . ويجمع أليم على أُلَمَاء مثل كَرِيم وكُرَماء ، وآلام مثل أشراف .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ ما مصدرية ؛ أى بتكذيبهم الرسل وردّهم على الله جل وعز وتكذيبهم بآياته ؛ قاله أبو حاتم . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بالتخفيف ؛ ومعناه بكَذِبهم وقولهم آمنا وليسوا بمؤمنين .

مسألة — واختلف العلماء فى إمساك النبىّ صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم على أربعة أقوال :

القول الأوّل — قال بعض العلماء : إنما لم يقتلهم لأنه لم يعلم حالهم أحد سواه . وقد اتفق العلماء على بَكْرة أبيهم (٢) على أن القاضى لا يقتل بعلمه ، وإنما اختلفوا فى سائر الأحكام . قال ابن العربى : وهذا منتقض ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصّامت ؛ لأن المُجَذَّر قتل أباه سُويدا يوم بُعاث (٣) ؛ فأسلم الحارث وأغفله يوم أُحُد فقتله ؛ فأخبر به جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم فقتله به ؛ لأن قتله كان غِيلة (٤) ، وقَتْل الغِيلة حَدٌّ من حدود الله .

قلت : وهذه غفلة من هذا الإمام ؛ لأنه إن ثبت الإجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ؛ لأن الإجماع لا ينعقد ولا يثبت إلا بعد موت النبىّ صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحى ؛ وعلى هذا فتكون تلك قضيّةٌ فى عَيْنٍ بوَحْيٍ ، فلا يحتج بها أو منسوخة بالإجماع . والله أعلم .

---

(١) شمردلات : إبل طوال . ونرفع : نستحثها فى السير . والوهج : الحر الشديد المؤلم .

(٢) قوله : « على بكرة أبيهم » هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد .

(٣) بعاث : موضع فى نواحى المدينة ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج فى الجاهلية ؛ وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج .

(٤) راجع هذه القصة فى سيرة ابن هشام (ص ٣٥٦ ، ٥٧٩) طبع أوربا .

القول الثانى — قال أصحاب الشافعى : إنما لم يقتلهم لأن الزنديق وهو الذى يُسِرّ الكفر ويظهر الإيمان يُستتاب ولا يُقتل . قال آبن العربى : وهذا وَهَمٌ، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يستتبهم ولا نَقل ذلك أحد، ولا يقول أحد إن آستتابة الزنديق واجبة(١) وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم معرضًا عنهم مع علمه بهم . فهـذا المتأخر من أصحاب الشافعى الذى قال : إن آستتابة الزنديق جائزة(٢) قال قولا لم يصح لأحد .

القول الثالث — إنما لم يقتلهم مصلحةً لتأليف القلوب عليه لئلا تنفر عنه ؛ وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بقوله لعمر : " معاذ الله أن يتحدّث الناس أنى أقتل أصحابى " أخرجه البخارى ومسلم . وقد كان يُعطى للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء آعتقادهم تألُّفًا ؛ وهـذا هو قول علمائنا وغيرهم . قال آبن عطية : وهى طريقة أصحاب مالك رحمه الله فى كفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ؛ نصّ على هذا محمد بن الجَهْم والقاضى إسماعيل والأبهرى وآبن الماجشون، وآحتج بقوله تعالى : « لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ »(٣) إلى قوله . « وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » . قال قتادة : معناه إذا هم أعلنوا النفاق . قال مالك رحمه الله : النفاق فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزّندقة فينا اليوم ؛ فيُقتل الزنديق إذا شُهِد عليه بها دون آستتابة ؛ وهو أحد قولى الشافعى . قال مالك : وإنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه ؛ إذ لم يُشْهَد على المنافقين . قال القاضى إسماعيل : لم يشهد على عبد الله بن أُبَىّ(٤) إلا زيد بن أَرْقَم وحده ، ولا على الجُلَاس(٥) بن سويد إلا عُمَير بن سعد ربيبه ؛ ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل . وقال الشافعىّ رحمه الله محتجًّا للقول الآخر : السُّنّة فيمن شُهد عليه بالزندقة فجحد

(١) الذى فى كتاب الأحكام لابن العربى : « ... أن آستتابة الزنديق غير واجبة » .

(٢) كذا فى الأصول وكتاب الأحكام لآبن العربى . ولعل صواب العبارة : « إن آستتابة الزنديق واجبة » .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٥ (٤) سيذكر الإمام القرطبى قصته عند تفسير سورة « المنافقون » .

(٥) كان متهما بالنفاق ، وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية . وستأتى قصته عند تفسير هذه الآية فى سورة « براءة » إن شاء الله تعالى . وقد أوردها آبن هشام فى سيرته ص ٣٥٥ طبع أوربا . وآبن عبد البر فى الآستيعاب جـ ١ ص ٩٧ طبع الهند .

وأعلن بالإيمان وتبرأ من كل دين سوى الإسلام أن ذلك يمنع من إراقة دمه . وبه قال أصحاب الرأى وأحمد والطبرى وغيرهم . قال الشافعى وأصحابه : وإنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ماقبله . وقال الطبرى : جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولّى الحكم فى سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر ؛ لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحدٍ كان أولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَل سرائرهم إلى الله . وقد كذب الله ظاهرهم فى قوله : «وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » . قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الآية بأنها لم تُعَيّن أشخاصهم فيها وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص[1] عليه بالنفاق ؛ وبقى لكل واحد منهم أن يقول : لم أُرَد بها وما أنا إلا مؤمن ، ولو عُيّن أحد لما جَبّ كذبه شيئا .

قلت : هذا الانفصال فيه نظر، فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْلَمهم أو كثيرا منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلام الله تعالى إياه ؛ وكان حُذيفة يعلم ذلك بإخبار النبىّ عليه السلام إياه حتى كان عمر رضى الله عنه يقول له : يا حذيفة هل أنا منهم ؟ فيقول له : لا .

القول الرابع — وهو أن الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيّه عليه السلام بكونه ثبتهم أن يفسدهم المنافقون أو يفسدوا دينهم فلم يكن فى تَبْقيتهم ضرر ، وليس كذلك اليوم؛ لأنّا لا نأمن من الزنادقة أن يفسدوا عامتنا وجهالنا .

قوله تعالى :وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

« إذا » فى موضع نصب على الظرف والعامل فيها « قالوا » ؛ وهى تؤذن بوقوع الفعل المنتظر . قال الجوهرى : «إذا» اسم يدلّ على زمان مستقبل، ولم تستعمل إلا مضافة إلى

(١) قوله : لكل مغموص . أى مطعون فى دينه ، متهم بالنفاق .

جملة ؛ تقول : أجيئك إذا آحمرّ البُسْر ، و إذا قَدِم فلان . والذى يدل على أنها آسم وقوعها موقع قولك : آتيك يوم يَقدَم فلان ؛ فهى ظرف وفيها معنى المجازاة . و جزاء الشرط ثلاثة : الفعل والفاء و إذا ؛ فالفعل قولك : إن تأتنى آتك . والفاء : إن تأتنى فأنا أحسن إليك . و إذا كقوله تعالى : « و إن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »[1] . ومما جاء من المجازاة بإذا فى الشعر قول قيس بن الخَطِيم :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ[2]

فعطف « فنضارب » بالجزم على « كان » لأنه مجزوم ، ولو لم يكن مجزوما لقال : فنضاربَ ؛ بالنصب . وقد تزاد على « إذا » « ما » تأكيدًا ، فيُجزم بها أيضا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

فقام أبو لَيْلَى إليه آبنُ ظالمٍ * وكان إذا ما يَسْلُلِ السيفَ يضرِبِ

قال سيبويه : والجيّد ما قال كعب بن زُهَير :

و إذا ما تشأْ تبعثْ منها * مغربَ الشمسِ ناشِطًا مَذْعُورا[3]

يعنى أن الجيّد ألا يجزم بإذا ؛ كما لم يجزم فى هذا البيت . وحكى عن المبرّد أنها فى قولك فى المفاجأة : خرجت فإذا زيد ، ظرف مكان ؛ لأنها تضمنت جُثّة . وهذا مردود ؛ لأن المعنى خرجت فإذا حضور زيد ؛ فإنما تضمّنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان ؛ ومنه قولهم : « اليومَ خَمْرٌ وغدًا أمرٌ » فمعناه وجود خمر ووقوع أمر .

قوله : ﴿قِيلَ﴾ من القَول وأصله قَوِل ؛ نُقِلت كسرة الواو إلى القاف فآنقلبت الواو ياء . ويجوز : « قيل لهم » بإدغام اللام فى اللام . وجاز الجمع بين ساكنين ؛ لأن الياء حرف مدّ ولين . قال الأخفش : ويجوز « قُيِل » بضم القاف والياء . وقال الكسائى : ويجوز إشمام القاف الضم ليدل على أنه لما لم يسم فاعله ، وهى لغة قيس . وكذلك جِىءَ وغِيضَ وحِيل وسِيق وسِيء

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٤

(٢) يقول : إذا قصرت أسيافنا فى اللقاء عن الوصول إلى الأقران وصلناها بخطانا مقدمين عليهم حتى نناهم .

(٣) وصف ناقته بالنشاط والسرعة بعد سير النهار كله ؛ فشبهها فى انبعاثها مسرعة بناشط قد ذعر من صائد أو سبع . والناشط : الثور يخرج من بلد إلى بلد ؛ فذلك أوحش له وأذعر .

وسِيئت . وكذلك روى هشام عن ابن عباس[1]، ورُوَيْس[2] عن يعقوب . وأَشَمّ منها نافع سيء وسيئت خاصة . وزاد ابن ذكوان : حِيل وسِيق ؛ وكسر الباقون فى الجميع . فأما هُذيل وبنو دُبَير من أسد وبنى فَقْعَس فيقولون : « قُول » بواو ساكنة .

قوله : ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ «لا» نهى . والفساد ضدّ الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدّها . فَسَد الشيء يَفْسُد فَسادا وفُسودًا وهو فاسد وفسِيد . والمعنى فى الآية : لا تُفسدوا فى الأرض بالكفر وموالاة أهله ، وتفريق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقيل : كانت الأرض قبل أن يبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم فيها الفساد، ويفعل فيها بالمعاصى ؛ فلما بُعث النبيّ صلى الله عليه وسلم ارتفع الفساد وصلحت الأرض . فإذا عملوا بالمعاصى فقد أفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ؛ كما قال فى آية أخرى : «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»[3] .

قوله : ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الأرض مؤنثة، وهى اسم جنس ، وكان حق الواحدة منها أن يقال أَرْضة ، ولكنهم لم يقولوا . والجمع أَرَضات ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنث الذى ليست فيه هاء التأنيث بالتاء كقولهم : عُرُسات . ثم قالوا أَرَضون فجمعوا بالواو والنون ؛ والمؤنث لا يجمع بالواو والنون إلا أن يكون منقوصا كثُبَة وظُبَة ، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضًا من حذفهم الألف والتاء وتركوا فتحة الراء على حالها ، وربما سُكّنت . وقد تجمع على أُرُوض . وزعم أبو الخطاب أنهم يقولون : أَرْض وآراض ، كما قالوا : أهل وآهال . والأراضى أيضا على غير قياس ؛ كأنهم جمعوا أَرْضًا . وكل ما سفل فهو أرض . وأَرْض أَرِيضة ؛ أى زكيّة بيّنة الأراضة . وقد أُرِضت بالضم ، أى زكت . قال أبو عمرو : نزلنا أرضا أريضة ؛ أى معجبة للعين ؛ ويقال : لا أرض لك ، كما يقال : لا أمّ لك . والأرض : أسفل قوائم الدابة ؛ قال حُمَيد يصف فرسا :

ولم يُقَلِّب أَرْضَها البَيْطارُ * ولا لَحَبْلَيْهِ بها حَبارُ

---

(١) فى نسخة : « ابن عامر » .

(٢) رويس (كزبير) محمد بن المتوكل القارئ ، راوى يعقوب ابن إسحاق .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٢٦

أى أثر . والأرض : النَّفْضَة والرِّعْدة . روى حماد بن سلمة عن قتادة عن عبـد الله بن الحارث قال : زُلْزِلَت الأرض بالبصرة ، فقال ابن عباس : والله ما أدرى ! أزُلزلت الأرض أم بى أرْض ؟ أى أم بى رِعدة ، وقال ذو الرُّمّة يصف صائدا :

إذا تَوَجّس رِكْزًا من سَنابكِهـا * أو كان صاحبَ أرضٍ أو به المُومُ[1]

والأرض : الزّكام . وقد آرضه الله إيراضا ، أى أزكمه فهو مأروض . وفسيل مستأرِض ، ووَدِيّة مستأرِضة (بكسر الراء) وهو أن يكون له عِرق فى الأرض ، فأما إذا نبت على جـذع النخل فهو الراكب . والإراض (بالكسر) : بساط ضخم من صوف أو وبر . ورجل أريض ، أى متواضع خليق للخير . قال الأصمعى يقال : هو آرَضُهم أن يفعل ذلك ، أى أخلقهم . وشىء عريض أريض إتباع له ، وبعضهم يفرده ويقول : جَدْىٌ أريض ، أى سمين .

قوله : ﴿نَحْنُ﴾ أصل « نحن » نَحُنْ ، قُلبت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء ، قاله هشام بن معاوية النحوى . وقال الزجاج : « نحن » لجماعة ، ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ، فلما آضطروا إلى حركة « نحن » لالتقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة . قال : لهذا ضموا واو الجمع فى قوله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ آشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ » . وقال محمد ابن يزيد : « نحن » مثل قَبْلُ وبعدُ ، لأنها متعلقة بالإخبار عن آثنين وأكثر ، فـ« أنا » للواحد و« نحن » للتثنية والجمع ، وقد يخبر به المتكلم عن نفسه فى قوله : نحن فعلنا ، قال الله تعالى : « نَحْنُ قَسَمْنَا[2] بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ » . والمؤنث فى هـذا إذا كانت متكلمة بمنزلة المذكر ، تقول المـرأة : فعلت وذهبت ، وفعلنا وذهبنا ، وأنا فعلت ذاك ، ونحن فعلنا . هذا كلام العرب فآعلم .

قوله تعالى : ﴿مُصْلِحُونَ﴾ آسم فاعل من أصلح . والصلاح : ضد الفساد . وصَلُح الشىء (بضم اللام وفتحها) لغتان ، قاله ابن السِّكِّيت . والصُّـلوح (بضم الصاد) مصـدر صَلُح (بضم اللام) ، قال الشاعر :

(١) توجس : تسمع . الركز : الحس والصوت الخفى . سنابكها : حوافرها . المومِ : البرسام وهو الخبل . وقيل : المومِ الجدرى الكثير المتراكب . ومعناه : أن الصياد يُذْهِبُ نَفَسَه إلى السماء ويُقَفِّر إليها أبدا لئلا يجد الوحش نَفَسَه فينفر . وشبه بالمبرسم أو المزكوم لأن البرسام مقفر والزكام مقفر . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٣

فكيف بإطراق إذا ما شَمَمْتَنِي * وما بعـدَ شَمِّ الوالدين صُـلُوحُ

وصلاح من أسماء مكة . والصَّلْح (بكسر الصاد) : نهر .

وإنما قالوا ذلك على ظنهم ؛ لأن إفسادهم عندهم إصلاح ؛ أى أن ممالأتنا للكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . قاله آبن عباس وغيره .

قوله تعالى : أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ردّا عليهـم وتكذيبا لقولهم . قال أرباب المعانى : من أظهر الدعوى كذب ، ألا ترى أن الله عز وجل يقول : « أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ » وهذا صحيح . وكُسرت « إنّ » لأنها مبتدأة ؛ قاله النحاس . وقال على بن سليمان . يجوز فتحها ؛ كما أجاز سيبويه : حقا أنك منطلق ، بمعنى ألا . و « هُمْ » يجوز أن يكون مبتدأ و « الْمُفْسِدُونَ » خبره والمبتدأ وخبره خبر « إنّ » . ويجوز أن تكون « هم » توكيدا للهاء والميم فى « إنهم » . ويجوز أن تكون فاصلة — والكوفيون يقولون عمادا — و « المفسدون » خبر « إنّ » ؛ والتقدير ألا إنهم المفسدون ، كما تقدّم فى قوله : « وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قال آبن كَيْسان يقال : ما على من لم يعلم أنه مفسد من الذم ، إنما يذم إذا علم أنه مفسد ثم أفسد على علم ؛ قال : ففيه جوابان : أحدهما — أنهم كانوا يعملون الفساد سرا و يظهرون الصلاح وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبىّ صلى الله عليه وسلم . والوجه الآخر : أن يكون فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون أن ذلك فساد ، وقد عصوا الله ورسوله فى تركهم تبيين الحق وآتباعه . « وَلَٰكِنْ » حرف تأكيد وآستدراك ولا بدّ فيه من نفى وإثبات ؛ إن كان قبله نفى كان بعده إيجاب ، و إن كان قبله إيجاب كان بعده نفى . ولا يجوز الآقتصار بعده على آسم واحد إذا تقدّم الإيجاب ، ولكنك تذكر جملة

(١) فى العبارة غموض . ولعل المعنى المراد : يجوز فتحها كما أجاز سيبويه أما أنك منطلق على معنى حقا أنك منطلق . وأما بمعنى ألا ؛ فإذا فتحت إن بعـدها كانتا بمعـنى حقا أنك ... و إذا كسرت كانتا أداتى آستفتاح . راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

مضادة لما قبلها كما فى هذه الآية، وقولك : جاءنى زيد لكن عمرو لم يجئ؛ ولا يجوز جاءنى زيد لكن عمرو ثم تسكت؛ لأنهم قد استغنوا ببل فى مثل هذا الموضع عن لكن، وإنما يجوز ذلك إذا تقدّم النفى كقولك : ما جاءنى زيد لكن عمرو .

قوله تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ يعنى المنافقين فى قول مقاتل وغيره . ﴿ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أى صدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وشَرْعه ، كما صدّق المهاجرون والمحققون(١) من أهل يَثْرِب . وألف « آمنوا » ألف قطع؛ لأنك تقول : يؤمن، والكاف فى موضع نصب؛ لأنها نعت لمصدر محذوف، أى إيمانا كإيمان الناس .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا : مؤمنو أهل الكتاب . وهذا القول من المنافقين إنما كانوا يقولونه فى خفاء واستهزاء فأطلع الله نبيّه والمؤمنين على ذلك ، وقرّر أن السَّفه ورِقّة الحُلُوم وفساد البصائر إنما هى فى حيِّزهم وصفة لهم ، وأخبر أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون للرَّيْن الذى على قلوبهم . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن اليهود؛ أى وإذا قيل لهم — يعنى اليهود — آمنوا كما آمن الناس : عبد الله بن سَلَام وأصحابُه، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء! يعنى الجهال والحرقاء . وأصل السَّفَه فى كلام العرب : الخفّة والرقة؛ يقال : ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفه ، أو كان بالياً رقيقا . وتسفهت الريح الشجر : مالت به؛ قال ذو الرُّمة :

مَشَين كما اهتزّت رماحٌ تسفَّهتْ * أعَالِيَهَا مَرُّ الرياح النَّواسِمِ(٢)

(١) المحققون هنا هم الذين يكون إيمانهم مقرونا بالإخلاص خالصا عن شوائب النفاق كما قال الألوسى وغيره .

(٢) وصف نساء فيقول : إذا مشين اهتززن فى مشيهن وتثنين فكأنهن رماح نصبت فمرت عليها الرياح فاهتزت وتثنت . والنواسم : الخفيفة الهبوب .

وتسفهت الشيء : آستحقرته . والسّفه : ضـدّ الحلم . ويقال : إنّ السّـفه أنْ يكثر الرجل شرب المـاء فلا يروى . ويجوز فى همزتى السفهاء[1] أربعـة أوجه ، أجودها أن تحقق الأولى وتقلب الثانية واوا خالصة ، وهى قراءة أهل المدينة والمعروف من قراءة أبى عمرو . وإن شئت خفّفتهما جميعا فجعلت الأولى بين الهمزة والواو وجعلت الثانية واوا خالصة . وإن شئت خفّفت الأولى وحقّقت الثانية . وإن شئت حقّقتهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مثل « وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ؛ وقد تقدّم . والعلم معرفة المعـلوم على ما هو به ؛ تقول : عَلِمت الشيء أعلمـه عِلْمًا عَرَفْته ، وعالمتُ الرجل فَعَلَمْتُـه أعْلُمُه (بالضم فى المستقبل) : غلبته بالعلم .

قوله تعـالى : وَإِذَا لَقُـوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُـوا قَالُوٓا ءَامَنَّـا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَـكُمْ إِنَّمَـا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ أنزلت هذه الآية فى ذكر المنافقين . أصل لَقُوا : لَقِيُوا ، نُقلت الضمة إلى القاف وحُذفت الياء لٱلتقاء الساكنين . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع اليمانى : « لاقوا الذين آمنوا » . والأصل لاقيوا ، تحرّكت الياء وقبلها فتحة آنقلبت ألفا ، آجتمع ساكنان الألف والواو فحذفت الألف لٱلتقاء الساكنين ثم حُرّكت الواو بالضم .

وإن قيل : لم ضُمّت الواو فى لاقُوا فى الإدراج وحُذفت من لَقُوا ؟ فالجواب : أن قبل الواو التى فى لَقُوا ضمة فلو حركت الواو بالضم لثقل على اللسان النطق بها فحذفت لثقلها ، وحُركت فى لاقوا لأن قبلها فتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إن قيل : لم وُصلت « خَلَوْا » بـ « إلى » وعُرْفها أن توصل بالباء ؟ قيل له : « خلوْا » هنا بمعنى ذهبوا وآنصرفوا ؛ ومنه قول الفَرَزْدَق :

كيف تَرانِى قالبـا مِجَـنِّى * [أضْرِبُ أمْرِى ظهره لبَطْنِ][2]

* قد قتـل الله زِيادًا عَنِّى *

(١) أى مع كلمة ألا التى بعدها . (٢) الزيادة عن كتاب النقائض . وزياد ، هو زياد بن أبيه . والمجن : الترس .

لما أنزله منزلة صَرَف . وقال قوم : «إلى» بمعنى مع ؛ وفيه ضعف . وقال قوم : « إلى» بمعنى الباء ، وهذا يأباه الخليل وسيبويه . وقيل : المعنى وإذا خلوا من المؤمنين إلى شياطينهم ؛ فـ«إلى» على بابها . والشياطين جمع شيطان على التكسير ، وقد تقدم القول فى آشتقاقه ومعناه فى الآستعاذة.(١) وآختلف المفسرون فى المراد بالشياطين هنا ؛ فقال آبن عباس والسُّدِّى : هم رؤساء الكفر . وقال الكلبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم الكهان . ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان والخير يعم جميع مَن ذكر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى مكذبون بما ندعى إليه . وقيل : ساخرون . والهزء : السخرية واللعب ، يقال : هَزِئَ به وآستهزأ ؛ قال الراجز :(٢)

قد هَزِئَتْ مِنِّى أُمُّ طَيْسَلَهْ * قالت أراه مُعدِما لا مال لَهْ

وقيل : أصل الآستهزاء : الآنتقام ، كما قال الآخر :

قد آستهزءوا منهم بألفَىْ مُدَجِّجٍ * سَرَاتُهُمُ وسْطَ الصَّحَاصِحِ جُثَّمُ(٣)

قوله تعالى : ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ أى ينتقم منهم ويعاقبهم ، ويسخر بهم ويجازيهم على آستهزائهم ؛ فسمى العقوبة بآسم الذنب . هذا قول الجمهور من العلماء ؛ والعرب تستعمل ذلك كثيرا فى كلامهم ؛ من ذلك قول عمرو بن كُلثوم :

ألَا لا يَجهلَنْ أحدٌ علينا * فنَجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

فسمى آنتصاره جهلا ، والجهل لا يفتخر به ذو عقل ؛ وإنما قاله ليَزْدَوِج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما . وكانت العرب إذا وضعوا لفظا بإزاء لفظ جوابا له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفا له فى معناه ؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة . وقال

---

(١) راجع ص ٩٠　(٢) هو صخر الغى الهلالى . والبيت كما ذكره القالى فى أماليه (ج ٢ ص ٢٨٤) طبع دار الكتب المصرية :　تهزأ منى أخت آل طيسله * قالت أراه مبلطا لا شىء له

(٣) الصحاصح (جمع صحصح) : الأرض ليس بها شىء ولا شجر ولا قرار للماء . والجاثم : اللازم مكانه لا يبرح .

الله عزّ وجلّ : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » . وقال : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . والجزاء لا يكون سيئة . والقصاص لا يكون اعتداء ؛ لأنه حق وجب ؛ ومثله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ » . و « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا » . و « إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » وليس منه سبحانه مَكْرٌ ولا هزء ولا كَيْد ، إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم ؛ وكذلك « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . « فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يَمَلّ حتى تَمَلّوا ولا يسأم حتى تسأموا" . قيل : حتى بمعنى الواو أى وتملوا . وقيل المعنى وأنتم تملون . وقيل : المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل . وقال قوم : إن الله تعالى يفعل بهم أفعالا هى فى تأمل البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ ، حسب ما روى : " إن النار تجمد كما تجمد الإهالة[1] فيمشون عليها ويظنونها منجاة فتخسف بهم " . وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا » هم منافقو أهل الكتاب ؛ فذكرهم وذكر استهزاءهم ، وأنهم إذا خلوْا إلى شياطينهم يعنى رؤساءهم فى الكفر — على ما تقدّم — قالوا : إنا معكم على دينكم « إنما نحن مستهزئون » بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . « الله يستهزئ بهم » فى الآخرة ، يفتح لهم باب جهنم من الجنة ، ثم يقال لهم : تعالوا ، فيقبلون يَسْبَحون فى النار ، والمؤمنون على الأرائك — وهى السرر — فى الحِجال ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى الباب سُدّ عنهم ، فيضحك المؤمنون منهم ؛ فذلك قول الله عزّ وجلّ : « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » أى فى الآخرة ، ويضحك المؤمنون منهم حين غُلِّقت دونهم الأبواب ؛ فذلك قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ[2] . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى أهل النار « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » . وقال قوم : الخداع من الله والاستهزاء هو استدراجهم بدرور النعم الدنيوية عليهم ؛ فالله سبحانه وتعالى يظهر لهم من الإحسان فى الدنيا خلاف ما يغيب عنهم ، ويستر عنهم من عذاب الآخرة ، فيظنون أنه راضٍ عنهم ، وهو تعالى

---

(١) الإهالة : ما أذيب من الألية والشحم . وقيل : الدسم الجامد .

(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٦٦

قد حتّم عذابهم. فهذا على تأمل البشر كأنه آستهزاء ومكر وخداع؛ ودلّ على هذا التأويل قولهُ صلى الله عليه وسلم: "إذا رأيتم الله عزّ وجلّ يعطى العبد ما يحبّ وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه آستدراج". ثم نزع بهذه الآية: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[1]. فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وقال بعض العلماء فى قوله تعالى «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ[2] مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»: كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة.

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أى يطيل لهم المدّة ويمهلهم ويُملى لهم؛ كما قال: «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا[3]» وأصله الزيادة. قال يونس بن حبيب: يقال مدّ لهم فى الشر، وأمدّ فى الخير؛ قال الله تعالى: «وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ[4]». وقال: «وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ[5] مِمَّا يَشْتَهُونَ». وحكى عن الأخفش: مددت له إذا تركته، وأمددته إذا أعطيته. وعن الفرّاء واللّحيانى: مددت، فيما كانت زيادته من مثله، يقال: مدّ النّهرُ[6] [النهر]، وفى التنزيل: «وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ[7] مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ». وأمددت، فيما كانت زيادته من غيره؛ كقولك: أمددت الجيش بمَدَد؛ ومنه: «يُمْدِدْكُمْ[8] رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ». وأمدّ الجرحُ؛ لأن المدّة من غيره، أى صارت فيه مدّة.

قوله تعالى: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ كفرهم وضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه قوله تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَى[9] الْمَاءُ» أى آرتفع وعلا وتجاوز المقدار الذى قدرته الخزّان. وقوله فى فرعون: «إِنَّهُ طَغَى[10]» أى أسرف فى الدعوى حيث قال: «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى». والمعنى فى الآية: يمدّهم بطول العمر حتى يزيدوا فى الطغيان فيزيدهم فى عذابهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يعمون. وقال مجاهد: أى يتردّدون متحيّرين فى الكفر. وحكى أهل اللغة: عَمِه الرجلُ يَعْمَه عُموهًا وعَمَهًا فهو عَمِه وعامِه إذا حار، ويقال رجل عامِه

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ وقد ذكر القرطبي هنالك الحديث برواية تختلف فى بعض اللفظ، وفيه: ثم تلا «فلما نسوا» الآية بدل نزع. (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٨٧ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢١٧ (٥) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ (٦) الزيادة عن اللسان مادّة (مد). (٧) راجع جـ ١٤ ص ٧٦ (٨) راجع جـ ٤ ص ١٩٠ (٩) راجع جـ ١٨ ص ٢٦٣ (١٠) راجع جـ ١٩ ص ١٩٩

وعَمه : حائر متردّد ، وجمعه عُمْـه . وذهبت إبلُه العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت . والعَمَى فى العين ، والعَمَه فى القلب ؛ وفى التنزيل : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »[1] .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ قال سيبويه : ضُمّت الواو فى «اشتروا» فرقًا بينها وبين الواو الأصلية ، نحو : «وأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ» . وقال ابن كَيْسان : الضمة فى الواو أخف من غيرها لأنها من جنسها . وقال الزجاج : حُرّكت بالضم كما فعل فى «نحن» . وقرأ ابن أبى إسحاق ويحيى بن يعمر[2] بكسر الواو على أصل التقاء الساكنين . وروى أبو زيد الأنصارى عن قَعْنَب أبى السَّمّال العدوىّ أنه قرأ بفتح الواو لخفة الفتحة وإن كان[3] ما قبلها مفتوحا . وأجاز الكسائى همز الواو وضمها كأدؤر . واشتروا : من الشراء . والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبُّوا الكفر على الإيمان ؛ كما قال : « فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » فعبّر عنه بالشراء ؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا ؛ لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم . وقال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى . ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان . وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسُّعًا ؛ لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ؛ والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء . قال أبو ذُؤيب :

فإن تَزْعُمِينِي كنتُ أجهلُ فيكم * فإنى شَرَيتُ[4] الحِلمَ بعدكِ بالجهل

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٧٧ (٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب بفتح التحتانية والميم وبينهما مهملة ساكنة . وفى المغنى بفتح الميم وضمها » .

(٣) فى بعض الأصول : « وإن ما قبلها مفتوحا » ، وفى البعض الآخر : « وإن كان قبلها مفتوحا » .

(٤) ويروى : « اشتريت » كما فى ديوان أبى ذؤيب . يقول : إن كنت ترعمين أنى كنت أجهل فى هواى لكم وصبوتى إليكم فقد شريت بذلك الجهل والصبا حلما وعقلا ، ورجعت عما كنت عليه . (عن شرح الشواهد) .

وأصل الضلالة : الحيرة . ويسمى النسيان ضلالة لما فيه من الحيرة؛ قال جلّ وعزّ: « فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ »[1] أى الناسين . ويسمى الهلاك ضلالة ؛ كما قال عزّ وجلّ : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾ أسند تعالى الربح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : رَبِحَ بَيْعُك، وخَسِرتْ صفقتك؛ وقولهم : ليلٌ قائم، ونهارٌ صائم؛ والمعنى : رَبِحتَ وخَسِرْتَ فى بيعك، وقمت فى ليلك وصُمت فى نهارك؛ أى فما ربحوا فى تجارتهم . وقال الشاعر :

نهارُك هائمٌ وليلُكَ نائمُ * كذلك فى الدنيا تعيشُ البهائمُ

ابن كَيسان : ويجوز تجارة وتجائر ، وضلالة وضلائل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فى اشترائهم الضلالة . وقيل : فى سابق علم الله . والاهتداء ضد الضلال ؛ وقد تقدّم[3] .

قوله تعالى : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ فمثلهم رفع بالابتداء والخبر فى الكاف، فهى اسم ؛ كما هى فى قول الأعشى :

أتنتهون ولن ينْهَى ذوِى شَطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلُ[4]

وقول امرئ القيس :

ورُحْنا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وسطنا * تَصَوَّبُ فيه العينُ طَوْرًا وتَرْتَقِى[5]

(١) راجع جـ ١٣ ص ٩٥ (٢) راجع جـ ١٤ ص ٩١ (٣) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

(٤) المعنى : لاينهى أصحاب الجور مثل طعن جائف ؛ أى نافذ إلى الجوف ، يغيب فيه الزيت والفتل . (عن خزانة الأدب) . (٥) يقول رجعنا بفرس كأنه ابن ماء (طير ماء) خفة وحسنا وطول عنق . وهو يجنب : أى يقاد فلا يركب .

أراد مثل الطعن، و بمثل آبن المـاء. و يجوز أن يكون الخبر محذوفا؛ تقديره مثلهم مستقر كمثل؛ فالكاف على هـذا حرف . والمَثَل والمِثْل والمِثِيل واحد ومعناه الشبيه . والمتماثلان : المتشابهان ؛ هكذا قال أهل اللغة .

قوله ﴿ الَّذِى ﴾ يقع للواحد والجمع . قال آبن الشَّجَرِى هبةُ الله بن علىّ : ومن العـرب من يأتى بالجمع بلفظ الواحد ؛ كما قال :

و إن الذى حانَتْ بفَلْج دماؤهم * هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ (١)

وقيل فى قول الله تعالى «وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» : إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله : « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى» قيل: المعنى كمثل الذين آستوقدوا، ولذلك قال: « ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ » ؛ فحمل أوّل الكلام على الواحد، وآخره على الجمع . فأما قوله تعالى : «وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا» (٣) فإن الذى ها هنا وصف لمصدر محذوف تقديره وخضتم كالخوض الذى خاضوا. وقيل : إنما وحّد «الذى» و«آستوقد» لأن المستوقد كان واحدا من جماعة تولّى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعا فقال «بنورهم» . وآستوقد بمعنى أوقد؛ مثل آستجاب بمعنى أجاب ؛ فالسين والتاء زائدتان ، قاله الأخفش ؛ ومنه قول الشاعر (٤) :

وداعٍ دَعَا يا من يُجيب إلى النَّدَى * فلم يَستجِبْه عنـد ذاك مُجيبُ

أى يجبه . وآختلف النحاة فى جواب لمّا، وفى عود الضمير من «نورهم» ؛ فقيل : جواب لمّا محذوف وهو طَفِئت ، والضمير فى «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبار بهذا عن حال تكون فى الآخرة؛ كما قال تعالى: «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ» (٥) . وقيل: جوابه «ذهب» ، والضمير فى «نورهم» عائد على «الذى» ؛ وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد فى ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق فى حيرته وتردُّده. والمعنى المرادُ بالآية ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين،

---

(١) فلج (بفتح أوّله وسكون ثانيه) : موضع بين البصرة وضَرِيّة . وقيـل هو واد بطريق البصرة إلى مكة ، يبعد منازل للحاج . قاتله الأشهب بن رميلة يرى قوما قتلوا فى هذا الموضع (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٦ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٠١

(٤) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٦

وذلك أن ما يظهرونه من الإيمان الذى تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابة من أوقد نارا فى ليلة مظلمة فاستضاء بها ورأى ما ينبغى ان يتقيه وأمن منه؛ فإذا طَفِئت عنه أو ذهبت وصل إليه الأذى وبقى متحيرا؛ فكذلك المنافقون لما آمنوا اغْتَرُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموت إلى العذاب الأليم — كما أخبر التنزيل : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ[1] فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — ويذهب نورهم؛ ولهذا يقولون : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ[2] مِنْ نُورِكُمْ » . وقيل : إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار؛ وانصرافهم عن مودتهم وارتكاسهم عندهم كذهابها . وقيل غير هذا .

قوله : ﴿نَارًا﴾ النار مؤنثة وهى من النور وهو أيضا الإشراق . وهى من الواو؛ لأنك تقول فى التصغير : نويرة، وفى الجمع نور وأنوار ونيران، انقلبت الواو ياء لكسر ما قبلها . وضاءت وأضاءت لغتان ؛ يقال : ضاء القمر يَضُوء ضَوْءًا وأضاء يُضِىء ؛ يكون لازما ومتعديًا . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع : ضاءت بغير ألف ، والعامة بالألف ؛ قال الشاعر :

أضاءت لهم أحسابُهم ووجوهُهم * دُجَى الليل حتى نَظَّم الجِزْعَ[3] ثاقِبه

﴿مَا حَوْلَهُ﴾ «ما» زائدة مؤكدة . وقيل : مفعولة بأضاءت . و«حَوْله» ظرف مكان، والهاء فى موضع خفض بإضافته إليها . و﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوال الشىء . ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أى أبقاهم . ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ جمع ظُلْمة . وقرأ الأعمش : «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل . ومن قرأها بالضم فللفرق بين الاسم والنعت . وقرأ أشهب العقيلى : «ظُلَمات» بفتح اللام . قال البصريون : أبدل من الضمة فتحة لأنها أخف . وقال الكسائى : «ظلمات» جمع الجمع، جمع ظُلَم . ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل فى موضع الحال؛ كأنه قال : غير مبصرين، فلا يجوز الوقف على هذا على « ظلمات » .

قوله تعالى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٤٥ (٣) الجزع (بفتح الجيم وكسرها) : ضرب من الخرز . وقيل : هو الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، فشبه به الأعين .

قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ «صُمٌّ» أى هم صمّ ، فهو خبر ابتداء مضمر . وفى قراءة عبدالله ابن مسعود وحفصة : صُمًّا بكمًا عميًا ، فيجوز النصب على الذم ، كما قال تعالى : « مَلْعُونِينَ (١) أَيْنَمَا ثُقِفُوا » ، وكما قال : « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ (٢) الْحَطَبِ » ، وكما قال الشاعر (٣) :

سَقَوْنِى الخمرَ ثم تكنَّفُونِى * عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ

فنصب «عُداةَ الله» على الذم . فالوقف على «يبصرون» على هذا المذهب صواب حسن . ويجوز أن ينصب صُمًّا بـ«تَرَكَهُمْ» ، كأنه قال : وتركهم صما بكما عميا ، فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على «يبصرون» . والصمم فى كلام العرب : الانسداد ، يقال : قناة صمّاء إذا لم تكن مجوّفة . وصَمَمت القارورة إذا سددتها . فالأصم : من انسدت خروق مسامعه . والأبكم : الذى لا ينطق ولا يفهم ، فإذا فهم فهو الأخرس . وقيل : الأخرس والأبكم واحد . ويقال : رجل أبكم وبَكِيم ، أى أخرس بيّن الخرس والبكم ، قال :

فليتَ لِسانِى كان نِصْفَينِ منهما * بَكِيمٌ ونِصفٌ عند مَجْرَى الكواكِبِ

والعمى : ذهاب البصر ، وقد عَمِىَ فهو أعْمَى ، وقوم عُمْىٌ ، وأعماه الله . وتعامى الرجل : أرى ذلك من نفسه . وعَمِىَ عليه الأمر إذا التبس ، ومنه قوله تعالى : « فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ (٤) يَوْمَئِذٍ » . وليس الغرض مما ذكرناه نفى الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة ما ، تقول : فلان أصمّ عن الخنا . ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

* أَصَمُّ عَمّا سَاءَهُ سَمِيعُ *

وقال آخر :

وعوراءِ الكلامِ صَمَمتُ عنها * ولو أنى أشاء بها سَمِيعُ

وقال الدارمىّ :

أعْمى إذا ما جارتى خرجت * حتى يوارِى جارتِى الجُدْرُ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٢٤٧ (٢) راجع جـ ٣٠ ص ٢٣٩ (٣) هو عروة بن الورد . وصف ما كان من فعل قوم آمرأته حين آحتالوا عليه وسقوه الخمر حتى أجابهم إلى مفاداتها وكانت سبية عنده (عن شرح الشواهد) . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٠٤

وقال بعضهم فى وَصَاته لرجل يكثر الدخول على الملوك :

أُدخُـلْ إذا ما دخلتَ أعمَى * وآخرُجْ إذا ما خرجتَ أخرس

وقال قتادة : «صمٌّ» عن آستماع الحق، «بكمٌ» عن التكلم به، «عميٌ» عن الإبصار له.

قلت : وهذا المعنى هو المراد فى وصف النبىّ صلى الله عليه وسلم وُلاة آخر الزمان فى حديث جبريل "و إذا رأيت الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكْمَ ملوك الأرض فذاك من أشراطها". والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم. يقال: رجع بنفسه رجوعا، ورَجَعَه غيره؛ وهُذيل تقول: أرجعه غيره. وقوله تعالى : « يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ »(١) أى يتلاومون فيما بينهم ؛ حسب ما بيّنه التنزيل فى سـورة « سبأ » .

قوله تعـالى : أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الطبرى : « أو » بمعنى الواو؛ وقاله الفرّاء. وأنشـــد :

وقد زَعَمتْ لَيْـلَى بأنّى فاجرٌ * لنفسى تُقَاها أو عليها فُجُورها(٢)

وقال آخـــر(٣) :

نَال الخلافةَ أو كانت له قَدَرًا(٤) * كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

أى وكانت . وقيـل : « أو » للتخيير أى مثّلوهم بهذا أو بهذا ، لا على الآقتصار على أحد الأمرين ، والمعنى أو كأصحاب صَيِّب . والصَّيِّبُ : المطر . وآشـتقاقه من صَابَ يَصُوبُ إذا نزل؛ قال عَلْقَمة :

فلا تَعْـدِلى بَيْنِى وبين مُغَمَّرٍ * سَقَتْكِ رَوايا المُـزْنِ(٥) حيث تَصُوبُ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٢ (٢) البيت من قصيدة لتوبة الخفاجى قالها فى ليلى الأخيلية .

(٣) هو جرير بن عطية يمدح عمر بن عبد العزيز . (٤) فى ديوانه المخطوط : « إذ » بدل « أو » .

(٥) المغمـر والغمر : الجاهل الذى لم يجرب الأمور ؛ كأن الجهل غمـره وآستولى عليه . وروايا المزن : التى تروى بكثرة مائها .

وأصـله : صَيْوِب ، اجتمعت اليـاء والواو وسـبقت إحداهمـا بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت ، كما فعلوا فى ميّت وسيّد وهيّن وليّن . وقال بعض الكوفيين : أصله صَوِيب على مثال فعِيل . قال النحاس : « لو كان كما قالوا لمـا جاز إدغامه ، كما لا يجوز إدغام طويل . وجمع صيب صيايب . والتقدير فى العربية : مَثَلهم كَمَثل الذى آستوقد نارا أو كمثل[1] صيب » .

قوله تعـالى : ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السماء تذكّر وتؤنث ، وتجمع على أسمِيـةٍ وسموات وسُمِيّ ، على فُعُول ؛ قال العجاج :

* تَلُفُّـه الرياحُ والسُّـمِيُّ[2] *

والسماء : كل ما علاك فأظلّك ؛ ومنه قيل لسقف البيت : سماء . والسماء : المطر ؛ سُمِّيَ به لنزوله من السماء . قال حسان بن ثابت :

ديارٌ من بنى الحَسْحاسِ قَفْرٌ * تُعَفِّيهـا الروامِسُ والسماء

وقال آخـر[3] :

إذا سَقَط السماءُ بأرض قومٍ * رَعَيناه و إن كانوا غِضـابَا

ويسمّى الطين والكلأ أيضا سمـاء ؛ يقال : مازِلْنا نطأ السماء حتى أتيناكم . يريدون الكلأ والطين . ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوّه ؛ قال[4] :

وأحمرُ كالدّيباج أمّا سمـاؤه * فَرَيّا وأمّا أرضُـه فمُحُولُ

والسماء : ما علا . والأرض : ما سفل ؛ على ما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ﴾ آبتداء وخبر . ﴿ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ معطوف عليه . وقال : ظلمات بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمة الدَّجْن ، وهو الغيم ؛ ومن حيث تتراكب وتتزايد جمعت . وقد مضى ما فيه من اللغات[5] فلا معنى للإعادة ، وكذا كل ما تقدّم إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : « ... نارا أو كصيب » . والتصويب عن كتاب إعراب القرآن للنحاس . (٢) السمى : يريد الأمطار . (٣) هو معاوية بن مالك . (٤) القائل هو طفيل الغنوى ، كما فى اللسان مادة (سما)
(٥) راجع ص ٢١٣ من هذا الجزء .

وٱختلف العلمـاء فى الرعد؛ ففى الترمذى عن ٱبن عباس قال : سألتِ اليهود النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الرعد ماهو ؟ قال : " مَلَك من الملائكة [موكل[1] بالسحاب] معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله " . فقالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : " زجره بالسحاب إذا زجره حتى يتهى إلى حيث أمر الله " قالوا : صدقت . الحديث بطوله . وعلى هذا التفسير أكثر العلماء . فالرعد : ٱسم الصوت المسموع، وقاله علىّ رضى الله عنه، وهو المعلوم فى لغة العرب؛ وقد قال لبيد فى جاهليته :

فَجَعَـنِي الرعدُ والصـواعقُ بالـ * ـفارِسِ يومَ الكريهـةِ النَّجِـدِ

وروى عن ٱبن عباس أنه قال: الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوّت ذلك الصوت . وٱختلفوا فى البرق؛ فروى عن علىّ وٱبن مسعود وٱبن عباس رضوان الله عليهم : البرق مخراق حديد بيد المَلَك يسوق به السحاب .

قلت : وهو الظاهر من حديث الترمذى . وعن ٱبن عباس أيضا هو سوط من نور بيد المَلَك يزجر به السحاب . وعنه أيضا : البرق مَلَك يتراءى .

وقالت الفلاسفة : الرعد صـوت ٱصطكاك أجرام السـحاب . والبرق ماينقـدح من ٱصطكاكها . وهذا مردود لايصح به نقل؛ والله أعلم . ويقال : أصل الرعد من الحركة؛ ومنه الرِّعديد للجبان . وٱرتعد : ٱضطرب؛ ومنـه الحديث : " فإذا جِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائصهما " الحديث . أخرجه أبو داود . والبرق أصـله من البريق والضوء؛ ومنـه البُرَاق : دابّة ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرِىَ به وركبها الأنبياء عليهم السلام قبله . ورَعَدت السماء من الرعد، وبَرَقت من البرق . ورَعَدت المرأة وبَرَقت : تحسّنت وتزيّنت . ورَعَد الرجل وبَرَق : تهدّد وأوعد؛ قال ٱبن أحمر :

ياجُلَّ ما بَعُدَتْ عليـك بِلادُنا * وطِلابُنا فٱبْرُقْ بأرضك وٱرعُدِ

(١) زيادة عن الترمذى .

وأرعد القوم وأبرقوا : أصابهم رعد وبرق . وحكى أبو عبيدة وأبو عمرو : أرعدت السماء وأبرقت ، وأرعد الرجل وأبرق إذا تهدّد وأوعد ؛ وأنكره الأصمعى . واحتج عليه بقول الكُمَيْت :

أبرِق وأرعِـــد يا يزيـ * ـدُ فما وعيدُكَ لى بِضائرْ

فقال : ليس الكُمَيت بحجة .

فائدة — روى ابن عباس قال : كنا مع عمر بن الخطاب فى سَفْرة بين المدينـة والشام ومعنا كعب الأحبار ، قال : فأصابتنا ريح وأصابنا رعد ومطر شديد وبرد ، وفَرِق الناس . قال فقال لى كعب : إنه من قال حين يسـمع الرعد : سبحان مَن يسبِّح الرعد بحمـده والملائكة من خيفته ؛ عُوفى ممـا يكون فى ذلك السحاب والبرد والصواعق . قال : فقلتها أنا وكعب ، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمر : يا أمير المؤمنين ، كأنا كنا فى غير ما كان فيه الناس . قال : وما ذاك ؟ قال : فحدّثته حديث كعب . قال : سبحان الله ! أفلا قلتم لنا فنقول كما قلتم ! فى رواية فإذا بَرَدة(١) قد أصابت أنف عمر فأثّرت به . وستأتى هذه الرواية فى سورة « الرعد » إن شاء الله . ذكر الروايتين أبو بكر أحمد بن علىّ بن ثابت الخطيب فى روايات الصحابة عن التابعين رحمة الله عليهم أجمعين . وعن ابن عمر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : " اللّهُمّ لا تقتلنا بغضبك ولا تُهْلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك " .

قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ ﴾ جعلهم أصابعهم فى آذانهم لئلا يسـمعوا القرآن فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام ؛ وذلك عندهم كفر والكفر موت . وفى واحد الأصابع خمس لغات : إصْبَع بكسر الهمزة وفتح الباء ، وأُصْبِـع بفتح الهمزة وكسر الباء ، ويقال بفتحهما جميعا ، وضمهما جميعا ، وبكسرهما جميعا ؛ وهى مؤنثة . وكذلك الأذن وتخفّف وتثقّل وتصغّر ، فيقال : أذينة . ولو سمّيت بها رجلا ثم صغّرته قلت : أُذَيْن ؛ فلم تؤنث لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر . فأما قولهم : أذينة فى الاسم العَلَم فإنما سُمّى به مصغّرا ، والجمع آذان . وتقول : أَذَنتـه إذا ضربت أذنه . ورجل أُذُنٌ : إذا كان يسمع كلام كل أحد ، يستوى فيه الواحد

(١) البرد (بالتحريك) : حب الغمام . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٩٥

والجمع . وأذانيّ : عظيم الأذنين . ونعجة أَذْناء ، وكَبْش آذَن . وأذّنت النعل وغيرها تأذينا : إذا جعلت لها أُذُنًا . وأذّنت الصبيّ : عَرَكت أذنه .

قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أى من أجل الصواعق . والصّواعق جمع صاعقة . قال آبن عباس ومجاهد وغيرهما : إذا آشتدّ غضب الرعد الذى هو المَلَك طار النار من فِيهِ وهى الصواعق . وكذا قال الخليل ، قال : هى الواقعة الشديدة من صوت الرعد ، يكون معها أحيانا قطعة نار تحرق ما أتت عليه . وقال أبو زيد : الصاعقة نار تسقط من السماء فى رعد شديد . وحكى الخليل عن قوم : الساعقة (بالسين) . وقال أبو بكر النقاش : يقال صاعقة وصعقة وصاقعة بمعنًى واحد . وقرأ الحسن : من «الصواقع» (بتقديم القاف) ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

يَحْكُون بالمَصْقُولة القواطِع * تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ

قال النحاس : وهى لغة تميم وبعض بنى ربيعة . ويقال : صَعَقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب ؛ قال الله عز وجل : « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ »[1] . ويقال : صَعِق الرجلُ صَعْقَةً وتَصْعاقًا ؛ أى غُشِىَ عليه ؛ ومنه قوله تعالى : « وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا »[2] فأصعقه غيره . قال آبن مُقْبِل :

ترى النُّعَرات الزُّرْقَ تحت لَبانِه * أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُهْ[3]

وقوله تعالى : « فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ »[4] أى مات . وشبّه الله تعالى فى هذه الآية أحوال المنافقين بما فى الصَّيِّب من الظلمات والرعد والبرق والصواعق . فالظلمات مَثَلٌ لما يعتقدونه من الكفر ، والرعد والبرق مَثَلٌ لما يُخَوَّفون به . وقيل : مَثَّل الله تعالى القرآن بالصَّيِّب لما فيه من الإشكال عليهم ، والعمى هو الظلمات ؛ وما فيه من الوعيد والزجر هو الرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التى تكاد أحيانا أن تَبْهَرهم هو البرق . والصواعق

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٩ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٩ (٣) النعرة (مثال الهمزة) : ذباب ضخم أزرق العين أخضر ، له إبرة فى طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة . واللبان : الصدر ، وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين ، ويكون للانسان وغيره . وأصعقتها صواهله : أى قتلها صهيله . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٩ .

مَثَلٌ لما فى القرآن من الدعاء إلى القتال فى العاجل والوعيد فى الآجل . وقيل : الصواعق تكاليف الشرع التى يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرهما .

قوله : ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ حَذَرَ وحِذارَ بمعنًى ، وقرئ بهما . قال سيبويه : هو منصوب ؛ لأنه موقوع له أى مفعول من أجله ، وحقيقته أنه مصدر ، وأنشد سيبويه :

وأَغْفِرُ عَوْراءَ الكريم آدخارَه * وأُعْرِض عن شَتْمِ اللئيم تَكَرُّمًا (١)

وقال الفراء: هو منصوب على التمييز . والموت : ضدّ الحياة . وقد مات يموت ، ويَمات أيضا ، قال الراجز :

بُنَيَّتِي سَيِّدَةَ البَناتِ * عِيشِي ولا يُؤْمَن أن تَماتِي

فهو ميِّت وميْت ، وقوم موتى وأموات وميِّتون وميْتون . والمُوَات (بالضم) : الموت . والمَوَات (بالفتح) : ما لا رُوح فيه . والمَوات أيضا : الأرض التى لا مالك لها من الآدميين ولا ينتفع بها أحد . والمَوَتان (بالتحريك) : خلاف الحيوان ، يقال : آشْتِرِ المَوَتانَ ، ولا تشترِ الحيوان ؛ أى آشتر الأرضين والدور ، ولا تشترِ الرقيق والدواب . والمُوْتان (بالضم) : مَوْتٌ يقع فى الماشية ؛ يقال : وقع فى المال مُوتان . وأماته الله وموَّته ، شُدِّد للمبالغة . وقال :

فَعُرْوَةُ مات مَوْتًا مستريحًا * فهأنذا أُمَوِّتُ كلَّ يومِ

وأماتت الناقة إذا مات ولدها ، فهى مُميت ومُميتة . قال أبو عبيد : وكذلك المرأة ، وجمعها مَماوِيت . قال آبن السِّكيت : أمات فلان إذا مات له آبنٌ أو بَنُونَ . والمُتَماوِت من صفة الناسك المرائى . وموت مائتٌ ، كقولك : ليلٌ لائلٌ ، يؤخذ من لفظه ما يؤكد به . والمُسْتَمِيتُ للأمر : المُسْتَرْسِلُ له ، قال رُؤبة :

---

(١) البيت لحاتم الطائى . يقول : إذا جهل علىّ الكريم آحتملت جهله إبقاء عليه وآدّخارا له ، وإن سبنى اللئيم أعرضت عن شتمه .

وزَبَدُ البحـرِ له كَتِيت * واللّيـل فـوق المـاءِ مُسْتَمِيت (١)

المستميت أيضـا : المستقتِل الذى لا يبـالى فى الحرب من الموت؛ وفى الحـديث : " أرى القـوم مُسْتَمِيتين " وهم الذين يقاتلون على الموت . والمُوتة (بالضم) : جنس من الجنون والصرع يعـترى الإنسان ؛ فإذا أفاق عاد إليه كمال عقـله كالنائم والسكران . ومُؤْتة (بضم الميم وهمز الواو) : آسم أرض (٢) قُتل بها جعفر بن أبى طالب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطٌ بِٱلْكَافِرِينَ ﴾ آبتداء وخبر؛ أى لا يفوتونه . يقال : أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذا حاصرا من كل جهة؛ قال الشاعر :

أحطنا بهـم حتى إذا ما تَيَقّنُوا * بما قد رأوْا مالوا جميعًا إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى : « وَأُحِيطَ (٣) بِثَمَرِهِ » . وأصله مُحْيِط ، نُقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت . فالله سبحانه محيـط بجميع المخلوقات ، أى هى فى قبضته وتحت قهره ؛ كما قال : « وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ (٤) » . وقيل : « مُحِيطٌ بِالكافرين » أى عالم بهم . دليله : « وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا (٥) » . وقيل : مهلكهم وجامعهم . دليله قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ (٦) » أى إلا أن تهلكوا جميعا . وخص الكافرين بالذكر لتقدّم ذكرهم فى الآية . والله أعلم .

قوله تعالى : يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

(١) كذا فى الأصول واللسان مادة « موت » . والذى فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٥١٦ أدب .

وزبـد البحـر له كتيت * تراه والحـوت له نئيـت
كلاهمـا مغتمس مغتـوت * وكلكل الماء له مبيـت
والليـل فوق الماء مستميت * يدفع عنـه جوفـه المسحوت

الكتيت : الهدير ، والنئيت والزحير والطحير والأنيت كله الزحير (إخراج الصوت أو النفس عند عمل بأنين أو شدّة) . المغتوت : المغموم . والمسحوت : الذى لا يشبع . (٢) وقيل إنها قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . وقيل : إنها بمشارف الشام وعلى آثنى عشر ميلا من أذرح . راجع تاج العروس مادة « مأت » . (٣) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٩
(٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٧ (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٦ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٢٥

قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ «يكاد» معناه يقارب؛ يقال: كاد يفعل كذا إذا قارب ولم يفعل . ويجوز فى غير القرآن : يكاد أن يفعل؛ كما قال رؤبة :

* قد كاد من طول البلى أن يمصحا[1] *

مشتق من المصح وهو الدرس. والأجود أن تكون بغير «أن»؛ لأنها لمقاربة الحال، و«أن» تصرف الكلام إلى الاستقبال ، وهذا متناف؛ قال الله عز وجل : « يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ[2] يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » . ومن كلام العرب : كاد النعام يطير ، وكاد العروس يكون أميرا ؛ لقربهما من تلك الحال . وكاد فعلٌ متصرف على فَعِل يَفْعَل . وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل ، قال : « وَمَا كِدْتُ[3] آئِبا » . ويجرى مجرى كاد كَرِب وجَعَل وقارب وطَفِق ، فى كون خبرها بغير « أن » ؛ قال الله عز وجل : « وَطَفِقَا[4] يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » لأنها كلها بمعنى الحال والمقاربة ؛ والحال لا يكون معها « أن » ، فاعلم .

قوله تعالى : ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ الخطف : الأخذ بسرعة؛ ومنه سُمِّىَ الطير خُطّافا لسرعته . فمن جعل القرآن مَثَلاً للتخويف فالمعنى أن خَوْفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم . ومن جعله مَثَلاً للبيان الذى فى القرآن فالمعنى أنهم جاءهم من البيان ما بهرهم . ويَخْطَف ويَخْطِف لغتان قرئ بهما . وقد خطفه (بالكسر) يَخْطَفُه خَطْفًا ، وهى اللغة الجيدة ، واللغة الأخرى حكاها الأخفش : خَطَف يَخْطِف . الجوهرى : وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف . وقد قرأ بها يونس فى قوله تعالى : « يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارهم » . وقال النحاس: فى «يخطف» سبعة أوجه؛ القراءة الفصيحة : يَخْطَف . وقرأ علىّ بن الحسين ويحيى بن وثّاب : يخِطف بكسر الطاء ؛ قال سعيد الأخفش : هى لغة . وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِىّ وأبو رجاء العُطارِدى بفتح الياء وكسر الخاء والطاء . ورُوِى عن الحسن أيضا أنه قرأ بفتح الخاء . قال الفراء : وقرأ بعض أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطاء . قال الكسائى والأخفش والفراء : يجوز «يخطف» بكسر الياء والخاء والطاء . فهذه ستة أوجه موافقة للخط .

(١) يمصح : يذهب ويدرس . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٠ (٣) قائله تأبط شرا . والبيت بتمامه :

فآبت إلى فَهْم وما كدت آئبا * وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

(٤) راجع جـ ٧ ص ١٨٠

والسابعـة حكاها عبد الوارث قال : رأيت فى مصحف ابىّ بن كعب « يتخطف »، وزعم سيبويه والكسائى أن من قرأ « يخطف » بكسر الخاء والطاء فالأصـل عنده يختطِف ، ثم أدغم التاء فى الطاء فألتقى ساكنان فكسرت الخاء لألتقاء الساكنين . قال سيبويه : ومن فتح الخـاء ألقى حركة التاء عليهـا . وقال الكسائى : ومن كسر الياء فـلأن الألف فى اختطف مكسورة . فأما ماحكاه الفراء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام فلا يعرف ولايجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين . قاله النحاس وغيره .

قلت : وروى عن الحسن أيضا وأبى رجاء « يَخَطَّف » . قال ابن مجـاهد : وأظنـه غلطا ؛ واستدل على ذلك بأن « خَطِفَ[1] الخَطْفَةَ » لم يقرأه أحد بالفتح .

﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ جمع بَصَر، وهى حاسة الرؤية . والمعنى : تكاد حجج القرآن و براهينه الساطعة تَبْهَرهم . ومن جعل « البَرْق » مَثَلًا للتخويف فالمعنى أنّ خوفهم مما ينزل بهم يكاد يُذهب أبصارهم .

قوله تعـالى : ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ « كلما » منصوب لأنه ظرف . وإذا كان « كلما » بمعنى « إذا » فهى موصولة والعامل فيه « مَشَـوْا » وهو جوابه ، ولا يعمل فيـه « أضاء » ؛ لأنه فى صلة ما . والمفعول فى قول المبرد محذوف ، التقـدير عنده : كلما أضاء لهم البرق الطريقَ . وقيل : يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَـل بمعنًى ، كسَكَت وأسْكَت ؛ فيكون أضاء وضاء سـواء فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول . قال الفـراء : يقال ضاء وأضاء ، وقد تقـدّم . والمعنى أنهم كلما سمعوا القـرآن وظهرت لهم الحجج أنِسُوا ومشَـوْا معه ، فإذا نزل من القرآن ما يَعْمَوْنَ فيه و يَضلون به أو يكلّفونه « قاموا » ، أى ثبتوا على نفاقهم ؛ عن ابن عباس . وقيل : المعنى كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم وتوالت النِّعم قالوا : دِين محمد دينٌ مبارك ، وإذا نزلت بهم مصيبة وأصابتهم شدّة سَخِطوا وثبتوا فى نفاقهم ؛ عن ابن مسعود وقتادة . قال النحاس : وهـذا قول حسن ، و يدل على صحته : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ[2] » . وقال علماء الصوفية : هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن لم تصح له أحوال الإرادة بدءا ، فارتق من

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٧ .　　(٢) راجع جـ ١٢ ص ١٧ .

تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، كأن تضيء عليه أحوال الإرادة لو صحبها بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى أذهب الله عنه تلك الأنوار وبقى فى ظلمات دعاويه لا يبصر طريق الخروج منها. وروى عن ابن عباس أن المراد اليهود، لمّا نُصر النبيّ صلى عليه وسلم ببَدْر طمِعوا وقالوا: هذا والله النبيّ الذى بشّرنا به موسى لا تردّ له راية؛ فلما نُكِب بأُحُد ارتدّوا وشكّوا؛ وهذا ضعيف. والآية فى المنافقين، وهذا أصح عن ابن عباس، والمعنى يتناول الجميع.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ «لو» حرف تمنٍّ وفيه معنى الجزاء، وجوابه اللام. والمعنى: ولو شاء الله لأطلع المؤمنين عليهم فذهب منهم عِزّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وخصّ السمع والبصر لتقدّم ذكرهما فى الآية أوّلا، أو لأنهما أشرف ما فى الإنسان. وقرئ «بأسماعهم» على الجمع؛ وقد تقدّم الكلام فى هذا[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلمين فيما يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه. وأجمعت الأمة على تسمية الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قدير قادر مقتدر. والقدير أبلغ فى الوصف من القادر؛ قاله الزجاجىّ. وقال الهروىّ: والقدير والقادر بمعنًى واحد؛ يقال: قَدَرت على الشىء أقدِر قَدْراً وقَدَراً ومَقْدِرة ومَقْدُرة وقُدْرَانًا؛ أى قُدْرة. والاقتدار على الشىء: القدرة عليه. فالله جلّ وعزّ قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم. فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله تعالى قادر، له قدرة بها فعَل ويَفْعَل ما يشاء على وَفْق علمه واختياره. ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقدره الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنه غير مستبدّ بقدرته. وإنما خص هنا تعالى صفته التى هى القدرة بالذكر دون غيرها؛ لأنه تقدّم ذِكر فِعْلٍ مُضَمَّنُه الوعيد والإخافة؛ فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آية على عدد الكوفيين؛ أربع آيات فى وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان فى ذكر الكافرين، وبقيتها فى المنافقين. وقد تقدّمت الرواية فيها عن ابن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضا.

(١) راجع المسألة الثامنة ص ١٩٠ من هذا الجزء.

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ قال علقمة ومجاهد : كل آية أولها « يأيها الناس » فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها « يأيها الذين آمنوا » فإنما نزلت بالمدينة .

قلت : وهـذا يردّه أن هذه السورة والنساء مدنيّتان وفيهما يأيها النـاس . وأما قولها فى « يَٰٓأَيُّهَـا ٱلَّذِينَ آمَنُوا » فصحيح . وقال عُرْوة بن الزبير : ما كان من حَدّ أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة . وهذا واضح .

و « يا » فى قوله : « يأيهـا » حرف نداء . « أىُّ » منادَى مفرد مبنىّ على الضم؛ لأنه منادى فى اللفظ، و « ها » للتنبيه . « الناسُ » مرفوع صفة لأى عنـد جماعة النحويين ؛ ما عدا المـازنى فإنه أجاز النصب قياسًا على جوازه فى : يا هـذا الرجل . وقيـل : ضُمّت « أى » كما ضُمّ المقصود المفرد، وجاءوا بـ « ها » عِوَضًا عن ياء أخرى ، و إنما لم يأتوا بياء لئلا ينقطع الكلام فجاءوا بـ « ها » حتى يبقى الكلام متصلا . قال سيبويه : كأنك كررت « يا » مرتين وصار الاسم بينهما؛ كما قالوا : ها هو ذا . وقيل : لمـا تعذّر عليهم الجمع بين حرفى تعريف أتوْا فى الصورة بمنادى مجرّد عن حرف تعريف ، وأجروْا عليه المعرّف باللام المقصود بالنداء، وألتزموا رفعـه ؛ لأنه المقصود بالنـداء ؛ فجعلوا إعرابه بالحركة التى كان يستحقها لو باشرها النداء تنبيها على أنه المنادى؛ فاعلمه .

واختُلِف مَن المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما — الكفار الذين لم يعبدوه ؛ يدل عليـه قوله : « وَإِنْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ » . الثانى — أنه عام فى جميع النـاس؛ فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها . وهذا حَسَن .

قوله تعالى : ﴿ٱعْبُدُوا﴾ أمْرٌ بالعبادة له . والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه . وأصل العبادة الخضوع والتذلل؛ يقال : طريق مُعَبَّدة إذا كانت موطوءةً بالأقدام .

قال طرفـة :

* وظيفًا وظيفًا فوق مَوْرٍ مُعبَّدِ (١) *

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التَّنسُّك . وعبَّدت فلانا : اتخذته عبدا .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ خصّ تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مُقِرّة بأن الله خلقها ؛ فذكر ذلك حجةً عليهم وتقريعًا لهم . وقيل : ليذكرهم بذلك نعمته عليهم . وفى أصل الخلق وجهان : أحدهما — التقدير ؛ يقال : خَلقتُ الأديم للسقاء إذا قدّرته قبل القطع ؛ قال الشاعر (٢) :

ولأنتَ تَفْرِى ما خَلقتَ وبعـ * ـضُ القـوم يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى

وقال الحجاج : ما خَلَقْتُ إلّا فَرَيْتُ ، ولا وَعَدْتُ إلّا وَفَيْتُ . الثانى : الإنشاء والاختراع والإبداع ؛ قال الله تعالى : « وتَخْلُقُونَ إِفْكًا » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فيقال إذا ثبت عندهم خلقهم ثبت عندهم خلق غيرهم ؛ فالجواب : أنه إنما يجرى الكلام على التنبيه والتذكير ليكون أبلغ فى العظة ؛ فذكّرهم مَن قبلهم ليعلموا أن الذى أمات من قبلهم وهو خَلَقهم يميتهم ؛ وليفكّروا فيمن مضى قبلهم كيف كانوا ، وعلى أىّ الأمور مضوْا من إهلاك من أهلك ؛ وليعلموا أنهم يُبتلون كما ابتُلُوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « لعلّ » متصلة بأعبدوا لا بخلقكم ؛ لأن من ذَرَأه الله لجهنم لم يخلقه ليتّقى . وهـذا وما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله : « لعلّكم تَعقِلون ، لعلّكم تَشكُرون ، لعلّكم تَذَكّرُون ، لعلّكم تَهتَدُون » فيه ثلاث تأويلات :

---

(١) صدر البيت : * تبارى عناقا ناجيات وأتبعت *

تبارى : تعارض ، يقال : هما يتبارريان فى السير ، إذا فعل هـذا شيئا فعل هذا مثله . والعناق : الكرام من الإبل البيض . والناجيات : السراع . والوظيف : عظم الساق . وقوله : أتبعت وظيفا وظيفا ؛ أى اتبعت هـذه الناقة وظيف رجلها وظيف يدها ، ويستحب من الناقة أن تجعـل رجلها فى موضع يدها إذا سارت . والمـور : الطريق (عن شرح المعلقات) .

(٢) هو زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان . يقول : أنت إذا قدّرت أمرا قطعته وأمضيته . وغيرك يقدّر ما لا يقطعه ؛ لأنه ليس بماضى العزم وأنت مضاء على ما عزمت عليه . (عن اللسان) .

(٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٥

الأول — أن « لعـلّ » على بابها من الترجّى والتوقّع ، والترجّى والتوقّع إنما هو فى حيّز البشر ؛ فكأنه قيـل لهم : آفعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقـلوا وأن تذكروا وأن تتقوا . هـذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه فى قوله عز وجل : « آذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[1] قال معناه : اذهبا على طمعكما ورجائكما أن يتذكّر أو يخشى . وآختار هذا القول أبو المعالى .

الثـانى — أن العرب آستعملت « لعَـلّ » مجرّدة من الشك بمعـنى لام كى . فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا ؛ وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنـا كُفُّوا الحروبَ لعلّنا * نَكُفُّ ووثّقتم لنا كلّ مَوْثِقِ

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم * كَلَمْعِ سَـرابٍ فى المَـلا مُتَأَلِّقِ

المعنى : كفُّوا الحروب لنكُفّ ، ولو كانت «لعل» هنا شكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق ؛ وهذا القول عن قُطْرُب والطبرى .

الثالث — أن تكون « لعل » بمعنى التعرّض للشىء ؛ كأنه قيل : آفعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا ، أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا . والمعنى فى قوله « لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » : أى لعلكم أن تجعـلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار . وهـذا من قول العرب : آتقاه بحقه إذا آستقبله به ؛ فكأنه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة ؛ ومنه قول علىّ رضى الله عنه : كنا إذا آحمرّ البأس آتقينا بالنبىّ صلى الله عليه وسـلم ؛ أى جعلناه وقاية لنا من العدوّ . وقال عنترة :

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه * حتى آتقتنِى الخيلُ بآبنى حِذْيَمِ

قوله تعـالى : آلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٩ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ معناه هنا صيّر لتعدّيه إلى مفعولين . ويأتى بمعنى خلق ؛ ومنه قوله تعالى : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ »[1] وقوله : « وجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » . ويأتى بمعنى سَمَّى ؛ ومنه قوله تعالى : « حٰمٓ . وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »[2] . وقوله : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا »[2] . « وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا »[2] أى سَمّوهم . ويأتى بمعنى أخذ ؛ كما قال الشاعر[3] :

وقد جَعلتْ نَفسِى تَطيبُ لِضَغْمةٍ * لضَغْمِهِما هَا يَقـرَعُ العظمَ نابُهـا

وقد تأتى زائدة ؛ كما قال الآخر :

وقد جعلتُ أرى الاثنين أربعةً * والواحد اثنينِ لمّا هدّنى الكِبَرُ

وقد قيل فى قوله تعـالى « وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ » : إنهـا زائدة . وجعل واجتعل بمعنًى واحد ؛ قال الشاعر[4] :

ناط أَمْرَ الضِّعافِ واجتعل الليـ * ـلَ كحَبْـلِ العـادِيَةِ الممـدُودِ

﴿ فِرَاشًا ﴾ أى وِطاء يفترشونها ويستقرّون عليهـا . وما ليس بفراشٍ كالجبال والأوعار والبحار فهى من مصالح ما يفترش منها ؛ لأن الجبال كالأوتاد ؛ كما قال : « أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا . وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا »[5] . والبحار تركب إلى سائر منافعها ؛ كما قال : « وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ »[6] .

الثانيـــة — قال أصحاب الشافعى : لو حلف رجل ألا يبيت على فراش أو لا يستسرج بسراج فبـات على الأرض وجلس فى الشمس لم يحنث ؛ لأن اللفظ لا يرجع إليهما عُرْفاً .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٣٥ و ٣٨٦ . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٦١ و ٦٩ و ٧١ .

(٣) هو مغلس بن لقيط الأسدى . وصف شـدّة أصابه بها رجلان من قومه ، فيقول : قد جعلت نفسى تطيب لإصابتهما بمثل الشدّة التى أصابانى بهـا . وضرب الضغمة مثلا ثم وصف الضغمة فقال : يقرع العظم نابهـا . فجعل لها نابا على السعة . والمعنى : يصل الناب فيهـا إلى العظم فيقرعه . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

(٤) هو أبو زبيـد الطائى يرثى اللجلاج ابن أخته . يقـول : جعل يسير الليـل كله مستقيما كاستقامة حبل البئر إلى المـاء . ناط : علق . والعادية : البئر القديمة . (عن اللسان) . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٦٩ .

(٦) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ .

وأما المـالكية فبنوه على أصلهم فى الأيمان أنهـا محمولة على النية أو السبب أو البساط الذى جرت عليه اليمين؛ فإن عدم ذلك فالعرف .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ السماء للارض كالسّقف للبيت؛ ولهذا قال وقـوله الحق : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا »[1] . وكل ما علا فأظلّ قيل له سمـاء ؛ وقـد تقدّم القول فيه[2] . والوقف على «بِناء» أحسن منه على «تَتَّقُونَ»؛ لأن قوله : « ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشًا » نعت للرّب . ويقال : بَنَى فلان بيتًا ، وبنى على أهله — بِناء فيهما — أى زَفّها . والعامة تقول : بنى بأهله ، وهو خطأ ؛ وكأنّ الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضرب عليها قُبّةً ليلة دخوله بها؛ فقيل لكل داخل بأهله : بانٍ . وبَنّى (مقصورا) شدّد للكثرة ، وأبتنى دارا وبَنَى بمعنًى ؛ ومنه بنيان الحائط ؛ وأصله وضع لَبِنَة على أخرى حتى تثبت .

وأصل المـاء مَوَهٌ ، قلبت الواو ألفا لتحرّكها وتحرّك ما قبلها فقلت مَاهٌ ، فٱلتقى حرفان خفيّان فأبدلت من الهاء همزة؛ لأنها أجلد، وهى بٱلألف أشبه؛ فقلت : ماء؛ الألف الأولى عين الفعل، و بعدها الهمزة التى هى بدل من الهاء، و بعد الهمزة ألف بدل من التنوين. قال أبو الحسن : لا يجوز أن يكتب إلا بألفين عند البصريين، و إن شئت بثلاث ؛ فإذا جمعوا أو صغّروا ردّوا إلى الأصل فقالوا : مُوَيْهٌ وأَمْوَاهٌ ومِيَاهٌ ؛ مثل جِمَال وأجْمال .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ الثمرات جمـع ثمرة . ويقال : ثَمَر مثل شَجَر . ويقال ثُمُر مثل خُشُب . ويقال : ثُمْر مثل بُدْن . وثِمَار مثل إكام جمع ثمر . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأنعام»[3] إن شاء الله . وثمار السِّياط : عُقَدُ أطرافها .

والمعنى فى الآية أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات، وأنواعا من النبات . ﴿ رِزْقًا ﴾ طعاماً لكم، وعَلَفًا لدوابّكم ؛ وقد بيّن هذا قولُه تعالى : « إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَآئِقَ غُلْبًا . وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا . مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ »[4] . وقد مضى الكلام فى الرزق مستوفًى[5] والحمد لله .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٥ (٢) راجع ص ٢١٦ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ٧ ص ٤٩
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢١٨ (٥) راجع ص ١٧٧ و ١٧٨ من هذا الجزء .

فإن قيل : كيف أطلق آسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك ؟ قيل له : لأنها معدّة لأن تملك ويصح بها الآنتفاع ؛ فهى رزق .

الخامسـة — قلت: ودلّت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرًا إلى هـذا المعنى : " والله لأنْ يأخذ أحدُكم حَبْلَه فيَحْتطِبَ على ظهره خير له من أن يسأل أحدًا أعطاه أو منعه". أخرجه مسلم. ويدخل فى معنى الآحتطاب جميـع الأشغال من الصنائع وغيرها ؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة فى زُخرف الدنيا فقـد أخذ بطرف من جعل لله نِدًّا . وقال علماء الصوفية : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية سبيل الفقر، وهو أن تجعل الأرض وِطاء والسماء غِطاء، والمـاء طيبا والكلأ طعاما، ولا تعبد أحدا فى الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإن الله عزّ وجلّ قد أتاح[1] لك ما لا بدّ لك منه ، من غير مِنّة فيـه لأحد عليك . وقال نَوْف البِكَالِيّ : رأيت علىّ بن أبى طالب خرج فنظر إلى النجوم فقال : يا نَوْف ، أراقِد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق يا أمير المؤمنين ، قال : طُوبَى للزاهدين فى الدنيا والراغبين فى الآخرة ؛ أولئك قوم آتخذوا الأرض بساطًا، وتُرابها فِراشا، وماءها طِيبا، والقرآن والدعاء دِثارا وشِعارا؛ فرفضوا الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام ... وذكر باقى الخبر، وسيأتى تمامه فى هذه السورة عند قوله تعالى: « أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ »[2] إن شاء الله تعالى .

السادسـة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ نَهْىٌ . ﴿ لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أكفاء وأمثالا ونظراء ؛ واحدها نِدّ ، وكذلك قرأ محمد بن السَّمَيْقَع « نِدًّا » ؛ قال الشاعر :

تَحْمَـدُ الله ولا نِدّ له * عنده الخير وما شاء فعلْ

وقال حَسّان :

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ * فشرُّكما لخيركما الفِـداء

---

(١) فى الأصول : « أباح » بالباء الموحدة ؛ وهو تصحيف .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨

ويقال : نِدٌّ ونَدِيدٌ ونَدِيدَةٌ على المبالغة ؛ قال لَبيد :

لكيلَا يكون السَّنْدَرِيّ نَدِيدتِي * وأجعلَ أقواما عُمومًا عَمائِمَا (١)

وقال أبو عبيدة : « أندادا » أضدادا . النحاس : « أندادا » مفعول أوّل ، و « لله » فى موضع الثانى . الجوهرى : والنِّدّ (بفتح النون) : التَّلُّ المرتفع فى السماء . والنِّدّ من الطيب ليس بعربىّ . ونَدّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادا ونُدودا : نفر وذهب على وجهه ؛ ومنه قرأ بعضهم « يَوْمَ التَّنادِ » (٢) . ونَدَّد به أى شهّره وسَمّع به .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ابتداء وخبر، والجملة فى موضع الحال ، والخطاب للكافرين والمنافقين ؛ عن ابن عباس .

فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى . فالجواب من وجهين : أحدهما — « وأنتم تعلمون » يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق ؛ فيعلمون أنه المنعِم عليهم دون الأنداد . الثانى — أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيّته بالقوّة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم ؛ والله أعلم . وفى هذا دليل على الأمر باستعمال حجج العقول و إبطال التقليد . وقال ابن فُورَك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ؛ فالمعنى لا ترتدّوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادًا بعد علمكم الذى هو نَفْىُ الجهل بأن الله واحد .

قوله تعالى : وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا ﴾ يعنى القرآن ، والمراد المشركون الذين تحدّوا ، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا : ما يشبه هذا كلام الله ،

(١) السندرى : ابن يزيد الكلابى ، شاعر كان مع علقمة بن علاثة ، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل ، فدعى لبيد إلى مهاجاته فأبى وقال البيت . والعمائم : الجماعات المتفرقون . ومعنى الشطر الثانى : وأجعل أقواما مجتمعين فرقا . (عن شرح القاموس واللسان) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣١١ .

وإنا لفى شك منه ؛ فنزلت الآية . ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر فى الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوّة نبيّه ، وأن ما جاء به ليس مُفْتَرًى من عنده .

قوله : ﴿ عَلَى عَبْدِنَا ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . والعبد مأخوذ من التعبُّد وهو التذلّل ؛ فسُمِّىَ المملوكُ — من جنس ما يفعله — عبدًا لتذلّله لمولاه ؛ قال طَرَفة :

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها * وأفْرِدْتُ إفرادَ البعير المُعَبَّدِ

أى المذلّل . قال بعضهم : لما كانت العبادة أشرف الخصال والتسمى بها أشرف الخطط ؛ سَمَّى نبيّه عبدًا ، وأنشدوا :

ياقومِ قلبى عند زهراءَ * يعرفه السامعُ والرائى
لاتَدْعُنِى إلا بِيَا عبدَها * فإنه أشرف أسمائى

﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾ الفاء جواب الشرط ، ائتوا مقصور لأنه من باب المجىء ؛ قاله ابن كَيْسان . وهو أمرٌ معناه التعجيز ؛ لأنه تعالى عَلِم عجزهم عنه . والسورة واحدة السُّوَر . وقد تقدّم الكلام فيها (١) وفى إعجاز (٢) القرآن ، فلا معنى للإعادة . و«من» — فى قوله ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ — زائدة ؛ كما قال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » والضمير فى « مثله » عائد على القرآن عند الجمهور من العلماء ؛ كقتادة ومجاهد وغيرهما . وقيل : يعود على التوراة والإنجيل . فالمعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله فإنها تصدّق ما فيه . وقيل : يعود على النبىّ صلى الله عليه وسلم . المعنى : من بَشَر أُمِّىّ مثله لا يكتب ولا يقرأ . فمن على هذين التأويلين للتبعيض . والوقف على « مثله » ليس بتامّ ؛ لأن « وادعوا » نَسَقٌ عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ معناه أعوانكم ونصراءكم . الفرّاء : آلهتكم . وقال ابن كَيْسان : فإن قيل كيف ذكر الشهداء هاهنا ، وإنما يكون الشهداء ليشهدوا أمرا ، أو ليخبروا بأمر شهدوه ، وإنما قيل لهم : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » ؟ فالجواب : أن

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع ص ٦٩ — ٧٨ من هذا الجزء .

المعـنى آستعينوا بمن وجدتموه من علمائكم ، وأحضروهم ليشاهـدوا ما تأتون به ؛ فيكون الردّ على الجميع أوكدَ فى الحجة عليهم .

قلت : هذا هو معنى قول مجاهد . قال مجاهد : معنى «وآدْعُوا شُهَداءَكُمْ» أى آدعوا ناسا يشهدون لكم ؛ أى يشهدون أنكم عارضتموه . النحاس : « شهداءكم » نصب بالفعل جمـع شهيد ؛ يقال : شاهد وشهيد ، مثل قادر وقدير . وقوله : ﴿ مِنْ دُونِ آللهِ ﴾ أى من غيره ، ودُون نقيض فوق ؛ وهو تقصير عن الغاية ، ويكون ظرفًا . والدُّون : الحقير الخسيس ؛ قال :

إذا ما علا المـرء رام العـلاء * ويقنـع بالدُّون من كان دُونا

ولا يُشتق منـه فعل ؛ وبعضهم يقول منـه : دان يَدُون دَوْنًا . ويقال : هـذا دُون ذاك ؛ أى أقرب منه . ويقال فى الإغراء بالشىء : دُونَكَهُ . قالت تميم للحجاج : أقْبِرْنا[1] صالِحًا — وكان قد صلبه — فقال : دُونَكُمُوه .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ؛ لقولهم فى آية أخرى : «لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا[2] مِثْلَ هَذَا» . والصدق : خلاف الكذب ، وقد صَدَق فى الحديث . والصَّدْق : الصُّلب من الرماح . ويقال : صَدَقُوهم القتال . والصِّدّيق : الملازم للصدق . ويقال : رجل صِدْق ؛ كما يقال : نِعْمَ الرجل . والصداقة مشتقة من الصدق فى النصح والودّ .

قوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى فيما مضى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أى تُطيقوا ذلك فيما يأتى . والوقف على هذا على «صادقين» تام . وقال جماعة من المفسرين : معنى الآية وآدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ولن تفعلوا ، فإن لم تفعلوا فاتقوا النار . فعلى هذا التفسير لا يتم الوقف على « صادقين » .

(١) أقبرنا ، أى ائذن لنا فى أن نقبره . وصالح : هو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم ، كان كاتبا للحجاج ، ويرى رأى الخوارج . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧ .

فإن قيل : كيف دخلت «إن» على « لم » ولا يدخل عامل على عامل؟ فالجـواب أن «إن» ها هنا غير عاملة فى اللفظ ، فدخلت على « لم » كما تدخل على المـاضى ؛ لأنها لا تعمل فى «لم» كما لا تعمل فى المـاضى ؛ فمعنى إن لم تفعلوا : إن تركتم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نصب بلن ، ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو عبيدة ؛ ومنه بيت النابغة :

* فلن أُعَرِّضْ أبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ (١) *

وفى حديث ابن عمر حين ذُهب به إلى النار فى منامه : فقيل لى «لن تُرَعْ» . هذا على تلك اللغة . وفى قوله : «وَلَنْ تَفْعَلُوا» إثارة لهممهم ، وتحريك لنفوسهم ؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع ، وهذا من الغيوب التى أخبر بها القرآن قبل وقوعها . وقال ابن كَيْسان : «ولن تفعلوا» توقيفًا لهم على أنه الحق ، وأنهم ليسوا صادقين فيما زعموا من أنه كذب ، وأنه مفترًى وأنه سحر وأنه شِعر ، وأنه أساطير الأولين ؛ وهم يدّعون العلم ولا يأتون بسورة من مثله .

وقوله : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ ﴾ جواب «فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ؛ أى اتقوا النار بتصديق النبىّ صلى الله عليه وسلم وطاعة الله تعالى . وقد تقدّم معنى التقوى (٢) فلا معنى لإعادتها . ويقال : إن لغة تميم وأسد «فتَقُوا النار» . وحكى سيبويه : تَقَى يَتْقِى ، مثل قَضَى يقضى . «النارَ» مفعولة . «التى» من نعتها . وفيها ثلاث لغات : التى واللّتِ (بكسر التاء) واللّتْ (بإسكانها) . وهى اسم مُبْهَم للمؤنث وهى معرفة ؛ ولا يجوز نزع الألف واللام منها للتنكير ، ولا تتم إلا بصلة . وفى تثنيتها ثلاث لغات أيضا : اللّتانِ واللّتا (بحذف النون) واللّتانّ (بتشديد النون) . وفى جمعها خمس لغات :

---

(١) رواية الديوان وهى المشهورة فى مصادر الأدب : « فلم أعرض » . ويروى : « فما عرضت » . وصدر البيت :

* هـذا الثناء فإن تسمع به حسنا *

وقوله : أبيت اللعن . تحيـة كانوا يحيون بهـا الملوك . والصفد : العطاء ؛ معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلعن عليه وتذم . يقول : هـذا الثناء الصحيح الصادق فن الحق أن تقبله منى ، فلم أمدحك متعرضا لعطائك ، لكن امتدحتك إقرارا بفضلك . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء .

اللَّاتِي ، وهى لغة القرآن . واللاتِ (بكسر التاء بلا ياء) . واللوَاتِى . واللوَاتِ (بلا ياء) ؛ وأنشد أبو عبيدة :

من اللَّواتِى واللَّتى واللاتِى * زعمن أن قد كَبِرتْ لِداتِى

واللَّـوا (بإسقاط التاء) ؛ هـذا ما حكاه الجوهرى . وزاد ابن الشّجرى : اللَّائى (بالهمز وإثبات الياء) . واللاءِ (بكسر الهمزة وحذف الياء) . واللَّا (بحذف الهمزة) . فإن جمعت الجمـع قلت فى اللاتى : اللواتى . وفى اللَّائى : اللوائى . قال الجوهرى : وتصغير التى اللُّتَيَّا (بالفتح والتشديد) ؛ قال الراجز[1] :

بعد اللُّتَيَّا واللَّتَيَّا والتِى * إذا عَلَتْهَا أنفسٌ تَرَدَّتِ

وبعض الشعراء أدخل على « التى » حرف النـداء ، وحروف النداء لا تدخل على ما فيه الألف واللام إلا فى قولنا : يا الله ، وحده . فكأنه شبّهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها ؛ وقال :

من أجلِكِ يا التِى تَيَّمْتِ قلبِى * وأنت بخيـلةٌ بالـوُدّ عنّى

ويقال : وقع فلان فى اللَّتَيَّا والتِى ؛ وهما اسمان من أسماء الدّاهية . والوقود (بالفتح) : الحطب . وبالضم : التوقد . و «الناس» عموم ، ومعناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء أنه يكون حطبًا لها ؛ أجارنا الله منها . «والحجارة» هى حجارة الكبريت الأسود — عن ابن مسعود والفرّاء — وخُصّت بذلك لأنها تزيد على جميـع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الاتقاد ، نتن الرائحة ، كثرة الدخان ، شدّة الالتصاق بالأبدان ، قوّة حَرِّها إذا حَمِيَت . وليس فى قوله تعالى : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ» دليل على أن ليس فيها غير الناس والحجارة ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من كَوْن الجنّ والشياطين فيها . وقيل : المراد بالحجارة الأصنام ؛ لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[2] أى حطب جهنم . وعليـه فتكون الحجارة والناس وقودا للنار ؛ وذكر ذلك تعظيما للنار أنها تحرق الحجارة مع إحراقها للناس .

(١) هو العجاج . وصف دواهى شنيعة . يقول : بعـد الجهد والمشرف الذى أشرفت عليه . ومعنى تردت : سقطت هاوية وهلكت .

(٢) راجع جـ ١١ ص ٣٤٣

وعلى التأويل الأول يكونون معذّبين بالنار والحجارة . وقد جاء الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كلُّ مُؤْذٍ فى النار " . وفى تأويله وجهان : أحدهما — أن كل من آذى الناس فى الدنيا عذّبه الله فى الآخرة بالنار . الثانى — أن كل ما يؤذى الناس فى الدنيا من السباع والهوام وغيرها فى النار مُعَدٌّ لعقوبة أهل النار . وذهب بعض أهل التأويل إلى أن هذه النار المخصوصة بالحجارة هى نار الكافرين خاصّةً . والله أعلم .

روى مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال قلت : يا رسول الله ، إن أبا طالب كان يَحُوطُك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : " نعم وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح[1] — فى رواية — ولولا أنا لكان فى الدَّرْكِ الأسفل من النار " . «وَقُودُهَا» مبتدأ . « النَّاسُ » خبره . « والحجارةُ » عطف عليهم . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرِّف : «وُقُودها» (بضم الواو) . وقرأ عُبيد بن عُمير : «وَقِيدُها الناسُ» . قال الكسائى والأخفش : الوقود (بفتح الواو) : الحطب ، و (بالضم) : الفعل ؛ يقال : وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُودًا (بالضم) ووَقْدًا وَقِدَةً [ووَقِيدا][2] ووَقَدَانًا ، أى تَوَقّدت . وأوْقدتها أنا واستوقدتها أيضا . والاتّقاد مثلُ التَّوَقُّد ، والموضع مَوْقِد ، مثلُ مجلِس ، والنار مُوقَدة . والوَقْدة : شدّة الحرّ ، وهى عشرة أيام أو نصف شهر . قال النحاس : يجب على هذا ألا يُقرأ إلا «وَقُودها»[3] [بفتح الواو] لأن المعنى حطبها ؛ إلا أن الأخفش قال : وحُكى أن بعض العرب يجعل الوَقود والوُقود بمعنى الحطب والمصدر . قال النحاس : وذهب إلى أن الأول أكثر ، قال : كما أن الوَضُوء الماءُ ، والوُضُوء المصدر .

قوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ظاهره أن غير الكافرين لا يدخلها وليس كذلك ؛ بدليل ما ذكره فى غير موضع من الوعيد للمذنبين وبالأحاديث الثابتة فى الشفاعة ؛ على ما يأتى . وفيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ؛ خلافًا للمبتدعة فى قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن . وهو القول الذى سقط فيه القاضى منذر بن سعيد البَلُّوطى الأندلسى .

روى مسلم عن عبد الله[4] بن مسعود قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سمِع وَجْبَةً[5] ؛

(١) الضحضاح فى الأصل : مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين ، واستعير للنار .
(٢) الزيادة عن هامش بعض نسخ الأصل . (٣) الزيادة عن كتاب « إعراب القرآن للنحاس » .
(٤) كذا فى الأصول . وفى صحيح مسلم : « عن أبى هريرة » . (٥) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له ، كالهدّة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " تدرون ما هذا " قال قلنا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هذا حَجَر رُمِيَ به فى النار منذ سبعين خَرِيفًا فهو يَهْوِى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها " . وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احتجّت النار والجنة فقالت هذه يدخلنى الجبارون والمتكبرون وقالت هذه يدخلنى الضعفاء والمساكين فقال الله عزّ وجلّ لهذه أنتِ عذابى أعذِّب بك من أشاء وقال لهذه أنتِ رَحْمَتِى أرْحَمُ بِكِ من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها "(١) . وأخرجه مسلم بمعناه . يقال : احتجّت بمعنى تحتج ؛ للحديث المتقدم حديث ابن مسعود(٢) ، ولأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد أريهما فى صلاة الكسوف ، ورآهما أيضا فى إسرائه ودخل الجنة ؛ فلا معنى لما خالف ذلك . وبالله التوفيق . و ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يجوز أن يكون حالا للنار على معنى مُعَدّة ، وأضمرت معه قد ؛ كما قال : « أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ »(٣) فمعناه قد حصرت صدورهم ؛ فمع « حَصِرت » قد مضمرة لأن الماضى لا يكون حالا إلا مع قد ؛ فعلى هذا لا يتم الوقف على « الحجارة » . ويجوز أن يكون كلامًا منقطعًا عما قبله ؛ كما قال : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ »(٤) . وقال السِّجِسْتَانى : « أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » من صلة « الَّتِى » ؛ كما قال فى آل عمران : « وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »(٥) . ابن الأنبارىّ : وهذا غلط ؛ لأن التى فى سورة البقرة قد وُصلت بقوله : « وَقُودُهَا النَّاسُ » فلا يجوز أن توصل بصلة ثانية ؛ وفى آل عمران ليس لها صلة غير « أُعِدَّتْ » .

قوله تعالى : وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

(١) بمراجعة صحيحى البخارى ومسلم وجدنا أن الرواية لمسلم ، وأخرجه البخارى بمعناه .
(٢) يلاحظ أن راوى الحديث المتقدم فى صحيحى مسلم والبخارى أبو هريرة .
(٣) راجع جـ ٥ ص ٣٠٩ . (٤) راجع جـ ١٥ ص ٣٥٣ . (٥) راجع جـ ٤ ص ٢٠٢ .

قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — لما ذكر الله عزّ وجلّ جزاء الكافرين ذكر جزاء المؤمنين أيضا . والتبشير الإخبار بما يَظهر أثره على البَشرة — وهى ظاهر الجلد — لتغيّرها بأوّل خبر يَرِد عليك ؛ ثم الغالب أن يُستعمل فى السرور مقيَّدًا بالخير المُبَشَّر به ، وغير مقيَّدٍ أيضا . ولا يُستعمل فى الغم والشر إلّا مُقَيَّدًا منصوصًا على الشر المبشَّر به ؛ قال الله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . ويقال : بَشَرته وبَشّرته — مخفّف ومشدّد — بِشارة (بكسر الباء) فأبشر وآستبشر . وبَشِر يَبْشَر إذا فَرِح . ووجه بشير إذا كان حَسَنًا بيّن البَشارة (بفتح الباء) . والبُشْرَى : مايُعطاه المُبَشِّر . وتباشير الشيء : أوّله .

الثانيـــة — أجمع العلماء على أن المكلَّف إذا قال : مَن بَشَّرَنى مِن عبيدى بكذا فهو حُرّ ؛ فبَشّره واحد من عبيـده فأكثر فإن أوّلهم يكون حُرًّا دون الثانى . وآختلفـوا إذا قال : مَن أخبرنى من عبيدى بكذا فهو حُرٌّ فهل يكون الثانى مثل الأوّل ؛ فقال أصحاب الشافعى : نعم ؛ لأن كل واحد منهـم مخبر . وقال علماؤنا : لا ؛ لأن المكلَّف إنما قصـد خبرا يكون بشارة ، وذلك يختص بالأوّل ، وهذا معلوم عُرْفًا فوجب صرف القول إليه . وفرّق محمـد آبن الحسن بين قـوله : أخبرنى ، أو حَدّثنى ؛ فقـال : إذا قال الرجل أىّ غلام لى أخبرنى بكذا ، أو أعلمنى بكذا وكذا فهو حُرٌّ — ولا نِيّةَ له — فأخبره غلام له بذلك بكتاب أو كلام أو رسول فإن الغلام يَعتق ؛ لأن هذا خبر . وإن أخبره بعد ذلك غلام له عَتَق ؛ لأنه قال : أىّ غلام أخبرنى فهـو حُرٌّ . ولو أخبروه كلّهـم عَتَقوا ؛ وإن كان عَنَى — حين حلف — بالخبر كلام مشافهة لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلا أن يخبره بكلام مشافهة بذلك الخبر . قال : وإذا قال أىّ غلام لى حَدّثنى ؛ فهذا على المشافهة ، لا يعتق واحد منهم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ردّ على من يقول : إن الإيمان بمجرّده يقتضى الطاعات ؛ لأنه لو كان ذلك ما أعادها ؛ فالجنـة تُنال بالإيمان والعمل الصـالح . وقيل : الجنة تُنال بالإيمان ؛ والدرجات تُستحقّ بالأعمال الصالحات . والله أعلم .

﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « بَشِّر » ، والمعنى و بشّر الذين آمنوا بأنّ لهم ، أو لأن لهم ؛ فلما سقط الخافض عمـل الفعل . وقال الكسائى و جمـاعة من البصريين : « أنّ » فى موضع خفض بإضمار الباء .

﴿ جَنَّاتٍ ﴾ فى موضع نصب آسم « أنّ » ، « وأنّ » وما عملت فيه فى موضع المفعول الثانى . والجنّات : البساتين ؛ و إنما سُمِّيت جنات لأنها تُجِنّ مَن فيها أى تستره بشجرها ؛ ومنه : المِجَنّ والجَنِين والجنة .

﴿ تَجْرِى ﴾ فى موضع النعت لجنات ، وهو مرفوع ؛ لأنه فعل مستقبل فحذفت الضمة من الياء لثقلها معها .

﴿ مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت أشجارها ، ولم يجر لها ذكر ، لأن الجنّات دالة عليها .

﴿ ٱلْأَنْهَارُ ﴾ أى ماء الأنهار ؛ فنُسب الجرى إلى الأنهار تَوَسُّعًا ، و إنما يجرى المـاء وحده فحذف آختصارا ؛ كما قال تعالى : «وَٱسْئَلِ الْقَرْيَةَ»(١) أى أهلها . وقال الشاعر(٢) :

نُبِّئْتُ أن النار بعدك أُوقِدت * وٱستَبّ بعدك يا كليبُ المجلِسُ

أراد : أهل المجلس ؛ فحذف . والنهر : مأخوذ من أنهرت ، أى وسّعت ؛ ومنه قول قيس آبن الخَطِيم :

مَلَكْتُ(٣) بها كَفّى فأنهرت فَتْقَها * يرى قائم من دونهـا ما وراءَها

أى وسّعتها ؛ يصف طَعْنة . ومنه قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ما أنهر الدّمَ وذُكِر آسم الله عليه فكُلُوه" . معناه : ما وَسّع الذبح حتى يجرى الدّمُ كالنهر . و جمع النَّهَر : نُهُرٌ وأنهار . ونَهْرٌ نَهِر : كثير المـاء ؛ قال أبو ذُؤيب :

أقامت به فآبتنتْ خَيْمَةً * على قَصَبٍ وفُرَاتٍ نَهِـرْ(٤)

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٦ (٢) هو مهلهل أخو كليب . (٣) ملكت : أى شددت وقويت .

(٤) قال الأصمعى : «قصب البطحاء مياه تجرى إلى عيون الركايا (الآبار) . يقول : أقامت بين قصب أى ركايا وماء عذب ؛ وكل فرات فهو عذب» . (عن اللسان وشرح الديوان) .

وروى : أن أنهار الجنة ليست فى أخاديد، إنما تجرى على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها . والوقف على «الأنهار» حَسَن وليس بتام؛ لأن قوله : «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ» من وصف الجنات .

﴿ رِزْقًا ﴾ مصدره؛ وقد تقدّم القول فى الرزق[1] . ومعنى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى الدنيا؛ وفيه وجهان : أحدهما — أنهم قالوا هذا الذى وُعِدنا به فى الدنيا . والثانى — هذا الذى رُزِقنا فى الدنيا؛ لأن لَوْنها يشبه لون ثمار الدنيا؛ فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير ذلك . وقيل : « مِن قبلُ » يعنى فى الجنة لأنهم يُرزقون ثم يُرزقون ؛ فإذا أُتُوا بطعام وثمار فى أوّل النهار فأكلوا منها ، ثم أُتُوا منها فى آخر النهار قالوا : هذا الذى رُزقنا مِن قبل؛ يعنى أُطْعِمْنا فى أوّل النهار؛ لأن لونه يُشبه ذلك؛ فإذا أكلوا منها وَجَدُوا لها طعمًا غير طعم الأوّل .

﴿ وَأُتُوا ﴾ فُعِلوا من أتيت . وقرأه الجماعة بضم الهمزة والتاء . وقرأ هارون الأعْوَر «وأَتَوْا» بفتح الهمزة والتاء . فالضمير فى القراءة الأولى لأهل الجنة، وفى الثانية للخدام .

﴿ بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ حال من الضمير فى « به » ؛ أى يشبه بعضه بعضا فى المنظر ويختلف فى الطعم . قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم . وقال عِكْرِمة : يُشبه ثمرَ الدنيا ويباينه فى جُلّ الصفات . ابن عباس : هذا على وجه التعجُّب، وليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة سوى الأسماء؛ فكأنهم تعجّبوا لما رأوه من حسن الثمرة وعظم خلقها . وقال قتادة : خياراً لا رَذْل فيه؛ كقوله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وليس كثمار الدنيا التى لا تتشابه؛ لأن فيها خيارا وغير خيار .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ ﴾ ابتداء وخبر . وأزواج : جمع زَوْج . والمرأة : زَوْج الرجل . والرجل زَوْج المرأة . قال الأصمعىّ : ولا تكاد العرب تقول زوجة . وحكى الفَرّاء أنه يقال : زوجة؛ وأنشد الفَرَزْدَق :

وإن الذى يَسْعَى لِيُفْسِد زَوْجتى * كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[2]

---

(١) راجع ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل . يستبيلها : أى يأخذ بولها فى يده .

وقال عَمّار بن ياسر فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : والله إنى لأعلم أنها زوجته فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم . ذكره البخارى ، واختاره الكسائى .

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزواج . ومُطَهَّرةٌ فى اللغة أجمع من طاهرة وأبلغ ؛ ومعنى هذه الطهارة من الحَيْض والبُصاق وسائر أقذار الآدميّات . ذكر عبد الرازق قال أخبرنى الثَّوْرِىّ عن ابن أبى نَجِيح عن مجاهد : « مطهرة » قال : لا يَبُلْنَ ولا يَتَغَوَّطْنَ ولا يَلِدْن ولا يَحِضْنَ ولا يمنين ولا يَبْصُقْنَ . وقد أتينا على هـذا كلّه فى وصف أهل الجنة وصفة الجنة ونعيمها من كتاب التذكرة . والحمد لله .

﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ « هم » مبتدأ . « خالدون » خبره ، والظرف مُلْغًى . ويجـوز فى غير القرآن نصب خالدين على الحـال . والخلود : البقاء ؛ ومنه جَنّة الخُلْد . وقد تستعمل مجازًا فيما يطول ؛ ومنه قولهم فى الدعاء : خَلّد الله مُلْكه ، أى طوّله . قال زُهَيْر :

أَلَا لا أرى على الحوادث باقيًا * ولا خالدًا إلا الجبالَ الرواسيا

وأمّا الذى فى الآية فهو أبدىّ حقيقةً .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾ قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : لمّا ضرب الله سبحانه هـذين المثلين للمنافقين : يعنى « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا » وقوله : « أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ » قالوا : الله أجلّ وأعلى من أن يضرب الأمثال ؛ فأنزل الله هذه الآية . وفى رواية عطاء عن ابن عباس قال : لمـا ذكر الله آلهة المشركين فقال : « وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ »[1] وذكر كَيْدَ الآلهة

(١) راجع جـ ١٢ ص ٩٧

فجعله كبيت العنكبوت ، قالوا : أرأيت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد ، أىّ شىء يصنع ؟ فأنزل الله الآية . وقال الحسن وقتادة : لما ذكر الله الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ؛ فأنزل الله الآية .

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِيُ ، عينه ولامه حَرْفَا علة ؛ أُعِلّت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت . واسم الفاعل على هذا : مستحيٍ ، والجمع مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين . وقرأ ابن مُحَيْصِن «يستحِى» بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة ؛ ورُوى عن ابن كثير ، وهى لغة تميم وبكر ابن وائل ؛ نُقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت ، ثم استثقلت الضمة على الثانية فسكنت ، فحذفت إحداهما للالتقاء ؛ واسم الفاعل مُسْتَحٍ ، والجمع مستحون ومستحين . قاله الجوهرى . واختلف المتأولون فى معنى «يستحيى» فى هذه الآية ؛ فقيل : لا يخشى ؛ ورجحه الطبرى ؛ وفى التنزيل : « وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ »[1] بمعنى تستحى . وقال غيره : لا يترك . وقيل : لا يمتنع . وأصل الاستحياء الانقباض عن الشىء والامتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح ؛ وهذا مُحال على الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن أم سَلَمة رضى الله عنها قالت : جاءت أم سُليم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق . المعنى لا يأمر بالحياء فيه ، ولا يمتنع من ذكره .

قوله تعالى : ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ «يضرب» معناه يبيّن ، و «أن» مع الفعل فى موضع نصب بتقدير حذف مِن . « مَثَلًا » منصوب بيضرب . «بَعُوضَةً» فى نصبها أربعة أوجه :

الأول — تكون « ما » زائدة ، و « بعوضةً » بدلا من « مَثَلًا » .

الثانى — تكون «ما» نكرة فى موضع نصب على البدل من قوله : «مَثَلًا» . و «بعوضةً» نعت لما ؛ فوصفت « ما » بالجنس المنكّر لإبهامها لأنها بمعنى قليل ؛ قاله الفرّاء والزّجاج وثعلب .

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٩٠

الثالث — نصبت على تقدير إسقاط الجار ، المعنى أن يضرب مثلًا ما بين بعوضـة ؛ فحذفت « بين » وأعربت بعوضة بإعرابها ؛ والفاء بمعنى إلى ، أى إلى ما فوقها . وهـذا قول الكسائى والفرّاء أيضا ؛ وأنشد أبو العباس :

يا أحْسَنَ الناسِ ما قَرْنًا إلى قَـدَمٍ * ولا حِبـالَ مُحِبٍّ واصـلٍ تَصِلُ

أراد ما بين قَرْن ، فلما أسقط « بين » نصب .

الرابـع — أن يكون « يضرب » بمعنى يجعل ، فتكون « بعوضةً » المفعول الثـانى . وقرأ الضحاك و إبراهيم بن أبى عَبْلَة ورُؤبة بن العَجّاج « بعوضةٌ » بالرفع ، وهى لغـة تميم . قال أبو الفتـح : ووجه ذلك أن « ما » اسم بمنزلة الذى ، و « بعوضـةٌ » رفع على إضمـار المبتدأ ، التقدير : لا يستحيي أن يضرب الذى هو بعوضة مثلا ؛ فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ . ومثله قراءة بعضهـم : « تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنُ » أى على الذى هو أحسن . وحكى سيبويه : ما أنا بالذى قائل لك شيئا ؛ أى هو قائل . قال النحاس : والحذف فى « ما » أقبح منـه فى « الذى » ؛ لأن « الذى » إنما له وجه واحد والاسم معه أطول . و يقال : إن معنى ضربت له مثـلا ، مَثّلت له مَثَلًا . وهذه الأبنيـة على ضربٍ واحد ، وعلى مثـال واحد ونوع واحد ؛ والضَّرْبُ النَّوْع . والبَعُوضة : فَعُولة من بَعَض إذا قطع اللحم ؛ يقال : بَضَع و بَعَض بمعنًى ، وقد بعّضته تبعيضًا ، أى جزّأته فتبعّض . والبَعُوض : البـقّ[1] ، الواحدة بعوضة ؛ سُمّيت بذلك لصغرها . قاله الجوهرى وغيره .

قوله تعالى : ﴿ فَمَـا فَوْقَهَا ﴾ قد تقدّم أن الفاء بمعنى إلى ، ومن جعل «ما» الأولى صلة زائدة فـ « ما » الثانية عطف عليها . وقال الكسائى وأبو عبيدة وغيرهما : معنى « فما فوقها » — والله أعلم — ما دونها ؛ أى إنهـا فوقها فى الصغر . قال الكسائى : وهـذا كقولك فى الكلام : أتراه قصـيرا ؟ فيقول القائل : أو فوق ذلك ؛ أى هو أقصر ممـا ترى . وقال قتادة وابن جُرَيج : المعنى فى الكِبَر . والضمير فى «أنّه» عائد على المَثَل ؛ أى إن المَثَل حق .

(١) قال الدميرى : « هو وهم » . وذكر البعوض بأوصافها . و يدل على أن البعوض غير البق ما ورد عنـه صلى الله عليه وسلم : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ... " الحديث .

والحق خلاف الباطل . والحـق : واحد الحقوق . والحَقّة (بفتح الحاء) أخص منـه ؛ يقال : هذه حَقّتي ، أى حَقّى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لغة بنى تميم و بنى عامر فى « أمّا » أَيْمَـا ، يبدلون من إحدى الميمين ياء كراهية التضعيف ؛ وعلى هذا يُنْشد بيتُ عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أيْمَا إذا الشمس عارضتْ * فيَضْحَى وأيْمَـا بالعشِىّ فيَخْصَـرُ[1]

قوله تعـالى : ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ ٱختلف النحويون فى « ماذا » ، فقيل : هى بمنزلة ٱسم واحد بمعنى أى شىء أراد الله ؛ فيكون فى موضع نصب بـ«أراد» . قال ٱبن كَيْسان : وهو الجيّد . وقيل : « ما » ٱسم تام فى موضع رفع بالٱبتداء ؛ و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الٱبتـداء ، و يكون التقـدير : ما الذى أراده الله بهـذا مثلا . ومعنى كلامهم هذا : الإنكار بلفظ الٱستفهام . و « مَثَلًا » منصوب على القطع ؛ التقدير : أراد مثلا ؛ قاله ثَعْلَب . وقال ٱبن كَيْسان : هو منصوب على التمييز الذى وقع موقع الحال .

قوله تعـالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ قيل : هو من قول الكافرين ؛ أى ما مراد الله بهذا المَثَل الذى يفرّق به الناس إلى ضلالة و إلى هُدًى . وقيـل : بل هو خبر من الله عز وجل ، وهو أشبه ؛ لأنهم يقرّون بالهُـدَى أنه من عنده ؛ فالمعنى : قل يضل الله به كثيرا ويهدى به كثيرا ؛ أى يوفّق ويَخْذِل ؛ وعليه فيكون فيه ردّ على من تقدّم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم فى قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . قالوا : ومعـنى « يُضِلّ بِهِۦ كَثِيرًا » التسمية هنا ، أى يسميه ضالا ؛ كما يقال : فسّقت فلانا ، يعنى سَمّيته فاسقا ؛ لأن الله تعالى لا يُضل أحدًا . هذا طريقهم فى الإضلال ، وهو خلاف أقاويل المفسرين ، وهو غير محتمل فى اللغـة ؛ لأنه يقال : ضَلّله إذا سمّاه ضالًّا ؛ ولا يقال : أضـله إذا سماه ضالا ؛ ولكن معناه ما ذكره المفسرون أهلُ التأويل من الحق أنه يخذل به كثيرا من الناس مجازاة لكفرهم . ولا خلاف أن قوله :

(١) الخصر (بالتحريك) : البرد .

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أنه من قول الله تعالى. و«الفاسقين» نصب بوقوع الفعل عليهم ، والتقـدير : وما يُضـل به أحدا إلا الفاسقين الذين سبق فى علمه أنه لا يهديهـم . ولا يجوز أن تنصبهم على الاستثناء لأن الاستثناء لا يكون إلا بعد تمامِ الكلام . وقال نَوْف البِكالِيّ : قال عزير فيما يناجى ربّه عزّ وجلّ : إلهى تخلق خلقًا فتُضل من تشاء وتهـدى من تشاء . قال فقيل: يا عزير أعرض عن هذا ! لتُعْرِضنّ[1] عن هذا أو لأمْحُونّك من النبوّة، إنى لا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون . والضلال أصله الهلاك؛ يقال منـه : ضلّ المـاءُ فى اللبن إذا ٱستهلك؛ ومنه قوله تعالى : « أئذا ضَلَلْنَا فى ٱلأَرْضِ[2] » وقـد تقدّم فى الفاتحة[3] . والفِسْق أصـله فى كلام العرب الخروج عن الشىء؛ يقال : فَسَقَتِ الرُّطَبة إذا خرجت عن قشرها؛ والفأرة من جُحْرها . والفُوَيْسِقة : الفأرة؛ وفى الحديث : " خمسٌ فواسِـقُ يُقْتَلْنَ فى الحِلّ والحَرَم الحيّة والغراب الأبقعُ والفأرة والكلب العَقُور والحُدَيّا " . روته عائشة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أخرجه مسلم. وفى رواية "العقرب" مكان "الحية" . فأطلق صلى الله عليه وسلم عليها ٱسم الفسق لأذيّتها؛ على ما يأتى بيانه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . وفَسَق الرجل يَفْسِق ويَفْسُق أيضا ـ عن الأخفش ـ فِسْقًا وفُسوقًا؛ أى فَجَر. فأمّا قوله تعالى : فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» فمعناه خرج . وزعم ٱبن الأعرابىّ أنه لم يسمع قط فى كلام الجاهليـة ولا فى شـعرهم[4] فاسق . قال : وهـذا عجب ، وهو كلام عربىّ حكاه عنـه ٱبن فارس والجوهرى .

قلت : قـد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب « الزاهر » له لمـا تكلم على معنى الفسـق قول الشاعر :

يَذْهَبْنَ فى نَجْـدٍ وغَوْرًا[5] غائرا * فواسـقًا عن قَصْـدها جَوائرا

(١) فى نسخة من الأصل : أعرض عن هذا وإلا محوتك من النبوّة .　　(٢) راجع جـ١٤ ص ٩١

(٣) راجع ص ١٥٠　　(٤) أى بمعنى الخارج من طاعة الله، وهو بهذا المعنى حقيقة شرعية .

(٥) غورا، منصوب بفعل محذوف؛ أى ويسلكن . (راجع كتاب سيبويه جـ ١ ص ٤٩ طبع بولاق) .

والفِسِّيق : الدائم الفسق . ويقال فى النداء : يافُسَقُ ويا خُبَثُ، يريد : يأيها الفاسق، ويأيها الخبيث . والفِسْق فى عُرْف الاستعمال الشرعى : الخروج من طاعة الله عز وجل، فقد يقع على من خرج بكُفْر وعلى من خرج بعصيان .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِين ﴾ « الَّذين » فى موضع نصب على النّعت للفاسقين، وإن شئت جعلته فى موضع رفع على أنه خبر ٱبتداء محذوف؛ أى هم الذين . وقد تقدّم[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَنْقُضُونَ ﴾ النَّقْض : إفساد ما أبرمته من بناء أو حبل أو عَهد . والنُّقَاضة . ما نُقض من حبل الشَّعر . والمُناقضة فى القول : أن تتكلم بما تناقض معناه . والنَّقيضة فى الشِّعر: ما يُنْقَض به . والنَّقْض : المنقوض . واختلف الناس فى تعيين هـذا العهد؛ فقيل : هو الذى أخذه الله على بنى آدم حين ٱستخرجهم من ظهره . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمْرُه إيّاهم بما أمرهم به من طاعته، ونَهْيُه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه على ألسنة رسله؛ ونقضهم ذلك ترك العمل به . وقيـل : بل نَصْب الأدلة على وحدانيّته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد؛ ونقضهم ترك النظر فى ذلك . وقيـل : هو ما عهده إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ولا يكتموا أمره . فالآية على هذا فى أهل الكتاب . قال أبو إسحاق الزجاج : عهده جل وعز ما أخذه على النبيّين ومن ٱتبعهم ألا يكفروا بالنبىّ صـلى الله عليـه وسلم . ودليـل ذلك : « وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ »[2] إلى قوله تعالى : « وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى » أى عهدى .

قلت : وظاهر ما قبلُ وما بعـدُ يدلّ على أنها فى الكفار . فهذه خمسة أقوال؛ والقول الثانى يجمعها .

(١) راجع ص ١٦٢ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٢٤

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الميثاق : العهد المؤكّد باليمين، مِفعال من الوثاقة والمعاهدة ، وهى الشدّة فى العقـد والربط ونحوه . والجمع المواثيق على الأصل ؛ لأن أصل مِيثاق مِوْثاق ، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها — والمياثق والمياثيق أيضا ؛ وأنشد ابن الأعرابى :

حِمًى لا يُحَـلّ الدهرَ إلا بإذننا * ولا نسأل الأقوامَ عَهْدَ(١) المياثِقِ

والمَوْثِق : المِيثاق . والمواثقة : المعاهدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِيثَاقُهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القطع معروف ، والمصدر — فى الرَّحِم — القطيعة ؛ يقال : قَطَع رَحِمه قَطِيعة فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة ؛ مثال هُمَزة . وقَطَعت الحبـل قطعًا . وقَطَعت النهر قُطُوعا . وقَطَعتِ الطيرُ قُطوعا وقُطَاعًا وقِطَاعًا إذا خرجت من بلد إلى بلد . وأصاب الناسَ قُطْعَةٌ : إذا قَلّت مياههم . ورجل به قُطْعٌ(٢) : أى آنبهار .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَـلَ﴾ « ما » فى موضع نصب بـ « يَقْطَعُون » . و « أَنْ » إن شئت كانت بدلا من « ما » و إن شئت من الهاء فى « به » وهو أحسن . ويجوز أن يكون لئـلا يوصل ؛ أى كراهة أن يوصـل . وآختلف ما الشىء الذى أَمَر بوصله ؟ فقيل : صلة الأرحام . وقيل : أمر أن يوصل القول بالعمل ؛ فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا . وقيل : أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه ؛ فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم . وقيل : الإشارة إلى دين الله وعبادته فى الأرض ، و إقامة شرائعه وحفظ حدوده . فهى عامة فى كل ما أمر الله تعـالى به أن يوصل . هـذا قول الجمهور ؛ والرَّحِم جزء من هذا .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ﴾ أى يعبـدون غير الله تعـالى ويجورون فى الأفعال ، إذ هى بحسب شهواتهم ؛ وهذا غاية الفساد .

(١) فى اللسان وشرح القاموس مادة (وثق) : « عقد الميثاق » والبيت لعياض بن درة الطائى .

(٢) البهر (بالضم) : تتابع النَّفَس من الإعياء . وقيل آنقطاعه .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ ابتداء وخبر . و«هم» زائدة؛ ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ ، « الخاسرون » خبره ، والثانى وخبره خبر الأول كما تقـدّم[1] . والخاسر : الذى نقص نفسه حَظّها من الفلاح والفَوْز . والخُسْران : النقصان ، كان فى ميزان أو غيره ؛ قال جَرير :

إن سَلِيطًا فى الخَسَار إنّهْ * أولادُ قَومٍ خُلِقوا أقِنّهْ[2]

يعنى بالخَسَار ما ينقص من حظوظهم وشرفهم . قال الجوهرى : وخَسرت الشىء (بالفتح) وأخسرته نقصته . والخَسَار والخَسَارة والخَيْسَرَى : الضلال والهلاك . فقيل للهالك : خاسر ؛ لأنه خسر نفسه وأهله يوم القيامة ومُنع منزله من الجنة .

السابعـــة — فى هـذه الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهـدٍ جائز ألزمه المرء نفسه فلا يحل له نقضه سواء أكان بين مسلم أم غيره ؛ لذم الله تعالى مَن نقض عهده . وقـد قال : « أَوْفُـوا بِالْعُقُودِ[3] » وقد قال لنبيّه عليه السلام : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ » فنهاه عن الغَدْر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد ؛ على ما يأتى بيانه فى موضعه[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

« كيف » سؤال عن الحال ، وهى اسم فى موضع نصب بـ « تَكْفُرُونَ » ، وهى مبنيّة على الفتح وكان سبيلها أن تكون ساكنة ؛ لأن فيها معنى الاستفهام الذى معناه التعجب فأشبهت الحروف ، واختير لها الفتح لخفته ؛ أى هـؤلاء ممن يجب أن يتعجّب منهم حين كفروا وقد ثبتت عليهم الحجة .

فإن قيـل : كيف يجوز أن يكون هـذا الخطاب لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله ؟ فالجواب ما سبق من أنهم لما لم يثبتوا أمر محمد عليـه السلام ولم يصدّقوه فيما جاء به فقـد

(١) راجع ص ١٨١ من هذا الجزء . (٢) سليط . أبو قبيلة . والقن : الذى ملك هو وأبواه .
(٣) راجع جـ ٦ ص ٣٢ (٤) راجع جـ ٨ ص ٣١

أشركوا؛ لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله . ومن زعم أن القرآن كلام البشر فقد أشرك بالله وصار ناقضا للعهد . وقيل : « كيف » لفظه لفظ الاستفهام وليس به ، بل هو تقرير وتوبيخ ؛ أى كيف تكفرون نعمه عليكم وقدرته هذه ! قال الواسطىّ : وبّخهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن المَوات والجماد لا ينازع صانعه فى شىء، وإنما المنازعة من الهيا كل الروحانية.

قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ هذه الواو واو الحال ، وقد مضمرة . قال الزجاج : التقدير وقد كنتم ، ثم حذفت قد . وقال الفرّاء : « أمواتا » خبر « كنتم » .

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ هذا وقف التمام؛ كذا قال أبوحاتم . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ . واختلف أهل التأويل فى ترتيب هاتين الموتتين والحياتين، وكم من مَوْتة وحياة للإنسان ؟ فقال ابن عباس وابن مسعود : أى كنتم أمواتا معدومين قبل أن تُخلقوا فأحياكم — أى خلقكم — ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة . قال ابن عطية : وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذى لا مَحِيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ؛ وإذا أذعنتْ نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين، ثم للإحياء فى الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها . قال غيره : والحياة التى تكون فى القبر على هذا التأويل فى حكم حياة الدنيا . وقيل : لم يعتدّ بها كما لم يعتدّ بموت من أماته فى الدنيا ثم أحياه فى الدنيا . وقيل : كنتم أمواتا فى ظهر آدم ، ثم أخرجكم من ظهره كالذر ، ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم . وقيل : كنتم أمواتا — أى نُطَفًا — فى أصلاب الرجال وأرحام النساء ، ثم نقلكم من الأرحام فأحياكم ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة، ثم يحييكم فى القبر للمسئلة، ثم يميتكم فى القبر ، ثم يحييكم حياة النشر إلى الحشر ؛ وهى الحياة التى ليس بعدها موت .

قلت : فعلى هذا التأويل هى ثلاث موتات، وثلاث إحياءات . وكونهم موتى فى ظهر آدم ،و إخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نُطَفًا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ فعلى هذا تجىء أربع موتات وأربع إحياءات . وقد قيل : إن الله تعالى أوجدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء ثم أماتهم؛ فيكون على هذا خمس موتات، وخمس إحياءات . وموتة سادسة

للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا النار ؛ لحديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحيَوْن ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم — أو قال بخطاياهم — فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فَحْمًا أذن فى الشفاعة فجىء بهم ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا على أنهار الجنة ثم قيل يأهل الجنة أفيضوا عليهم فَيَنْبُتُون نباتَ الحِبّة تكون فى حَمِيل السَّيْل". فقال رجل من القوم : كأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان يرعى بالبادية[1] . أخرجه مسلم .

قلت : فقوله "فأماتهم الله" حقيقة فى الموت ؛ لأنه أكّده بالمصدر ، وذلك تكريمًا لهم . وقيل : يجوز أنْ يكون " أماتهم " عبارة عن تغييبهم عن آلامها بالنوم ، ولا يكون ذلك موتًا على الحقيقة ؛ والأول أصح . وقد أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازًا ، وإنما هو على الحقيقة ؛ ومثله : « وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » على ما يأتى بيانه[2] إن شاء الله تعالى . وقيل : المعنى وكنتم أمواتا بالخمول فأحياكم بأن ذُكِرتم وشُرِّفتم بهذا الدِّين والنبىِّ الذى جاءكم ، ثم يميتكم فيموت ذِكْرُكم ، ثم يحييكم للبعث .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى إلى عذابه مرجعكم لكفركم . وقيل : إلى الحياة وإلى المسألة ؛ كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ »[3] فإعادتهم كابتدائهم ؛ فهو رجوع . و « تُرْجَعُونَ » قراءة الجماعة . ويحيى بن يَعْمر وابن أبى إسحاق ومجاهد وابن مُحَيْصن وسلام أبو يعقوب يفتحون حرف المضارعة ويكسرون الجيم حيث وقعت .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

(١) الذى فى صحيح مسلم : « ... قد كان بالبادية » . والضبائر : هم الجماعات فى تفرقة ، واحدتها ضبارة ، مثل عمارة وعمائر ، وكل مجتمع ضبارة . والحبة (بالكسر) : بذور البقل . وقيل هو نبت صغير ينبت فى الحشيش ؛ فأما الحبة (بالفتح) فهى الحنطة والشعير ونحوهما . وحميل السيل : هو ما يجىء به السيل من الغثاء .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٨ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٤٨

قوله تعالى : ﴿ هو ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى ﴿ خَلَقَ ﴾ معناه آخترع وأوْجَد بعد العَدَم . وقد يقال فى الإنسان : «خَلَق» عند إنشائه شيئا ؛ ومنه قول الشاعر :

مَن كان يَخْلُق ما يقو ... ل لِخيلَتِي فيـــه قَليلَهْ

وقد تقدّم[1] هذا المعنى . وقال آبن كَيْسان : «خَلَقَ لَكُمْ» أى من أجلكم . وقيل : المعنى أن جميع ما فى الأرض مُنْعَم به عليكم فهو لكم . وقيل : إنه دليل على التوحيد والآعتبار .

قلت : وهـذا هو الصحيح على ما نبيّنه . ويجوز أن يكون عَنَى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء .

الثانيـــة — آستدل من قال إن أصل الأشياء التى يُنتفع بها الإباحة بهذه الآية وما كان مثلها — كقوله : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ »[2] الآية — حتى يقوم الدليل على الحظر . وعَضَدُوا هذا بأن قالوا : إن المآكل الشهية خُلِقت مع إمكان ألا تُخلَق فلم تُخلق عبثًا ؛ فلا بُدّ لها من منفعة . وتلك المنفعة لا يصح رجوعها إلى الله تعالى لآستغنائه بذاته ، فهى راجعـة إلينا . ومنفعتنا إمّا فى نَيل لذّتها ، أو فى آجتنابها لنُختبَر بذلك ، أو فى آعتبارنا بها . ولا يحصل شىء من تلك الأمور إلا بذوقها ؛ فلزم أن تكون مباحة . وهذا فاسد ؛ لأنا لا نسلّم لزوم العبث من خلقها إلا لمنفعة ، بل خلقها كذلك لأنه لا يجب عليه أصل المنفعة ، بل هو الموجب . ولا نسلّم حصر المنفعة فيما ذكروه ، ولا حصول بعض تلك المنافع إلا بالذوق ، بل قد يُستدلّ على الطعوم بأمور أُخَر كما هو معروف عند الطبائعيين . ثم هو معارَض بما يخاف أن تكون سموما مهلكة ، ومعارضـون بشبهات أصحاب الحظر . وتوقّف آخرون وقالوا : ما مِن فعل لا ندرك منه حُسْنًا ولا قُبْحًا إلا ويمكن أن يكون حَسَنًا فى نفسه ؛ ولا مُعيِّن قبل ورود الشرع ، فتعيّن الوقف إلى ورود الشرع . وهـذه الأقاويل الثلاثة للمعتزلة . وقد أطلق الشيخ أبو الحسن وأصحابُه وأكثرُ المـالكية والصَّيرفىُّ فى هـذه

(١) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠

المسئلة القولَ بالوقف . ومعناه عندهم أن لا حكم فيها فى تلك الحال ، وأن للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأن العقل لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره، و إنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هى عليـه . قال آبن عطية : وحكى آبن فُورَك عن ابن الصائغ أنه قال : لم يَخْلُ العقل قطُّ من السمع ، ولا نازلة إلا وفيها سَمْع ، أو لها تعلّق به ، أو لهـا حالٌ تُستصحَب . قال : فينبغى أن يُعتمد على هذا ، ويغنى عن النظر فى حظر و إباحة ووقف .

الثالثـة — الصحيح فى معنى قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الآعتبار. يدلّ عليه ما قبـله وما بعده من نصب العِبَر : الإحياء والإماتة والخلق والآستواء إلى السماء وتسويتها ؛ أى الذى قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السّموات والأرض ،لا تبعد منه القدرة على الإعادة .

فإن قيل : إن معنى « لكم » الآنتفاع ؛ أى لتنتفعوا بجميع ذلك ؛ قلنا : المراد بالآنتفاع الآعتبار لمـا ذكرنا . فإن قيل : وأى آعتبار فى العقارب والحيّات ؛ قلنا : قد يتذكّر الإنسان ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدّ الله للكفار فى النـار من العقوبات فيكون سببا للإيمان وترك المعاصى ؛ وذلك أعظم الآعتبار . قال آبن العربىّ : وليس فى الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضى حظرًا ولا إباحةً ولا وقفًا ؛ و إنما جاء ذكر هذه الآية فى معرض الدلالة والتنبيه ليستدل بها على وحدانيته .

وقال أرباب المعانى فى قوله : ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ لتتقَوَّوْا به على طاعته، لا لتصرفوه فى وجوه معصيته . وقال أبو عثمان : وَهَبَ لك الكلَّ وسخّره لك لتستدلّ به على سَعة جُوده ، وتَسْكُن إلى ما ضمن لك من جزيل عطائه فى المعاد ، ولا تستكثر كثير بِرّه على قليل عملك ؛ فقد آبتدأك بعظيم النّعم قبل العمل وهو التوحيد .

الرابعـة — روى زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسأله أن يُعطِيَه ؛ فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "ما عندى شىء ولكن آبتع علىّ فإذا جاء شىء قضينا" فقال له عمر : هذا أعطيت إذا كان

عندك فما كلفك الله ما لا تقدر . فكره رسول الله صلى الله عليه وسلّم قول عمر ؛ فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ،

* أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا *

فتبسم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وعُرف السرور فى وجهه لقول الأنصارى . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "بذلك أمرت" . قال علماؤنا رحمة الله عليهم : فخوف الإقلال من سوء الظن بالله ؛ لأن الله تعالى خلق الأرض بما فيها لولد آدم ، وقال فى تنزيله : «خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا» ، «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِنه» . فهذه الأشياء كلها مسخّرة للآدمىّ قَطْعًا لعذره وحجة عليه ، ليكون له عبدا كما خلقه عبدا ؛ فإذا كان العبد حسن الظن بالله لم يخف الإقلال لأنه يخلف عليه ؛ كما قال تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ »[1] . وقال : «فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ»[2] ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "سَبقتْ رحمتى غضبى يا بن آدم أَنْفِق أُنْفِق عليك يَمِينُ الله ملأى سَحّاءُ[3] لا يَغيضها شىءٌ الليلَ والنهارَ" . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "ما من يوم يُصبح العبادُ فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللّهمّ أَعْطِ مُنْفقا خَلَفًا ويقول الآخر اللّهمّ أَعْطِ مُمْسكًا تَلَفًا" . وكذا فى المساء عند الغروب يناديان أيضا ؛ وهذا كله صحيح رواه الأئمة والحمد لله . فمن آستنار صدره ، وعلم غنى ربّه وكرمه أنفق ولم يخف الإقلال ؛ وكذلك من ماتت شهواته عن الدنيا وآجترأ باليسير من القوت المقيم لمهجته ، وآنقطعت مشيئته لنفسه ؛ فهذا يعطى من يُسره وعسره ولا يخاف إقلالا . وإنما يخاف الإقلال من له مشيئة فى الأشياء ؛ فإذا أعطى اليوم وله غدا مشيئة فى شىء خاف ألا يصيب غدا ، فيضيّق عليه الأمر فى نفقة اليوم لمخافة إقلاله . روى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر قالت قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "آنْفَحِى[4] أو آنْضَحِى أو أنفق ولا تُحْصِى فيُحْصِىَ الله عليكِ ولا تُوعِى[5] فيُوعِىَ عليكِ" . وروى النسائى عن عائشة قالت : دخل علىّ

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٠٦ (٣) أى دائمة الصب والهطل بالعطاء .

(٤) قال النووى : «والنفح والنضح العطاء ، ويطلق النضح أيضا على الصب فلعله المراد هنا ويكون أبلغ من النفح» .

(٥) الايعاء : جعل الشئ فى الوعاء ؛ أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك .

سائل مرّة وعندى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأمرت له بشيء ثم دعوت به فنظرت إليه فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أما تريدين ألا يدخل بيتك شيء ولا يخرج إلا بعلمك" قلت : نعم ؛ قال : " مَهْلًا يا عائشة لا تُحْصى فيُحصى الله عزّ وجلّ عليك " .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ «ثم» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر فى نفسه . والاستواء فى اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء ؛ قال الله تعالى : «فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ » ، وقال « لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ » ، وقال الشاعر :

فأوردتهـم ماء بفَيْفاء قَفـــرة * وقد حلّق النجم اليمانىّ فاستوى

أى ارتفع وعلا ، واستوت الشمس على رأسى واستوت الطير على قِمّة رأسى ، بمعنى علا . وهذه الآية من المشكلات ، والناس فيها وفيما شاكلها على ثلاثة أوجه ، قال بعضهم : نقرؤها ونؤمن بها ولا نفسرها ؛ وذهب إليه كثير من الأئمة ، وهـذا كما روى عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعـالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ[1] ٱسْتَوَى » قال مالك : الاسـتواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه . وقال بعضهم : نقرؤها ونفسّرها على ما يحتمله ظاهر اللغة . وهذا قول المشبّهة . وقال بعضهم : نقرؤها ونتأوّلها ونُحيل حَمْلَها على ظاهرها . وقال الفرّاء فى قوله عزّ وجلّ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ قال : الاستواء فى كلام العرب على وجهين ، أحدهما : ان يَسْتوِىَ الرجل وينتهى شبابه وقوّته ، أو يستوى عن اعوجاج . فهذان وجهان . ووجه ثالث أن تقول : كان[2] فلان مقبلا على فلان ثم استوى علىّ وإلىّ يشاتمنى . على معنى أقبل إلىّ وعلىّ . فهذا معنى قوله : «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» والله أعلم . قال وقد قال ابن عباس : ثم استوى إلى السماء صعد . وهذا كقولك : كان قاعدا فاستوى قائما ، وكان قائما فاستوى قاعدا ؛ وكل ذلك فى كلام العـرب جائز . وقال البيهقى أبو بكر أحمـد بن علىّ بن الحسين : قوله :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٩ (٢) عبارة الأصول : « ... كان مقبلا علىّ يشاتمنى وإلىّ سـواء ، على معنى ... الخ » وبها لايستقيم المعنى . والتصويب عن اللسان وشرح القاموس وتفسير الطبرىّ .

« آستوى » بمعنى أقبل صحيح، لأن الإقبال هو القصد إلى خلق السماء؛ والقصد هو الإرادة، وذلك جائز فى صفات الله تعالى . ولفظة « ثم » تتعلق بالخلق لا بالإرادة . وأما ما حكى عن آبن عباس فإنما أخذه عن تفسير الكلبيّ، والكلبيّ ضعيف . وقال سفيان بن عُيينة وآبن كَيسان فى قوله « ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » : قصد إليها ، أى بخلقه وآختراعه ؛ فهذا قول . وقيل : على دون تكييف ولا تحديد؛ وآختاره الطبرى . ويُذكر عن أبى العالية الرِّياحىّ فى هذه الآية أنه يقال : آستوى بمعنى أنه آرتفع . قال البيهقى : ومراده من ذلك — والله أعلم — آرتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذى وقع منه خلق السماء . وقيل : إن المستوى الدخان . وقال آبن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنى آستولى ؛ كما قال الشاعر[1] :

قد آستَوَى بِشْرٌ على العِراق * مِن غيرِ سَيف ودَمٍ مُهْراق

قال آبن عطية : وهذا إنما يجىء فى قوله تعالى : « ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » .

قلت : قد تقدّم فى قول الفرّاء علىّ و إلىّ بمعنًى . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى سورة « الأعراف[2] » إن شاء الله تعالى . والقاعدة فى هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة .

السادســـة — يظهر من هـذه الآية أنه سبحانه خلق الأرض قبـل السماء ؛ وكذلك فى « حم السجدة[3] » . وقال فى النازعات : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا[4] » فوصف خلقها ؛ ثم قال : « وَٱلْأَرْضَ بَعْـدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا » . فكأن السماء على هـذا خلقت قبل الأرض ؛ وقال تعـالى : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ[5] » وهذا قول قتادة : إن السماء خلقت أوّلا ؛ حكاه عنه الطبرىّ . وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه ، فجعله أرضا وثار منه دخان فآرتفع ، فجعله سماء فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ، ثم قصد أمره إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ، ثم دحا[6] الأرض بعد ذلك ، وكانت إذ خلقها غير مَدْحُوّة .

(١) هو الأخطل كما فى شرح القاموس .
(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٣ .
(٤) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ .
(٥) راجع جـ ٦ ص ٣٨٤ .
(٦) دحا الشىء : بسطه .

قلت : وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى، وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

ومما[1] يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السُّدِّى عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى قوله عزّ وجلّ : « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا قبل الماء ؛ فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسماه سماء ؛ ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين، فى الأحد والاثنين. فجعل الأرض على حُوت — والحُوت هو النُّون الذى ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن بقوله : « نٓ وَٱلْقَلَمِ »[2] — والحوت فى الماء و [الماء][3] على صفاة[4]، والصفاة على ظهر ملك، والملك على الصخرة، والصخرة فى الريح — وهى الصخرة التى ذكر لقمان : ليست فى السماء ولا فى الأرض — فتحرك الحوت فاضطرب ؛ فتزلزلت الأرض ؛ فأرسل عليها الجبال فقرّت ؛ فالجبال تفخر على الأرض، وذلك قوله تعالى : « وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ »[5] وخلق الجبال فيها، وأقوات أهلها وشجرها، وما ينبغى لها فى يومين، فى الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول : « قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَٰتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ »[6] يقول : من سأل فهكذا الأمر، « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ » وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس ؛ فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين، فى الخميس والجمعة ؛ وإنما سُمّى يوم الجمعة لأنه جمع

(١) يلاحظ أن المؤلف رحمه الله خرج عما سنّه فى مقدمته لهذا الكتاب من إضرابه عن هذا القصص وأمثاله مما ملئت به كتب التفسير الأخرى والذى لا يتمشى مع روح الدين الإسلامى ؛ بخل من له العصمة .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٣ .

(٣) تكملة عن تفسير الطبرى وتاريخه .

(٤) الصفاة : العريض من الحجارة الأملس .

(٥) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ .

(٦) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ .

فيه خلق السموات والأرض، « وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا » قال : خلق فى كل سماء خَلْقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم ؛ ثم زَيّن السماء الدنيا بالكواكب، فجعلها زِينة وحِفْظًا تحفظ من الشياطين . فلما فرغ من خلق ما أحب آستوى على العرش ؛ قال فذلك حين يقول : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » ويقول : « كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »[1] وذكر القصة فى خلق آدم عليه السلام ؛ على ما يأتى بيانه فى هذه السورة إن شاء الله تعالى . وروى وَكِيع عن الأعمش عن أبى ظَبْيان عن آبن عباس قال : إن أوّل ما خلق الله عز وجل من شىء «القلم» فقال له آكتب . فقال : يا ربّ وما أكتب؟ قال : آكتب القَدَر . فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة . قال : ثم خلق النُّونَ فدحا الأرض عليها ، فآرتفع بخار الماء ففتق منه السموات ؛ وآضطرب النُّونُ فمادت الأرض فأُثبتت بالجبال ؛ فإن الجبال تَفْخَر على الأرض إلى يوم القيامة . ففى هذه الرواية خلق الأرض قبل آرتفاع بخار الماء الذى هو الدخان ؛ خلاف الرواية الأولى . والرواية الأولى عنه وعن غيره أَوْلَى ؛ لقوله تعالى : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا »[2] والله أعلم بما فعل ؛ فقد آختلفت فيه الأقاويل ، وليس للاجتهاد فيه مدخل .

وذكر أبو نعيم عن كعب الأحبار أن إبليس تغلغل إلى الحُوت الذى على ظهره الأرض كلها ، فألقى فى قلبه ، فقال : هل تدرى ما على ظهرك يا لوثيا من الأمم والشجر والدواب والناس والجبال! لو نفضتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع . قال : فهمّ لوثيا بفعل ذلك ؛ فبعث الله دابة فدخلت فى منخره ؛ فعجّ إلى الله منها فخرجت . قال كعب : والذى نفسى بيده ، إنه لينظر إليها بين يديه وتنظر إليه إن هم بشىء من ذلك عادت حيث كانت .

السابعة — أصل خلق الأشياء كلّها من الماء لما رواه آبن ماجه فى سننه ، وأبو حاتم البُسْتِيّ فى صحيح مسنده عن أبى هريرة قال قلت : يا رسول الله ، إذا رأيتك طابت نفسى وقرّت عينى ، أنبِئْنى عن كل شىء . قال: "كل شىء خُلق من الماء" فقلت : أخبرنى عن

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٠٢

شيء إذا عملتُ به دخلتُ الجنة . قال : " أطعِم الطعام وأفشِ السّـلام وصِلِ الأرحام وقُم الليل والناسُ نيام تدخل الجنة بسلام" . قال أبو حاتم قولُ أبي هريرة : « أنبِئْنى عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خُلق من المـاء . والدليل على صحة هذا جواب المصطفى عليه السلام إياه حيث قال : " كل شيء خلق من المـاء " وإن لم يكن مخلوقا . وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن أوّل شيء خلقه الله القَلم وأمره فكتب كلّ شيء يكون " ويروى ذلك أيضا عن عُبَادة بن الصّامت مرفوعا. قال البيهقى : وإنمـا أراد — والله أعلم — أوّل شيء خلقه بعـد خلق المـاء والريح والعرش « القـلم » . وذلك بيّن فى حديث عِمران بن حُصين ؛ ثم خلق السموات والأرض . وذكر عبد الرزاق بن عمر بن حبيب المكى عن حُميد بن قيس الأعرج عن طاوس قال: جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فسأله : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمـة والريح والتراب . قال الرجل : فِمّ خُلق هـؤلاء ؟ قال : لا أدرى . قال : ثم أتى الرجل عبـدَ الله بن الزبير فسأله ؛ فقال مثل قول عبد الله بن عمرو . قال : فأتى الرجلُ عبدَ الله بن عباس فسأله ؛ فقال : مِمّ خُلق الخلق ؟ قال : من المـاء والنور والظلمة والريح والتراب . قال الرجل : فِمّ خُلق هؤلاء ؟ فتلا عبـد الله بن عباس : « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ »(١) فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهـل بيت النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال البيهقى : أراد أن مصدر الجميع منه ؛ أى من خلقه وإبداعه واختراعه . خلق المـاء أوّلا ، أو المـاء وما شاء من خلقه ، لا عن أصل ولا على مثال سبق ، ثم جعله أصلا لمـا خلق بعدُ ؛ فهو المبدع وهو البارئ لا إله غيره ولا خالق سواه ، سبحانه جلّ وعزّ .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ ذكر تعالى أن السموات سبع . ولم يأت للأرض فى التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى : « وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ »(٢) وقد اختلف فيه ؛ فقيل : ومن الأرض مثلهن أى فى العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار ؛ فتعيّن العدد . وقيل : « ومن الأرض مثلهنّ » أى فى غلظهن

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٦٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧٤

وما بينهنّ . وقيل : هى سبع إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض ؛ قاله الدّاوُدِىّ . والصحيح الأوّل ؛ وأنها سبع كالسموات سبع . روى مسلم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من أخذ شبرا من الأرض ظُلْماً طُوِّقه إلى سبع أرضين" . وعن عائشة رضى الله عنها مثله ، إلا أن فيه « من » بدل « إلى » . ومن حديث أبى هريرة : " لا يأخذ أحدٌ شبرا من الأرض بغير حقّه إلا طَوّقه الله إلى سبع أرضين [يوم القيامة](١) " . وروى النّسائى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " قال موسى عليه السلام يا ربّ علّمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به قال يا موسى قل لا إله إلا الله قال موسى يا ربّ كل عبادك يقول هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصّنى به قال يا موسى لو أنّ السموات السّبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كِفّة ولا إله إلا الله فى كِفّة مالت بهنّ لا إله إلا الله " . وروى الترمذىّ عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب ؛ فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هذا" فقالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " هـذا العَنان هذه روايا الأرض يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدْعونه — قال — هل تدرون ما فوقكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الرَّقيع(٢) سقفٌ محفوظ وموْج مكفوف — ثم قال — هل تدرون كم بينكم وبينها " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " بينكم وبينها [مسيرة](٣) خمسمائة عام — ثم قال : — هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " [فإن فوق ذلك](٣) سماءين بُعْدُ ما بينهما [مسيرة](٣) خمسمائة سنة " ثم قال كذلك حتى عدّ سبع سموات ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض . ثم قال : " هل تدرون ما فوق ذلك " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال " فإن فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بين السماءين — ثم قال : — هل تدرون ما الذى تحتكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإنها الأرض — ثم قال : — هل تدرون ما تحت ذلك" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " فإن تحتها الأرض الأخرى

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .　(٢) الرقيع : اسم سماء الدنيا .　(٣) زيادة عن صحيح الترمذى .

بينهما مسيرة خمسمائة سنة " حتى عدّ سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة ؛ ثم قال : " والذى نفس محمد بيده لو أنكم دُليتم بحبل إلى الأرض السُّفلى لهبط على الله — ثم قرأ — هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". قال أبو عيسى : قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية تدل على أنه أراد : لهبط على علْم الله وقدرته وسلطانه ، [علم الله وقدرته وسلطانه (١)] فى كل مكان وهو على عرشه كما وصف نفسه فى كتابه . قال : هذا حديث غريب ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة . والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة ؛ وفيما ذكرنا كفاية . وقد روى أبو الضُّحَى — وٱسمه مسلم — عن ٱبن عباس أنه قال : « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » قال : سبع أرضين فى كل أرض نبىّ كنبيّكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى . قال البيهقى : إسناد هذا عن ٱبن عباس صحيح ، وهو شاذّ بمرّة لا أعلم لأبى الضُّحَا عليه دليلا (٢) ؛ والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ٱبتداء وخبر . « ما » فى موضع نصب . ﴿ جَمِيعًا ﴾ عند سيبويه نصب على الحال . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى ﴾ أهل نَجْد يُميلون ليدلّوا على أنه من ذوات الياء ، وأهل الحجاز يفخّمون . ﴿ سَبْعَ ﴾ منصوب على البدل من الهاء والنون ؛ أى فسوّى سبع سموات . ويجوز أن يكون مفعولا على تقدير يسوّى بينهنّ سبع سموات ؛ كما قال الله جل وعز : « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا » أى من قومه ؛ قاله النحاس . وقال الأخفش : ٱنتصب على الحال . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ٱبتداء وخبر . والأصل فى « هو » تحريك الهاء ، والإسكان ٱستخفاف .

والسماء تكون واحدة مؤنّثة ؛ مثل عَنان ، وتذكيرها شاذّ ؛ وتكون جمعا لسماوة فى قول الأخفش ، وسماءة فى قول الزجاج ، وجمع الجمع سماوات وسماءات . فجاء «سوّاهنّ» إما على أن السماء جمع وإما على أنها مفرد ٱسم جنس . ومعنى سوّاهنّ سوّى سطوحهنّ بالإملاس . وقيل : جعلهنّ سواء .

---

(١) زيادة عن صحيح الترمذى . (٢) فى نسخة من الأصل : « متابعا » .

العـاشرة — قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى بما خلق، وهو خالق كل شيء؛ فوجب أن يكون عالما بكل شيء ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »(١) فهو العالم والعليم بجميع المعلومات بعلم قديم أزلى واحد قائم بذاته ، ووافقنا المعتزلة على العالمية دون العلمية . وقالت الجَهْمِيّة : عالم بعلم قائم لا فى محل ، تعالى الله عن قول أهل الزَّيْغ والضلالات ، والرد على هؤلاء فى كتب الديانات . وقد وصف نفسه سبحانه بالعلم فقال : « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ »(٢) ، وقال : « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » ، وقال : « فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ » ، وقال : « وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » ، وقال : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا(٣) إِلَّا هُوَ » الآية . وسندل على ثبوت علمه وسائر صفاته فى هذه السورة عند قوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »(٤) إن شاء الله تعالى . وقرأ الكسائى وقالون عن نافع بإسكان الهاء من : هو وهى ، إذا كان قبلها فاء أو واو أو لام أو ثُمَّ ، وكذلك فعل أبو عمرو إلا مع ثُمَّ . وزاد أبو عَوْن عن الحُلْوانى عن قالون إسكان الهاء من « أَنْ يُمِلَّ هُوَ » ، والباقون بالتحريك .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فيه سبع عشرة مسـئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ إذ و إذا حرفا توقيت ؛ فإذ للماضى ، و إذا للمستقبل ؛ وقد توضع إحداهما موضع الأخرى . وقال المُبَرِّد : إذا جاء « إذ » مع مستقبل كان معناه ماضيا ؛ نحو قوله : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ » « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » معناه إذ مكروا ، و إذ قلت . و إذا جاء « إذا » مع الماضى كان معناه مستقبلا ؛ كقوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ » « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ » و « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ »

(١) راجع جـ١٨ ص٢١٤ (٢) راجع جـ٦ ص١٩ (٣) راجع جـ٧ ص١ (٤) راجع جـ٢ ص٣٠١

أى يجىء . وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عبيدة : « إذ » زائدة ؛ والتقدير : وقال ربك ؛ واستشهد بقول الأَسْوَد بن يَعْفُر :

فإذ(١) وذلك لا مَهاةَ لذِكرِه * والدهر يُعْقِب صالحاً بفسادِ

وأنكر هذا القول الزجاجُ والنحاس وجميع المفسرين . قال النحاس : وهذا خطأ ؛ لأن «إذ» اسم وهى ظرف زمان ليس مما تزاد . وقال الزجاج : هذا اجتراء من أبى عبيدة ؛ ذكر الله عز وجل خلق الناس وغيرهم ؛ فالتقدير وابتدأ خلقكم إذ قال ؛ فكان هذا من المحذوف الذى دل عليه الكلام ؛ كما قال :

فإن المنيّة مَن يخشها * فسوف تصادفه أينما

يريد أينما ذهب . ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدّر تقديره واذكر إذ قال . وقيل : هو مردود إلى قوله تعالى : « اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ » فالمعنى الذى خلقكم إذ قال ربك للملائكة . وقول الله تعالى وخطابه للملائكة متقرر قديم فى الأزل بشرط وجودهم وفهمهم . وهكذا الباب كله فى أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته . وهذا مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، وهو الذى ارتضاه أبو المعالى . وقد أتينا عليه فى كتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفات الله العلى .

والرب : المالك والسيّد والمصلح والجابر ؛ وقد تقدّم(٢) بيانه .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ الملائكة واحدها مَلَك . قال ابن كَيْسان وغيره : وزن مَلَك فَعَل من الملك . وقال أبو عبيدة ؛ هو مفعل من لَأَكَ إذا أرسل . والأَلُوكة والمَأْلُكة والمَأْلُكة : الرسالة ؛ قال لَبِيد :

وغلامٍ أرسلَتْهُ أمُّه * بأَلُوكٍ فبذلْنا ما سأَلْ

وقال آخر(٣) :

أبلِغ النُّعمانَ عنّى مَأْلُكًا * إننى قد طال حبسى وانتظارى

(١) يلاحظ أن رواية البيت : «فإذا» ولا يستقيم الوزن إلا به . (٢) راجع المسألة الثامنة وما بعدها ص ١٣٦ من هذا الجزء . (٣) هو عدى بن زيد ؛ كما فى اللسان مادة (ألك) . ويروى «إنه» بدل : «إننى»

ويقال : أَلِكْنِي أى أرسلنى ؛ فأصله على هـذا مَأْلَك ، الهمزة فاء الفعل فإنهـم قلبوها إلى عينه فقالوا : مَلْأَك ، ثم سهّلوه فقالوا مَلَك . وقيل أصـله مَلْأَك من مَلَك يملِك ، نحو شمأل من شَمَل ؛ فالهمزة زائدة عن آبن كَيْسان أيضا ؛ وقد تأتى فى الشـعر على الأصل ؛ قال الشاعر :

فلستَ لإنسىٍّ ولكن لمَـلْأَك * تنزّل من جَوّ السماء يَصوبُ

وقال النّضر بن شُمَيل : لا آشتقاق للملك عند العرب . والهاء فى الملائكة تأكيد لتأنيث الجمع ؛ ومثله الصَّلادمة . والصَّلادم : الخيل الشّداد ، واحدها صِلْدِم . وقيل : هى للمبالغة ، كعلّامة ونسّابة . وقال أرباب المعانى : خاطب الله الملائكة لا للمشورة ولكن لآستخراج ما فيهم من رؤية الحركات والعبـادة والتسبيح والتقديس ، ثم ردّهم إلى قيمتهـم ؛ فقال عز وجل : « آسْجُدُوا لآدَمَ » .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعل» هنا بمعنى خالق ؛ ذكره الطبرى عن أبى رَوْق ، ويقضى بذلك تعدّيها إلى مفعول واحد ، وقد تقدّم . والأرض قيل إنها مكة . روى آبن سابط عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " دُحِيَت الأرض من مكة " ولذلك سُمِّيت أمّ القرى ، قال : وقبر نوح وهود وصـالح وشعيب بين زمزم والرّكن والمقام . و « خليفة » يكون بمعنى فاعل ؛ أى يخلف من كان قبله من الملائكة فى الأرض ، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما رُوِىَ . ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أى مخلف ؛ كما يقال : ذبيحة بمعنى مفعولة . والخَلَف (بالتحريك) من الصالحين ، و بتسكينها من الطالحين ؛ هذا هو المعروف ، وسيأتى له مزيد بيان فى «الأعراف»[1] إن شاء الله . و«خليفة» بالفاء قراءة الجماعة ، إلا ما رُوِىَ عن زيد بن علىّ فإنه قرأ «خليقة» بالقاف . والمعنىّ بالخليفة هنا — فى قول آبن مسعود وآبن عباس و جميع أهل التأويل — آدم عليه السلام ، وهو خليفة الله فى إمضاء أحكامه وأوامره ؛ لأنه أوّل رسول إلى الأرض ؛ كما فى حديث أبى ذَرّ ، قال قلت : يارسول الله أنبيًّا كان مرسَلًا ؟ قال : " نعم " الحديث . ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٠

فى الأرض أحد ؟ فيقال : كان رسولا إلى ولده، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا فى كل بطن ذكر وأنثى، وتوالدوا حتى كثروا؛ كما قال الله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا ونِساءً »[1] . وأنزل عليهم تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير. وعاش تسعمائة وثلاثين سنة ؛ هكذا ذكر أهل التوراة . ورُوى عن وهب بن مُنَبِّه أنه عاش ألف سنة، والله أعلم .

الرابعة — هذه الآية أصلٌ فى نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع ؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف فى وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما رُوى عن الأصم[2] حيث كان عن الشريعة أصَمّ ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه ، قال : إنها غير واجبة فى الدين بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفَيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على مَن وجبت عليه، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك . ودليلُنا قولُ الله تعالى : « إِنِّى جاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً »، وقوله تعالى: « يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ »، وقال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ » أى يجعل منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآى .

وأجمعت الصحابة على تقديم الصدّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار فى سَقِيفة بنى ساعدة فى التعيين، حتى قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير ؛ فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك ، وقالوا لهم : إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ، ورووا لهم الخبر فى ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش . فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا فى قريش ولا فى غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها ، ولقال قائل : إنها ليست بواجبة لا فى قريش ولا فى غيرهم، فما لتنازعكم وجه ولا فائدة فى أمر ليس بواجب . ثم إن الصدّيق رضى الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر فى الإمامة ، ولم يقل له أحد هذا أمر غير

(١) راجع جـ ٤ ص ٢ (٢) الأصم : من كبار المعتزلة واسمه أبو بكر .

واجب علينا ولا عليك؛ فدلّ على وجوبها وأنها ركن من أركان الدِّين الذى به قوام المسلمين، والحمد لله رب العالمين .

وقالت الرافضة : يجب نصبه عقلا ، و إن السمع إنما ورد على جهة التأكيد لقضية العقل ؛ فأما معرفة الإمام فإن ذلك مدرَك من جهة السمع دون العقل . وهذا فاسد ؛ لأن العقل لا يوجب ولا يحظر ولا يُقبِّح ولا يُحسِّن ؛ و إذا كان كذلك ثبت أنها واجبة من جهة الشرع لا من جهة العقل ، وهذا واضح .

فإن قيل وهى :

الخامســـة — إذا سُلِّم أن طريق وجوب الإمامة السمع ، فخبّرونا هل يجب من جهة السمع بالنص على الإمام من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم من جهة آختيار أهل الحَلّ والعَقد له ، أم بكمال خصال الأئمة فيه ، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كاف فيه ؟ .

فالجواب أن يقال : آختلف الناس فى هذا الباب ، فذهبت الإمامية وغيرها إلى أن الطريق الذى يُعرف به الإمام هو النص من الرسول عليه السلام ولا مدخل للآختيار فيه . وعندنا : النظر طريق إلى معرفة الإمام ، و إجماع أهل الآجتهاد طريق أيضا إليه ؛ وهؤلاء الذين قالوا لا طريق إليه إلا النص بَنَوْه على أصلهم أن القياس والرأى والآجتهاد باطل لا يُعرف به شىء أصلا ، وأبطلوا القياس أصلا وفرعا . ثم آختلفوا على ثلاث فرق : فرقة تدّعى النص على أبى بكر، وفرقة تدّعى النص على العباس ، وفرقة تدّعى النص على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم . والدليل على فقد النص وعدمه على إمام بعينه هو أنه صلى الله عليه وسلم لو فرض على الأمة طاعةَ إمام بعينه بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ؛ لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله فى غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ؛ و إذا وجب العلم به لم يَخْل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلّة العقول أو الخبر ، وليس فى العقل ما يدل على ثبوت الإمامة لشخص معيّن ، وكذلك ليس فى الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ؛ لأن ذلك الخبر إما أن يكون تواترا أوجب العلم ضرورةً أو آستدلالا ، أو يكون من أخبار الآحاد ؛ ولا يجوز أن يكون

طريقه التواتر الموجب للعلم ضرورةً أو دلالة، إذ لو كان كذلك لكان كل مكلّف يجد من نفسه العلم بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن وأن ذلك من دين الله عليه، كما أن كل مكلّف علم أن من دين الله الواجب عليه خمس صلوات، وصوم رمضان، وحج البيت ونحوها؛ ولا أحد يعلم ذلك من نفسه ضرورة، فبطلت هـذه الدعوى، وبطل أن يكون معلوما بأخبار الآحاد لاستحالة وقوع العلم به. وأيضا فإنه لو وجب المصير إلى نقل النص على الإمام بأىّ وجه كان، وجب إثبات إمامة أبى بكر والعباس؛ لأن لكل واحد منهما قومًا ينقلون النّص صريحا فى إمامته؛ وإذا بطل إثبات الثلاثة بالنص فى وقت واحد — على ما يأتى بيانه — كذلك الواحد، إذ ليس أحد الفِرق أولى بالنص من الآخر. وإذا بطل ثبوت النّص لعدم الطريق الموصل إليه ثبت الاختيار والاجتهاد. فإن تعسّف متعسِّف وادّعى التواتر والعلم الضرورى بالنّص فينبغى أن يقابَلوا على الفَور بنقيض دعواهم فى النّص على أبى بكر وبأخبـار فى ذلك كثيرة تقوم أيضا فى جملتها مقام النص؛ ثم لا شك فى تصميم مَن عدا الإماميّة على نفى النّص؛ وهم الخلق الكثير والجمّ الغفير. والعلم الضرورى لا يجتمع على نفيه من يحطّ عن معشار أعداد مخالفى الإماميـة؛ ولو جاز ردّ الضرورى فى ذلك لجاز أن ينكر طائفة بَغـداد والصين الأقصى وغيرهما.

السادســة — فى ردّ الأحاديث التى احتجّ بها الإمامية فى النّص على علىّ رضى الله عنه، وأن الأمة كفَرت بهذا النّص وارتدّت، وخالفت أمر الرسول عنادا؛ منها قوله عليه السلام: "مَن كنتُ مولاه فعلىّ مولاه اللّهُمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه". قالوا: والمَوْلى فى اللغة بمعنى أوْلَى؛ فلما قال: "فعلىّ مولاه" بفاء التعقيب عُلم أن المراد بقوله «مولى» أنه أحق وأوْلى. فوجب أن يكون أراد بذلك الإمامة وأنه مفترض الطاعة؛ وقوله عليه السلام لعلىّ: "أنت منّى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبىّ بعدى". قالوا: ومنزلة هارون معروفة، وهو أنه كان مشاركا له فى النبوّة ولم يكن ذلك لعلىّ، وكان أخًا له ولم يكن ذلك لعلى، وكان خليفة؛ فعُلِم أن المراد به الخلافة، إلى غير ذلك مما احتجوا به على ما يأتى ذكره فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

والجواب عن الحديث الأول : أنه ليس بمتواتر، وقد اختلف فى صحته ، وقد طعن فيه أبو داود السجستانى وأبو حاتم الرازى ، واستدلا على بطلانه بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "مُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وغِفَارُ وأَسْلَمُ موالى دون الناس كلهم ليس لهم مَوْلًى دون الله ورسوله". قالوا : فلو كان قد قال : " مَن كنتُ مولاه فعلى مولاه " لكان أحد الخبرين كذباً .

جواب ثان — وهو أن الخبر وإن كان صحيحًا رواه ثِقَةٌ عن ثِقَة فليس فيه ما يدل على إمامته ، وإنما يدل على فضيلته ، وذلك أن المولى بمعنى الولى ، فيكون معنى الخبر : مَن كنت وَلِيّه فعلى وَلِيّه ، قال الله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » أى وَلِيّه . وكان المقصود من الخبر أن يعلم الناس أن ظاهر على كباطنه ، وذلك فضيلة عظيمة لعلى .

جواب ثالث — وهو أن هذا الخبر ورد على سبب ، وذلك أن أسامة وعليًّا اختصما ، فقال على لأسامة : أنت مولاى . فقال : لستُ مولاك ، بل أنا مَوْلَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : " مَن كنتُ مولاه فعلى مولاه " .

جواب رابع — وهو أن عليًّا عليه السلام لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم فى قصة الإفْك فى عائشة رضى الله عنها : النساء سواها كثير . شقّ ذلك عليها ، فوجد أهل النفاق مجالا فطعنوا عليه وأظهروا البراءة منه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم هذا المقال ردًا لقولهم ، وتكذيباً لهم فيما قدموا عليه من البراءة منه والطعن فيه ، ولهذا ما روى عن جماعة من الصحابة أنهم قالوا : ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ببغضهم لعلى عليه السلام . وأما الحديث الثانى فلا خلاف أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يُرِد بمنزلة هارون من موسى الخلافة بعده ، ولا خلاف أن هارون مات قبل موسى عليهما السلام — على ما يأتى من بيان وفاتيهما فى سورة « المائدة »[1] — وما كان خليفةً بعده وإنما كان الخليفة يوشع بن نون ، فلو أراد بقوله : " أنت منّى بمنزلة هارون من موسى " الخلافة لقال : أنت منى بمنزلة يوشع من موسى ، فلما لم يقل هذا دلّ على أنه لم يُرِد هذا ، وإنما أراد أنى استخلفتك على أهلى فى حياتى وغيبوبتى عن أهلى ، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لما خرج إلى مناجاة

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣١

ربّه . وقد قيل : إن هـذا الحديث خرج على سبب ، وهو أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غَزْوة تَبُوك آستخلف عليًّا عليه السلام فى المدينة على أهله وقومه ؛ فأرجف به أهل النفاق وقالوا : إنما خلفه بُغْضًا وقِلًى له ، فخرج علىّ فلحق بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال له : إن المنافقين قالوا كذا وكذا ! فقال : "كذبوا بل خلفتك كما خلف موسى هارون" . وقال : "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى" . وإذا ثبت أنه أراد الآستخلاف على زعمهم فقد شارك عليًّا فى هذه الفضيلة غيره ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم آستخلف فى كل غَزاةٍ غزاها رجلًا من أصحابه ، منهم : آبن أمّ مَكْتُوم ، ومحمد بن مَسْلَمة وغيرهما من أصحابه ، على أن مدار هذا الخبر على سعد بن أبى وَقّاص وهو خبرُ واحدٍ . وروى فى مقابلته لأبى بكر وعمر ما هو أولى منه . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما أنفذ معاذ بن جبل إلى اليمن قيل له : ألا تنفذ أبا بكر وعمر؟ فقال : "إنهما لا غنى بى عنهما إن منزلتهما منى بمنزلة السمع والبصر من الرأس" . وقال : "هما وزيراى فى أهل الأرض" . ورُوى عنه عليه السلام أنه قال : "أبو بكر وعمر بمنزلة هارون من موسى" . وهذا الخبر ورد آبتداء ، وخبر علىّ ورد على سبب ، فوجب أن يكون أبو بكر أوْلى منه بالإمامة ، والله أعلم .

السابعـة — وآختلف فيما يكون به الإمام إمامًا وذلك ثلاث طرق ، أحدها : النص ، وقد تقدّم الخلاف فيه ، وقال به أيضا الحنابلة وجماعة من أصحاب الحديث والحسن البصرى وبكر آبن أخت عبد الواحد وأصحابه وطائفة من الخوارج . وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على أبى بكر بالإشارة ؛ وأبو بكر على عمر . فإذا نص المستخلف على واحد معين كما فعل الصدّيق ، أو على جماعة كما فعل عمر ، وهو الطريق الثانى ؛ ويكون التخيير إليهم فى تعيين واحد منهم كما فعل الصحابة رضى الله عنهم [فى تعيين[1] عثمان بن عفان رضى الله عنه] . الطريق الثالث : إجماع أهل الحَلّ والعَقْد ؛ وذلك أن الجماعة فى مصرٍ من أمصار المسلمين إذا مات إمامهم ولم يكن لهم إمام ولا آستخلف فأقام أهل ذلك المصر الذى هو حضرة الإمام وموضعه إمامًا لأنفسهم آجتمعوا عليه ورَضُوه فإن كل مَن خلفَهم وأمامَهم من المسلمين فى الآفاق يلزمهم الدخول فى طاعة ذلك الإمام ؛ إذا لم يكن الإمام معلنا بالفسق والفساد ؛ لأنها دعوة

(١) الزيادة فى تفسير العلامى نقلا عن القرطبى .

محيطة بهم تجب إجابتها ولا يسع أحدا التخلف عنها لما فى إقامة إمامين من آختلاف الكلمة وفساد ذات البَيْن ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يغِل[1] عليهنّ قلبُ مؤمنٍ إخلاصُ العمل لله ولزومُ الجماعة ومناصحةُ ولاةِ الأمر فإن دعوة المسلمين من ورائهم محيطة " .

الثامنـــة — فإنْ عَقَدها واحد من أهل الحَلّ والعَقْـد فذلك ثابت ويلزم الغير فعله ، خلافا لبعض الناس حيث قال : لا تنعقد إلا بجماعة من أهل الحلّ والعقد ؛ ودليلنا أن عمر رضى الله عنه عقد البَيعة لأبى بكر ولم يُنكر أحد من الصحابة ذلك ؛ ولأنه عَقْد فوجب ألا يفتقر إلى عدد يعقدونه كسائر العقود . قال الإمام أبو المعالى : من آنعقدت له الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حَدَث وتغيّر أمر ؛ قال : وهذا مُجْمَعٌ عليه .

التاســـعة — فإن تغلب مَن له أهليّة الإمامة وأخذها بالقهر والغَلَبَة فقد قيل إن ذلك يكون طريقا رابعا ؛ وقد سُئل سهل بن عبد الله التُّسْتَرِى : ما يجب علينا لمن غلب على بلادنا وهو إمام ؟ قال : تجيبه وتؤدّى إليه ما يطالبك من حقه ، ولا تنكر فعاله ولا تفرّ منه ، وإذا ائتمنك على سِرّ من أمر الدِّين لم تُفْشـه . وقال آبنُ خُوَيْزِمَنْداد : ولو وثب على الأمر من يصلح له من غير مشورة ولا اختيار وبايع له الناس تمّت له البَيْعة ، والله أعلم .

العـاشرة — وآختلف فى الشهادة على عقد الإمامة ؛ فقال بعض أصحابنا : إنه لا يفتقر إلى الشهود ؛ لأن الشهادة لا تثبت إلا بسمع قاطع ، وليس هاهنا سمع قاطع يدل على إثبات الشهادة . ومنهم من قال : يفتقر إلى شهود ؛ فمن قال بهذا آحتج بأن قال : لو لم تعقد فيه الشهادة أدّى إلى أن يدّعى كل مدّع[2] أنه عُقد له سرًّا ، ويؤدّى إلى الهَرْج والفتنة ، فوجب أن تكون الشهادة معتبرة ويكفى فيها شاهدان ، خلافا للجُبّائى حيث قال بآعتبار أربعة شهود وعاقد ومعقود له ؛ لأن عمر حيث جعلها شُورَى[3] فى ستة دلّ على ذلك . ودليلنا أنه لا خلاف بيننا

---

(١) روى « لا يغل » بضم الياء وكسر الغين ؛ أى لا يكون معها فى قلبه غش ودغل ونفاق . وروى « لا يغل » بفتح الياء ؛ أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق .

(٢) فى تفسير العلامى : « مبتدع » .

(٣) الستة : هم الذين نصح عمر — رضى الله عنه — للمسلمين أن يختاروا واحدا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدا . وهم : علىّ وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسـعد بن أبى وقاص والزبير بن العوّام وطلحة ابن عبيد الله . راجع قصة الشورى فى تاريخ ابن الأثير (ج ٣ ص ٥٠) طبع أوروبا .

و بينه أن شهادة الأثنين معتـــبرة ، وما زاد مختلف فيـــه ولم يدل عليه الدليـــل فيجب ألا يعتـــبر .

الحادية عشرة — فى شرائط الإمام ؛ وهى أحد عشر :

الأوّل — أن يكون من صميم قريش ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الأئمة من قريش " . وقد أختلف فى هذا .

الثـانى — أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضـياً من قضاة المسلمين مجتهدا لا يحتاج إلى غيره فى الأستفتاء فى الحوادث ؛ وهذا متّفق عليه .

الثـالث — أن يكون ذا خبرة ورأى حصيف بأمر الحرب وتدبير الجيوش وسدّ الثّغور وحماية البيضة[1] وردّع الأمة والأنتقام من الظالم والأخذ للمظلوم .

الرابـــع — أن يكون ممن لا تلحقه رِقّة فى إقامة الحـدود ولا فزع من ضرب الرقاب ولا قطع الأبشار . والدليل عل هـذا كله إجماع الصحابة رضى الله عنهـم ؛ لأنه لا خلاف بينهم أنه لا بدّ من أن يكون ذلك كله مجتمعا فيه ؛ ولأنه هو الذى يولى القضـاة والحكام ، وله أن يباشر الفصل والحكم ، ويتفحص أمور خلفائه وقضاته ؛ ولن يصلح لذلك كله إلا من كان عالمـا بذلك كله قيّما به . والله أعلم .

الخامس — أن يكون حُرًّا ؛ ولا خفاء باشتراط حرية الإمام و إسلامه وهو السادس .

السابع — أن يكون ذكرا ، سليم الأعضاء وهو الثامن . وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماما و إن أختلفوا فى جواز كونها قاضية فيما تجوز شهادتها فيه .

التاسع والعاشر — أن يكون بالغا عاقلا ؛ ولا خلاف فى ذلك .

الحادى عشر — أن يكون عدلا ؛ لأنه لا خلاف بين الأمة أنه لايجوز أن تعقد الإمامة لفاسق ؛ ويجب أن يكون من أفضلهم فى العلم ؛ لقوله عليه السلام : " أئمتكم شفعاؤكم فانظروا

---

(١) بيضة الاسلام : جماعتهم .

بمن تستشفعون " . وفى التنزيل فى وصف طالوت : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ »[1] فبدأ بالعلم ثم ذكر ما يدلّ على القوّة وسلامة الأعضاء. وقوله : «ٱصطفاه» معناه ٱختاره؛ وهذا يدل على شرط النسب . وليس من شرطه أن يكون معصوما من الزلل والخطأ ، ولا عالما بالغيب ، ولا أفرس الأمة ولا أشجعهم ، ولا أن يكون من بنى هاشم فقط دون غيرهم من قريش ؛ فإن الإجماع قد ٱنعقد على إمامة أبى بكر وعمر وعثمان وليسوا من بنى هاشم .

الثانية عشرة — يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة ؛ وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع الغدو وحماية البيضة وسدّ الخلل وٱستخراج الحقوق وإقامة الحدود وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها . فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التى لأجلها ينصب الإمام كان ذلك عذرا ظاهرا فى العدول عن الفاضل إلى المفضول ؛ ويدل على ذلك أيضا علم عمر وسائر الأمة وقت الشُّورَى بأن الستة فيهم فاضل ومفضول ، وقد أجاز العقد لكل واحد منهم إذا أدّى المصلحة إلى ذلك وٱجتمعت كلمتهم عليه من غير إنكار أحد عليهم ؛ والله أعلم .

الثالثة عشرة — الإمام إذا نُصِب ثم فَسَق بعد ٱنبرام العقد فقال الجمهور : إنه تنفسخ إمامته ويُخلع بالفسق الظاهر المعلوم ؛ لأنه قد ثبت أن الإمام إنما يقام لإقامة الحدود وٱستيفاء الحقوق وحفظ أموال الأيتام والمجانين والنظر فى أمورهم إلى غير ذلك مما تقدّم ذكره ؛ وما فيه من الفسق يُقعده عن القيام بهذه الأمور والنهوض بها . فلو جوّزنا أن يكون فاسقا أدّى إلى إبطال ما أقيم لأجله ، ألا ترى فى الٱبتداء إنما لم يجز أن يُعقد للفاسق لأجل أنه يؤدّى إلى إبطال ما أقيم له ، وكذلك هذا مثله . وقال آخرون : لا يخلع إلا بالكفر أو بترك إقامة الصلاة أو الترك إلى دعائها أو شىء من الشريعة ؛ لقوله عليه السلام فى حديث عُبادة : " وألا نُنازِع الأمر أهله [قال][2] إلا أن تروْا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه برهان " .

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٤٦ (٢) الزيادة عن صحيح مسلم (ج ٦ ص ١٧) طبع الآستانة . و «بواحا» أى جهارا ؛ من باح بالشىء يبوح به إذا أعلنه .

وفى حديث عَوف بن مالك : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة" الحديث . أخرجهما مسلم . وعن أم سَلَمة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنه يُستعمَل عليكم أمراءُ فتعرِفون وتُنكِرون فمن كَره فقد بَرِئ ومَن أنكر فقد سلِم ولكن مَن رَضِىَ وتابع — قالوا : يا رسول الله ألَا نقاتلهم؟ قال : — لا ما صَلَّوْا " . أى من كره بقلبه وأنكر بقلبه . أخرجه أيضا مسلم .

الرابعة عشرة — ويجب عليه أن يخلع نفسه إذا وجد فى نفسه نقصًا يؤثّر فى الإمامة . فأما إذا لم يجد نقصا فهل له أن يعزل نفسه ويعقد لغيره ؟ اختلف الناس فيه ؛ فمنهم من قال : ليس له أن يفعل ذلك وإن فعل لم تخلع إمامته . ومنهم من قال : له أن يفعل ذلك. والدليل على أن الإمام إذا عزل نفسه انعزل قول أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : أقيلونى أقيلونى . وقول الصحابة : لا نقيلك ولا نستقيلك ، قدّمك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فمن ذا يؤخرك! رضِيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا فلا نرضاك ! فلو لم يكن له أن يفعل ذلك لأنكرت الصحابة ذلك عليه ولقالت له : ليس لك أن تقول هذا ، وليس لك أن تفعله . فلما أقرّته الصحابة على ذلك علم أن للإمام أن يفعل ذلك ؛ ولأن الإمام ناظر للغيب[1] فيجب أن يكون حكمه حكم الحاكم ، والوكيل إذا عزل نفسه . فإن الإمام هو وكيل الأمة ونائب عنها ، ولما اتفق على أن الوكيل والحاكم وجميع من ناب عن غيره فى شىء له أن يعزل نفسه ، كذلك الإمام يجب أن يكون مثله . والله أعلم .

الخامسة عشرة — إذا انعقدت الإمامة باتفاق أهل الحَلّ والعَقْد أو بواحد على ما تقدّم وجب على الناس كافّةً مبايعته على السمع والطاعة ، وإقامة كتاب الله وسُنّة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومن تأبّى عن البَيعة لعُدْر عُذِر ، ومن تأبّى لغير عذر جُبر وقُهر ؛ لئلا تفترق كلمة المسلمين . وإذا بويع لخليفتين فالخليفة الأول وقُتل الآخر ؛ واختلف فى قتله هل هو محسوس أو معنًى فيكون عزله قتلَه ومَوْته . والأول أظهر ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . رواه أبو سعيد الخُدْرِىّ أخرجه مسلم .

(١) فى بعض الأصول : « للغير » .

وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول : "ومن بايع إماما فأعطاه صفقةَ يدِه وثمرة قلبه فلْيُطعه إن آستطاع فإن جاء آخر ينازعه فآضربوا عنق الآخر". رواه مسلم أيضا؛ ومن حديث عَرْفجة : "فآضربوه بالسيف كائنا من كان" . وهذا أدلّ دليل على منع إقامة إمامين ؛ ولأن ذلك يؤدّى إلى النفاق والمخالفة والشـقاق وحدوث الفتن وزوال النعم ؛ لكن إن تباعدت الأقطار وتباينت كالأندلس وخراسان جاز ذلك ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

السادسة عشرة — لو خرج خارجىّ على إمام معروف العدالة وجب على الناس جهاده ؛ فإن كان الإمام فاسقا والخارجىّ مظهر للعدل لم ينبغ للنـاس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجىّ حتى يتبيّن أمره فيما يظهر من العدل ، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأوّل ، وذلك أن كل من طلب مثـل هذا الأمر أظهر من نفسـه الصلاح حتى إذا تمكّن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر .

السابعة عشرة — فأما إقامة إمامين أو ثلاثة فى عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز إجماعا لمـا ذكرنا . قال الإمام أبو المعالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد الإمامة لشخصين فى طرفى العالَم؛ ثم قالوا : لو آتفق عقد الإمامة لشخصين نُزِّل ذلك منزلة تزويج وَلِيَّيْن آمرأة واحدة من زوجين من غير أن يشعر أحدهما بعقد الآخر . قال : والذى عندى فيه أن عقد الإمامة لشخصين فى صُـقع واحد متضايق الخِطط والمخاليف[1] غير جائز وقد حصل الإجماع عليـه . فأما إذا بَعُد المَدَى وتخلّل بين الإمامين شُسوع النّوَى فللآحتمال فى ذلك مجال وهو خارج عن القواطع . وكان الأستاذ أبو إسحاق يجـوّز ذلك فى إقليمين متباعدين غاية التباعد لئلا تتعطل حقوق الناس وأحكامهم . وذهبت الكَرّامية إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل؛ ويلزمهم إجازة ذلك فى بلد واحد ، وصاروا إلى أن عليًّا ومعاوية كانا إمامين . قالوا : وإذا كانا آثنين فى بلدَين أو ناحيتين كان كل واحد منهما أقوم بما فى يديه وأضبط لمـا يليه؛ ولأنه

(١) المخاليف : الأطراف والنواحى .

لما جاز بعثة نبيّين فى عصر واحد ولم يؤدّ ذلك إلى إبطال النبوّة كانت الإمامة أولَى، ولا يؤدّى ذلك إلى إبطال الإمامة . والجواب أن ذلك جائز لولا منع الشرع منه ؛ لقوله : " فاقتلوا الآخر منهما " ولأن الأُمّة عليه. وأما معاوية فلم يدّع الإمامة لنفسه وإنما ٱدّعى ولاية الشام بتولية مَن قبله من الأئمة. ومما يدلّ على هذا إجماع الأمة فى عصرهما على أن الإمام أحدهما ؛ ولا قال أحدهما إنى إمام ومخالفى إمام . فإن قالوا : العقل لا يحيل ذلك وليس فى السمع ما يمنع منه . قلنا : أقوى السمْع الإجماعُ ، وقد وُجد على المنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم إلا ما أُعْلِمت ولا تَسبِق بالقول، وذلك عام فى جميع الملائكة ؛ لأن قوله : «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ» خرج على جهة المدح لهم، فكيف قالوا : «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» ؟ فقيل : المعنى أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن فى بنى آدم من يفسد ؛ إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمّموا الحكم على الجميع بالمعصية ؛ فبيّن الربّ تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد فقال تطييباً لقلوبهم : « إِنِّى أَعْلَمُ » وحقّق ذلك بأن علّم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه . وقيل : إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورءوس الجبال ، فمن حينئذ دخلته العِزّة. فجاء قولهم : «أَتَجْعَلُ فِيهَا» على جهة الٱستفهام المحض : هل هذا الخليفة على طريقة من تقدّم من الجن أم لا ؟ قاله أحمد بن يحيى ثعلب . وقال ٱبن زيد وغيره : إن الله تعالى أعلمهم أن الخليفة سيكون من ذرّيته قوم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء ؛ فقالوا لذلك هذه المقالة، إمّا على طريق التعجب من ٱستخلاف الله من يعصيه أو من عِصيان الله من يستخلفه فى أرضه ويُنعم عليه بذلك ، وإمّا على طريق الٱستعظام والإكبار للفصلين جميعا : الٱستخلاف والعصيان. وقال قتادة : كان الله أعلمهم أنه إذا جعل فى الأرض خلقا أفسدوا وسفكوا الدماء، فسألوا حين قال تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » أهو الذى أعلمهم أم غيره .

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن قتادة فى قوله « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» قال: كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك قالوا: « أتجعل فيها مَن يفسد فيها » . وفى الكلام حذف على مذهبـه؛ والمعنى إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا: أتجعل فيها الذى أعلمتناه أم غيره؟ والقول الأول أيضا حسن جدا؛ لأن فيه آستخراج العلم وآستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء؛ وما بين القولين حسن، فتأمله . وقد قيل: إن سؤاله تعالى للملائكة بقوله: "كيف تركتم عبادى" — على ما ثبت فى صحيح مسلم وغيره — إنما هو على جهة التوبيخ لمن قال: أتجعل فيها، وإظهار لما سبق فى معلومه إذ قال لهم: « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ» .

قوله: ﴿ مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ «مَن» فى موضع نصب على المفعول بتجعل والمفعول الثانى يقوم مقامه «فيها» . «يُفسد» على اللفظ، ويجوز فى غير القرآن يفسدون على المعنى. وفى التنزيل: « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ » على المعنى. ﴿ وَيَسْفِكُ ﴾ عطف عليه، ويجوز فيه الوجهان . وروى أسيد عن الأعرج أنه قرأ: « وَيَسْفِكَ الدِّمَاءَ» بالنصب، يجعله جواب الآستفهام بالواو، كما قال[1]:

ألم أكُ جارَكم وتكونَ بينى * وبينكُمُ المـــودَّةُ والإخاءُ

والسَّـفْكُ: الصَّب . سفكت الدم أَسْفِكه سَفْكًا: صببتـه، وكذلك الدمع؛ حكاه آبن فارس والجوهرى . والسـفّاك: السفاح، وهو القادر على الكلام . قال المهدوى: ولا يستعمل السفك إلا فى الدم، وقـد يستعمل فى نثر الكلام؛ يقال سـفك الكلام إذا نثره . وواحد الدماء دَمٌ، محذوف اللام . وقيل: أصله دَمْىٌ . وقيـل: دَمَىٌ، ولا يكون آسم على حرفين إلا وقد حُذف منـه، والمحذوف منـه ياء وقد نُطق به على الأصـل؛ قال الشاعر:

فـــلو أنّا على حجـر ذُبحنـا * جَرَى الدّميـان بالخبر اليقين

---

(١) القائل هو الحطيئة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أى ننزّهك عمّا لا يليق بصفاتك . والتسبيح فى كلامهم التنزيه من السوء على وجه التعظيم ؛ ومنه قول أعْشَى بنى ثَعْلبة :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـرُه * سبحانَ من عَلْقَمَـةَ الفاخرِ

أى براءة من عَلْقَمـة . وروى طلحة بن عبيد الله قال : سألت رسـول الله صـلى الله عليه وسلم عن تفسير سبحان الله فقال : " هو تنزيه الله عزّ وجلّ عن كل سـوء " . وهو مشتق من السّبح وهو الجَرْى والذهاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا »(١) فالمسبِّح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السّوء . وقد تقدّم الكلام فى «نحن»(٢) ، ولا يجوز إدغام النون فى النون لئلا يلتقى ساكنان .

مسـئلة : واختلف أهل التأويل فى تسبيح الملائكة ، فقال ابن مسعود وابن عباس : تسبيحهم صلاتهم ؛ ومنه قول الله تعالى : «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ»(٣) أى المُصَلّين . وقيل : تسبيحهم رفع الصوت بالذكر ، قاله المفضّل ؛ واستشهد بقول جرير :

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلّمـا * سَبَحَ الحجيج وكَبّرُوا إهلالَا(٤)

وقال قتادة : تسبيحهم : سبحان الله ؛ على عُرفه فى اللغة ، وهو الصحيح لمـا رواه أبو ذَرّ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سئل : أىّ الكلام أفضل ؟ قال : " ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده](٥) سبحان الله وبحمده " . أخرجه مسـلم . وعن عبد الرحمن بن قُرْط أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ليـلة أُسْرِىَ به سمع تسبيحًا فى السموات العلا : سبحان العلىّ الأعلى سبحانه وتعالى ؛ ذكره البيهقى .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٤١ (٢) راجع ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ١٢٣ (٤) فى ديوان جرير : «شبح» . وفسر الشبح بأنه رفع الأيدى بالدعاء . راجع اللسان مادة « شبح » وديوان جرير المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١ أدب ش .

(٥) زيادة عن صحيح مسلم (ج ٨ ص ٨٦ طبع الآستانة) .

قوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِكَ ﴾ أى وبحمدك نخلط التسبيح بالحمد ونصله به . والحمد : الثناء، وقد تقدّم[1] . ويحتمل أن يكون قولهم : «بحمدك» اعتراضا بين الكلامين؛ كأنهم قالوا : ونحن نسبح ونقدّس، ثم اعترضوا على جهة التسليم؛ أى وأنت المحمود فى الهداية إلى ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أى نعظّمك ونُمجّدك ونطهّر ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون؛ قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما . وقال الضحاك وغيره : المعنى نطهّر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : « نقدّس لك » معناه نصلّى . والتقديس : الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

قلت : بل معناه صحيح؛ فإن الصلاة تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : "سُبُّوح قُدّوس ربُّ الملائكة والرُّوح". رواه عائشة أخرجه مسلم . وبناء «قدس» كيفما تصرّف فإن معناه التطهير؛ ومنه قوله تعالى : « ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[2] » أى المطهّرة . وقال : «الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ[3]» يعنى الطاهر؛ ومثله : «بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ[4] طُوًى» وبيت المَقْدِس سُمّى به لأنه المكان الذى يُتقدّس فيه من الذنوب أى يتطهّر؛ ومنه قيل للسَّطْل : قَدَس؛ لأنه يُتوضأ فيه ويُتطهّر؛ ومنه القادوس. وفى الحديث : "لا قُدّسَتْ أمّةٌ لا يؤخذ لضعيفها من قويّها" . يريد لا طهّرها الله؛ أخرجه ابن ماجه فى سُننه . فالقُدْس : الطُّهْر من غير خلاف؛ وقال الشاعر[5] :

فأدركنه يأخُذْنَ بالسّاق والنَّسَا * كما شَبْرَقَ الولدانُ ثوبَ المُقَدّس

أى المطهّر . فالصلاة طُهرةٌ للعبد من الذُّنوب، والمُصَلِّى يدخلها على أكمل الأحوال لكونها أفضل الأعمال، والله أعلم .

---

(١) راجع المسئلة الرابعة ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٥

(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٥ (٤) راجع جـ ١١ ص ١٧٥ (٥) هو امرؤ القيس . والهاء فى « أدركنه » ضمير النور، والنون ضمير الكلاب . والنسا : عرق فى الفخذ . والشبرقة : تقطيع الثوب وغيره . والمقدّس (بكسر الدال وتشديدها) : الراهب . وبالفتح : المبارك . يقول : أدركت الكلاب النور يأخذن بساقه وفخذه، وشبرقت جلده كما شبرق ولدان النصارى ثوب الراهب المسيح لله عز وجل إذا نزل من صومعته فقطعوا ثيابه تبركا به . (عن شرح الديوان واللسان) .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ «أعلم» فيه تأويلان؛ قيل : إنه فعل مستقبل . وقيل : إنه اسم بمعنى فاعل ؛ كما يقال : الله أكبر، بمعنى كبير؛ وكما قال(١) :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنّى لَأَوْجَلُ * على أيّنا تعـدُو المنيّـة أوّلُ

فعلى أنه فعل تكون « ما » فى موضع نصب بأعلم، ويجوز إدغام الميم فى الميم . وإن جعلته اسما بمعنى عالم تكون « ما » فى موضع خفض بالإضافة . قال ابن عطية : ولا يصح فيه الصرف بإجماع من النحاة ، وإنما الخلاف فى « أفعل » إذا سُمِّيَ به وكان نكرة ، فسيبويه والخليل لا يَصْرِفانه ، والأخفش يَصْرِفه . قال المهدَوِىّ : يجوز أن تقدّر التنوين فى «أعلم» إذا قدّرته بمعنى عالم، وتنصب «ما» به؛ فيكون مثل حَوائجُ بيتَ الله . قال الجوهرى : ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة إذا كنّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنّ حججن قلت : حواجُّ بيتَ الله، فتنصب البيت؛ لأنك تريد التنوين فى حواجّ .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ اختلف علماء التأويل فى المراد بقوله تعالى : « مَا لَا تَعْلَمُونَ » . فقال ابن عباس : كان إبليس — لعنه الله — قد أعجب ودخله الكبر لما جعله خازن السماء وشرفه، فاعتقد أن ذلك لمزيّة له؛ فاستخف الكفر والمعصية فى جانب آدم عليه السلام . وقالت الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » وهى لا تعلم أن فى نفس إبليس خلاف ذلك؛ فقال الله تعالى لهم : « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » . وقال قتادة : لما قالت الملائكة « أَتَجْعَلُ فِيهَا » وقد علم الله أن فيمن يستخلف فى الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم « إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

قلت : ويحتمل أن يكون المعنى إنى أعلم ما لا تعلمون مما كان ومما يكون ومما هو كائن؛ فهو عام .

---

(١) القائل هو معن بن أوس . كان له صديق وكان معن متزوجا بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج غيرها ، فحالى صديقه ألا يكلمه أبدا ؛ فأنشأ معن يستعطف قلبه عليه ويسترفه له . (عن أشعار الحماسة) .

قوله تعالى : وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «علّم» معناه عَرّف . وتعليمه هنا إلهام علمه ضرورةً . ويحتمل أن يكون بواسطة مَلَك وهو جبريل عليه السلام ؛ على ما يأتى . وقرئ : «وعُلِّم» غير مسمًّى الفاعل . والأول أظهر ؛ على ما يأتى . قال علماء الصوفية : علّمها بتعليم الحق إيّاه وحَفِظها بحفظه عليه ونسى ما عهد إليه ؛ لأن وكَلَه فيه إلى نفسه فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا »[1] . وقال ابن عطاء : لو لم يُكشف لآدم علم تلك الأسماء لكان أعجز من الملائكة فى الإخبار عنها : وهذا واضح .

وآدم عليه السلام يُكْنَى أبا البشر . وقيل : أبا محمد ؛ كنى بمحمد خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ قاله السُّهَيْلِيّ . وقيل : كُنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر . وأصله بهمزتين ؛ لأنه أفعل إلا أنهم ليّنُوا الثانية ، فإذا احتجت إلى تحريكها جعلتها واوا فقلت : أوادِم فى الجمع ؛ لأنه ليس لها أصل فى الياء معروف ، فجعلت الغالب عليها الواو ؛ عن الأخفش .

واختلف فى اشتقاقه ؛ فقيل : هو مشتق من أَدَمة الأرض وأديمها وهو وجهها ، فسمّى بما خلق منه ؛ قاله ابن عباس . وقيل . إنه مشتق من الأُدْمَة وهى السُّمْرة . واختلفوا فى الأُدْمَة ، فزعم الضحاك أنها السُّمْرة ؛ وزعم النَّضْر أنها البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض ؛ مأخوذ من قولهم : ناقة أدماءُ ، إذا كانت بيضاء . وعلى هذا الاشتقاق جمعه أُدْم وأوادم ؛ كحُمْر وأحامر ، ولا ينصرف بوجه . وعلى أنه مشتق من الأدمة جمعه آدمون ؛ ويلزم قائلو هذه المقالة صرفه .

قلت : الصحيح أنه مشتق من أديم الأرض . قال سعيد بن جُبير : إنما سُمّى آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وإنما سُمّى إنسانا لأنه نَسِى ؛ ذكره ابن سعد فى الطبقات . وروى

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١

السُّدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مُرّة الهَمْدانىّ عن ابن مسعود فى قصة خلق آدم عليه السلام قال : فبعث الله جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها ؛ فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تَشِينَنى(١) ؛ فرجع ولم يأخذ وقال : يارب إنها عاذت بك فأعذتها . فبعث مكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل ؛ فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره . فأخذ من وجه الأرض وخلط ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء و بيضاء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين — ولذلك سمى آدم لأنه أخذ من أديم الأرض — فصعِد به ، فقال الله تعالى له : " أما رَحِمت الأرض حين تضرّعت إليك" فقال : رأيت أمرك أوجب من قولها . فقال : " أنت تصلح لقبض أرواح ولده " فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا ؛ اللازب : هوالذى يلتصق بعضه ببعض، ثم تُرك حتى أنتن ؛ فذلك حيث يقول : « مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » قال : مُنتِن . ثم قال للملائكة : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »(٢) . فخلقه الله بيده لكيلا يتكبّر إبليس عنه . يقول : أتتكبّر عمّا خلقتُ بيدى ولم أتكبّر أنا عنه ! فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرّت به الملائكة ففزِعوا منه لما رأوْه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفَخّار تكون له صَلْصلة ؛ فذلك حين يقول : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »(٣) . ويقول لأمرٍ ما خلقت ! . ودخل من فمه وخرج من دبره ؛ فقال إبليس للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإنه أجوف ولئن سُلّطت عليه لأهلكنّه . ويقال : إنه كان إذا مرّ عليه مع الملائكة يقول : أرأيتم هذا الذى لم تروْا من الخلائق يشبهه إن فُضّل عليكم وأمرتم بطاعته ما أنتم فاعلون ! قالوا : نطيع أمر ربّنا ؛ فأسرّ إبليس فى نفسه لئن فُضّل علىّ فلا أطيعه ، ولئن فُضّلتُ عليه لأهلكنّه ؛ فلما بلغ الحين الذى أريد أن ينفخ فيه الروح

---

(١) فى نسخة . « أن تنقص منى أو تشينى » . وفى تاريخ الطبرى (ص ٨٧ قسم أول طبع أوربا) : « أن تنقص منى شيئا وتشينى » .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٧ (٣) راجع جـ ١٧ ص ١٦٠

قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ؛ فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عَطَس ؛ فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ؛ فقال : الحمد لله ؛ فقال الله له : رحمك ربك ؛ فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك حين يقول : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »(١) « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ »(٢) وذكر القصة . و روى الترمذىّ عن أبى موسى الأشعرىّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود و بين ذلك والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطيّب" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . أديم : جمع أَدَم ؛ قال الشاعر :

النـاسُ أخيافٌ(٣) وشَتَّى فى الشِّيَمْ * وكلُّهم يجمعهـــم وَجه الأَدَمْ

فآدم مشتق من الأديم والأَدَم لا من الأُدْمة ؛ والله أعلم . ويحتمل أن يكون منهما جميعا . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى خلق آدم فى « الأنعام »(٤) وغيرها إن شاء الله تعالى .

و « آدم » لا ينصرف . قال أبو جعفر النحاس : « آدم لا ينصرف فى المعرفة بإجماع النحويين ؛ لأنه على أفْعَل وهو معرفة ، ولا يمتنع شىء من الصرف عند البصريين إلا لعلّتين . فإن نكّرته ولم يكن نعتًا لم يَصرفه الخليل وسيبويه ، وصرفه الأخفش سعيد ؛ لأنه كان نعتا وهو على وزن الفعل ، فإذا لم يكن نعتا صَرَفه . قال أبو إسحاق الزجاج : القول قول سيبويه ، ولا يفرّق بين النعت وغيره لأنه هو ذاك بعينه » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ «الأسماء» هنا بمعنى العبارات ، فإن الاسم قد يطلق و يراد به المسمَّى ؛ كقولك : زيد قائم ، والأسد شجاع . وقد يراد به التسمية ذاتها ؛ كقولك : أسـد ثلاثة أحرف ؛ ففى الأول يقال : الاسم هو المسمَّى بمعنى يراد به المسمى ، وفى الثانى لا يراد به المسمَّى ؛ وقد يجرى اسم فى اللغة مجرى ذات العبارة وهو الأكثر من

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٨٨ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٥ (٣) الأخياف : المختلفون فى الأخلاق والأشكال . (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وجـ ٧ ص ١٦٨

استعمالها؛ ومنه قوله تعالى : «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» على أشهر التأويلات؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن لله تسعةً وتسعين اسمًا". ويجرى مجرى الذات، يقال : ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنًى؛ وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى : « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى »[1] « تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ » « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » .

الثالثـــة — واختلف أهل التأويل فى معنى الأسماء التى علّمها لآدم عليه السلام ؛ فقال ابن عباس وعِكرمة وقتادة ومجاهد وابن جُبير : علّمه أسماء جميع الأشياء كلها جليلها وحقيرها. وروى عاصم بن كليب عن سعد مولى الحسن بن علىّ قال : كنت جالسا عند ابن عباس فذكروا اسم الآنيَة واسم السَّوْط ؛ قال ابن عباس : « وعلّم آدم الأسماء كلها » .

قلت : وقد روى هذا المعنى مرفوعا على ما يأتى؛ وهو الذى يقتضيه لفظ « كلها » إذ هو اسم موضوع للإحاطة والعموم؛ وفى البخارىّ من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كلّ شىء" الحديث . قال ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد : فى هذه الآية دليل على أن اللغة مأخوذة توقيفًا، وأن الله تعالى علّمها آدم عليه السلام جملةً وتفصيلا . وكذلك قال ابن عباس : علّمه أسماء كل شىء حتى الجَفْنة والمِحْلَب . وروى شَيْبان عن قتادة قال : علم آدم من الأسماء أسماء خلقه ما لم يعلم الملائكة ، وسمّى كل شىء باسمه وأنحى[2] منفعة كل شىء إلى جنسه . قال النحاس : وهذا أحسن ما روى فى هذا . والمعنى علّمه أسماء الأجناس وعرّفه منافعها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا . وقال الطبرىّ : علّمه أسماء الملائكة وذرّيته، واختار هذا ورجّحه بقوله : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . وقال ابن زيد : علّمه أسماء ذرّيته كلهم . الربيع بن خُثَيم[3] : أسماء الملائكة خاصة . القُتَبىّ : أسماء ما خلق فى الأرض . وقيل : أسماء الأجناس والأنواع .

قلت : القول الأول أصح، لما ذكرناه آنفًا ولما نبيّنه إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٢٠ ص ١٣ (٢) أنحى : صرف . وفى الطبرى : « ألجأ » .

(٣) فى التقريب بضم المعجمة وفتح المثلثة . وفى الخلاصة « خثيم » بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة .

الرابعـــة — واختلف المتأولون أيضا هـل عرض على الملائكة أسماء الأشخاص أو الأسماء دون الأشخاص؛ فقال ابن مسعود وغيره: عرض الأشخاص لقوله تعالى: «عَرَضَهُمْ» وقوله: ﴿أَنَبِّئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾. وتقول العرب: عَرَضْتُ الشيء فأَعْرَض؛ أى أظهرته فظهر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع. وفى الحديث "إنه عَرَضهم أمثال الذَّر". وقال ابن عباس وغيره: عرض الأسماء. وفى حرف ابن مسعود: «عرضهنّ»؛ فأعاد على الأسماء دون الأشخاص؛ لأن الهاء والنون أخصّ بالمؤنث. وفى حرف أُبَيّ: «عرضها». مجاهد: أصحاب الأسماء. فمن قال فى الأسماء إنها التسميات فاستقام على قراءة أُبَيّ «عرضها». وتقول فى قراءة من قرأ «عرضهم»: إن لفظ الأسماء يدلّ على أشخاص؛ فلذلك ساغ أن يقال للأسماء: «عرضهم». وقال فى «هؤلاء» المراد بالإشارة: إلى أشخاص الأسماء، لكن وإن كانت غائبة فقد حضر ما هو منها بسببٍ وذلك أسماؤها. قال ابن عطية: والذى يظهر أن الله تعالى علّم آدم الأسماء وعرضهنّ عليه مع تلك الأجناس بأشخاصها، ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن تسمياتها التى قد تعلمها، ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا. وقال الماوَرْدِيّ: وكان الأصح توجّه العرض إلى المسمّين. ثم فى زمن عرضهم قولان: أحدهما أنه عرضهم بعد أن خلقهم. الثانى — أنه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم.

الخامســـة — واختلف فى أوّل من تكلم باللسان العربيّ؛ فرُوِىَ عن كعب الأحبار: أن أوّل مَن وضع الكتاب العربيّ والسُّرْيانيّ والكتبَ كلّها وتكلّم بالألسنة كلّها آدم عليه السلام. وقاله غير كعب الأحبار.

فإن قيل: قد روى عن كعب الأحبار من وجه حَسَن قال: أوّل مَن تكلّم بالعربية جبريل عليه السلام وهو الذى ألقاها على لسان نوح عليه السلام وألقاها نوح على لسان ابنه سام؛ ورواه ثَور بن زيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب. ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أوّل مَن فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر سنين". وقد رُوى أيضا: أن أوّل مَن تكلّم بالعربية يَعْرُب بن قَحْطان، وقد روي غير ذلك. قلنا: الصحيح أن

أوّل مَن تكلّم باللغات كلّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآن يشهد له؛ قال الله تعالى: « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا » واللّغات كلّها أسماء فهى داخلة تحته وبهذا جاءت السنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: "وعلّم آدم الأسماء كلّها حتى القَصْعة والقُصَيعة" وما ذكروه يحتمل أن يكون المراد به أوّل من تكلم بالعربيّـة من ولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ عليه السـلام . وكذلك إن صح ما سواه فإنه يكون محمولا على أن المذكور أوّل من تكلّم من قبيلته بالعربية بدليل ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريل أوّل من تكلم بها من الملائكة وألقاها على لسان نوح بعد أن علّمها الله آدم أو جبريل؛ على ما تقدّم، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ لفظ مبنيّ على الكسر. ولغة تَميم وبعض قيس وأَسَد فيه القصر؛ قال الأعشى :

هَؤُلَا ثم هَؤُلَا كلًّا أعطيـ * ـتَ نِعالًا مَحْذُوَّةً بمثالِ

ومن العرب من يقول : هولاء؛ فيحذف الألف والهمزة[1].

السادســـة — قوله تعالى : ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرطٌ، والجواب محذوفٌ تقديره: إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض فأنبئونى؛ قاله المبرّد . ومعنى «صادقين» عالمين؛ ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد وقالوا : « سبحانك » ! حكاه النقاش قال : ولو لم يشترط عليهم إلا الصدق فى الإنبـاء لجاز لهم الاجتهاد كما جاز للذى أماته الله مائة عام حين قال له : « كَمْ لَبِثْتَ » فلم يشترط عليـه الإصابة، فقـال ولم يُصب ولم يُعنَّف؛ وهذا بيّن لا خفاء فيـه . وحكى الطبرى وأبو عبيد : أن بعض المفسرين قال إن معنى « إن كنتم » : إذ كنتم، وقالا : هـذا خطأ . و « أَنْبِئُونِى » معناه أخبرونى . والنبأ : الخبر؛ ومنه النبيء بالهمز، وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[2] .

السابعـــة — قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق لأنه علم أنهم لا يعلمون . وقال المحققون من أهل التأويل : ليس هذا على جهة التكليف وإنمـا

(١) فى البحر لأبى حيان « بحذف ألف ها وهمزة أولا، وإقرار الواو التى بعد تلك الهمزة » .
(٢) فى قوله تعالى : « و يقتلون النبيين بغير الحق ... » راجع ص ٤٣١ من هذا الجزء .

هو على جهة التقرير والتوقيف . وسيأتى القول فى تكليف ما لا يطاق — هل وقع التكليف به أم لا — فى آخر السورة[1]، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى تنزيهاً لك عن أن يعلم الغيب أحدٌ سواك . وهذا جوابهم عن قوله : « أَنْبِئُونِي » فأجابوا أنهم لا يعلمون إلا ما أعلمهم به ولم يتعاطوْا ما لا علم لهم به كما يفعله الجهال منا . و « ما » فى « ماعلمتنا » بمعنى الذى ؛ أى إلا الذى علّمتنا ؛ ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إلا تعليمك إيانا .

الثانيـــة — الواجب على مَن سُئل عن علم أن يقول إن لم يعلم : الله أعلم ولا أدرى ، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء ، لكن قد أخبر الصادق أنّ بموت العلماء يقبض العلم ؛ فيبقى ناس جُهّال يُستفتَوْن فيُفتون برأيهم فيَضلّون ويُضلّون . وأما ماورد من الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين بعدهم فى معنى الآية فروَى البُسْتِىّ[2] فى المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ البقاع شرّ ؟ قال : " لا أدرى حتى أسأل جبريل " فسأل جبريل ؛ فقال : لا أدرى حتى أسأل ميكائيل ؛ فجاء فقال : خير البقاع المساجد ، وشرّها الأسواق . وقال الصّديق للجَدّة : ارجعى حتى أسأل الناس . وكان علىّ يقول : وابردها على الكبد ؛ ثلاث مرات . قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أن يُسئل الرجلُ عما لا يعلم فيقول : الله أعلم . وسأل ابنَ عمر رجلٌ عن مسئلة فقال : لا علم لى بها ؛ فلما أدبر الرجل . قال ابن عمر : نِعمَ ماقال ابن عمر ، سُئل عما لا يعلم فقال لا علم لى به ! ذكره الدارمىّ فى مسنده . وفى صحيح مسلم عن أبى عَقيل

(١) راجع جـ ٣ ص ٤٢٨ (٢) فى نسخة « النسائى » .

يحيى بن المتوكل صاحب بُهَيَّة[1] قال : كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم : يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيمٌ أن يُسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه عِلْمٌ ولا فَرَج، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَج ؟ فقال له القاسم : وعَمَّ ذاك ؟ قال : لأنك آبن إمامَىْ هُدًى : آبنُ أبى بكر[2] وعمر . قال يقول له القاسم : أقْبَحُ من ذاك عند مَن عَقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة . فسكت فما أجابه . وقال مالك بن أنس : سمعت آبن هُرْمُز يقول : ينبغى للعالم أن يُوَرِّث جلساءه من بعده لا أدرى حتى يكون أصلا فى أيديهم ؛ فإذا سُئل أحدهم عما لا يدرى قال : لا أدرى . وذكر الهَيْثَم بن جميل قال : شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال فى آثنتين وثلاثين منها : لا أدرى .

قلت : ومثلُه كثيرٌ عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين ، وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسةُ وعدم الإنصاف فى العلم . قال آبن عبد البَرّ : من بركة العلم وآدابه الإنصافُ فيه، ومن لم يُنصف لم يفهم ولم يتفهّم . روى يونس بن عبد الأعلى قال سمعت آبن وَهْب يقول سمعت مالك بن أنس يقول : ما فى زماننا شيء أقلّ من الإنصاف .

قلت : هذا فى زمن مالك فكيف فى زماننا اليوم الذى عمّ فينا الفساد وكثر فيه الطَّغام ! وطُلب فيه العلم للرياسة لا للدراية ، بل للظهور فى الدنيا وغلبة الأقران بالمِراء والجدال الذى يُقْسِى القلب ويُورث الضِّغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى . أين هذا مما رُوى عن عمر رضى الله عنه وقد قال: لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أُوقِيَّة ولو كانت بنت ذى العَصَبة — يعنى يزيد بن الحُصين الحارثى — فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال ؛ فقامت آمرأة من صَوْب النساء طويلةٌ فيها فَطَس[3] فقالت : ماذلك لك !

---

(١) بهية (بالتصغير) : مولاة أبى بكر رضى الله عنه ، تروى عن عائشة . وروى عنها أبو عقيل المذكور .

(٢) القاسم هذا ، هو آبن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وأم القاسم هى أم عبد الله بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ؛ فأبو بكر جدّه الأعلى لأمه ، وعمر جدّه الأعلى لأبيه ، وآبن عمر جدّه الحقيق لأبيه . رضى الله عنهم أجمعين . (عن شرح النووى على صحيح مسلم) .

(٣) الفطس (بالتحريك) : آنخفاض قصبة الأنف وتطامنها وانتشارها .

قال : ولم ؟ قالت لأن الله عزوجل يقول : «وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا» فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ ! وروى وَكيع عن أبى معشر عن محمد بن كعب القُرَظى قال : سأل رجل عليًّا رضى الله عنه عن مسئلة فقال فيها ؛ فقال الرجل : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ؛ فقال علىّ : أصبتَ وأخطأتُ ، وفوق كل ذى علم عليم . وذكر أبو محمد قاسم بن أَصْبَغ قال : لمّا رحلتُ إلى المشرق نزلت القَيْرَوان فأخذت على بكر ابن حماد حديثَ مُسَدَّد ، ثم رحلتُ إلى بَغداد ولقيت الناس ، فلما انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مسدّد ، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أنه قدم عليه قوم من مُضَرَ مِن مُجْتابِي(١) النِّمَار" فقال : إنما هو مُجْتابى النِّمار ؛ فقلت إنما هو مُجتابى النمار ؛ هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق ؛ فقال لى : بدخولك العراق تُعارضنا وتفخر علينا ! أو نحو هـذا . ثم قال لى : قم بنا إلى ذلك الشيخ — لشيخ كان فى المسجد — فإن له بمثل هذا علمًا ؛ فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال : إنما هو مُجْتابى النِّمار ، كما قلت . وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة(٢) ، جيوبُهم أمامَهم . والنِّمار جمع نَمِرة(٣) . فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه : رَغِم أنفى للحق ، رَغِم أنفى للحق . وانصرف . وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن :

إذا ما تحدّثتُ فى مجلسٍ * تناهَى حديثى إلى ما علمتُ
ولم أَعْدُ علمى إلى غيره * وكان إذا ما تناهَى سكتُّ

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ « سبحان » منصوب على المصدر عند الخليل وسيبويه ، يؤدّى عن معنى نُسَبِّحك تسبيحًا . وقال الكسائى : هو منصوب على أنه نداء مضاف . و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ فعيل للبالغة والتكثير فى المعلومات فى خلق الله تعالى . و﴿ الْحَكِيمُ ﴾ معناه الحاكم ؛ وبينهما مزيد المبالغة . وقيل معناه المُحكِم ويجىء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صُرف عن مُفْعِل إلى فَعِيل ، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَمِيع ومُؤلِم إلى أليم ؛ قاله ابن

(١) مشققة مخططة .
(٢) مجتابى النمار ؛ أى لا بسها . يقال : اجتبت القميص والظلام دخلت فيهما .
(٣) وهى كل شملة مخططة من مآزر الأعراب ؛ كأنما أخذت من لون النمر .

الأنبارى . وقال قوم : «الحكيم» المانع من الفساد ؛ ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام ؛ لأنها تمنع الفرس من الجرى والذهاب فى غير قصد . قال جرير :

أَبَنِى حَنِيفَةَ أَحْكِموا سُفَهاءَكم * إنّى أخافُ عليكمُ أن أَغْضَبَا

أى آمنعوهم من الفساد . وقال زهير :

القائدُ الخيلَ مَنْكوبًا دوابِرُها (١) * قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

القدّ : الجلد . والأَبَق : القُنَّب (٢) . والعرب تقول : أَحْكِم اليتيم عن كذا وكذا ؛ يريدون منعه . والسورة المُحْكَمة : الممنوعة من التغيير وكل التبديل ، وأن يُلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها ؛ والحِكمة من هـذا ؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل . ويقال : أَحْكَمَ الشىء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد . فهو مُحْكَم وحكيم على التكثير .

قوله تعالى : قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أمره الله أن يُعلِمهم بأسمائهم بعد أن عرضهم على الملائكة ليعلموا أنه أعلم بما سألهم عنه تنبيهًا على فضله وعلوّ شأنه ؛ فكان أفضل منهم بأن قدّمه عليهم وأسجدهم له وجعلهم تلامذته وأمرهم بأن يتعلّموا منه . فحصلت له رتبة الجلال والعظمة بأن جعله مسجودا له ، مختصًّا بالعلم .

الثانيـة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وأهله ؛ وفى الحديث : " وإن الملائكة لتضع أجنحتها رِضًا لطالب العلم " أى تخضع وتتواضع ؛ وإنما تفعل ذلك لأهل (٣) العلم خاصّـة

(١) النَّكْب : أن ينكُب الحجر ظفرا أو حافرا . والدوابر . أواخر الحوافر . يقول : يقود الخيـل فى الغزو ويبعد بها حتى تنكب دوابرها ؛ أى تأكلها الأرض وتؤثر فيها . (٢) القنب (بكسر القاف وضمها) : ضرب من الكتان . (٣) فى نسخة من الأصل : « لأجل » .

من بين سائر عيال[1] الله؛ لأن الله تعالى ألزمها ذلك فى آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب. فكلما ظهر لها علم فى بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله، ورضى منهم[2] بالطلب له والشغل به. هذا فى الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم.

الثالثـــة — اختلف العلماء من هذا الباب، أيما أفضل الملائكة أو بنو آدم على قولين: فذهب قوم إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل. احتج من فضل الملائكة بأنهم «عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ». «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». وقوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ»[3] وقوله: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ»[4]. وفى البخارى: «يقول الله عز وجل: "من ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم"». وهـذا نص. احتج من فضل بنى آدم بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ»[5] بالهمز، من برأ الله الخلق. وقوله عليه السلام: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم" الحديث. اخرجه أبو داود، وبما جاء فى أحاديث من أن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، ولا يباهى إلا بالأفضل، والله أعلم. وقال بعض العلماء: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا القطع بأن الملائكة خير منهم؛ لأن طريق ذلك خبر الله تعالى وخبر رسوله أو إجماع الأمة؛ وليس ها هنا شىء من ذلك، خلافا للقدرية والقاضى أبى بكر رحمة الله حيث قالوا: الملائكة أفضل. قال: وأما من قال من أصحابنا والشيعة: إن الأنبياء أفضل لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فيقال لهم: المسجود له لا يكون أفضل من الساجد، ألا ترى أن الكعبة مسجود لها والأنبياء والخلق يسجدون نحوها، ثم إن الأنبياء خير من الكعبة باتفاق الأمة. ولا خلاف أن السجود

(١) فى نسخ من الأصل: «عمال الله». (٢) فى نسخة: «ورضى الله عنهم ... الخ».
(٣) راجع جـ ٦ ص ٢٦ (٤) راجع جـ ٦ ص ٤٢٩ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٥

لا يكون إلا الله تعالى؛ لأن السجود عبادة؛ والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك فكون السجود إلى جهة لا يدل على أن الجهة خير من الساجد العابد؛ وهذا واضح. وسيأتى له مزيد بيان فى الآية بعد هذا.

الرابعـة — قوله تعالى: ﴿إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دليل على أن أحدا لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله كالأنبياء أو من أعلمه من أعلمه الله تعالى؛ فالمنجمون والكُهّان وغيرهم كذبة. وسيأتى بيان هذا فى «الأنعام»(١) إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

الخامسـة — قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أى من قولهم: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا» حكاه مَكّى والماوَرْدِىّ. وقال الزَّهراوىّ: ما أبدوه هو بِدارُهم بالسجود لآدم. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قال ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جُبير: المراد ما كتمه إبليس فى نفسه من الكبر والمعصية. قال ابن عطية: وجاء «تكتمون» للجماعة؛ والكاتم واحد فى هذا القول على تجوّز العرب واتساعها؛ كما يقال لقوم قد جَنَى سَفِيهٌ منهم: أنتم فعلتم كذا. أى منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف؛ ومنه قوله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»(٢) وإنما ناداه منهم عُيَيْنَة، وقيل الأَقْرَع. وقالت طائفة: الإبداء والمكتوم ذلك على معنى العموم فى معرفة أسرارهم وظواهرهم أجمع. وقال مهدى بن ميمون: كنا عند الحسن فسأله الحسن بن دِينار ما الذى كتمت الملائكة؟ قال: إن الله عز وجل لما خلق آدم رأت الملائكة خلقًا عجبًا، وكأنهم دخلهم من ذلك شىء، قال: ثم أقبل بعضهم على بعض وأسرُّوا ذلك بينهم، [فقالوا(٣): و] ما يهمكم من هذا المخلوق! إن الله لم يخلق خلقًا إلا كنا أكرم عليه منه. و«ما» فى قوله: «ما تبدون» يجوز أن ينتصب بـ«أعلم» على أنه فعل، ويجوز أن يكون بمعنى عالم وتنصب به «ما» فيكون مثل حَوَاجّ بيت الله، وقد تقدّم(٤).

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٠٩ (٣) زيادة عن تفسير الطبرى.
(٤) راجع ص ٢٧٨

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وإذ قُلْنَا﴾ أى وآذكر . وأما قول أبى عبيدة : إن «إذ» زائدة فليس بجائز؛ لأن إذ ظرف وقد تقدّم(١) . وقال : « قلنا » ولم يقل قلت لأن الجبار العظيم يخبر عن نفسه بفعل الجماعة تفخيمًا و إشادةً بذكره . والملائكة جمع مَلَك؛ وقد تقدّم(٢) . وتقدّم القول أيضا فى آدم وآشتقاقه(٣) فلا معنى لإعادته؛ وروى عن أبى جعفر بن القَعْقاع أنه ضمّ تاء التأنيث من الملائكة إتباعا لضم الجيم فى « آسجدوا » . ونظيره « الحمد لله » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ٱسْجُدُوا﴾ السجود معناه فى كلام العرب التذلل والخضوع؛ قال الشاعر :

بِجَمْعٍ تَضِلّ البُلْقُ فى حَجَراته * ترى الأُكْمَ فيها سُجَّدًا لِلحوافِرِ

الأُكُمُ : الجبال الصغار . جعلها سُجَّدًا للحوافر لِقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها . وعينٌ ساجدة؛ أى فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض . قال آبن فارس : سَجَد إذ تطامن، وكلُّ ما سجد فقد ذَلّ(٤) . والإسجاد : إدامة النّظر . قال أبو عمرو : وأسجد إذا طأطأ رأسه؛ قال :

فُضُولَ أزِمّتِها أسجدتْ * سجودَ النصارى لأحبارها

قال أبو عبيدة : وأنشدنى أعرابى من بنى أسد :

* وقلنَ له أسْجِدْ لِلَيْلَى فأسجدَا *

يعنى البعير إذا طأطأ رأسه . ودراهمُ الإسجاد : دراهم كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها؛ قال :

* وافَى بها كدراهم الإسجاد *

---

(١) راجع المسئلة الأولى ص ٢٦١ (٢) راجع المسئلة الثانية ص ٢٦٢

(٣) راجع المسئلة الأولى ص ٢٧٩ (٤) هو حميد بن ثور يصف نساء . يقول : لما ارتحلن ولوين نضول أزمة جاهلن على معاصمهن أسجدت — طأطأت رءوسها — لهن . (عن اللسان وشرح القاموس) .

الثالثـــة — آستدلّ مَن فضّل آدم وبنيه بقوله تعـالى للملائكة : « آسْجُدُوا لِآدَمَ » . قالوا : وذلك يدلّ على أنه كان أفضلَ منهم . والجواب أن معنى « آسجدوا لآدم » آسجدوا الى مستقبلين وَجْه آدم . وهو كقوله تعالى : « أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » أى عند دلوك الشمس ؛ وكقوله : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » أى فقعوا لى عنـد إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين . وقد بيّنا أن المسجود له لا يكون أفضـلَ من الساجد بدليل القِبْـلة .

فإن قيل : فإذا لم يكن أفضلَ منهم فما الحكمة فى الأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لمـا آستعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرَهم بالسجود لغيره ليريهم آستغناءه عنهم وعن عبادتهم . وقال بعضهم : عيّروا آدم وآستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصُّـنع به فأمِروا بالسجود له تكريمًا . ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » لمّـا قال لهم : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَـةً » وكان علم منهـم أنه إن خاطبهم أنهم قائلون هـذا ، فقال لهم : « إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » وجاعله خليفةً ، فإذا نفخْتُ فيه من روحى فقَعُوا له ساجدين . والمعنى : ليكون ذلك عقوبةً لكم فى ذلك الوقت على ما أنتم قائلون لى الآن .

فإن قيل : فقد آستدلّ آبن عباس على فضل البشر بأن الله تعالى أقسم بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ »[1] . وأمّنه من العـذاب بقوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَـدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[2] . وقال للملائكة : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ »[3] . قيل له : إنما لم يُقسم بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه ؛ فلم يقل : لَعَمْرِى . وأقسم بالسماء والأرض ؛ ولم يدلّ على أنهما أرفع قدرًا من العرش والجنان السّبع . وأقسم بالتين والزيتون . وأمّا قوله سبحانه : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ » فهو نظير قوله لنبيّه عليه السلام : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فليس فيه إذًا دلالة ، والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦٢ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨٢

الرابعـــة — وآختلف الناس فى كيفية سجود الملائكة لآدم بعد آتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة ؛ فقال الجمهور : كان هـذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض ، كالسجود المعتاد فى الصلاة ؛ لأنه الظاهر من السجود فى العُرف والشرع ؛ وعلى هذا قيل : كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله ، وطاعةً لله تعالى ، وكان آدم كالقِبْلة لنا . ومعنى «لآدم» : إلى آدم ؛ كما يقال صلّى للقِبْلة ؛ أى إلى القبلة . وقال قوم : لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذى هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه مُبقًى على أصل اللّغـة ؛ فهو من التذلّل والآنقياد ، أى آخضعوا لآدم وأقرّوا له بالفضل . ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أى آمتثلوا ما أمروا به

وآختُلِف أيضا هل كان ذلك السجود خاصًّا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى ، أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام ؛ لقوله تعالى : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا »[1] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذى عليه الأكثر أنه كان مباحًا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ؛ فقال لهم : "لا ينبغى أن يُسجد لأحد إلا لله ربّ العالمين" . روى آبن ماجه فى سُننه والبُسْتِىّ فى صحيحه عن أبى واقد قال : لمـا قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله صلى الله عليه وسـلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما هذا" فقال : يا رسول الله ، قدمتُ الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم ، فأردت أن أفعل ذلك بك ؛ قال : "فلا تفعل فإنى لو أَمَرتُ شـيئا أن يسجد لشىء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها لا تؤدّى المرأةُ حقَّ ربّها حتى تؤدّى حقَّ زوجها حتى لو سألها نفسَها وهى على قَتَب لم تمنعه" . لفظ البُسْتِىّ . ومعنى القتب أن العرب يَعِزّ عندهم وجود كرسى للولادة فيحملون نساءهم على القَتَب[2] عند الولادة . وفى بعض طرق معاذ : ونَهَى عن السجود للبشر ، وأمر بالمصافحة .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٦٤

(٢) القتب : رحل صغير على قدر السنام .

قلت : وهذا السجود المنهىُّ عنه قد آتخذه جُهّال المتصوّفة عادةً فى سماعهم وعند دخولهم على مشايخهم وآستغفارهم ؛ فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحـال بزعمه يسجد للأقدام[1] لجهله سواء أكان للقبلة أم غيرها جهالة منه ؛ ضلّ سَعْيُهم وخاب عملهم .

الخامســـة — قوله : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ نصب على الآستثناء المتصل ؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور : آبن عباس وآبن مسعود وآبن جُرَيج وآبن المسيّب وقَتادة وغيرهم ؛ وهو آختيار الشيخ أبى الحسن ، ورجّحه الطبرى ؛ وهو ظاهر الآية . قال آبن عباس : وكان آسمه عزازيل وكان من أشراف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم أُبْلِس بعـد . روى سِمَاك آبن حرب عن عكرمة عن آبن عباس قال : كان إبليس من الملائكة فلما عصى الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا . وحكى الماوَرْدِىّ عن قتادة : أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة . وقال سعيد بن جُبير : إن الجنّ سِبْط من الملائكة خُلقوا من نار وإبليس منهم ، وخلق سائر[2] الملائكة من نور . وقال آبن زيد والحسن وقتادة أيضا : إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن مَلَكا ؛ وروى نحوه عن آبن عباس وقال : آسمه الحارث . وقال شَهْر آبن حَوْشَب وبعض الأصوليين : كان من الجنّ الذين كانوا فى الأرض وقاتلهم الملائكة فسبَوْه صغيرا وتعبّد مع الملائكة وخُوطب ؛ وحكاه الطبرى عن آبن مسعود . والآستثناء على هذا منقطع ، مثل قوله تعالى : «مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آتِّبَاعَ الظَّنِّ» ، وقوله : «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فى أحد القولين ؛ وقال الشاعر :

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ * إلا الرّقادَ والرقادُ ممنوعْ

وآحتجّ بعض أصحاب هذا القول بأن الله جلّ وعزّ وصف الملائكة فقال : «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» ، وقوله تعالى : «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ» والجنّ غير الملائكة . أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق فى علم الله بشقائه عدلاً منه ، لا يُسئل عما يَفعل ، وليس فى خلقه من نار ولا فى تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة . وقول من قال : إنه كان من جنّ الأرض فسُمِّىَ ،

(١) فى نسخ من الأصل : « للأقدم » .
(٢) فى نسخ : « معاشر » .

فقد رُوى فى مقابلته أن إبليس هو الذى قاتل الجنّ فى الأرض مع جُند من الملائكة؛ حكاه المهدَوِىّ وغيره . وحكى الثّعلبى عن ابن عباس : أن إبليس كان من حىّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ خُلقوا من نار السموم ، وخُلقت الملائكة من نور ، وكان اسمه بالسريانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، وكان من خُزّان الجنة وكان رئيسَ ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض ، وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما ، وكان يسوس ما بين السماء والأرض ؛ فرأى لنفسه بذلك شرفًا وعظمة ، فذلك الذى دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيما . فإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه ، وإن كانت خطيئته فى معصية فارْجُه ؛ وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية ، وخطيئة إبليس كِبراً . والملائكة قد تُسَمَّى جِنًّا لاستتارها ؛ وفى التنزيل : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا »(١) ؛ وقال الشاعر(٢) فى ذكر سليمان عليه السلام :

وسَخَّرَ من جِنّ الملائِكِ تِسعةً * قِيامًا لَدَيْهِ يعملون بلا أَجْرِ

وأيضا لما كان من خُزّان الجنة نُسب إليها فاشتق اسمه من اسمها ، والله أعلم . وإبليس وزنه إفعيل ، مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله تعالى . ولم ينصرف ؛ لأنه معرفة ولا نظير له فى الأسماء فشبّه بالأعجمية ؛ قاله أبو عبيدة وغيره . وقيل : هو أعجمى لا اشتقاق له فلم ينصرف للعُجْمة والتعريف ؛ قاله الزجاج وغيره .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ أَبَى ﴾ معناه امتنع من فعل ما أُمِر به ؛ ومنه الحديث الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " إذا قرأ ابن آدم السجدة [فسجد](٣) اعتزل الشيطان يبكى يقول ياوَيْلَه — وفى رواية : ياوَيْلِى — أُمِر ابن آدم بالسجود فسَجَد فله الجنة وأُمِرتُ بالسجود فأبَيْتُ فلِىَ النار " . خرّجه مسلم . يقال : أَبَى يأبَى إباءً ، وهو حرف نادر جاء على فَعَل يَفْعَل ليس فيه حرف من حروف الحَلْق ؛ وقد قيل : إن الألف مضارِعة لحروف الحَلْق . قال الزجاج : سمعت إسماعيل بن إسحاق القاضى يقول : القول

(١) راجع جـ ١٥ ص ١٣٤　　(٢) هو أعشى قيس ، كما فى تفسير الطبرى وأبى حيان .
(٣) الزيادة من صحيح مسلم .

عندى أن الألف مضارِعة لحروف الحلق . قال النحاس : ولا أعلم أن أبا إسحاق روى عن إسماعيل نحوًا غير هذا الحرف .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ الاستكبار : الاستعظام ؛ فكأنه كره السجود فى حقه واستعظمه فى حق آدم ؛ فكان ترك السجود لآدم تسفيهًا لأمر الله وحكمته . وعن هذا الكِبر عبّر عليه السلام بقوله : " لا يدخل الجنـة مَن [كان (١)] فى قلبه مثقالُ حبة من خَرْدَل من كِبر" . فى رواية فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسَنًا ونعله حسَنة . قال : " إن الله جميل يحب الجمال الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس " . أخرجه مسلم . ومعنى بطر الحق : تسفيهه وإبطاله . وغمط الناس : الاحتقار لهم والازدراء بهم . ويروى : « وغمص » بالصاد المهملة ، والمعنى واحد ؛ يقال : غَمِصه يَغْمِصه غَمْصًا واغتمصه ؛ أى استصغره ولم يره شيئا . وغَمِص فلان النعمة إذا لم يشكرها . وغَمِصتُ عليه قولًا قاله ؛ أى عِبته عليه . وقد صرّح اللعين بهذا المعنى فقال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٢) » . « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا » . « لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » فكفّره الله بذلك . فكلّ من سَفّه شيئا من أوامر الله تعالى أو أمر رسوله عليه السلام كان حُكْمُه حُكْمَه ، وهذا ما لا خلاف فيه . وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال : بلغنى أن أوّل معصية كانت الحسد والكبر ، حسَدَ إبليسُ آدم ، وشح آدم فى أكله من الشجرة . وقال قتادة : حسَدَ إبليسُ آدم ، على ما أعطاه الله من الكرامة فقال : أنا ناريّ وهـذا طِينيّ . وكان بدء الذنوب الكِبْر ، ثم الحرص حتى أكل آدم من الشجرة ، ثم الحسد إذ حسد ابن آدم أخاه .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ قيل : كان هنا بمعنى صار ؛ ومنه قوله تعالى : « فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٣) » . وقال الشاعر :

بَتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنها * قطا الحَزْن قد كانت فِراخًا بُيوضُها

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٠

(٣) هو ابن أحمر ؛ كما فى اللسان مادة « كون » .

أى صارت . وقال آبن فُورَك . «كان» هنا بمعنى صـار خطأ تردّه الأصول . وقال جمهور المتأولين : المعنى أى كان فى علم الله تعالى أنه سيكفر؛ لأن الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذى قد علم الله منه الموافاة .

قلت : وهـذا صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى : " وإنما الأعمال بالخواتيم " . وقيل : إن إبليس عبد الله تعالى ثمـانين ألف سنة ، وأُعطى الرياسـة والخزانة فى الجنة على الآستدراج ؛ كما أُعطى المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم ، وكما أُعطى بَلْعام[1] الآسم الأعظم على طرف لسانه ؛ فكان فى رياسته والكبر فى نفسه متمكن . قال آبن عباس : كان يرى لنفسه أن له فضيلة على الملائكة بمـا عنده ؛ فلذلك قال : أنا خير منه ؛ ولذلك قال الله عز وجل : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ[2] » أى آستكبرت ولا كِبْر لك ، ولم أتكبّر أنا حين خلقتُه بيدىّ والكبر لى ! فلذلك قال : « وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » . وكان أصل خلقته من نار العِزّة ؛ ولذلك حَلف بالعِزّة فقال : «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » فالعِزّة أورثته الكِبْر حتى رأى الفضل له على آدم عليه السلام . وعن أبى صالح قال : خُلقت الملائكة من نُور العِزّة وخُلق إبليس من نار العِزّة .

التاسـعة — قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : ومَن أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبىّ كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالًّا على ولايتـه ؛ خلافا لبعض الصُّوفية والرافضة حيث قالوا : إن ذلك يدل على أنه وَلِىّ ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهر الله على يديه ما أظهر . ودليلنـا أن العلم بأن الواحد منّا ولىّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العـلم بأنه يموت مؤمنًا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا لم يمكنا أن نقطع على أنه ولىّ لله تعالى ؛ لأن الولىّ لله تعالى مَن علم الله تعـالى أنه لا يوافى إلا بالإيمان . ولمـا آتفقنا على أننا لا يمكننا أن نقطع على أن ذلك الرجل يوافى بالإيمان ، ولا الرجل نفسه يقطع على أنه يوافى بالإيمان ، علم أن ذلك ليس

(١) فى تاريخ آبن الأثير والطبرى إنه بلعـم بن باعور من ولد لوط ، كان فى عهد موسى عليه السـلام ، وهو من أهل كنعان . راجع تاريخ آبن الأثير جـ ١ ص ١٤٠ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٥٠٨ طبع أوربا .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٢٨

يدلّ على ولايته لله . قالوا : ولا نمنع أن يطلع الله بعض أوليائه على حسن عاقبته وخاتمة عمله وغيره معه ؛ قاله الشيخ أبو الحسن الأشْعَرِيّ وغيره . وذهب الطَّبَرِى إلى أن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بنى آدم، وهم اليهود الذى كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوّته ، ومع قِدَم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم .

العـاشرة — وآختلف هل كان قبل إبليس كافر أولا؟ فقيل : لا، و إن إبليس أوّل من كفر . وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا فى الأرض . وآختلف أيضا هل كفر إبليس جهلًا أو عنادًا على قولين بين أهـل السُّنة ، ولا خلاف أنه كان عالمـا بالله تعالى قبل كفره . فمن قال إنه كفر جهلًا قال : إنه سُلب العلم عند كفره . ومن قال كفر عنادًا قال : كفر ومعه علمه . قال آبن عطية : والكفر [عنادا](١) مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندى جائزلا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء .

قوله تعـالى : وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ ﴾ لا خلاف أن الله تعـالى أخرج إبليس عند كفره وأبعده عن الجنة ، و بعد إخراجه قال لآدم : آسكن ؛ أى لازم الإقامة وآتخذها مسكنًا، وهو محل السكون . وسَكَن إليه يَسْكُن سكونًا . والسَّكَن : النار ؛ قال الشاعر :

* قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهان *

والسَّكَن : كل ما سُكن إليه . والسِّكّين معروف ، سُمِّىَ به لأنه يُسَكِّن حركة المذبوح ؛ ومنه المِسْكين لقلة تصرّفه وحركته . وسُكّانُ(٢) السفينة عربىّ ؛ لأنه يُسَكِّنها عن الاضطراب .

(١) زيادة عن تفسير آبن عطية . (٢) السكان (بالضم) : ذنب السفينة التى به تعدّل .

الثانيـــة — فى قوله تعالى: ﴿اسْكُنْ﴾ تنبيه على الخروج؛ لأن السُّكْنَى لا تكون ملكًا؛ ولهذا قال بعض العارفين: السُّكْنَى تكون إلى مدة ثم تنقطع، فدخولها فى الجنة كان دخول سُكْنَى لا دخول إقامة.(١)

قلت: وإذا كان هذا فيكون فيه دلالة على ما يقوله الجمهور من العلماء: إن من أسكن رجلا مسكنا له أنه لا يملكه بالسُّكْنَى، وأن له أن يخرجه إذا انقضت مدة الإسكان. وكان الشعبيّ يقول: إذا قال الرجل دارى لك سُكْنَى حتى تموت فهى له حياته وموته، وإذا قال: دارى هذه أسكنها حتى تموت فإنها ترجع إلى صاحبها إذا مات. ونحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى،(٢) إلا أن الخلاف فى العُمْرَى أقوى منه فى السُّكْنَى. وسيأتى الكلام فى العُمْرَى فى «هود» إن شاء الله تعالى. قال الخَرْبيّ: سمعت ابن الإعرابى يقول: لم يختلف العرب فى أن هذه الأشياء على مِلْك أربابها ومنافعها لمن جُعلت له العُمْرَى والرقبى والإفقار والإخبال والمِنحة والعَرِيّة والسُّكْنَى والإطراق. وهذا حجة مالك وأصحابه فى أنه لا يملك شىء من العطايا إلا المنافع دون الرِّقاب؛ وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط.

والعُمْرَى: هو إسكانك الرجل فى دارك مدة عمرك أو عمره. ومثله الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إن مُتُّ قبلى رجعتْ إلىّ وإن متُّ قبلك فهى لك؛ وهى من المراقبة. والمراقبة: أن يَرْقُب كلُّ واحد منهما موتَ صاحبه؛ ولذلك اختلفوا فى إجازتها ومنعها، فأجازها أبو يوسف والشافعى، وكأنها وَصِيَّةٌ عندهم. ومنعها مالك والكوفيون؛ لأن كل واحد منهم يقصد إلى عوض لا يدرى هل يحصل له، ويتمنى كل واحد منهما موت صاحبه. وفى الباب حديثان أيضا بالإجازة والمنع ذكرهما ابن ماجه فى سُننه؛ الأول رواه جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعمِرَها والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها" ففى هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى فى الحكم. الثانى رواه ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا رُقْبَى فمن أُرْقِب شيئا فهو له حياته ومماته". قال: والرُّقْبَى أن

(١) فى بعض الأصول: «لا دخول ثواب».
(٢) راجع جـ ٩ ص ٥٧

يقول هو للآخر: مِنِّى ومنك موتا. فقوله: "لا رُقْبَى" نهىٌ يدلّ على المنع، وقوله: "مَن أَرْقَب شيئًا فهو له" يدلّ على الجواز؛ وأخرجهما أيضا النَّسائى. وذكر عن ابن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. وقال ابن المنذر: ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "العُمْرَى جائزة لمن أُعمرها والرُّقْبَى جائزة لمن أُرْقِبها". فقد صحّح الحديث ابن المنذر، وهو حجة لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواء. ورُوى عن علىّ وبه قال الثَّوْرِىّ وأحمد، وأنها لا ترجع إلى الأول أبدا؛ وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَن أرقب شيئا فهو سبيل الميراث.

والإفقار مأخوذ من فَقار الظَّهر. أفقرتك ناقتى: أعَرْتُك فَقارها لتركبها. وأفقرك الصيد إذا أمكنك من فقاره حتى ترميه. ومثله الإخبال، يقال: أخبلت فلانا إذا أعرته ناقة يركبها أو فرسا يغزو عليه؛ قال زهير:

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلوا * وإن يُسْئَلُوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يَغْلُوا

والمِنْحة: العطيّة. والمِنْحة: منحة اللبن. والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاة يُعطيها الرجلُ آخر يحتلبها ثم يردّها؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العارية مُؤَدَّاةٌ والمنحة مردودةٌ والدَّين مقضِىّ والزَّعيم غارم". رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذىّ والدَّارَقُطْنِىّ وغيرهما، وهو صحيح.

والإطراق: إعارة الفحل؛ استطرق فلان فلانا فَحْلَه: إذا طلبه ليضرب فى إبله؛ فأطرقه إياه؛ ويقال: أطرقنى فحلك أى أعِرْنى فَحْلَك ليضرب فى إبلى. وطَرَق الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طروقا؛ أى قَعَا عليها. وطَرُوقة الفحل: أُنثاه؛ يقال: ناقة طَروقة الفحل للتى بلغت أن يضربها الفحل.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيد للضمير الذى فى الفعل؛ ومثله «فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ». ولا يجوز اسكن وزوجك، ولا اذهب وربك، إلا فى ضرورة الشعر؛ كما قال:

قلتُ إذ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهَادَى * كنِعاج الملا تَعَسَّفْنَ رَمْلا (١)

(١) قائله عمر بن أبى ربيعة. و«زهر» جمع زهراء، وهى البيضاء المشرقة. والتهادى: المشى الرويد الساكن. والنعاج: بقر الوحش. «تعسفن»: ركبن.

فـ « زُهْر » معطوف على المضمر فى « أقبلتْ » ولم يؤكد ذلك المضمر . ويجوز فى غير القرآن على بُعْد : قم وزيد .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ لغة القرآن « زَوْجٌ » بغير هاء، وقد تقدّم القول فيه (١) . وقد جاء فى صحيح مسلم : « زوجة » ، حدّثنا عبد الله بن مَسْلَمة بن قَعْنَب قال حدّثنا حماد بن سَلَمة عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمرّ به رجل فدعاه فجاء فقال : " يا فلانُ هذه زوجتى فلانة " : فقال يارسول الله، مَن كنتُ أظنّ به فلم أكن أظنّ بك؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من الإنسان مَجْرى الدم " . وزوج آدم عليه السلام هى حوّاء عليها السلام، وهو أوّل من سمّاها بذلك حين خُلقت من ضلعه (٢) من غير أن يَحُسّ آدم عليه السلام بذلك؛ ولو ألِم بذلك لم يَعْطِف رجل على آمرأته ؛ فلما آنتبه قيل له : من هذه ؟ قال : آمرأة ؛ قيل : وما آسمها ؟ قال : حوّاء ؛ قيل : ولِمَ سُمِّيت آمرأة ؟ قال : لأنها من المرء أخِذت؛ قيل : ولِمَ سُمّيت حوّاء ؟ قال : لأنها خُلقت من حيّ . روى أن الملائكة سألته عن ذلك لتجرّب علمه ، وأنهم قالوا له : أتحبها يا آدم ؟ قال : نعم؛ قالوا لحوّاء : أتحبينه ياحوّاء ؟ قالت : لا؛ وفى قلبها أضعافُ ما فى قلبه من حبه . قالوا : فلو صَدَقت آمرأة فى حبّها لزوجها لصدَقت حوّاء . وقال آبن مسعود وآبن عباس : لما أُسْكِن آدم الجنة مشى فيها مستوحشًا ، فلمّا نام خُلقت حوّاء مِن ضلعه القُصْرَى مِن شقه الأيسر ليسكن إليها و يأنس بها؛ فلما آنتبه رآها فقال : من أنت ؟! قالت : آمرأة خُلقت من ضلعك لتسكن إلىّ؛ وهو معنى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا (٣) » . قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عَوْجاء؛ لأنها خُلقت من أعوج وهو الضّلع . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة خُلقت من ضلع — فى رواية : وإنّ أعوج شىء فى الضلع أعلاه — لن تستقيم

---

(١) راجع ص ٢٤٠ من هذا الجزء .
(٢) الضلع ، كعنب وجذع .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٧

لك على طريقة واحدة فإن آستمتعتَ بها آستمعتَ [بها](١) وبها عِوَج وإن ذهبتَ تُقيمها كَسَرْتَها وكَسْرُها طلاقُها " . وقال الشاعر :

هى الضِّلَع العَوجاءُ لستَ تُقيمها * ألَا إنّ تقـويم الضلوع آنكسارها
أتجمـع ضَعفاً وآقتـداراً على الفـتى * أليس عجيبا ضـعفُها وآقتـدارها

ومن هـذا الباب آستدل العلمـاء على ميراث الخنثى المُشْكل إذا تساوت فيـه علامات النساء والرجال من اللِّحية والثَّدْى والمبال بنقص الأعضاء . فإن نقصت أضلاعه عن أضلاع المـرأة أُعْطى نصيب رجل — روى ذلك عن علىّ رضى الله عنـه — لخلق حوّاءَ من أحد أضلاعه ، وسيأتى فى المواريث بيان هذا إن شاء الله تعالى(٢) .

الخامسـة — قوله تعـالى : ﴿ الجَنّة ﴾ الجنة : البُستان ، وقد تقدّم القول(٣) فيها . ولا التفات لمـا ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فى جنة الخُلْد وإنما كان فى جنة بأرض عَدَن . وآستدلّوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنةَ الخلد لمـا وصل إليه إبليس ، فإن الله يقول : « لَا لَغْوٌ فِيهَا(٤) وَلَا تَأْثِيمٌ » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا(٥) » وقال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَـا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا(٦) » . وأنه لا يخرج منهـا أهلها لقوله : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ(٧) » . وأيضا فإن جنـة الخُلْد هى دار القُدْس ، قُدّست عن الخطايا والمعاصى تطهيرا لهـا . وقد لَغَا فيها إبليس وكَذَب ، وأُخرِج منها آدم وحواء بمعصيتهما .

قالوا : وكيف يجـوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخُلْد والمُلْك الذى لا يبلَى ؟ فالجواب : أن الله تعـالى عَرّف الجنة بالألف واللام ؛ ومن قال : أسأل الله الجنة ؛ لم يُفهم منه فى تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد . ولا يستحيل فى العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم ؛ وقد لَقِىَ موسى آدم عليهما السلام فقال له موسى : أنت أشقيتَ ذُرّيتك وأخرجتهم من الجنة ؛ فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد

(١) الزيادة عن صحيح مسلم . (٢) راجع جـ ٥ ص ٦٥ (٣) راجع ص ٢٣٩ من هذا الجزء .
(٤) راجع جـ ١٧ ص ٦٨ . (٥) راجع جـ ١٩ ص ١٨٢ (٦) راجع جـ ١٧ ص ٢٠٦
(٧) راجع جـ ١٠ ص ٣٤

المعروفة ، فلم ينكر ذلك آدم ، ولو كانت غيرها لردّ على موسى ؛ فلما سكت آدم على ما قرّره موسى صحّ أن الدار التى أخرجهم الله عز وجلّ منها بخلاف الدار التى أُخرجوا إليها . وأما ما احتجوا به من الآى فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة ، ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها وقد يخرج منها من قُضى عليه بالفناء . وقد أجمع أهل التأويل على أن الملائكة يدخلون الجنة على أهل الجنة ويخرجون منها ، وقد كان مفاتيحها بيد إبليس ثم انتزعت منه بعد المعصية ، وقد دخلها النبىّ صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هى جنة الخلد حقًّا . وأما قولهم : إن الجنة دار القُدْس وقد طهّرها الله تعالى من الخطايا فجهلٌ منهم ؛ وذلك أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهى الشام ، وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدّسها وقد شُوهد فيها المعاصى والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصى ؛ وكذلك دار القُدْس . قال أبو الحسن بن بطال : وقد حكى بعض المشايخ أن أهل السُّنّة مجمعون على أن جنة الخلد هى التى أهبط منها آدم عليه السلام ، فلا معنى لقول مَن خالفهم . وقولهم : كيف يجوز على آدم فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخُلْد وهو فى دار الخلد ؛ فيُعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم وهو فى كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد فى دار الفناء ! هذا ما لا يجوز على من له أدنى مُسْكة من عقل ، فكيف بآدم الذى هو أرجح الخلق عقلا ، على ما قال أبو أمامة على ما يأتى .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ قراءة الجمهور «رَغَدًا» بفتح الغين . وقرأ النَّخَعِىّ وابن وثّاب بسكونها . والرَّغَد : العيش الدَّارُّ الهنىّ الذى لا عَناء فيه ؛ قال :

بينما المـــرء تراه ناعمـا * يأمن الأحداث فى عيش رغد (١)

ويقال : رَغُد عيشُهم ورَغِد (بضم الغين وكسرها) . وأرغد القوم : أخصبوا وصاروا فى رَغَد من العيش . وهو منصوب على الصفة لمصدر محذوف . وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ ، وحَوْثَ وحوثِ وحاث ، كلّها لغات ، ذكرها النحاس وغيره .

(١) القائل هو امرؤ القيس ؛ كما فى تفسير أبى حيان والطبرى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ أى لا تقرباها بأكل ؛ لأن الإباحة فيه وقعت (١) . قال ابن العربى : سمعت الشاشى فى مجلس النَّضْر [بن شُمَيل] (٢) يقول : إذا قيل لا تقرَب (بفتح الراء) كان معناه لا تَلَبَّس بالفعل ، وإذا كان (بضم الراء) فإن معناه لا تَدْنُ منه . وفى الصحاح : قَرُب الشىءُ يقرُب قُرْباً أى دنا . وقَرِبته (بالكسر) أَقْرَبه قُرْبانا أى دنَوْت منه . وقَرَبت أَقْرُب قِرابة — مثل كتبت أكتب كتابة — إذا سِرت إلى الماء وبينك وبينه ليلة ؛ والاسم القَرَب . قال الأصمعى : قلت لأعرابى : ما القَرَب ؟ فقال : سَيْرُ الليل لوِرْد الغد . وقال ابن عطية قال بعض الحذاق : إن الله تعالى لما أراد النهى عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضى الأكل وما يدعو إليه العرب وهو القرب . قال ابن عطية : وهذا مثالٌ بيّن فى سدّ الذرائع . وقال بعض أرباب المعانى قوله : «ولا تَقْرَبَا» إشعار بالوقوع فى الخطيئة والخروج من الجنة ، وأن سكناه فيها لا يدوم ؛ لأن المخلَّد لا يحظر عليه شىء ولا يؤمر ولا يُنْهَى . والدليل على هذا قوله تعالى «إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فدلّ على خروجه منها .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الاسم المبهَم يُنعت بما فيه الألف واللام لا غير ، كقولك : مررت بهذا الرجل وبهذه المرأة وهـذه الشجرة . وقرأ ابن مُحَيْصِن : « هذى الشجرة » بالياء وهو الأصل ؛ لأن الهاء فى هذه بدل من ياء ولذلك انكسر ما قبلها ، وليس فى الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة سواها ، وذلك لأن أصلها الياء .

---

(١) أى من غير تلك الشجرة .

(٢) فى الأصول : « مجلس النظر يقول » . والتصويب والزيادة عن كتاب البحر لأبى حيان . وقد عقب عليه بقوله : « وفى هذه الحكاية عن ابن العربى من التخليط ما يتعجب من حاكيها ، وهو قوله : سمعت الشاشى فى مجلس النضر بن شميل ، وبين النضر والشاشى من السنين مئون إلا إن كان ثَمَّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل فيمكن » .

والشاشى هنا هو محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر المعروف بأبى بكر الشاشى ولد بميافارقين سنة ٤٢٩ هـ وتوفى سنة ٥٠٧ هـ (راجع طبقات الشافعية ج ٤ ص ٥٧) .

أما النضر بن شميل فقد توفى سنة ثلاث وقيل أربع ومائتين (راجع بغية الوعاة ووفيات الأعيان) .

وولد أبو بكر بن العربى سنة ٤٦٨ وتوفى سنة ٥٤٣ هـ (راجع طبقات المفسرين) .

والشَّجَرة والشَّجَرة والشَّيَرة؛ ثلاثُ لغات، وقرئ « الشِّجرة » بكسر الشين . والشَّجرة والشَّجَرة : ما كان على ساق من نبات الأرض . وأرض شَجِيرة وشَجْراء أى كثيرة الأشجار ، ووادٍ شَجير؛ ولا يقال : وادٍ أشجر . وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأت من الجمع على هذا المثال إلا أحرف يسيرة : شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء ، وطَرَفة وطَرْفاء ، وحَلَفة وحَلْفاء . وكان الأصمعى يقول فى واحد الحَلْفاء: حَلِفة؛ بكسر اللام مخالفة لأخواتها . وقال سيبويه : الشَّجراء واحد وجَمْع ، وكذلك القَصْباء والطَّرْفاء والحَلْفاء . والمَشْجَرة : موضع الأشجار . وأرض مَشْجَرة ، وهذه الأرض أشجر من هذه أى أكثر شجرا ؛ قاله الجوهرى .

التاسعة — واختلف أهل التأويل فى تعيين هذه الشجرة التى نُهى عنها فأكل منها ؛ فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جُبير وجَعْدة بن هُبيرة : هى الكَرْم ؛ ولذلك حُرِّمت علينا الخمر . وقال ابن عباس أيضا وأبو مالك وقَتادة : هى السُّنْبُلة ، والحبّةُ منها ككُلَى البقر، أحْلَى من العسل وألْيَن من الزُّبْد؛ قاله وَهْب بن مُنَبِّه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه . وقال ابن جُريج عن بعض الصحابة : هى شجرة التِّين ، وكذا روى سعيد عن قتادة (١)، ولذلك تُعَبَّر فى الرؤيا بالندامة لأكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها؛ ذكره السُّهَيْلى . قال ابن عطية : وليس فى شئ من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ ، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو إليها وعصى فى الأكل منها . وقال القُشيرى أبو نصر: وكان الإمام والدى رحمه الله يقول : يُعلم على الجملة أنها كانت شجرة المِحْنة .

العاشرة — واختلفوا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب وهو قوله تعالى : « فَتَكُونَا مِنَ الظالِمِين »؛ فقال قوم : أكلا من غير التى أشير إليها ، فلم يتأولا النهى واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غَرّه [بالأخذ] (٢) بالظاهر . قال ابن العربى : وهى أول معصية عصى الله بها على هذا القول . قال : « وفيه دليل على أن من حلف ألا يأكل من هذا الخبز فأكل من جنسه حنِث . وتحقيق المذاهب فيه أن أكثر العلماء قالوا : لا حِنْث فيه . وقال

(١) فى نسخة : « شعبة » وكلاهما يروى عن قتادة . (٢) الزيادة من ابن العربى .

مالك وأصحابه : إن آقتضى بساط اليمين تعيين المشار إليه لم يحنَث بأكل جنسه ، وإن آقتضى بساط اليمين أو سببها أو نيتها الجنس حُمل عليه وحنِث بأكل غيره ؛ وعليه حُملت قصة آدم عليه السلام فإنه نهى عن شجرة عُيِّنت له وأريد بها جنسها ؛ فحمل القول على اللفظ دون المعنى .

وقد آختلف علماؤنا فى فَرْع من هذا ، وهو أنه إذا حلَف ألا يأكل هذه الحنطة فأكل خبزا منها على قولين ؛ قال فى الكتاب : يحنَث ؛ لأنها هكذا تؤكل . وقال آبن المواز : لا شىء عليه ؛ لأنه لم يأكل حنطة و إنما أكل خبزا فراعى الآسم والصفة . ولو قال فى يمينه : لآكلن من هذه الحنطة لحنِث بأكل الخبز المعمول منها » . وفيما آشترى بثمنها من طعام وفيما أنبتت خلاف . وقال آخرون : تأوّلا النّهى على النّدب . قال آبن العربىّ : وهذا و إن كان مسئلة من أصول الفقه فقد سقط ذلك هاهنا ؛ لقوله : « فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ » فقرن النّهى بالوعيد ، وكذلك قوله سبحانه : « فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى »[1] . وقال آبن المُسَيّب : إنما أكل آدم بعد أن سَقَته حَوّاء الخمر فسَكِر وكان فى غير عقله . وكذلك قال يزيد بن قُسيط ، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقل . قال آبن العربىّ : وهذا فاسد نقلًا وعقلًا ، أما النّقل فلم يصح بحال ، وقد وصف الله عز وجل خمر الجنة فقال : «لَا فِيهَا غَوْلٌ » . وأما العقل فلأن الأنبياء بعد النبوّة معصومون عما يؤدّى إلى الإخلال بالفرائض وآقتحام الجرائم .

قلت : قد آستنبط بعض العلماء نبوّة آدم عليه السلام قبل إسكانه الجنة من قوله تعالى : «فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ» فأمره الله تعالى أن ينبئ الملائكة بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعزّ . وقيل : أكلها ناسيًا ، ومن الممكن أنهما نَسِيَا الوعيد .

قلت : وهو الصحيح لإخبار الله تعالى فى آبه بذلك حَتْمًا وجَزْمًا فقال : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا »[1] . ولكن لما كان الأنبياء عليهم السلام يلزمهم من التحفظ والتيقّظ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ما لا يلزم غيرهم كان تشاغله عن تذكّر النّهى تضييعًا صار به عاصيًا ؛ أى مخالفا . قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة وضعت فى كِفّة ميزان ووُضع حِلْم آدم فى كِفّة أخرى لرجحهم ؛ وقد قال الله تعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ وص ٢٥٣

قلت : قولُ أبى أُمامة هذا عمومٌ فى جميع بنى آدم . وقد يحتمل أن يخصّ من ذلك نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان أوفر الناس حلمًا وعقلاً . وقد يحتمل أن يكون المعنى لو أن أحلام بنى آدم من غير الأنبياء . والله أعلم .

قلت : والقول الأوّل أيضا حَسَن ؛ فظنّا أن المراد العَيْن وكان المراد الجنس ؛ كقول النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أخذ ذهبًا وحريرًا فقال : "هذان حرامان على ذكور أمتى" . وقال فى خبر آخر : "هذان مهلكان أمتى" . وإنما أراد الجنس لا العين .

الحادية عشرة — يقال : إن أوّل مَن أكل من الشجرة حوّاء بإغواء إبليس إياها — على ما يأتى بيانه — وإن أوّل كلامه كان معها لأنها وسواس المخدّة ، وهى أوّل فِتنة دخلت على الرجال من النساء ؛ فقال : ما مُنعتما هذه الشجرة إلا أنها شجرة الخُلْد ؛ لأنه علم منهما أنهما كانا يُحبّان الخُلْد ، فأتاهما من حيث أحبّا — «حُبّك الشىء يُعمِى ويُصِم» — فلما قالت حوّاء لآدم أنكر عليها وذكر العهد ؛ فألحّ على حوّاء وألحّت حوّاء على آدم ، إلى أن قالت : أنا آكل قبلك حتى إن أصابنى شىء سَلِمْتَ أنت ؛ فأكلتْ فلم يضرها ، فأتت آدم فقالت : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى ؛ فأكل فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب ؛ لقول الله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ » فجمعهما فى النّهى ؛ فلذلك لم تنزل بها العقوبة حتى وُجد المنهىّ عنه منهما جميعًا ، وخَفيت على آدم هذه المسئلة ؛ ولهذا قال بعض العلماء : إن من قال لزوجتيه أو أَمَتَيْه : إن دخلتما الدار فأنتما طالقتان أو حُرّتان ؛ إن الطلاق والعتق لا يقع بدخول إحداهما . وقد آختلف علماؤنا فى ذلك على ثلاثة أقوال ؛ قال آبن القاسم : لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا بآجتماعهما فى الدخول ؛ حملًا على هذا الأصل وأخذًا بمقتضى مطلق اللفظ . وقاله سُحْنون . وقال آبن القاسم مرة أخرى : تطلقان جميعا وتَعتِقان جميعا بوجود الدخول من إحداهما ؛ لأن بعض الحِنْث حِنْث ؛ كما لو حلف ألّا يأكل هذين الرغيفين فإنه يحنث بأكل أحدهما بل بأكل لُقمة منهما . وقال أشهب : تَعتِق وتطلُق التى دخلت وحدها ؛ لأن دخول

كلّ واحدة منهما شرطٌ فى طلاقها أو عتقها . قال ابن العربى : وهذا بعيد ؛ لأن بعض الشرط لا يكون شرطًا إجماعًا .

قلت : الصحيح الأول ، وإن النهى إذا كان معلّقًا على فعلين لا تتحقق المخالفة إلا بهما ؛ لأنك إذا قلت : لا تدخلا الدار ؛ فدخل أحدهما ما وُجدت المخالفة منهما ؛ لأن قول الله تعالى «وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ» نَهْىٌ لهما «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» جوابه ؛ فلا يكونا من الظالمين حتى يفعلا ؛ فلما أكلت لم يصبها شىء ؛ لأن المنهىّ عنه ما وُجد كاملًا . وخَفِىَ هذا المعنى على آدم فطمع ونسى هذا الحكم ، وهو معنى قوله تعالى : «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ» . وقيل : نسى قوله : « إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى » . والله أعلم .

الثانية عشرة — واختلف العلماء فى هذا الباب هل وقع من الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — صغائر من الذنوب يؤاخذون بها ويعاتبون عليها أم لا — بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر ومن كل رزيلة فيها شَيْن ونقص إجماعًا عند القاضى أبى بكر(١) ؛ وعند الأستاذ أبى إسحاق(٢) أن ذلك مقتضى دليل المعجزة ؛ وعند المعتزلة أن ذلك مقتضى دليل العقل على أصولهم — ؛ فقال الطبرى وغيره من الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين : تقع الصغائر منهم . خلافا للرافضة حيث قالوا : إنهم معصومون من جميع ذلك ؛ واحتجّوا بما وقع من ذلك فى التنزيل وثبت من تنصّلهم من ذلك فى الحديث ، وهذا ظاهر لا خفاء فيه . وقال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك وأبى حنيفة والشافعى : إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها ؛ لأنا أُمرنا باتباعهم فى أفعالهم وآثارهم وسيَرهم أمرًا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ؛ إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميّز مقصده من القُرْبة والإباحة أو الحَظْر أو المعصية ، ولا يصحّ أن يؤمر المرء بامتثال أمرٍ لعلّه معصية ، لا سيّما على من يرى تقديم الفعل على القول إذا تعارضا من الأصوليين . قال

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلانى .

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايينى . وفى الأصول : « عند الأستاذ أبى بكر » وهو تحريف . (راجع الكلام فى عصمة الأنبياء فى شرح المواقف) .

الأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني : واختلفوا فى الصغائر ؛ والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم ، وصار بعضهم إلى تجويزها ، ولا أصل لهذه المقالة . وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول : الذى ينبغى أن يقال إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم ونَسَبها إليهم وعاتبهم عليها ، وأخبروا بها عن نفوسهم وتنصّلوا منها وأشفقوا منها وتابوا ؛ وكل ذلك وَرَد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها و إن قَبِل ذلك آحادها ؛ وكل ذلك مما لا يُزْرِى بمناصبهم ، و إنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة النُّدور وعلى جهة الخطأ والنسيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات وفى حقهم سيئات ؛ [بالنسبة] إلى مناصبهم وعُلو أقدارهم ؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس ، فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين . فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — و إن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم ولا قَدَح فى رُتَبهم ، بل قد تلافاهم وأجتباهم وهداهم ومدحهم وزكّاهم وآختارهم وآصطفاهم ؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الظُّلم أصله وضع الشىء فى غير موضعه . والأرض المظلومة : التى لم تُحفر قطُّ ثم حُفرت . قال النابغة .

وقفتُ فيها أَصَيْلالًا أسائلها * عَيَّتْ جواباً وما بالربع من أحد
إلا الأَوَارِىَّ لَأْيًا ما أُبَيِّنُها * والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَد (١)

ويُسَمَّى ذلك التراب الظَّلِيم . قال الشاعر :

فأصبحَ فى غبراءَ بعد إشاحةٍ (٢) * على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

---

(١) الأوارى (واحدها آرى) : حبل تشدّ به الدابة فى محبسها . واللأى : المشقة والجهد . والنؤى : حفرة حول البيت لئلا يصل إليه الماء . والجلد (بالتحريك) : الأرض الصلبة . راجع خزانة الأدب فى إعرابه .

(٢) الإشاحة : الحذر والخوف لمن حاول أن يدفع الموت . قال صاحب اللسان : « يعنى حفرة القبر يردّ ترابها عليه بعد دفن الميت فيها » .

وإذا نُحِر البعيرُ من غير داء به فقد ظُلِم؛ ومنه : * ... ظَلّامون للجُزُر[1] *

ويقال : سقانا ظَلِيمة طيّبة ؛ إذا سقاهم اللبن قبل إدراكه . وقد ظَلَم[2] وَطْبَه ؛ إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوب ويُخْرَج زُبْده . واللّبنُ مظلوم وظَلِيم . قال :

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سقائى * وهـل يَخْفَى على العَكَدِ الظلـيم[3]

ورجل ظَلِيم : شديد الظلم . والظلم : الشرك ؛ قال الله تعالى : « إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[4] .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ حُذفت النون من « كُلَا » لأنه أمر ، وحُذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وحذفها شاذّ . قال سيبويه : من العرب من يقول أُوْكُل ؛ فيُتِمّ . يقال منه : أَكَلْت الطعـام أَكْلًا ومَأْكَلًا . والأَكْلة (بالفتح) : المرّة الواحدة حتى تشـبع . والأُكْلة (بالضم) : اللُّقْمة ؛ تقول : أكلت أُكْلَة واحدة ؛ أى لُقْمة ، وهى القُرْصة أيضـا . وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك ؛ أى طُعْمَةٌ لك . والأُكُلُ أيضـا ما أُكِل . ويقال : فلان ذو أُكْل ؛ إذا كان ذا حظّ من الدنيا ورزق واسع . ﴿ رَغَدًا ﴾ نعتٌ لمصـدر محذوف ؛ أى أَكْلًا رَغَدًا . قال ابن كَيْسان : ويجوز أن يكون مصدرا فى موضع الحال . وقال مجاهد : « رَغَدًا » أى لا حساب عليهم . والرّغد فى اللغـة : الكثير الذى لا يُعَنِّيـك ؛ ويقال : أرغد القوم ؛ إذا وقعوا فى خِصْب وسَعَة . وقد تقدّم[5] هذا المعنى . و﴿ حَيْثُ ﴾ مبنيّة على الضّم ؛ لأنها خالفت أخواتها الظروف فى أنها لا تضاف ، فأشبهت قبلُ وبعدُ إذا أفردتا فضُمّت . قال الكسائى : لغـة قيس وكِنانة الضّم ، ولغة تميم الفتح . قال الكسائى : وبنو أسـد يخفضونها فى موضع الخفض ، وينصبونها فى موضـع النصب ؛ قال الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[6] وتُضَمّ وتُفتح . ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ الهاء من « هـذه » بدل من ياء الأصل ؛ لأن الأصل هذى . قال النحاس : ولا أعلم فى العربية هاء تأنيث مكسورا ما قبلها

(١) عجز بيت لابن مقبل ، وهو بتمامه :

عاد الأذلة فى دار وكان بها * هُرْتُ الشّقاشق ظلّامون للجزر

(٢) الوطب (بفتح فسكون) : الزق الذى يكون فيه السمن واللبن . (٣) ظلمت سقائى : سقيتهم إياه قبل أن يروب . والعكد (بضم العين وفتحها وفتح الكاف جمع العُكْدة والعَكَدة) : أصل اللسان . (٤) راجع جـ ١٤ ص ٦٢

(٥) راجع المسألة السادسة ص ٣٠٣ من هذا الجزء . (٦) آية ١٨٢ سورة الأعراف ، و ٤٤ سورة القلم .

إلا هاء « هـذه » . ومن العرب من يقول : هاتا هند ، ومنهم من يقول : هاتى هنـد . وحكى سيبويه : هذه هند ؛ بإسكان الهاء . وحكى الكسائى عن العرب : ولا تقربا هذى الشجرة . وعن شِبْل بن عَبّاد قال : كان آبن كَثير وآبن مُحَيْصن لا يُثبتان الهاء فى « هذه » فى جميع القرآن . وقراءة الجماعة « رَغَدًا » بفتح الغين . وروى عن آبن وَثّاب والنَّخَعِىّ أنهما سَكّنا الغين . وحكى سلمة عن الفَرّاء قال يقال : هذه فعلت وهذى فعلت ، بإثبات ياء بعد الذال . وهـذِ فعلت ، بكسر الذال من غير إلحـاق ياء ولا هاء . وهاتا فعلت . قال هشام ويقال : تافعلت . وأنشد :

خَلِيلَىّ لَوْلَا ساكِنُ الدَّارِ لم أُقِمْ * بِتَا الدَّارِ إلّا عابرَ آبن سـبيل

قال آبن الأنبارى : وتا بإسقاط ها بمنزله ذى بإسقاط ها من هذى ، وبمنزلة ذه بإسقاط ها من هذه . وقد قال الفرّاء : مَن قال هذِ قامتْ لا يُسقط ها ؛ لأن الآسم لا يكون على ذال واحدة .

﴿ فَتَكُونَا ﴾ عطف على « تقربا » فلذلك حُذفت النون . وزعم الجَرْمِىّ[1] أن الفاء هى الناصبة ؛ وكلاهما جائز .

قوله تعـالى : فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فيه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ قرأ الجماعة « فَأَزَلَّهُمَا » بغير ألف ، من الزَّلة وهى الخطيئة ؛ أى آستزلهما وأوقعهما فيها . وقرأ حمزة « فأزالهما » بألف ، من التَّنحية ؛ أى نحّاهما . يقال : أزلته فزال . قال آبن كَيْسان : فأزالهما من الزوال ؛ أى صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية .

قلت : وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى ، إلّا أن قراءة الجماعة أمكن فى المعنى . يقال منه : أزللته فزلّ . ودلّ على هذا قولُه تعالى : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »[2] ، وقوله :

(١) الجرمى (بفتح الجيم وسكون الراء) : صالح بن إسحاق أبو عمر مولى جرم ؛ لغوى مشهور . (عن بغية الوعاة) .
(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٤٣

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ» والوسوسة إنما هى إدخالها فى الزّلل بالمعصية؛ وليس للشيطان قدرة على زوال أحد من مكان إلى مكان، إنما قدرته [على] إدخاله فى الزلل؛ فيكون ذلك سببا إلى زواله من مكان إلى مكان بذنبه. وقد قيل: إن معنى أزلهما من زلّ عن المكان إذا تنحّى؛ فيكون فى المعنى كقراءة حمزة من الزوال. قال امرؤ القيس:

يُزِلّ الغـــلَامُ الخِفُّ عن صَهَواتِه * ويُلْوِى بأثواب العَنِيفِ المثقَّـــلِ (١)

وقال أيضا:

كُمَيْتٍ يُزِلّ اللِّبْدُ عن حال متْنِه * كما زلّت الصَّـــفْواء بالمتنزَّلِ (٢)

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جعل أزال من زال عن المكان فقوله: «فأخرجهما» تأكيد وبيان للزوال؛ إذ قد يمكن أن يزولا عن مكان كانا فيه إلى مكان آخر من الجنة، وليس كذلك، وإنما كان إخراجهما من الجنة إلى الأرض؛ لأنهما خلقا منها، وليكون آدم خليفة فى الأرض. ولم يقصد إبليس — لعنه الله — إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أُبعد هو؛ فلم يبلغ مقصده ولا أدرك مراده، بل ازداد سُخنة (٣) عَين وغَيظ نفس وخَيبة ظنّ. قال الله جلّ ثناؤه: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» (٤) فصار عليه السلام خليفة الله فى أرضه بعد أن كان جارًا له فى داره؛ فكم بين الخليفة والجار! صلّى الله عليه وسلم. ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه. ولا خلاف بين أهل التأويل وغيرهم أن إبليس كان متولّى إغواء آدم؛ واختلف فى الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء أغواهما مشافهة؛ ودليل ذلك قوله تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن مُنبِّه: دخل الجنة فى فم الحيّة وهى ذات أربع كالبُخْتِيّة من أحسن دابة خلقها الله تعالى بعد أن عرض

(١) الخف (بالكسر): الخفيف. والصهوة: موضع اللبد من ظهر الفرس. ويلوى بها: يذهب بها من شدة عدوه. والعنيف: الذى لا يحسن الركوب، وليس له رفق بركوب الخيل. والمثقل: الثقيل.

(٢) الكميت: لون ليس بأشقر ولا أدهم. والحال: موضع اللبد من ظهر الفرس. والصفواء (جمع صفاة): الصخرة الملساء. والمتنزل: الذى ينزل عليها فيزلق عنها.

(٣) سخنت عينه: نقيض قرّت.

(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٥٧

نفسه على كثير من الحيوان فلم يُدخله إلا الحيّة؛ فلما دخلت به الجنة خرج من جَوْفها إبليس فأخذ من الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حوّاء فقال : أنظرى إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها وأطيبَ طعمَها وأحسن لونَها ! فلم يزل يُغويها حتى أخذتها حوّاء فأكلتها . ثم أغوى آدم، وقالت له حوّاء : كُلْ فإنى قد أكلتُ فلم يضرّنى؛ فأكل منها فبدت لهما سوءاتهما وحصلا فى حكم الذنب؛ فدخل آدم فى جوف الشجرة، فناداه ربه : أين أنت ؟ فقال : أنا هذا ياربّ؛ قال : ألا تخرج ؟ قال أستحى منك يارب؛ قال : أهبط إلى الأرض التى خُلقت منها . ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها فى جوفها وجعلت العداوة بينها وبين بنى آدم؛ ولذلك أُمِرنا بقتلها ؛ على ما يأتى بيانه . وقيل لحوّاء : كما أدْمَيْتِ الشجرة فكذلك يصيبك الدّم كل شهر وتحملين وتضعين كرها تشرفين به على الموت مرارا . زاد الطبرى والنقاش : وتكونى سَفِيهة وقد كنت حَلِيمة . وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد ما أخرج منها وإنما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه التى أعطاه الله تعالى ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم " . والله أعلم . وسيأتى فى الأعراف[1] أنه لما أكل بقى عُريانًا وطلب ما يستتر به فتباعدت عنه الأشجار وبكّتوه بالمعصية، فرحمته شجرة التّين، فأخذ من ورقه فاستتر به، فبُلِىَ بالعُرْى دون الشجر . والله أعلم . وقيل : إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة عمارة الدنيا .

الثالثة — يُذكر أن الحية كانت خادم آدم عليه السلام فى الجنة فخانته بأن مكّنت عدوّ الله من نفسها وأظهرت العداوة له هناك ؛ فلما أهبطوا تأكّدت العداوة وجُعل رزقها التراب، وقيل لها : أنت عدوّ بنى آدم وهم أعداؤك وحيث لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسك . روى ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمسٌ يقتلهنّ المُحْرِم " فذكر الحية فيهن . وروى أن إبليس قال لها : أدخلينى الجنة وأنت فى ذمّتى ؛ فكان ابن عباس يقول : أخْفَرُوا[2] ذِمّة إبليس . وروت ساكنةُ بنتُ الجَعْد عن سَرّاء[3] بنت نَبْهان الغَنَوِيّة قالت : سمعت

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) أى انتقضوا عهده وذمامه . (٣) فى التقريب : « بفتح أوّلها وتشديد الراء المهملة مع المدّ » . وفى أسد الغابة : « بفتح السين وإمالة الراء المشددة ، وآخره ياء ساكنة » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقتلوا الحيّات صغيرَها وكبيرَها وأسودَها وأبيضَها فإن مَن قتلها كانت له فداء من النار ومَن قتلته كان شهيدا " . قال علماؤنا : وإنما كانت له فداء من النار لمشاركتها إبليس وإعانته على ضرر آدم وولده ؛ فلذلك كان مَن قتل حيّة فكأنما قتل كافرا . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع كافرٌ وقاتلُه فى النار أبدًا " . أخرجه مسلم وغيره .

الرابعـــة — روى ابن جُريج عن عمرو بن دِينار عن أبى عبيدة[1] بن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بمنًى فمرّت حيّة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقتلوها " فسبقتنا إلى جُحْر فدخلته ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هاتوا بسعفة ونار فأضرموها عليه نارا " . قال علماؤنا : وهذا الحديث يخصّ نهيه عليه السلام عن المُثْلَة وعن أن يعذّب أحد بعذاب الله تعالى ؛ قالوا : فلم يبق[2] لهذا العدوّ حُرْمة حيث فاته حتى أوصل إليه الهلاك من حيث قدر .

فإن قيـل : قد رُوى عن إبراهيم النَّخَعِى أنه كره أن تُحرق العقرب بالنار ، وقال : هو مُثْلَة . قيل له : يحتمل أن يكون لم يبلغه هذا الأثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعمل على الأثر الذى جاء : " لا تعذّبوا بعذاب الله " فكان على هذا سبيل العمل عنده .

فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى غار وقد أنزلت عليه : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » فنحن نأخذها من فيه رَطْبَة ، إذ خرجت علينا حيّة ، فقال : " اقتلوها " ؛ فابتدرناها لنقتلها فسبقتنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وقاها الله شرّكم كما وقاكم شرّها " . فلم يُضرم نارا ولا احتال فى قتلها . قيل له : يحتمل أن يكون لم يجد نارا فتركها ، أو لم يكن الجُحْر بهيئة ينتفع بالنـار هناك مع ضرر الدخان وعدم وصوله إلى الحيوان . والله أعلم . وقوله : " وقاها الله شركم " أى قتلكم إيّاها " كما وقاكم شرها " أى لَسْعَها .

(١) كذا فى جميع نسخ الأصل . وفى غيرها من التفاسير : « عن عبد الله بن مسعود » . ويبدو أن الأصل : « عن أبى عبيدة عن أبيه عبد الله » الخ .

(٢) الضمير للحديث ؛ أى لم يبق هذا الحديث الخ .

الخامســة — الأمرُ بقتل الحَيّات من باب الإرشاد إلى دفع المضرة المخوفة من الحيات؛ فما كان منها متحقّق الضرر وجبت المبادرة إلى قتله؛ لقوله: "اقتلوا الحيّات واقتلوا ذا الطُّفْيَتَين[1] والأبْتَر فإنهما يخطفان البصر ويُسقطان الحَبَل". فخصّهما بالذكر مع أنهما دخلا في العموم ونبّه على ذلك بسبب عظم ضررهما. وما لم يتحقق ضرره فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضا لظاهر الأمر العام، ولأن نوع الحيّات غالبه الضرر، فيستصحب ذلك فيه، ولأنه كله مروع بصورته وبما في النفوس من النفرة عنه؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الشّجاعة ولو على قتل حيّة". فشجّع على قتلها. وقال فيما خرّجه أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا: "اقتلوا الحيات [كلهنّ][2] فمن خاف ثأرهنّ فليس مني". والله أعلم.

السادســة — ما كان من الحيّات في البيوت فلا يُقتل حتى يُؤذن ثلاثة أيام؛ لقوله عليه السلام: "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام". وقد حمل بعض العلماء هذا الحديث على المدينة وحدها لإسلام الجنّ بها؛ قالوا: ولا نعلم هل أسلم من جنّ غير المدينة أحدٌ أو لا؛ قاله ابن نافع[3]. وقال مالك: نهى عن قتل جِنان البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيح؛ لأن الله عز وجل قال: «وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ[4]» الآية. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني داعي الجنّ فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن" وفيه: وسألوه الزاد وكانوا من جِنّ الجزيرة؛ الحديث. وسيأتي بكماله في سورة «الجن»[5] إن شاء الله تعالى. وإذا ثبت هذا فلا يقتل شيء منها حتى يُحرِج[6] عليه ويُنذر؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذو الطفيتين: حية لها خطان أسودان كالطفيتين أي الخوصتين. (٢) الزيادة عن سنن أبي داود.

(٣) جنان (بتشديد النون الأولى، جمع جان): ضرب من الحيات الدقيق الخفيف يضرب إلى الصفرة ليس بسام، وهو كثير في بيوت الناس. (٤) راجع جـ ١٦ ص ٢١٠ (٥) راجع جـ ١٩ ص ١ فما بعد.

(٦) في هامش نسخة من الأصل: «التحريج هو أن يقول لها: أنت في حرج — أي في ضيق — إن عدت إلينا فلا تلومينا أن نضيق عليك بالتتبع والطرد والقتل». وكذلك هو في نهاية ابن الأثير واللسان.

السابعـــة — روى الأئمة عن أبى السائب مَوْلى هشام بن زُهرة أنه دخل على أبى سعيد الخُدْرىّ فى بيته، قال : فوجدته يصلّى، فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته، فسمعت تحريكا فى عَراجينَ ناحية البيت، فالتفتّ فإذا حيّة، فوثبتُ لأقتلها، فأشار إلىّ أن اجلس فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت نعم، فقال : كان فيه فَتًى منّا حديثُ عهد بعُرْس، قال : فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلى الخَنْدَق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوما، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُذ عليك سلاحك فإنى أخشى عليك قُرَيْظَة". فأخذ الرجل سـلاحه ثم رجع، فإذا امرأتُه بين البابين قائمـة فأهْوَى إليهـا بالرُّمح ليطعُنَها به وأصابته غَيْرَة، فقالت له : اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ! فدخل فإذا بحيّة عظيمة منطوِية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيُّهما كان أسرعَ موتًا، الحيّةُ أم الفتى ! قال : فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فذكرنا ذلك له، وقلنا : ادع الله يحييه [لنـا](١)، فقال : "استغفروا لأخيـكم(٢) — ثم قال : — إنّ بالمدينة جِنًّا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئا فآذِنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنمـا هو شيطان". وفى طريق أخرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لهذه البيوت عوامر(٣) فإذا رأيتم شيئا منها فحرِّجوا عليها ثلاثا فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر — وقال لهم : — اذهبوا فادفِنوا صاحبكم". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لا يُفهم من هذا الحديث أن هذا الجان الذى قتله هذا الفتى كان مسلمًا وأن الجن قتلته به قصاصًا، لأنه لو سُلِّم أن القصاص مشروع بيننا وبين الجن لكان إنما يكون فى العمد المحض، وهذا الفتى لم يقصد ولم يتعمّد قتـل نفس مسلمة، إذ لم يكن عنده علم من ذلك، وإنمـا قصد إلى قتل ما سُوِّغ قتل نوعه شرعًا، فهذا قتـل خطأ ولا قصاص فيه. فالأولى

(١) الزيادة عن صحيح مسلم. (٢) فى صحيح مسلم : « لصاحبكم ».
(٣) العوامر : الحيات التى تكون فى البيوت، واحدها عامر وعامرة.

أن يقال : إن كفار الجن أو فسقتهم قتلوا الفتى بصاحبهم عَدْوًا وانتقاما . وقد قتلت سعد ابن عُبَادة رضى الله عنه ؛ وذلك أنه وُجد ميتًا فى مغتسله وقد آخضرّ جسده ، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول ولا يرون أحدا :

قـد قتلنا سـيّد الخَزْ * رَج سعدَ بن عُباده

ورميناه بسهميـ * ـن فلم نُخْط فؤاده

و إنما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة جِنًّا قد أسلموا" ليبيّن طريقًا يحصل به التحرّز من قتل المسلم منهم و يتسلط به على قتل الكافر منهم . رُوِى من وجوه أن عائشةَ زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قتلت جانًّا فأُرِيتْ فى المنام أن قائلا يقول لها : لقد قتلت مسلما ، فقالت : لو كان مسلما لم يدخل على أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : ما دخل عليك إلا وعليك ثيابك . فأصبحت فأمرت بأثنى عشر ألف درهم فجعلت فى سبيل الله . وفى رواية : ما دخل عليك إلا وأنت مستترة ؛ فتصدّقت وأعتقت رِقابًا . وقال الربيع بن بدر : الجان من الحيّات التى نَهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قتلها هى التى تمشى ولا تلتوى ؛ وعن علقمة نحوه .

الثامنـــة — فى صفة الإنذار ؛ قال مالك : أَحَبُّ إلىّ أن يُنذَروا ثلاثة أيام . وقاله عيسى بن دينار ؛ و إن ظهر فى اليوم مرارا . ولا يُقتصر على إنذاره ثلاث مرار فى يوم واحد حتى يكون فى ثلاثة أيام . وقيل : يكفى ثلاث مرار ؛ لقوله عليه السلام : "فليؤذنه ثلاثا" ، وقوله : "حرّجوا عليه ثلاثا" ولأن ثلاثا للعدد المؤنث ؛ فظهر أن المراد ثلاث مرات . وقول مالك أولى ؛ لقوله عليه السلام : "ثلاثة أيام" . وهو نص صحيح مقيّد لتلك المطلقات ، ويحمل ثلاثا على إرادة ليالى الأيام الثلاث ، فغلب الليلة على عادة العرب فى باب التاريخ فإنها تغلب فيها التأنيث . قال مالك : ويكفى فى الإنذار أن يقول : أحرّج عليك بالله واليوم الآخر ألا تبدوا لنا ولا تؤذونا . وذكر ثابت البُنَانى عن عبد الرحمن بن أبى لَيْلَى أنه ذكر عنده حيات البيوت فقال : إذا رأيتم منها شيئا فى مساكنكم فقولوا : أنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم نوح

عليه السلام ، وأنشدكم بالعهد الذى أخذ عليكم سليمان عليه السلام ؛ فإذا رأيتم منهن شيئا بعدُ فاقتـلوه .

قلت : وهذا يدلّ بظاهره أنه يكفى فى الإذن مرّة واحدة ؛ والحديث يردّه . والله أعلم . وقد حكى ٱبن حبيب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه يقول : " أنشدكنّ بالعهد الذى أخذ عليكنّ سليمان — عليه السلام — ألّا تؤذينا وألّا تظهرنّ علينا .

التاسعـة — روى جُبير عن نُفير عن أبى ثعلبة الخُشَنِىّ — وٱسمه جرثوم — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الجنّ على ثلاثة أثلاث فثلثٌ لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وثلث حيات وكلاب وثلث يَحـلّون ويَظعَنون " . وروى أبو الدّرداء — وٱسمه عُوَيْمر — قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسـلّم : " خلق الجنّ ثلاثة أثلاث فثلث كلاب وحيّات وخَشاش الأرض وثلث ريح هفّافة وثلث كبنى آدم لهم الثواب وعليهم العقاب وخلق الله الإنس ثلاثة أثلاث فثلث لهم قـلوب لا يفقهون بها وأعين لا يُبصرون بها وأذان لا يسمعون بها إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً وثلث أجسادهم كأجساد بنى آدم وقلوبهم قلوب الشياطين وثلث فى ظلّ الله يوم لا ظِلّ إلا ظلّه " .

العـاشرة — ما كان من الحيوان أصله الإذاية فإنه يُقتل ٱبتداء ، لأجل إذايته من غير خلاف ؛ كالحيّة والعَقْرب والفأر والوَزَغ ، وشبهه . وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " خمسٌ فواسقُ يُقتلن فى الحِلّ والحَرَم ... " . وذكر الحديث .

فالحيّة أبْدت جوهرها الخبيث حيث خانت آدم بأن أدخلت إبليس الجنة بين فَكّيها ؛ ولو كانت تبرزه ما تركها رضوان تدخل به . وقال لها إبليس أنت فى ذمتى ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وقال : " ٱقتلوها ولو كنتم فى الصلاة " يعنى الحية والعقرب .

والوَزَغة (١) نفخت على نار إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدواب فلُعنت . وهذا من نوع ما يُروَى فى الحية . ورُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : " مَن قتل وَزَغة فكأنما

(١) الوزغة (بالتحريك) : هى التى يقال لها سام أبرص .

قتل كافرا " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " مَن قَتل وَزَغة فى أوّل ضربة كُتبت له مائةُ حسنة وفى الثانية دون ذلك وفى الثالثة دون ذلك " وفى راوية أنه قال : " فى أوّل ضربة سبعون حسنة " .

والفأرة أبدت جوهرها بأن عمدت إلى حبال سفينة نوح عليه السلام فقطعتها . وروى عبد الرحمن بن أبى نُعْم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يَقتل المُحْرِمُ الحيّةَ والعقرب والحدأة والسَّبُع العادى والكلب العقور والفُوَيْسقة " . وآستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذت فَتِيلة لتحرق البيت فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها .

والغراب أبدى جوهره حيث بعثه نبىّ الله نوح عليه السلام من السفينة ليأتيه بخبر الأرض فترك أمره وأقبل على جِيفة . هذا كلّه فى معنى الحيّة ؛ فلذلك ذكرناه . وسيأتى لهذا الباب مزيد بيان فى التعليل فى « المائدة »[1] وغيرها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ حُذفت الألف من « آهبطوا » فى اللفظ لأنها ألف وصل . وحُذفت الألف من « قلنا » فى اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدها . وروى محمد بن مصَفّى عن أبى حَيْوَةَ ضمّ الباء فى « آهبطوا » ، وهى لغة يقوّيها أنه غير متعدّ والأكثر فى غير المتعدّى أن يأتى على يَفْعُل . والخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان ؛ فى قول آبن عباس . وقال الحسن : آدم وحواء والوسوسة . وقال مجاهد والحسن أيضا : بنو آدم وبنو إبليس . والهبوط : النزول من فوق إلى أسفل ؛ فأهبط آدم بسَرَنْديبَ فى الهند بجبل يقال له « بوذ »[2] ومعه ريح الجنة فعلِق بشجرها وأوديتها فآمتلأ ما هناك طِيباً ؛ فمن ثَمَّ يؤتى بالطيب من ريح آدم عليه السلام . وكان السحاب يمسح رأسه فأصلع ، فأورث ولده الصلع . وفى البخارىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله آدم

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٠٣ (٢) فى اللسان والقاموس ومعجم البلدان ومروج الذهب : « راهون » .

وطوله ستون ذراعا" الحديث . وأخرجه مسلم وسيأتى . واهبطت حوّاء بجُدّة و إبليس بالأُبُلّة[1]، والحيّة ببَيْسان[2]، وقيل : بسَجِسْتان[3] . وسجستان أكثر بلاد الله حيات، ولولا العِرْبَدّ[4] الذى يأكلها و يفنى كثيرا منها لأُخليت سجستان من أجل الحياتِ؛ ذكره أبوالحسن المسعودى.

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ «بعضكم» مبتدأ ، «عدوّ» خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال؛ والتقدير وهذه حالكم. وحذفت الواو من و «بعضكم» لأن فى الكلام عائدا؛ كما يقال : رأيتك السماء تمطر عليك . والعدوّ : خلاف الصديق؛ وهو من عدا إذا ظلم . وذئب عَدَوان : يَعْدُو على الناس . والعُدْوان : الظلم الصُّراح . وقيل : هو مأخوذ من المجاوزة؛ من قولك : لا يَعْدُوك هـذا الأمر ؛ أى لا يتجاوزك . وعداه إذا جاوزه؛ فسمّى عدوّا لمجاوزة الحـد فى مكروه صاحبه ؛ ومنه العَـدْوُ بالقَدَم لمجاوزة الشىء ، والمعنيان متقاربان؛ فإن من ظلم فقد تجاوز .

قلت : وقد حمل بعض العلماء قوله تعالى : « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » على الإنسان نفسه، وفيه بُعْدٌ و إن كان صحيحا معنًى . يدلّ عليه قوله عليـه السلام : "إن العبد إذا أصبح تقول جوارحه للسانه آتق الله فينا فإنك إذا آستقمت آستقمنا و إن آعوججت آعوججنا". فإن قيل: كيف قال « عدوّ » ولم يقـل أعداء؛ ففيه جوابان أحدهما : أن بَعْضًا وكُلًّا يُخـبر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك فى القرآن؛ قال الله تعالى: « وَكُلُّهُمْ ءاتِيهِ[5] يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَرْدًا » على اللفظ، وقال تعـالى : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ[6] » على المعنى . والجواب الآخر : أن عدوّا يفرد فى موضع الجمع؛ قال الله عز وجل : « وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[7] » بمعنى أعداء ، وقال تعالى : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَـدُوُّ[8] » . وقال آبن فارس : العدوّ آسم جامع للواحد والآثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يجمع .

---

(١) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها) : البلد المعروف قرب البصرة من جانبها البحرى .

(٢) بيسان : بلدة بمرو و بالشام وموضع باليمامة . (٣) سجستان (بكسر أوله وثانيه وقد يفتح أوله) : آسم مدينة من مدن خراسان . (عن شرح القاموس) . (٤) العربدّ (بكسر العين وسكون الراء وفتح الباء وكسرها وتشديد الدال) : حية تنفخ ولا تؤذى . (٥) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (٦) راجع جـ ١٣ ص ٢٤١

(٧) راجع جـ ١٠ ص ٤٢٠ (٨) راجع جـ ١٨ ص ١٢٥

الثالثـــة — لم يكن إخراج الله تعالى آدم من الجنة وإهباطه منها عقوبة له ؛ لأنه أهبطه بعد أن تاب عليه وقَبِل توبته ، وإنما أهبطه إمّا تأديباً وإمّا تغليظًا للمِحْنة . والصحيح فى إهباطه وسكناه فى الأرض ما قـد ظهر من الحكمة الأزليّة فى ذلك ، وهى نشر نَسـله فيها ليكلّفهم ويمتحنهم ، ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأُخْرَوِىّ ؛ إذ الجنة والنار ليستا بدار تكليف ؛ فكانت تلك الأكلة سبب إهباطه من الجنة . ولله أن يفعل مايشاء . وقد قال : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً » . وهـذه منقبة عظيمة وفضيلة كريمة شريفة ؛ وقـد تقدّمت الإشارة إليها مع أنه خُلق من الأرض . وإنمـا قلنا إنمـا أهبطه بعد أن تاب عليـه لقوله ثانية : « قُلْنَا اهْبِطُوا » وسيأتى (١) .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ ابتـداء وخبر ؛ أى موضـع آستقرار . قاله أبو العالية وآبن زيد . وقال السُّدِّىّ : « مُسْتَقَرّ » يعنى القبور .

قلت : وقول الله تعـالى : « جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً » (٢) يحتمل المعنيين . والله أعلم .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ وَمَتَاعٌ ﴾ المتاع مايُستمتع به من أكل ولُبْس وحيـاة وحديث وأنس وغير ذلك ؛ ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح لأنها يُتَمَتَّع بها . وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر آبنه أيوب إثر دفنه :

وقفتُ على قـبرٍ غريبٍ بقَفْرةٍ * متاعٌ قليـلٌ من حبيبٍ مفارقِ

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ آختلف المتأولون فى الحين على أقوال ؛ فقالت فرقة : إلى الموت ؛ وهـذا قول من يقول : المستقَرّ هو المقام فى الدنيا . وقيل : إلى قيام الساعة ؛ وهذا قول من يقول : المستقَرّ هو القبور . وقال الربيع : « إلى حين » إلى أجل . والحين : الوقت البعيد ؛ فحينئذ تبعيدٌ من قولك الآن . قال خويلد :

كابِى الرِّماد عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُه (٣) * حِينَ الشتاءِ كحَوْضِ المَنْهَلِ اللَّقِفِ

لَقِف الحوض لَقَفًا ؛ أى تهوّر من أسفله وآتّسع . وربمـا أدخلوا عليه التاء . قال أبو وَجْزَة :

العاطفـون تَحِين ما مِن عاطِفٍ * والمُطْعِمون زمانَ أينَ المُطْعِمُ

(١) ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٢٨ (٣) كابى الرماد : أى عظيم الرماد .

والحين أيضا : المدّة ؛ ومنه قوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ »(١) . والحين : الساعة ؛ قال الله تعالى : « أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ »(٢) . قال ابن عرفة : الحين القطعة من الدهر كالساعة فما فوقها . وقوله : « فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ »(٣) أى حتى تفنى آجالهم . وقوله تعالى : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ »(٤) أى كل سنة ؛ وقيل : بل كل ستة أشهر ؛ وقيل : بل غُدْوَةً وعَشِيًّا . قال الأزهرى : الحين اسم كالوقت يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت . والمعنى أنه ينتفع بها فى كل وقت ولا ينقطع نفعها البَتَّةَ . قال : والحين يوم القيامة . والحين : الغُدْوَة والعَشِيّة ؛ قال الله تعالى : « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ »(٥) . ويقال : عاملته محايَنَةً ؛ من الحين . وأحينت بالمكان : إذا أقمت به حِينًا . وحان حينُ كذا أى قرب . قالت بُثَيْنَةُ :

وإنّ سُلُوّى عن جميلٍ لساعةٌ * من الدهر ما حانت ولا حان حينُها

السابعة — لما اختلف أهل اللسان فى الحين اختلف فيه أيضا علماؤنا وغيرهم ؛ فقال الفَرّاء : الحين حينان : حين لا يوقف على حدّه ، والحين الذى ذكر الله جل ثناؤه : « تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا »(٥) ستة أشهر . قال ابن العربى : الحين المجهول لا يتعلّق به حُكم ، والحين المعلوم هو الذى تتعلق به الأحكام ويرتبط به التكليف ؛ وأكثر المعلوم سنة . ومالك يرى فى الأحكام والأيمان أعمّ الأسماء والأزمنة . والشافعى يرى الأقل . وأبو حنيفة توسط فقال : ستة أشهر . ولا معنى لقوله ؛ لأن المقدّرات عنده لا تثبت قياسا ، وليس فيه نص عن صاحب الشريعة ، وإنما المعوّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغةً . فمن نَذَر أن يصلّى حِينًا فيُحمل على رَكعة عند الشافعى ؛ لأنه أقل النافلة ، قياساً على ركعة الوتر . وقال مالك وأصحابه : أقل النافلة ركعتان ؛ فيتقدّر الزمان بقدر الفعل . وذكر ابن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : أن من حلف ألّا يكلم فلانا حِينًا أو لا يفعل كذا حينًا ، أن الحين سنة . قال : واتفقوا فى الأحكام أن من حلف ألّا يفعل كذا حينًا أو لا يكلّم فلانا حينًا ، أن الزيادة على سنة لم تدخل فى يمينه .

(١) راجع جـ ١٩ ص ١١٦ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣٦٠ (٥) راجع جـ ١٤ ص ١٤

قلت : هذا الائتفاق إنمـا هو فى المذهب . قال مالك رحمه الله : مَن حلف ألا يفعل شيئا إلى حِينٍ أو زمان أو دهر، فذلك كلّه سنة . وقال عنه ابن وهب : إنه شك فى الدهر أن يكون سنة . وحكى ابن المنذر عن يعقوب وابن الحسن : أن الدهر ستة أشهر . وعن ابن عباس وأصحاب الرأى وعكرمة وسعيد بن جُبير وعامر الشَّعْبيّ وعَبِيدة فى قوله تعالى : « تُؤْتِى أُكُلها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها » أنه ستة أشهر . وقال الأوزاعى وأبو عبيد : الحين ستة أشهر . وليس عند الشافعى فى الحين وقت معلوم، ولا للحين غاية؛ قد يكون الحين عنده مدّة الدنيا . وقال: لا تُحَنثه أبدًا، والوَرَع أن يقضيه قبل انقضاء يوم . وقال أبو ثور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغة، يقال: قد جئت من حين، ولعلّه لم يجئ من نصف يوم . قال الكِيَا الطبرى الشافعى : وبالجملة، الحين له مصارف، ولم ير الشافعىّ تعيين محمل من هذه المحامل ؛ لأنه مجمل لم يوضع فى اللغـة لمعنًى معيّن . وقال بعض العلمـاء فى قوله تعالى : «إلى حِينٍ» فائدة بشارة إلى آدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها ومنتقل إلى الجنة التى وعد بالرجوع إليها ؛ وهى لغير آدم دالة على المعاد فحسب ؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ فيه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ تَلقّى قيـل معناه : فَهِم وفَطِن . وقيل : قَبِل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقّى الوَحْى؛ أى يستقبله ويأخذه ويتلقّفه . تقول: خرجنا نتلقّى الحجيج ؛ أى نستقبلهم . وقيل : معنى تلقّى تلقّن . وهذا فى المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقّى مِن التلقّن فى الأصل ؛ لأن أحد الحرفين إنمـا يُقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنّى مِن تظنّن، وتقصّى من تقصّص . ومثله تسرّيت من تسرّرت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال : تَقَبّى مِن تقبّل ، ولا تلقّى مِن تلقّن؛ فاعلم . وحَكَى مكىّ أنه أُلهمها فانتفع بها . وقال الحسن : قبولُها تعلّمه لها وعمله بها .

الثانيـة — وآختلف أهل التأويل فى الكلمات ؛ فقال آبن عباس والحسن وسعيد آبن جبير والضحاك ومجاهد هى قوله : « ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »[1] . وعن مجاهد أيضا : سبحانك اللَّهُمَّ لا إلَهَ إلَّا أنت ربّى ظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم . وقالت طائفة : رأى مكتوباً على ساق العرش « محمد رسول الله » فتشفّع بذلك ، فهى الكلمات . وقالت طائفة : المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء . وقيل : الندم والآستغفار والحزن . قال آبن عطية : وهذا يقتضى أن آدم عليه السلام لم يقل شيئا إلا الآستغفار المعهود . وسئل بعض السلف عما ينبغى أن يقوله المذنب ؛ فقال : يقول ما قاله أبواه : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » الآية . وقال موسى : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى »[2] . وقال يونس : « لا إلَهَ إلَّا أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ »[3] . وعن آبن عباس ووهب بن مُنَبِّه : أن الكلمات « سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، لا إلَهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، لا إلَهَ إلا أنتَ عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم » . وقال محمد بن كعب هى قوله : « لا إلَهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم . لا إلَهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم . لا إلَهَ إلا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فارحمنى إنك أرحم الراحمين » . وقيل : الكلمات قوله حين عطس : « الحمد لله » . والكلمات : جمع كلمة ؛ والكلمة تقع على القليل والكثير . وقد تقدّم[4] :

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ أى قَبِل توبته ، أو وفّقه للتّوبة . وكان ذلك فى يوم عاشوراء فى يوم جمعة ؛ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وتاب العبد : رجع إلى طاعة ربه . وعبد توّاب : كثير الرجوع إلى الطاعة . وأصل التوبة الرجوع ؛ يقال : تاب وثاب وآب وأناب : رجع .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٨١ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٦١ (٣) راجع جـ ١١ ص ٣٣٣

(٤) راجع ص ٦٧ من هذا الجزء .

الرابعـــة — إن قيل : لم قال « عليه » ولم يقل عليهما ، وحوّاء مشاركة له فى الذنب بإجماع ، وقد قال : «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» و «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا» . فالجواب : أن آدم عليه السلام لما خوطب فى أوّل القصة بقوله : « اُسْكُنْ» خصّه بالذكر فى التلقّى ؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده . وأيضا فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله السّتر لها ؛ ولذلك لم يذكرها فى المعصية فى قوله : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » . وأيضا لما كانت المرأة تابعة للرجل فى غالب الأمر لم تُذكر ؛ كما لم يذكر فَتَى موسى مع موسى فى قوله : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ» . وقيل : إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء ؛ قاله الحسن . وقيل : إنه مثل قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا »[1] أى التجارة لأنها كانت مقصود القوم ، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما ؛ والمعنى متقارب . وقال الشاعر[2] :

رَمانى بأمر كنتُ منه ووالدى * بريئًا ومن فوق الطَّوىّ[3] رمانى

وفى التنزيل : « وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[4] فحذف إيجازا واختصارا .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب ؛ وتكرر فى القرآن معرّفا ومنكرا واسما وفعلا . وقد يُطلق على العبد أيضا توّاب ؛ قال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ »[5] . قال ابن العربى : ولعلمائنا فى وصف الربّ بأنه توّاب ثلاثة أقوال ؛ أحدها : أنه يجوز فى حق الربّ سبحانه وتعالى فيُدّعى به كما فى الكتاب والسُّنّة ولا يتأوّل . وقال آخرون : هو وصف حقيقىّ لله سبحانه وتعالى ؛ وتوبة الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة . وقال آخرون : توبة الله على العبد قبوله توبته ؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى : قبلت توبتك ، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع فى قلب المسىء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة .

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩ . (٢) هو عمرو بن أحمر الباهلى . (٣) الذى فى شرح شواهد سيبويه : « ومن أجل الطوى » . والطوى : البئر المطوية بالحجارة . قال الشنتمرى : « وصف فى البيت رجلا كانت بينه وبينه مشاجرة فى بئر ؛ فذكر أنه رماه بأمر يكرهه ورمى أباه بمثله على براءتهما منه من أجل المشاجرة التى كانت بينهما » . (٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (٥) راجع جـ ٣ ص ٩١ .

السادسـة — لا يجوز أن يقال فى حق الله تعالى : تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيّه عليه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان فى اللغة محتملا جائزا . هذا هو الصحيح فى هذا الباب، على ما بيّناه فى (الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) . قال الله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ »[1] . وقال : « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ »[2] . وإنما قيل لله عز وجل : تواب ، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه .

السابعـة — اعلم أنه ليس لأحد قُدرة على خلق التوبة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافا للمعتزلة ومَن قال بقولهم . وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه . قال علماؤنا : وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم فى الدِّين « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » جلّ وعزّ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتى الحَبْرَ أو الراهب فيعطيه شيئا ويحطّ عنه ذنوبه « افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ »[3] .

الثامنـة — قرأ ابن كثير : « فتلقّى آدمَ مِنْ رَبِّهِ كلماتٌ » . والباقون برفع « آدم » ونصب « كلمات » . والقراءتان ترجعان إلى معنًى ؛ لأن آدم إذا تلقّى الكلمات فقد تلقته . وقيل : لما كانت الكلمات هى المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة ، وكأن الأصل على هذه القراءة « فتلقّت آدمَ مِن ربه كلماتٌ » ؛ لكن لمّا بعد ما بين المؤنث وفعله حَسُن حذف علامة التأنيث . وهذا أصل يجرى فى كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة ؛ ومنه قولهم : حضر القاضى اليوم امرأة . وقيل : إن الكلمات لمّا لم يكن تأنيثه حقيقيًّا حُمل على معنى الكَلِم ، فذُكّر . وقرأ الأعمش : « آدمُ مِنْ ربه » مدغما . وقرأ أبو نَوفل بن أبى عقرب : « أنه » بفتح الهمزة ، على معنى لأنه ؛ وكسر الباقون على الاستئناف . وأدغم الهاء فى الهاء أبو عمرو وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم . وقيل : لا يجوز ؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٧٧ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٦ (٣) راجع جـ ٧ ص ٩٦

لأن بينهما واوا فى اللفظ لا فى الخط . قال النحاس : أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو ، وأنشـد :

له زَجَلٌ كأنّهُ صَـوْتُ حادٍ * إذا طَلب الوَسِـيقةَ أو زَمِيرُ (١)

فعلى هـذا يجوز الإدغام ، وهو رفع بالابتداء . « التوّاب » خبره ، والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « هو » توكيدا للهاء ، ويجوز أن تكون فاصلة ؛ على ما تقدّم .

وقال سعيد بن جُبير : لمـا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيهـا شيء غير النَّسر فى البر ، والحوت فى البحر ؛ فكان النسر يأوى إلى الحوت فيبيت عنده ؛ فلما رأى النسر آدم قال : ياحوت ، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشى على رجليه ويبطش بيديه ! فقال الحوت : لئن كنتَ صادقًا مالى منه فى البحر مَنْجى ، ولا لك فى البر منه مَخْلَص ! .

قوله تعـالى : قُلْنَـا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا ﴾ كرّر الأمر على جهة التغليظ وتأكيده ؛ كما تقول لرجل : قُمْ قُمْ . وقيـل : كرّر الأمر لمـا علّق بكل أمر منهمـا حُكمًا غيرَ حُكم الآخر ؛ فعلّق بالأوّل العداوة ، وبالثانى إتيـان الهدى . وقيل : الهبوط الأوّل من الجنة إلى السماء ، والثانى من السماء إلى الأرض . وعلى هذا يكون فيـه دليل على أن الجنة فى السماء السابعة ، كما دلّ عليـه حديث الإسراء ؛ على ما يأتى (٢) .

﴿ جَمِيعًـا ﴾ نصب على الحال . وقال وهب بن مُنَبِّه : لمـا هبط آدم عليـه السلام إلى الأرض قال إبليس للسباع : إن هذا عدوّ لكم فأهلكوه ؛ فاجتمعوا وولّوْا أمرهم إلى الكلب

(١) البيت للشماخ . وصف حمار وحش هائجا ؛ فيقول : إذا طلب وسيقته — وهى أتنه التى يضمها — صوّت بها ، وكأن صوته لمـا فيه من الزجل والحنين ومن حسن الترجيع والتطريب صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها ، أو صوت مزمار . والزجل : صوت فيه حنين وترنم . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٥

وقالوا : أنت أشجعنا ، وجعلوه رئيسا ؛ فلما رأى ذلك آدم عليه السلام تحيّر فى ذلك ؛ فجاءه جبريل عليه السلام وقال له : امسح يدك على رأس الكلب ؛ ففعل ، فلما رأت السباع أن الكلب ألِف آدم تفرّقوا . وآستأمنه الكلب فأمنه آدم، فبقى معه ومع أولاده . وقال الترمذىّ الحكيم نحو هذا، وأن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض جاء إبليس إلى السباع فأشلاهم[1] على آدم ليؤذوه؛ وكان أشدّهم عليه الكلب، فأُميت فؤاده؛ فروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام أمره أن يضع يده على رأسه فوضعها فآطمأن إليه وألفه؛ فصار ممن يحرسه ويحرس ولده ويألفهم . وبموت فؤاده يفزع من الآدميين؛ فلو رُمى بمَدَرٍ ولّى هاربا ثم يعود آلفًا لهم . ففيه شعبة من إبليس، وفيه شعبة من مسحة آدم عليه السلام؛ فهو بشعبة إبليس ينبح ويَهِرّ ويعدو على الآدمىّ ، وبمسحة آدم مات فؤاده حتى ذل وآنقاد وألف به وبولده يحرسهم ، ولَهَثُه[2] على كل أحواله من موت فؤاده؛ ولذلك شبّه الله سبحانه وتعالى العلماء السوء بالكلب، على ما يأتى بيانه فى « الأعراف »[3] إن شاء الله تعالى . ونزلت عليه تلك العصا التى جعلها الله آية لموسى، فكان يطرد بها السباع عن نفسه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ اختلف فى معنى قوله : « هُدًى » ؛ فقيل : كتاب الله؛ قاله السُّدِّى . وقيل : التوفيق للهداية . وقالت فرقة : الهُدَى الرسل، وهى إلى آدم من الملائكة ، وإلى بنيه من البشر؛ كما جاء فى حديث أبى ذَرّ ، وخرّجه الآجُرِّى . وفى قوله : « مِنِّى » إشارة إلى أن أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى ؛ خلافًا للقدرية وغيرهم ؛ كما تقدّم[4] . وقرأ الجَحْدَرِىّ « هُـدَىّ » وهو لغة هذيل، يقولون : هُـدَىّ وعَصَىّ ومَحْيَىّ . وأنشد النحويون لأبى ذُؤَيْب يرثى بنيه :

سَبَقُوا هَوَىّ وأعنقوا لهواهُمُ * فتُخُرِّموا ولكل جَنْبٍ مَصْرَعُ[5]

---

(١) أشلاهم : أغراهم . (٢) لهث الكلب : إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٣ (٤) راجع المسئلة الثالثة ص ١٨٦ من هذا الجزء .

(٥) « هوىّ » : يريد هواى؛ أى ماتوا قبلى وكنت أحب أن أموت قبلهم . « وأعنقوا لهواهم » جعلهم كأنهم هووا الذهاب الى المنية لسرعتهم إليها وهم لم يهووها . « فتخرموا » أى أخذوا واحدا واحدا .

قال النحاس : وعلّة هـذه اللغة عند الخليل وسيبويه أن سبيل ياء الإضافة أن يُكسر ماقبلها؛ فلما لم يَجُز أن تتحرك الألف أبدلت ياء وأدغمت . و « ما » فى قوله : « إمّا » زائدة على « إنْ » التى للشرط، وجواب الشرط الفاء مع الشرط الثانى فى قوله : « فَمَنْ تَبِعَ » . و « مَن » فى موضع رفع بالابتداء . و « تبع » فى موضع جزم بالشرط . « فَلَا خَوْفٌ » جوابه . قال سيبويه : الشرط الثانى وجوابه هما جواب الأول . وقال الكسائى : فلا خَوْفُ عليهم » جواب الشرطين جميعا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الخوف هو الذعر ولا يكون إلا فى المستقبل . وخاوفنى فلان فَخُفْتُه؛ أى كنت أشدّ خوفًا منه . والتخوُّف : التنقّص؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ »[1] . وقرأ الزُّهْرِىّ والحسن وعيسى بن عمر وابن أبى إسحاق ويعقوب : « فلا خوفَ » بفتح الفاء على التبرئة . والاختيار عند النحويين الرفع والتنوين على الابتداء؛ لأن الثانى معرفة لا يكون فيه إلا الرفع؛ لأن « لا » لا تعمل فى معرفة، فآختاروا فى الأول الرفع أيضا ليكون الكلام من وجه واحد . ويجوز أن تكون «لا» فى قولك : فلا خوف؛ بمعنى ليس .

والحُزْن والحَزَن : ضدّ السرور، ولا يكون إلا على ماض . وحَزِن الرجل (بالكسر) فهو حزِن وحزين؛ وأحزنه غيره وحَزَنه أيضا، مثل أسلكه وسلكه؛ ومحزون بُنِىَ عليه . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقد قرئ بهما . وآحتزن وتحزّن بمعنًى . والمعنى فى الآية : فلا خوف عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا . وقيل : ليس فيه دليل على نفى أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين لما وصفه الله تعالى ورسوله من شدائد القيامة إلا أنه يخففه عن المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٩

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أشركوا؛ لقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ الصحبة : الاقتران بالشىء فى حالة ما، فى زمان ما ؛ فإن كانت الملازمة والخُلْطة فهى كمال الصحبة؛ وهكذا هى صحبة أهل النار لها . وبهذا القول ينفك الخلاف فى تسمية الصحابة رضى الله عنهم إذ مراتبهم متباينة، على ما نبيّنه فى « براءة »(١) إن شاء الله . وباقى ألفاظ الآية تقدّم معناها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ نداء مضاف، علامة النصب فيه الياء، وحذفت منه النون للإضافة . الواحد ابن ، والأصل فيه بنى، وقيل : بَنَوٌ؛ فمن قال : المحذوف منه واو احتج بقولهم : البنوّة . وهذا لا حجة فيه؛ لأنهم قد قالوا : الفتوّة، وأصله الياء . وقال الزجاج : المحذوف منه عندى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : اختار أن يكون المحذوف منه الواو؛ لأن حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بيّن البنوّة، والتصغير بُنَىّ . قال الفراء : يقال : يا بُنَىَّ ويا بُنَىَّ لغتان ، مثل يا أبتِ ويا أبتَ ؛ وقرئ بهما . وهو مشتق من البناء وهو وضع الشىء على الشىء؛ والابن فرع للأب وهو موضوع عليه .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . قال أبو الفرج الجَوْزِىّ : وليس فى الأنبياء من له اسمان غيره، إلا نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن له أسماء كثيرة . ذكره فى كتاب « فهوم الآثار » له .

قلت : وقد قيل فى المسيح إنه اسم عَلَم لعيسى عليه السلام غير مشتق ، وقد سمّاه الله رُوحًا وكَلِمة، وكانوا يسمّونه أبيل الأبيلين ؛ ذكره الجوهرى فى الصحاح . وذكر البيهقى فى «دلائل النبوّة» عن الخليل بن أحمد : خمسة من الأنبياء ذوو اسمين ، محمد وأحمد نبيّنا صلى الله عليه وسلم، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل، صلى الله عليهم وسلم .

(١) راجع جـ ٨ ص ١٤٨

قلت : ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء ، وأمّا نبيّنا صلى الله عليه وسلم فله أسماء كثيرة ، بيانها فى مواضعها .

وإسرائيل : اسم أعجمى ، ولذلك لم ينصرف ؛ وهو فى موضع خفض بالإضافة . وفيه سبع لغات : إسرائيل ، وهى لغة القرآن . و إسرائيل ، بمدّة مهموزة مختلسة ، حكاها شَبُّوذ عن وَرْش . و إسرايل ، بمدّة بعد الياء من غير همز ، وهى قراءة الأعمش وعيسى بن عمر ؛ وقرأ الحسن والزهرى بغير همز ولا مدّ . و إسرائل ، بغير ياء بهمزة مكسورة . و إسراءل ، بهمزة مفتوحة . وتميم يقولون : إسرائين ، بالنون . ومعنى إسرائيل : عبد الله . قال ابن عباس : إسرا بالعبرانية هو عبد ، و إيل هو الله . وقيل : إسرا هو صفوة الله ، و إيل هو الله . وقيل : إسرا من الشدّ ؛ فكأن إسرائيل الذى شدّه الله وأتقن خلقه ؛ ذكره المهدَوِى . وقال السُّهيلى : سمّى إسرائيل لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى ؛ فسمى إسرائيل أى أسرى إلى الله ونحو هذا ؛ فيكون بعض الاسم عبرانيًّا و بعضه موافقا للعرب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ الذكر اسم مشترك ، فالذكر بالقلب ضدّ النسيان ، والذكر باللسان ضدّ الإنصات . وذكرت الشيء باسانى وقلبى ذِكرا . واجعله منك على ذُكْر (بضم الذال) أى لا تنسه . قال الكسائى : ما كان بالضمير فهو مضموم الذال ، وما كان باللسان فهو مكسور الذال . وقال غيره : هما لغتان ، يقال : ذِكْر وذُكْر ، ومعناهما واحد . والذَّكر (بفتح الذال) خلاف الأنثى . والذِّكر أيضا الشرف ؛ ومنه قوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] . قال ابن الأنبارى : والمعنى فى الآية اذكروا شكر نعمتى ؛ فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة . وقيل : إنه أراد الذكر بالقلب وهو المطلوب ؛ أى لا تغفلوا عن نعمتى التى أنعمت عليكم ولا تناسوها ؛ وهو حسن . والنعمة هنا اسم جنس ، فهى مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا »[2] أى نِعَمَه . ومن نعمه عليهم أن أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم الكتب والمنّ والسَّلْوَى ، وفجّر لهم

(١) راجع جـ ١٦ ص ٩٣ (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٦٧

من الحجر الماء ، إلى ما آستودعهم من التوراة التى فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته . والنعم على الآباء نعم على الأبناء ؛ لأنهم يشرفون بشرف آبائهم .

تنبيه — قال أرباب المعانى : ربط سبحانه وتعالى بنى إسرائيل بذكر النعمة وأسقطه عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى ذكره ، فقال : « آذْكُرُونِي[1] أَذْكُرْكُمْ » ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد صلى الله عليه وسلم من المنعم إلى النعمة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أمرٌ وجوابه . وقرأ الزهرى : « أُوَفِّ » (بفتح الواو وشد الفاء) للتكثير . وآختلف فى هذا العهد ما هو ؛ فقال الحسن : عهده قوله : « خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ[2] » ، وقوله : « وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا[3] » . وقيل هو قوله : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ[4] » . وقال الزجاج : « أَوْفُوا بعهدى » الذى عهدت إليكم فى التوراة من آتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، « أوف بعهدكم » بما ضمنت لكم على ذلك ، إن أوفيتم به فلكم الجنة . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى أداء الفرائض على السنة والإخلاص ، « أوف » بقبولها منكم ومجاراتكم عليها . وقال بعضهم : « أَوْفُوا بعهدى » فى العبادات ، « أوف بعهدكم » أى أوصلكم إلى منازل الرعايات . وقيل : « أَوْفُوا بعهدى » فى حفظ آداب الظواهر ، « اوف بعهدكم » بتزيين سرائركم . وقيل : هو عام فى جميع أوامره ونواهيه ووصاياه ؛ فيدخل فى ذلك ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذى فى التوراة وغيره . هذا قول الجمهور من العلماء ، وهو الصحيح . وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة .

قلت : وما طلب من هؤلاء من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ؛ قال الله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، « أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ » ؛ وهو كثير . ووفاؤهم بعهد الله أمارة لوفاء الله تعالى لهم لا علة له ، بل ذلك تفضُّل منه عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون . والرُّهْبُ والرَّهْبُ والرَّهْبَة : الخوف . ويتضمّن الأمر به معنى التهديد . وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية . وقرأ آبن

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧١ (٢) راجع ص ٤٣٧ من هذا الجزء
(٣) راجع جـ ٦ ص ١١٢ (٤) راجع جـ ٤ ص ٣٠٤

أبي إسحاق: « فَٱرْهَبُونِى » بالياء، وكذا « فاتقونى »؛ على الأصل . « و إيّاىَ » منصوب بإضمار فعـل ، وكذا الاختيـار فى الأمر والنهى والاستفهام ؛ التقـدير : وإياى ارهبوا فارهبون . ويجوز فى الكلام وأنا فارهبون؛ على الابتداء والخبر . وكون « فارهبون » الخبر على تقدير الحذف؛ المعنى وأنا ربكم فارهبون .

قوله تعالى : وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ أى صدّقوا ؛ يعنى بالقرآن . ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال من الضمير فى « أنزلت » ؛ التقدير بما أنزلته مصدقا ؛ والعامل فيه أنزلت . ويجوز أن يكون حالا من ما، والعامل فيه آمنوا؛ التقدير آمنوا بالقرآن مصدقا . ويجوز أن تكون مصدرية ؛ التقدير آمنوا بإنزال . ﴿ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يعنى من التوراة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ الضمير فى « به » قيـل هو عائد على محمد صلى الله عليـه وسلم ؛ قاله أبو العالية . وقال ابن جُريج : هو عائد على القرآن ، إذ تضمنه قوله : « بِمَا أَنْزَلْتُ » . وقيل : على التوراة، إذ تضمنها قوله : « لِما معكم » .

فإن قيل : كيف قال « كافر » ولم يقل كافرين ؛ قيل : التقدير ولا تكونوا أوّل فريق كافر به . وزعم الأخفش والفرّاء أنه محمول على معنى الفعل ؛ لأن المعنى أوّل من كفر به . وحكى سيبويه : هو أظرف الفتيان وأجمله ؛ وكان ظاهر الكلام هو أظرف فتًى وأجمله . وقال : « أوّلَ كافرٍ به » وقد كان قد كفر قبلهم كفار قريش، فإنما معناه من أهل الكتاب؛ إذ هم منظور إليهم فى مثل هـذا؛ لأنهم حجة مظنون بهم علم . و « أوّل » عنـد سيبويه نصب على خبر كان . وهو مما لم ينطق منه بفعل ؛ وهو على أفعل، عينه وفاؤه واو . وإنمـا لم ينطق منه بفعل لئلا يعتلّ من جهتين : العين والفـاء ؛ وهذا مذهب البصريين . وقال الكوفيون : هو من وَأَلَ إذا نجا ؛ فأصـله أَوْأَل ، ثم خُفّفت الهمزة وأبدلت واوا وأدغمت

فقيل أوّل، كما تخفف همزة خطيئة . قال الجوهرى : « والجمع الأوائل والأوالى أيضا على القلب . وقال قوم : أصله وَوَّل على فَوْعَل؛ فقلبت الواو الأولى همزة . وإنما لم يجمع على أواول لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع » . وقيل : هو أفعل من آل يؤول ، فأصله أَأْوَل؛ قلب بفاء أعفل مقلوبا من أفعل، فسُهّل وأُبدل وأُدغم .

مسـئلة — لا حُجّة فى هـذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب ، وهم الكوفيون ومن وافقهم؛ لأن المقصود من الكلام النهى عن الكفر أوّلا وآخرا؛ وخصّ الأوّل بالذكر لأن التقدّم[1] فيه أغلظ، فكان حكم المذكور والمسكوت عنه واحدا؛ وهذا واضح .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا ﴾ معطوف على قوله : « وَلَا تَكُونُوا » . نهاهم عن أن يكونوا أوّل من كفر وألا يأخذوا على آيات الله ثمنًا؛ أى على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رُشًى . وكان الأحبار يفعلون ذلك فنُهوا عنه؛ قاله قوم من أهل التأويل، منهم الحسن وغيره . وقيل : كانت لهم مآكل يأكلونها على العلم كالراتب؛ فنُهوا عن ذلك . وقيل : إن الأحبار كانوا يعلّمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك . وفى كتبهم : يا ابنَ آدمَ عَلّم مجّانًا كما عُلّمت مجّانًا؛ أى باطلا بغير أجرة؛ قاله أبو العالية . وقيل : المعنى ولا تشتروا بأوامرى ونواهىّ وآياتى ثمنا قليلا ، يعنى الدنيا ومدّتها والعيش الذى هو نزر لا خطر له؛ فسُمّى ما اعتاضوه عن ذلك ثمنًا؛ لأنهم جعلوه عوضا؛ فانطلق عليه اسم الثمن وإن لم يكن ثمنًا . وقد تقدّم هذا المعنى . وقال الشاعر :

إن كنتَ حاولتَ ذنباً أوظفِرتَ به * فما أصبتَ بترك الحجّ من ثَمَن

قلت : وهذه الآية وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل فهى تتناول مَن فعل فعلهم . فمن أخذ رشوة على تغيير حق أو إبطاله، أو امتنع من تعليم ما وَجَب عليه، أو أداء ما علمه

(١) فى نسخة من الأصل : « ... لأن النقل منه أعظم » .

وقد تعيّن عليه حتى يأخذ عليه أجرا فقد دخل فى مقتضى الآية . والله أعلم . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَن تعلّم علماً مما يُبتغَى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عَرَضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة " يعنى ريحها .

الثانيـــة — وقد آختلف العلماء فى أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه الآية وما كان فى معناها — ؛ فمنع ذلك الزُّهرِىّ وأصحاب الرأى وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ؛ لأن تعليمه واجب من الواجبات التى يحتاج فيها إلى نيّة التقرّب والإخلاص ؛ فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام . وقد قال تعالى : «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلًا» . وروى آبن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " معلّمو صبيانكم شراركم أقلهم رحمة باليتيم وأغلظهم على المسكين " . وروى أبو هريرة قال : قلت يارسول الله ماتقول فى المعلمين ؟ قال : " درهمهم حرام وثوبهم سُحْت وكلامهم رياء " . وروى عُبَادة بن الصّامت قال : علّمت ناسا من أهل الصُّفّة القرآن والكتابة ، فأهدى إلىّ رجل منهم قوسًا ؛ فقلت : ليست بمال وأرمى عنها فى سبيل الله ، فسألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : " إنْ سرّك أن تُطوَّق بها طوقًا من نار فاقبلها " . وأجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن مالك والشافعى وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء ؛ لقوله عليه السلام فى حديث آبن عباس — حديثِ الرُّقْيَة — : " إن أحقّ ما أخذتم عليه أجرًا كتابُ الله " . أخرجه البخارى ؛ وهو نصّ يرفع الخلاف ، فينبغى أن يعوّل عليه .

وأمّا ما آحتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ؛ لأنه فى مقابلة النص ؛ ثم إن بينهما فُرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عباداتٌ مختصّة بالفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعدية لغير المعلّم ؛ فتجوز الأجرة على محاولته النقل كتعليم كتابة القرآن . قال آبن المنذر : وأبو حنيفة يكره تعليم القرآن بأجرة ؛ ويجوّز أن يستأجر الرجلَ يكتب له لوحًا أو شِعرا أو غناء معلوما بأجرٍ معلوم ؛ فيجوّز الإجارة فيما هو معصية ويبطلها فيما هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية — فالمراد بها بنو إسرائيل، وشَرْعُ مَن قبلنا هل هو شَرْع لنا؛ فيه خلاف، وهو لا يقول به .

جواب ثان — وهو أن تكون الآية فيمن تعيّن عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجرا . فأما إذا لم يتعيّن فيجوز له أخذ الأجرة بدليـل السُّنّة فى ذلك ، وقد يتعيّن عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفقه على نفسه ولا على عياله فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعته وحرفته . ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدِّين إعانته ، و إلا فعلى المسلمين ؛ لأن الصدّيق رضى الله عنه لمـا ولى الخلافة وعُيّن لها لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثيابا وخرج إلى السوق ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالى ! فردّوه وفرضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شىء منها يقوم على ساق ، ولا يصح منها شىء عند أهل العلم بالنقل . أما حديث آبن عباس فرواه سـعيد بن طَريف عن عكرمة عنه ؛ وسـعيد متروك . وأما حديث أبى هريرة فرواه علىّ بن عاصم عن حماد بن سَلَمة عن أبى جرهم عنه ؛ وأبو جرهم مجهول لا يعرف ، ولم يرو حماد بن سَلَمة عن أحد يقال له أبو جرهم ، وإنمـا رواه عن أبى المُهَزِّم وهو متروك الحديث أيضا ، وهو حديث لا أصل له . وأما حديث عُبَادة بن الصامت فرواه أبو داود من حديث المغيرة بن زياد الموصلىّ عن عبادة بن نُسَىّ عن الأسود بن ثعلبة عنه ؛ والمغيرة معروف عند أهل العلم ولكنه له مناكير ، هذا منها ؛ قاله أبو عمر . ثم قال : وأما حديث القوس فمعروف عند أهل العـلم ؛ لأنه روى عن عبادة من وجهين ، وروى عن أُبَىّ بن كعب من حديث موسى بن علىّ عن أبيه عن أُبَىّ ، وهو منقطع . وليس فى الباب حديث يجب العمل به من جهة النقل ، وحديث عبادة وأُبَىّ يحتمل التأويل ؛ لأنه جائز أن يكون علّمه لله ثم أخذ عليه أجرا . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلّمون كلما خلق الدِّين جدّدوه أُعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبىّ قل بسم الله الرحمن الرحيم فقـال الصبىّ بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبىّ وبراءة للمعلم وبراءة لأبويه من النار " .

(١) فى نسخة : « معروف بحمل العلم » .

الثالثـــة — واختلف العلماء فى حكم المصلّى بأجرة؛ فروى أشهب عن مالك أنه سئل عن الصلاة خلف من استُؤجِر فى رمضان يقوم للناس ؛ فقال : أرجو ألا يكون به بأس ؛ وهو أشد كراهة له فى الفريضة . وقال الشافعى وأصحابه وأبوثور : لا بأس بذلك ولا بالصلاة خلفه . وقال الأوزاعى : لا صلاة له . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ على ما تقدّم . قال ابن عبد البر : وهذه المسئلة معلّقة من التى قبلها وأصلهما واحد .

قلت : ويأتى لهـذا أصل آخر من الكتاب فى « براءة » إن شاء الله تعـالى . وكره ابن القـاسم أخذ الأجرة على تعليم الشعر والنحو . وقال ابن حبيب : لا بأس بالإجارة على تعليم الشعر والرسائل وأيام العرب ؛ ويكره من الشعر ما فيـه الخمر والخنا والهجاء . قال أبو الحسن اللَّخْمِىّ : ويلزم على قوله أن يُجيز الإجارة على كتبه ويُجيز بيع كتبـه . وأما الغناء والنَّـوح فممنوع على كل حال .

الرابعـــة — روى الدارمىّ أبو محمد فى مسنده أخبرنا يعقوب بن إبراهيم قال حدّثنا محمد ابن عمر بن الكُمَيْت قال حدثنا على بن وهب الهمدانىّ قال أخبرنا الضحاك بن موسى قال : مرّ سليمان بن عبد الملك بالمدينة — وهو يريد مكة — فأقام بها أياما ؛ فقال : هل بالمدينة أحد أدرك أحدا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم ؟ قالوا له : أبو حازم ؛ فأرسل إليه ؛ فلما دخل عليه قال له : يا أبا حازم ما هـذا الجفاء ؟ قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين وأىّ جفاء رأيت منى ؟ قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى ! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عَرَفتنى قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك ! قال : فالتفت إلى محمد ابن شهاب الزهرىّ فقال : أصاب الشيخ وأخطأت . قال سليمان : يا أبا حازم ، مالنا نكره المـوت ؟ ! قال : لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيـا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ؛ قال : أصبت يا أبا حازم ، فكيف القدوم غدًا على الله تعالى ؟ قال : أمّا المحسن فكالغائب يَقْدَم على أهله ، وأمّا المسىء فكالآبق يَقْدَم على مولاه . فبكى سليمان وقال : ليت شعرى ! ما لنا عند الله ؟ قال : أعرض عملك على كتاب الله . قال : وأىّ مكان أجده ؟ قال :

«إنّ الأبرارَ لفي نعيم . وإنّ الفجّارَ لفي جحيم»[1] . قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم؟ قال أبو حازم : رحمة الله قريب من المحسنين . قال له سليمان : يا أبا حازم، فأىّ عباد الله أكرم؟ قال : أولو المروءة والنُّهى . قال له سليمان : فأىّ الأعمال أفضل ؟ قال أبو حازم : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان : فأى الدعاء أسمع؟ قال : دعاء المحسَن إليه للمحسِن . فقال : أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : للسائل البائس، وجُهْد المُقِلّ[2] ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًى . قال : فأىّ القول أعدل ؟ قال : قولُ الحق عند مَن تخافه أو ترجوه . قال : فأىّ المؤمنين أكْيَس؟ قال : رجلٌ عَمِل بطاعة الله ودلّ الناس عليها . قال : فأىّ المؤمنين أحمق؟ قال : رجل انحطّ فى هوَى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره . قال له سليمان : أصبتَ، فما تقول فيما نحن فيه؟ قال : يا أمير المؤمنين أوَ تُعفينى؟ قال له سليمان : لا! ولكن نصيحة تُلقيها إلىّ . قال : يا أمير المؤمنين، إن آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هـذا المُلْكَ عَنْوَة على غير مَشُورة من المسلمين ولا رضاهم، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها، فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم! . فقال له رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم! قال أبو حازم : كذبتَ، إن الله أخذ ميثاق العلماء ليُبيِّننّه للناس ولا يكتمونه . قال له سليمان : فكيف لنا أن نُصلح ؟ قال : تدَعون الصَّلَف وتمسّكُون بالمروّة وتقسمون بالسّويّة . قال له سليمان : فكيف لنـا بالمأخذ به ؟ قال أبو حازم : تأخذه مِن حِلّه وتضعه فى أهله . قال له سـليمان : هل لك يا أبا حازم أن تَصْحَبنا فتُصيبَ منـا ونُصيبَ منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلا فيُذيقنى الله ضِعفَ الحياة وضعف الممات . قال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك . قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة . قال له سليمان : ليس ذاك إلىّ! قال له أبو حازم : فما لى إليك حاجة غيرها . قال : فادع لى . قال أبو حازم : اللّهمّ إن كان سليمان وَلِيّك فيَسِّرْه لخير الدنيا والآخرة ، و إن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحبّ وترضى . قال له سليمان : قَطّ ! قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٧ (٢) جهد المقل : أى قدر ما يحتمله حال القليل المال .

إن كنت من أهـله ، و إن لم تكن من أهله فمـا ينبغى أن أرمى عن قوس ليس لهـا وَتَر .
قال له سليمان : أوْصنى ؛ قال : سأُوصيك وأُوجِز : عظِّم ربك ، ونزِّهه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقِدك حيث أمرك . فلمـا خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار ، وكتب [إليه](١) أن أنفقها ولك عندى مثلها كثير . قال : فردّها عليه وكتب إليه : يا أمير المؤمنين ، أعيذك بالله أن يكون سـؤالك إيّاى هَزْلًا أو ردّى عليك بَذْلا(٢) ، وما أرضاها لك ، فكيف [أرضاها](١) لنفسى ! إن موسى بن عِمران لمـا وَرد ماءَ مَدْين وجد عليه رِعاءً يَسقون ، ووجد من دونهم جاريتين تذودان [فسألهما ، فقالتا : لا نَسق حتى يُصدر الرِّعاء وأبونا شيخ كبير](١) ؛ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظّل فقال : رَبّ إنى لِمَـا أنزلتَ إلىّ من خير فقير . وذلك أنه كان جائعا خائفا لا يأمن ، فسأل ربّه ولم يسأل الناس . فلم يفطن الرعاء ، وفطنت الجاريتان . فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة و بقوله . فقال أبوهما وهو شعيب عليه السلام : هـذا رجل جائع . فقال لإحداهما : اذهبى فادعيه . فلما أتته عظّمته وغطّت وجهها وقالت : إن أبى يدعوك ليَجزِيَك أجْرَ ما سقيتَ لنا ؛ فشقّ على موسى حين ذكرت «أجر ما سقيتَ لنا» ولم يجد بُدًّا من أن يتبعها ؛ لأنه كان بين الجبال جائعا مستوْحشًا . فلمـا تبعها هبّت الريح فجعلت تصفّق ثيابها على ظهرها فتصِفُ له عجيزتها — وكانت ذات عَجُز — وجعل موسى يُعرِض مرّة و يغضّ أخرى ؛ فلما عِيل صبره ناداها : يا أَمَةَ الله كونى خلفى ، وأرِينى السّمت بقولك . فلما دخل على شُعَيب إذ هو بالعَشاء مُهَيَّأ ؛ فقـال له شعيب : اجلس يا شاب فتعشّ ؛ فقال له موسى عليه السـلام : أعوذ بالله ! فقـال له شعيب : لِم ! أمَا أنت جائع ؟ قال : بلى ، ولكنى أخاف أن يكون هذا عِوضًا لمَـا سقيتُ لها ، وأنا مِن أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا . فقال له شعيب : لا يا شابّ ، ولكنها عادتى وعادة آبائى : نَقْرِى الضيف ونطعم الطعام ؛ فجلس موسى فأكل . فإن كانت هذه المـائة دينار عوضًا لمـا حدّثتُ فالميتة والدّمُ ولحم الخنزير فى حال الاضطرار أحلّ من هذه ، و إن كان لحق فى بيت المـال فلى فيها نظراء ؛ فإن ساوَيْت بيننا و إلا فليس لى فيها حاجة .

(١) الزيادة عن مسند الدارمى . (٢) بذلا : أى راجيا بَذْلَك وعطاءك .

قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء . انظروا إلى هذا الإمام الفاضل والحبر العالم كيف لم يأخذ على عمله عِوَضًا ، ولا على وصيته بَدَلًا ، ولا على نصيحته صَفَدًا[1] ؛ بل بيّن الحق وصَدَع ، ولم يلحقه فى ذلك خوف ولا فَزَع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمنعنّ أحدكم هيبةُ أحد أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان " . وفى التنزيل : « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِيَّايَ فَٱتَّقُونِ ﴾ قد تقدّم معنى التقوى[3] . وقرئ « فاتقونى » بالياء ، وقد تقدّم . وقال سهل بن عبد الله : قوله « وإيّاىَ فاتقونِ » قال : موضع علمى السابق فيكم . « وإيّاىَ فارهبونِ » قال : موضع المكر والاستدراج[4] ؛ لقول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ »[5] ، وقوله : « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ »[5] . فما استثنى نبيًّا ولا صدّيقًا .

قوله تعالى : وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ ﴾ اللَّبْس : الخلط . لَبَست عليه الأمر ألبِسه ، إذا مزجتَ بيّنه بمُشْكله وحقّه ببـاطله ؛ قال الله تعالى : « وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ »[6] . وفى الأمر لُبْسة ؛ أى ليس بواضح . ومن هذا المعنى قول علىّ رضى الله عنه للحارث بن حوط : يا حارث إنه ملبوس عليك ، إن الحق لا يُعْرَف بالرجال ، اعرف الحق تعرف أهله . وقالت الخنساء :

ترى الجليسَ يقول الحقّ تحسَبه * رُشْدًا وهيهات فانظر ما به التبسا
صَدِّق مقالته واحذَر عداوته * والبس عليه أمورا مثلَ ما لَبَسا

---

(١) الصفد (بالتحريك) : العطاء . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢٠ (٣) راجع ص ١٦١ وما بعدها .
(٤) العبارة ها هنا غير واضحة . والذى فى البحر لأبى حيان : « وقال سهل : « وإياى فارهبون » موضع اليقين بمعرفته ، « وإياى فاتقون » موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج » .
(٥) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ و ص ٢٥٤ . (٦) راجع جـ ٦ ص ٣٩٤ .

وقال العَجّاج :

لما لَبَسْنَ الحـــقَّ بالتَّجَنِّى * غَنِين وٱستبدَلْن زيدًا منِّى

روى سعيد عن قتادة فى قوله : « وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ »، يقول : لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله — الذى لا يقبل غيره ولا يجزى إلا به — الإسلامُ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة وليست من الله . والظاهر من قول عنترة :

* وكَتِيبةٍ لَبَّستها بكتيبة *

أنه من هذا المعنى ؛ ويحتمل أن يكون من اللباس . وقد قيل هذا فى معنى الآية ؛ أى لا تُغَطّوا . ومنه لبس الثوب ؛ يقال : لبِست الثوب ألْبَسه . ولباس الرجل زوجته ، وزوجها لباسها . قال الجَعْدىّ :

إذا ما الضَّجيع ثَنَى جِيدَها * تَثَنَّتْ عليه فكانت لباسَا

وقال الأخْطل :

وقد لَبِستُ لهذا الأمر أعْصُرَه * حتى تجلّل رأسى الشيبُ فاشتعلا

واللُّبوس : كل ما يُلبس من ثياب ودرع ؛ قال الله تعالى : « وعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ »[1] . ولابست فلانا حتى عرفتُ باطنه . وفى فلان مَلْبَس ؛ أى مستمتع . قال :

ألَا إن بعد العُدْم للمرء قُنْوَة[2] * وبعد المشيب طولَ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

ولِبْس الكعبة والهودج : ما عليهما من لِباس (بكسر اللام) .

قوله تعالى : ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الباطل فى كلام العرب خلاف الحق ، ومعناه الزائل . قال لبيد :

* ألَا كُلُّ شىء ما خلا اللهَ باطلُ *

وبطل الشىء يبطل بُطْلا وبُطولا وبُطلانا [ذهب ضياعا وخسرا][3] ، وأبطله غيره . ويقال : ذهب دمه بُطْلًا ؛ أى هَدَرا . والباطل : الشيطان . والبَطَل : الشجاع ، سُمِّىَ بذلك لأنه يُبطل شجاعة صاحبه . قال النابغة :

لهم لواء بأيدى ماجدٍ بطلٍ * لا يقطع الخرق إلا طرفُه سامى

(١) راجع جـ ١١ ص ٣٢٠ (٢) القنوة (بكسر الأول وضمه) : الكِسْبة .
(٣) الزيادة عن اللسان .

والمرأةُ بَطَـلة . وقد بطُل الرجل (بالضم) يبطُل بُطولة وبَطالة[1] ؛ أى صار شجاعا . وبطَل الأجير (بالفتح) بَطَالة ؛ أى تعطّل ، فهو بطّال . واختلف أهل التأويل فى المراد بقوله : «ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ» ؛ فروى عن ابن عباس وغيره : لا تخلطوا ما عندكم من الحق فى الكتاب بالباطل ؛ وهو التغيير والتبديل . وقال أبو العالية : قالت اليهود : محمد مبعوث ولكن إلى غيرنا . فإقرارهم ببعثه حقّ ، وجحدهم أنه بُعث إليهم باطل . وقال ابن زيد : المراد بالحق التوراة ، والباطل ما بدّلوا فيها من ذكر محمد عليـه السلام وغيره . وقال مجاهد : لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام . وقاله قتادة ؛ وقد تقدم .

قلت : وقول ابن عباس أصوب ؛ لأنه عام فيدخل فيه جميع الأقوال . والله المستعان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على « تَلْبِسُوا » فيكون مجزوما ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أن ، التقـدير : لا يكن منكم لبس الحق وكتمانه ؛ أى وأن تكتموه . قال ابن عباس : يعنى كتمانهم أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه . وقال محمد بن سِيرين : نزل عصابة من ولد هارون يَثْرِبَ لما أصاب بنى إسرائيل ما أصابهم من ظهور المدوّ عليهم والذلة ، وتلك العصابة هم حملة التوراة يومئذ ، فأقاموا بيثرب يرجون أن يخرج محمد صلى الله عليـه وسلم بين ظهرانيهم ، وهم مؤمنون مصدّقون بنبوّته ، فمضى أولئك الآباء وهم مؤمنـون وخلف الأبناء وأبناء الأبناء فأدركوا محمدا صلى الله عليه وسـلم فكفروا به وهم يعرفونه ؛ وهو معنى قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ »[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال ؛ أى أن محمدا عليه السلام حق ؛ فكفرهم كان كفر عناد ؛ ولم يشهد تعالى لهم بعلم ، وإنمـا نهاهم عن كتمان ما علموا . ودل هذا على تغليظ الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل . وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »[3] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

فيه أربع وثلاثون مسئلة :

(١) فى تاج العروس : « والبطالة بالكسر والضم لغتان فى البطالة بالفتح بمعنى الشجاعة . الكسر نقـله الليث ، والضم حكاه بعض ونقله صاحب المصباح » .
(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٦ (٣) ص ٣٦٥ .

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أمرٌ معناه الوجوب ، ولا خلاف فيه ؛ وقد تقدّم القول فى معنى إقامة الصلاة وٱشتقاقها وفى جملة من أحكامها[1] ، والحمد لله .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أمرٌ أيضا يقتضى الوجوب . والإيتاء : الإعطاء . آتيتـه : أعطيته ؛ قال الله تعالى : « لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ » . وأتيته — بالقصر من غير مَدّ — جئته ؛ فإذا كان المجىء بمعنى الٱستقبال مُدّ ؛ ومنـه الحديث : " ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه " . وسيأتى .

الثالثـــة — الزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نما وزاد ؛ يقال : زكا الزرعُ والمالُ يزكو ؛ إذا كثر وزاد . ورجل زكى ؛ أى زائد الخير . وسُمّى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منـه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكّى . ويقال : زرع زاكٍ بيّن الزكاء . وزكأت النـاقة بولدها تزكأ به : إذا رمتْ به من بين رجليها . وزكا الفرد : إذا صار زوجا بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعًا . قال الشاعر :

كانوا خَسًّا أو زَكًّا من دون أربعة * لم يَخْلُقُوا وجدود النـاس تَعْتَلِجُ

جمع جَدّ ، وهو الحظّ والبخت . تعتلج أى ترتفع . اعتلجت الأرض : طال نباتها . خَسًّا : الفردُ ، وزكًّا : الزَّوْج .

وقيل : أصلها الثناء الجميل ؛ ومنه زكّى القاضى الشاهد . فكأن مَن يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثنـاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير ؛ كما يقال : زكا فلان ؛ أى طهر من دنس الجَرْحة والإغفال[2] . فكأن الخارج من المـال يطهّره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للساكين . ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سمّى ما يخرج من الزكاة أوساخَ الناس ؛ وقد قال تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا »[3] .

الرابعـــة — وٱختلف فى المـراد بالزكاة هنـا ؛ فقيل : الزكاة المفروضة ، لمقارنتهـا بالصلاة . وقيل : صدقة الفطر ؛ قاله مالك فى سماع آبن القاسم .

---

(١) راجع ص ١٦٤ — ١٧٧ من هذا الجزء . (٢) فى نسخة : « أو الإغفال » وكذا فى تفسير آبن عطية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ .

قلت : فعلى الأول — وهو قول أكثر العلماء — فالزكاة فى الكتاب مجملة بيّنها النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى حَبّ ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أَوْسُق(١) ولا فيما دون خمس ذَوْدٍ(٢) صدقة ولا فيما دون خمس أواقٍ صدقة ". وقال البخارى : " خمس أواق من الورِق " . وروى البخارىّ عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " فيما سَقَتِ السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا(٣) العُشْرُ وما سُقِى بالنَّضْح(٤) نصفُ العُشر " . وسيأتى بيان هذا الباب فى « الأنعام »(٥) إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « براءة » زكاة العين والماشية ، وبيان المال الذى لا يؤخذ منه زكاة عند قوله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً »(٦) . وأما زكاة الفطر فليس لها فى الكتاب نصٌّ عليها إلا ما تأوّله مالك هنا ، وقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى »(٧) . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » . والمفسرون يذكرون الكلام عليها فى سورة « الأعلى » ؛ ورأيت الكلام عليها فى هذه السورة عند كلامنا على آى الصيام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر فى رمضان ، الحديث . وسيأتى ، فأضافها إلى رمضان .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَارْكَعُوا ﴾ الركوع فى اللغة الانحناء بالشخص ؛ وكل منحن راكع . قال لَبيد :

أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضت * أَدِبُّ كأنى كلما قمت راكعُ

وقال ابن دُريد : الركعة الهُوّة فى الأرض ، لغة يمانية . وقيل : الانحناء يعم الركوع والسجود ؛ ويستعار أيضا فى الانحطاط فى المنزلة . قال :

ولا تُعادِ الضعيفَ علّك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه

---

(١) الوسق (بالفتح) : ستون صاعا ، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز . (٢) الذود من الإبل : ما بين الثنتين إلى التسع . وقيل : ما بين الثلاث إلى العشر . واللفظة مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . (٣) العثرى (بفتح المهملة والثاء المثلثة المخففة وكسر الراء وتشديد الياء) . قال ابن الأثير : « هو من النخيل الذى يشرب بعروقه من ماء المطر يجتمع فى حفيرة . وقيل : هو العذى (الزرع الذى لا يسقى إلا من ماء المطر لبعده من المياه ، وقيل فيه غير ذلك) . وقيل : هو ما يسقى سيحا ، والأول أشهر » . (٤) النضح (بفتح النون وسكون المعجمة بعدها مهملة) : ما سقى من الآبار . (٥) راجع جـ ٧ ص ٩٩ . (٦) راجع جـ ٨ ص ٢٤٤ . (٧) راجع جـ ٢٠ ص ٢١ .

السادســـة — واختلف الناس فى تخصيص الركوع بالذكر؛ فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة .

قلت: وهذا ليس مختصًّا بالركوع وحده؛ فقد جعل الشرع القراءة [عبارة](١) عن الصلاة، والسجودَ عبارة عن الركعة بكمالها؛ فقال: «وَقُرْآنَ ٱلْفَجْرِ» أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة". وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل: إنما خص الركوع بالذكر لأن بنى إسرائيل لم يكن فى صلاتهم ركوع . وقيل: لأنه كان أثقل على القوم فى الجاهلية؛ حتى لقد قال بعض من أسلم — أظنه عمران بن حُصين — للنبىّ صلى الله عليه وسلم: على ألّا أحرّ إلا قائمًا . فمن تأويله على ألّا أركع؛ فلما تمكن الإسلام من قلبه اطمأنت بذلك نفسه وامتثل ما أمر به من الركوع.

السابعـــة — الركوع الشرعى هو أن ينحنى الرجل صلبه ويمدّ ظهره وعنقه ويفتح أصابع يديه ويقبض على ركبتيه ثم يطمئن راكعًا يقول: سبحان ربى العظيم ثلاثا؛ وذلك أدناه . روى مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين؛ وكان إذا ركع لم يُشخص(٢) رأسه ولم يصوّبه ولكن بين ذلك. وروى البخارى عن أبى حُميد الساعدى قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ منكبيه، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر(٣) ظهره؛ الحديث .

الثامنـــة — الركوع فرض، قرآنا وسُنّة، وكذلك السجود؛ لقوله تعالى فى آخر الحج: «ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا»(٤). وزادت السُّنة الطمأنينةَ فيهما والفصل بينهما . وقد تقدّم القول فى ذلك، وبيّنا صفة الركوع آنفا. وأما السجود فقد جاء مبيَّنًا من حديث أبى حُميد الساعدىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان إذا سجد مكّن جبهته وأنفه من الأرض ونحّى يديه عن جنبيه ووضع كفّيه حَذْو منكبيه . خرّجه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اعتدلوا فى السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه

(١) زيادة يقتضيها السياق . (٢) الإشخاص: الرفع . والتصويب: الخفض .
(٣) هصر ظهره: أى ثناه إلى الأرض . (٤) راجع جـ ١٢ ص ٩٨

آنبساط الكلب " . وعن البَرَاء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سجدتَ فضَع كفيك وآرفع مرفقيك " . وعن ميمونة زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سجد خَوّى بيديه — يعنى جنح حتى يرى وَضَح إبطيه من ورائه — و إذا قعد آطمأن على فخذه اليسرى .

التاسعة — وآختلف العلماء فيمن وضع جبهته فى السجود دون أنفه أو أنفه دون جبهته ؛ فقال مالك : يسجد على جبهته وأنفه ؛ وبه قال الثورىّ وأحمد ، وهو قول النَّخَعِىّ . قال أحمد : لا يجزئه السجود على أحدهما دون الآخر ؛ وبه قال أبو خَيْثَمة[1] وآبن أبى شيبة . قال إسحاق : إن سجد على أحدهما دون الآخر فصلاته فاسدة . وقال الأوزاعى وسعيد بن عبد العزيز ، ورُوى عن آبن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وعبد الرحمن بن أبى ليلى كلهم أمر بالسجود على الأنف . وقالت طائفة : يجزئ أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ هذا قول عطاء وطاوس وعكرمة وآبن سِيرين والحسن البصرى ؛ وبه قال الشافعى وأبو ثور و يعقوب ومحمد . قال آبن المنذر : وقال قائل : إن وضع جبهته ولم يضع أنفه أو وضع أنفه ولم يضع جبهته فقد أساء وصلاته تامة ؛ هذا قول النعمان . قال آبن المنذر : ولا أعلم أحدا سبقه إلى هذا القول ولا تابعه عليه .

قلت : الصحيح فى السجود وضع الجبهة والأنف ؛ لحديث أبى حُميد ، وقد تقدّم . وروى البخارى عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أمِرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة — وأشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا نَكْفِتُ[2] الثياب والشَّعَر " . وهذا كله بيان لمجمل الصلاة ، فتعيّن القول به . والله أعلم وروى عن مالك أنه يجزيه أن يسجد على جبهته دون أنفه ؛ كقول عطاء والشافعى . والمختار عندنا قوله الأوّل ، ولا يجزئ عند مالك إذا لم يسجد على جبهته .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل وتفسير العلامى نقلا عن القرطبى . وفى نسخة : « أبو حنيفة » .

(٢) قوله : « ولا نكفت » : أى لا نضمها ونجمعها . يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود .

العـاشرة — ويكره السجود على كَوْر العمامة ؛ وإن كان طاقة أو طاقتين ، مثل الثياب التى تستر الركب والقدمين فلا بأس ؛ والأفضـل مباشرة الأرض أو ما يسجد عليـه . فإن كان هناك ما يؤذيه أزاله قبـل دخوله فى الصلاة ، فإن لم يفعـل فليمسحه مسحة واحدة . وروى مسلم عن مُعَيْقيب أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قال فى الرجل يسوّى التراب حيث يسجد قال : " إن كنتَ فاعلا فواحدة " . وروى عن أنس بن مالك قال : كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى شدّة الحرّ ؛ فإذا لم يسـتطع أحدنا أن يمكّن جبهته من الأرض بسط ثوبه فسجد عليه .

الحـادية عشرة — لمـا قال تعالى : « ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا » قال بعض علمائنا وغيرهم : يكفى منهـا ما يُسمَّى ركوعا وسجودا ، وكذلك من القيام . ولم يشترطوا الطمأنينة فى ذلك ؛ فأخذوا بأقلّ الاسم فى ذلك ؛ وكأنهم لم يسمعوا الأحاديث الثابتـة فى إلغاء الصـلاة . قال آبن عبد البر : ولا يجزى ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين حتى يعتـدل راكعا وواقفا وساجدا وجالسا . وهو الصحيح فى الأثر ، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر ؛ وهى رواية آبن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقال القـاضى أبو بكر بن العربى : وقد تكاثرت الرواية عن آبن القاسم وغيره بوجوب الفصل وسقوط الطمأنينة ؛ وهو وَهَم عظيم ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم فعلها وأمر بها وعلّمها . فإن كان لآبن القاسم عذر أن كان لم يطلع عليها فمـا لكم أنتم وقد آنتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم ! روى النسائى والدّارَقُطْنِىّ وعلىّ بن عبد العزيز عن رفاعة بن رافع قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فدخل المسجد فصلّى ، فلما قضى الصلاة جاء فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " ارجع فصلّ فإنك لم تُصلّ " وجعل الرجل يصلى وجعلنا نرمق صلاته لا ندرى ما يعيب منها ؛ فلمـا جاء فسلّم على النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلى القوم ، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم : " وعليك آرجع فصلّ فإنك لم تصلّ " . قال همام[1] : فلا ندرى ، أمره بذلك مرتين أو ثلاثا ؛ فقال له الرجل :

(١) همام هذا ، أحد رجال سند هذا الحديث .

ما أَلَوْتُ ، فلا أدرى ما عِبتَ علىّ من صلاتى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه لا تتم صلاة أحدكم حتى يُسبغ الوضوء كما أمره الله فيَغسِل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه إلى الكعبين ثم يكبّر الله تعالى ويُثنى عليه ثم يقرأ أمّ القرآن وما أذن له فيه وتيسّر ثم يكبّر فيركع فيضع كفّيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائما حتى يقيم صُلبه ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبّر فيسجد فيمكّن وجهه — قال همّام : وربما قال : جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يكبّر فيستوى قاعدا على مقعده ويقيم صلبه — فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ، ثم قال: — لا تَتمّ صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك " . ومثله حديث أبى هريرة خرّجه مسلم، وقد تقدّم .

قلت : فهذا بيان الصلاة المجملة فى الكتاب بتعليم النبىّ عليه السلام وتبليغه إياها جميع الأنام ، فمن لم يقف عند هذا البيان وأخلّ بما فرض عليه الرحمن ، ولم يمتثل ما بلغه عن نبيّه عليه السلام كان من جملة من دخل فى قوله تعالى : « فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » (١) . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعالى . روى البخارىّ عن زيد بن وهب قال : رأى حُذيفة رجلاً لا يتم الركوع ولا السجود فقال : ما صلّيتَ ولو متَّ لمتَّ على غير الفِطرة التى فَطَر الله عليها محمدا صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ « مع » تقتضى المَعيّة والجمعيّة ؛ ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن : إن الأمر بالصلاة أوّلا لم يقتض شهود الجماعة ، فأمرهم بقوله « مع » شهود الجماعة . وقد اختلف العلماء فى شهود الجماعة على قولين ؛ فالذى عليه الجمهور أن ذلك من السنن المؤكدة ، ويجب على من أدمن التخلف عنها من غير عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضا على الكفاية . قال ابن عبد البر: وهذا قول صحيح ؛ لإجماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل المساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة فى المسجد فصلاة المنفرد فى بيته جائزة ؛ لقوله عليه السلام : " صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ (٢) بسبع وعشرين درجة " . أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . وروى عن أبى هريرة رضى الله

(١) راجع جـ ١١ ص ١٢١ . (٢) الفذ : المنفرد .

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءا". وقال داود: الصلاة فى الجماعة فرض على كل أحد فى خاصته كالجمعة؛ واحتج بقوله عليه السلام : "لا صلاةَ لجار المسجد إلا فى المسجد" خرّجه أبو داود وصحّحه أبو محمد عبد الحق ؛ وهو قول عطاء بن أبى رباح وأحمد بن حنبل وأبى ثَوْر وغيرهم . وقال الشافعى : لا أرخّص لمن قدر على الجماعة فى ترك إتيانها إلا من عذر؛ حكاه ابن المنـذر . وروى مسلم عن أبى هريرة قال : أتى النبىّ صلى الله عليـه وسـلم رجلٌ أعمى فقال : يا رسول الله، إنه ليس لى قائد يقودنى إلى المسجد؛ فسأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يرخّص له فيصلى فى بيته ؛ فرخص له ؛ فلما وَلّى دعاه فقال : "[هل](١) تسمع النداء بالصلاة" قال نعم؛ قال: "فأجب" . وقال أبو داود فى هذا الحديث : "لا أجد لك رخصة" . خرجه من حديث ابن أم مَكْتُوم؛ وذكر أنه كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر — قالوا : وما العـذر ؟ قال : خوفٌ أو مرض — لم تُقبل منـه الصلاة التى صلى" . قال أبو محمـد عبد الحق : هذا يرويه مَغراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس : "من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له". على أن قاسم بن أصْبَغ ذكره فى كتابه فقال: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى، قال حدّثنا سليمان بن حرب، حدّثنا شعبة عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "مَن سمع النداء فلم يُجب فلا صلاة له إلا من عذر". وحسبك بهذا الإسناد صحة . ومَغراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود : ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنها إلا منافق معلوم النفاق . وقال عليه السلام : "بيننا وبين المنافقين شهود العَتَمة والصُّبح لا يستطيعونهما" . قال ابن المنذر : ولقـد روينا عن غير واحد من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : "مَن سمع النداء فلم يُجب من غير عذر فلا صلاة له" منهم ابن مسعود وأبو موسى الأشعرىّ . وروى أبو داود عن أبى هريرة قال قال رسول

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

الله صلى الله عليـه وسلم : "لقد هَمَمت أن آمر فِتيتى فيجمعوا حُزَمًا من حطب ثم آتى قوما يصلون فى بيوتهـم ليست لهم عِلّة فأحرقها عليهـم" . هذا ما آحتج به من أوجب الصـلاة فى الجماعة فرضا، وهى ظاهرة فى الوجوب ، وحملها الجمهور على تأكيد أمر شهود الصلوات فى الجماعة؛ بدليل حديث آبن عمر وأبى هريرة. وحملوا قول الصحابة وما جاء فى الحديث من أنه "لا صلاة له" على الكمال والفضل؛ وكذلك قوله عليه السلام لآبن أم مكتوم: "فأجب" على الندب . وقوله عليه السلام : "لقد هممت" لا يدل على الوجوب الحتم ؛ لأنه هَمَّ ولم يفعل؛ وإنمـا مخرجه مخرج التهديد والوعيد للمنافقين الذين كانوا يتخلّفون عن الجماعة والجمعة . يبيّن هذا المعنى ما رواه مسلم عن عبـد الله قال : « مَن سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهن، فإن الله شرع لنبيّكم صلى الله عليه وسلم سُنن الهُدَى، وإنهن من سنن الهدى ؛ ولو أنكم صلّيتم فى بيوتكم كما يصلّى هذا المتخلّف فى بيته لتركتم سُنّة نبيّكم صلى الله عليه وسلم، ولو تركتم سُنة نبيّكم صلى الله عليه وسلم لضَلَلتم ؛ وما من رجل يتطهّر فيحسن الطُّهور ثم يَعمد إلى مسجد من هـذه المساجد إلا كتب الله له بكل خُطوة يخطوها حسنة ويرفعه بها درجة ويحطّ عنه بهـا سيئة، ولقد رأيتُنا وما يتخلّف عنهـا إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتَى به يُهادَى بين الرجلين[1] حتى يقام فى الصّف » . فبيّن رضى الله عنه فى حديثه أن الآجتماع سُنّة من سُنن الهُدَى وتركه ضلال؛ ولهذا قال القاضى أبو الفضل عِيَاض : آختلف فى التمالؤ على ترك ظاهر السنن؛ هل يقاتل عليها أولا ؛ والصحيح قتالهم؛ لأن فى التمالؤ عليها إماتتها .

قلت : فعلى هذا إذا أقيمت السُّنة وظهرت جازت صلاة المنفرد وصحّت . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصـلاته فى سوقه بضْعًا وعشرين درجة وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا ينهزه[2] إلا الصلاة لا يريد إلا الصلاة فلم يَخْط خُطوة إلا رُفع له بهـا درجةٌ

(١) معناه : يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما .

(٢) النهز : الدفع . أى لا يقيمه من موضعه ؛ وهو بمعنى قوله بعده : "لا يريد إلا الصلاة" .

وحطّ عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبِسه والملائكة يصلّون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلّى فيـه يقولون اللّهمّ ارحمه اللّهمّ اغفر له اللّهمّ تُبْ عليه ما لم يُؤْذِ فيه ما لم يُحْدِث فيه" . قيل لأبى هريرة : ما يحدث ؟ قال : يَفْسُو أو يَضْرِط .

الثالثة عشرة — واختلف العلماء فى هذا الفضل المضاف للجماعة ؛ هل لأجل الجماعة فقط حيث كانت ، أو إنما يكون ذلك الفضـل للجماعة التى تكون فى المسجد ؛ لما يلازم ذلك من أفعال تختص بالمساجد كما جاء فى الحـديث ؛ قولان . والأول أظهر ؛ لأن الجماعة هو الوصف الذى عُلّق عليه الحُكم . والله أعلم . وما كان من إكثار الخطا إلى المساجد وقصد الإتيان إليها والمُكْث فيها فذلك زيادة ثواب خارج عن فضل الجماعة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — واختلفوا أيضا هل تفضل جماعة جماعة بالكثرة وفضيلة الإمام؟ فقال مالك : لا . وقال ابن حبيب : نعم ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال :"صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصـلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وما كَثُر فهو أحبّ إلى الله" . رواه أُبَىّ بن كعب وأخرجه أبو داود ، وفى إسناده لين .

الخامسة عشرة — واختلفوا أيضا فيمن صـلّى فى جماعة هل يُعيد صلاته تلك فى جماعة أخرى ؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعى وأصحابهم : إنما يعيد الصلاة فى جماعة مع الإمام مَن صلّى وحده فى بيته وأهلِه أو فى غير بيتـه ؛ وأمّا من صلّى فى جماعة وإن قَلّت فإنه لا يعيد فى جماعة أكثر منها ولا أقل . وقال أحمـد بن حنبل وإسحاق بن راهَوَيْه وداود بن علىّ : جائز لمن صلى فى جماعة ووجد جماعة أخرى فى تلك الصـلاة أن يعيدها معهم إن شاء ؛ لأنها نافلة وسـنة . وروى ذلك عن حُذيفة بن اليَمَان وأبى موسى الأشـعرىّ وأنس بن مالك وصلة بن زفر والشَّعْبِى والنَّخَعِى ، وبه قال حماد بن زيد وسليمان بن حرب .

احتج مالك بقوله صلى الله عليـه وسلم : "لا تُصلَّى صلاةٌ فى يوم مرتين" . ومنهم من يقول : لا تصلّوا . رواه سليمان بن يَسار عن ابن عمر . واتفق أحمـد وإسحاق على أن معنى

هـذا الحديث أن يصلى الإنسان الفريضـة ، ثم يقوم فيصلّيها ثانية ينوى بهـا الفرض مرة أخرى ؛ فأمّا إذا صلّاها مع الإمام على أنها سُـنّة أو تطوّع فليس بإعادة الصلاة، وقـد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للذين أمرهم بإعادة الصلاة فى جماعة : " إنها لكم نافلة " . من حديث أبى ذر وغيره .

السادسة عشرة — روى مسلم عن أبى مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " يَؤُمّ القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلَمُهم بالسُّنة فإن كانوا فى السنة سواءً فأقدمهم هجرةً فإن كانوا فى الهجرة سـواءً فأقدَمُهم سِلْمًا ولا يؤمّنّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه ولا يقعد فى بيتـه على تَكْرِمتِه إلا بإذنه " وفى رواية " سِـنًّا " مكان " سِلْمًا " . وأخرجه أبو داود وقال : قال شعبة : فقلت لإسماعيل ما تَكْرِمَتُه ؟ قال : فراشه . وأخرجه الترمذى وقال : حديث أبى مسعود حديث حسن صحيح ، والعمل عليه عند أهل العلم .

قالوا : أحق النـاس بالإمامة أقرؤهم لكتاب الله وأعلمهم بالسُّـنّة . وقالوا : صاحب المنزل أحق بالإمامة . وقال بعضهم : إذا أذِن صاحب المنزل لغيره فلا بأس أن يصلّى به . وكَرِهه بعضهم وقالوا : السُّنة أن يصلّى صاحب البيت . قال ابن المنذر : رَوَينا عن الأشعث ابن قيس أنه قـدّم غلاما وقال : إنمـا أقدّم القرآن . وممن قال : يؤم القوم أقرؤهم ابن سِيرين والثورىُّ وإسحاقُ وأصحابُ الرأى . قال ابن المنذر : بهذا نقول؛ لأنه موافق للسُّنة . وقال مالك : يتقدّم القوم أعلمهم إذا كانت حاله حسنة، وإن للسنّ حقًا . وقال الأوزاعىّ: يؤمّهم أفقههم ؛ وكذلك قال الشافعى وأبو ثور إذا كان يقرأ القرآن ؛ وذلك لأن الفقيه أعرف بمـا ينوبه من الحوادث فى الصلاة . وتأوّلوا الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان الأفقه ؛ لأنهم كانوا يتفقهون فى القرآن، وقد كان من عُرفهم الغالب تسميتهم الفقهاء بالقرّاء؛ واستدلّوا بتقديم النبىّ صلى الله عليـه وسلم فى مرضه الذى مات فيه أبا بكر لفضله وعلمه . وقال إسحاق : إنمـا قدّمه النبىّ صلى الله عليه وسلم ليدل على أنه خليفته بعده . ذكره أبو عمر فى التمهيد . وروى أبو بكر البزار بإسناد حسن عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صلى الله

عليه وسلم : " إذا سافرتم فليؤمكم أقرؤكم و إن كان أصغركم و إذا أمكم فهو أميركم " . قال : لا نعلمه يروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا من رواية أبى هريرة بهذا الإسناد .

قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا . ثبت فى صحيح البخارىّ عن عمرو بن سَلِمة قال : كنا بماء ممرّ(١) الناس وكان يمرّ بنا الركبان فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ، أوْحَى إليه كذا ! أوْحى إليه كذا ! فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يُقرّ(٢) فى صدرى ؛ وكانت العرب تَلَوَّم(٣) بإسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق ؛ فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبيّ الله حقًّا ، قال : " صلوا صلاة كذا فى حين كذا فإذا حضرت الصلاة فليؤذّن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا " . فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنا لِمَا كنت أتلقّى من الركبان ، فقدّمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت عليّ بُرْدة إذا سجدت تقلّصتْ عنى ، فقالت امرأة من الحَىّ : ألا تغطّون(٤) عنا است قارئكم ! فاشتروْا فقطعوا لى قميصا ، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص . وممن أجاز إمامة الصبىّ غير البالغ الحسنُ البصرى و إسحاقُ بن راهَوَيْه ، واختاره ابن المنذر إذا عقل الصلاة وقام بها ؛ لدخوله فى جملة قوله صلى الله عليه وسلم : " يؤمّ القوم أقرؤهم " ولم يستثن ، ولحديث عمرو ابن سَلِمة . وقال الشافعى فى أحد قوليه : يؤمّ فى سائر الصلوات ولا يؤمّ فى يوم الجمعة ؛ وقد كان قبلُ يقول : ومن أجزأتْ إمامته فى المكتوبة أجزأت إمامته فى الأعياد ، غير أنى أكره فيها إمامة غير الوالى . وقال الأوزاعىّ : لا يؤمّ الغلام فى الصلاة المكتوبة حتى يحتلم ، إلا أن يكون قوم ليس معهم من القرآن شىء فإنه يؤمّهم الغلام المراهق . وقال الزهرى : إن اضطرّوا إليه أمّهم . ومنع ذلك جملةً مالكٌ والثورىُّ وأصحابُ الرأى .

السابعة عشرة — الائتمام بكل إمام بالغ مسلم حُرٍّ على استقامة جائزٌ من غير خلاف ، إذا كان يعلم حدود الصلاة ولم يكن يلحن فى أمّ القرآن لحنًا يُخِلّ بالمعنى ؛ مثل أن يكسر الكاف

(١) بتشديد الراء مجرورة صفة لماء ، ويجوز فتحها ؛ أى موضع مرورهم . (٢) يقرّ (بقاف مفتوحة) من القرار . وفى رواية « يقرا » بألف مقصورة أى يجمع ، أو بهمزة من القراءة . وفى رواية « يغرى » أى يلصق .
(٣) تلوّم : تنتظر . (٤) فى الأصول : « ألا تغطوا ... » بحذف النون ، ولا مقتضى له .

من « إِيَّاكَ نَعْبُدُ » ويضم التاء فى « أَنْعَمْتَ » . ومنهم من راعى تفريق الطاء من الضاد ؛ وإن لم يفرّق بينهما لا تصح إمامته ؛ لأن معناهما يختلف . ومنهم من رخّص فى ذلك كله إذا كان جاهلا بالقراءة وأمّ مثلَه . ولا يجوز الائتمام بامرأة ولا خُنْثَى مُشْكل ولا كافرٍ ولا مجنونٍ ولا أُمِّىٍّ ، ولا يكون واحدٌ من هؤلاء إماماً بحال من الأحوال عند أكثر العلماء ، على ما يأتى ذكره ، إلا الأُمِّىّ لمثله . قال علماؤنا : لا تصح إمامة الأُمِّىّ الذى لا يحسن القراءة مع حضور القارئ له ولا لغيره ؛ وكذلك قال الشافعى . فإن أمّ أُمِّيًّا مثلَه صحّت صلاتهم عندنا وعند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إذا صلّى الأُمِّىّ بقوم يقرءون وبقوم أُمِّيين فصلاتهم كلهم فاسدة . وخالفه أبو يوسف فقال : صلاة الإمام ومن لا يقرأ تامّة . وقالت فرقة : صلاتهم كلهم جائزة ؛ لأن كلًّا مؤدٍّ فرضه ، وذلك مثل المتيمم يصلى بالمتطهرين بالماء ، والمصلى قاعدا يصلى بقوم قيام صلاتهم مجزئة فى قول من خالفنا ؛ لأن كلا مؤدّ فرض نفسه .

قلت : وقد يحتج لهذا القول بقوله عليه السلام : " ألا ينظر المصلى [إذا صلّى](1) كيف يصلى فإنما يصلى لنفسه " أخرجه مسلم . وإن صلاة المأموم ليست مرتبطة بصلاة الإمام ، والله أعلم . وكان عطاء بن أبى رباح يقول : إذا كانت امرأته تقرأ كبّر هو وتقرأ هى ؛ فإذا فرغت من القراءة كبّر وركع وسجد وهى خلفه تصلّى . ورُوِىَ هذا المعنى عن قتادة .

الثامنة عشرة — ولا بأس بإمامة الأعمى والأعرج والأشَلّ والأقطع والخِصىّ والعبد إذا كان كل واحد منهم عالما بالصلاة . وقال ابن وهب : لا أرى أن يؤمّ الأقطع والأشل ؛ لأنه منتقص عن درجة الكمال ، وكرهت إمامته لأجل النقص . وخالفه جمهور أصحابه وهو الصحيح ؛ لأنه عضو لا يمنع فقده فرضا من فروض الصلاة فجازت الإمامة الراتبة مع فقده كالعين ؛ وقد روى أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم استخلف ابن أم مكتوم يؤمّ الناس وهو أعمى ، وكذا الأعرج والأقطع والأشل والخصىّ قياسا ونَظَرًا ، والله أعلم . وقد روى عن أنس بن مالك أنه قال فى الأعمى : وما حاجتهم إليه ! وكان ابن عباس وعِتْبان ابن مالك يؤمّان وكلاهما أعمى ؛ وعليه عامّة العلماء .

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

التاسعة عشرة — واختلفوا فى إمامة ولد الزنى؛ فقال مالك: أكره أن يكون إماما راتبا. وكره ذلك عمر بن عبد العزيز. وكان عطاء بن أبى رَباح يقول: له أن يؤم إذا كان مرضيا، وهو قول الحسن البصرى والزُّهرى والنَّخَعىّ وسفيان الثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق. وتجزئ الصلاة خلفه عند أصحاب الرأى، وغيره أحبّ إليهم. وقال الشافعى: أكره أن ينصب إماماً راتباً مَن لا يُعرف أبوه، ومَن صلى خلفه أجزأه. وقال عيسى بن دينار: لا أقول بقول مالك فى إمامة ولد الزنى وليس عليه من ذنب أبويه شىء. ونحوه قال ابن عبد الحكم إذا كان فى نفسه أهلاً للإمامة. قال ابن المنذر: يؤم لدخوله فى جملة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤم القومَ أقرؤهم". وقال أبو عمر: ليس فى شىء من الآثار الواردة فى شرط الإمامة ما يدل على مراعاة نسب؛ وإنما فيها الدلالة على الفقه والقراءة والصلاح فى الدِّين.

الموفية عشرين — وأما العبد فروَى البخارىّ عن ابن عمر قال: لما قدم المهاجرون الأوّلون العَصَبة — موضع بقُبَاء — قبل مقدم النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يؤمّهم سالم مَوْلَى أبى حُذيفة وكان أكثرهم قرآنا. وعنه قال: كان سالم مولى أبى حذيفة يؤم المهاجرين الأوّلين وأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى مسجد قُبَاء، فيهم أبو بكر وعمر وزيد وعامر ابن ربيعة؛ وكانت عائشة يؤمّها عبدها ذكوان من المصحف. قال ابن المنذر: وأمّ أبو سعيد مولى أبى أسيد — وهو عبد — نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم حذيفة وأبو مسعود.

ورخّص فى إمامة العبد النَّخَعِىُّ والشعبىُّ والحسنُ البصرىّ والحكمُ والثورىُّ والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأصحابُ الرأى؛ وكره ذلك أبو مِجْلَز. وقال مالك: لا يؤمّهم إلا أن يكون العبد قارئًا ومَن معه من الأحرار لا يقرءون إلا أن يكون فى عيد أو جمعة فإن العبد لا يؤمهم فيها؛ ويجزئ عند الأوزاعى إن صلوا وراءه. قال ابن المنذر: العبد داخل فى جملة قول النبىّ صلى الله عليه وسلم: "يؤم القوم أقرؤهم".

الحادية والعشرون — وأما المرأة فروَى البخارىّ عن أبى بكرة قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: "لن يفلح قوم ولّوْا أمرهم

آمرأة" . وذكر أبو داود عن عبـد الرحمن بن خلّاد عن أمّ ورقة بنت عبد الله قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها فى بيتها ، قال : وجعل لهـا مؤذّنا يؤذّن لهـا وأمرها أن تؤم أهـل دارها . قال عبـد الرحمن : فأنا رأيت مؤذنها شيخا كبيرا . قال آبن المنذر : والشافعى يوجب الإعادة على مَن صلّى من الرجال خلف المرأة . وقال أبو ثور : لا إعادة عليهم . وهذا قياس قول المُزَنِىّ .

قلت : وقال علماؤنا لا تصح إمامتها للرجال ولا للنساء . وروى آبن أيمن[1] جواز إمامتها للنساء . وأما الخُنثَى المشكل فقـال الشافعى : لايؤم الرجال ويؤم النساء . وقال مالك : لا يكون إماما بحال ؛ وهو قول أكثر الفقهاء .

الثانيـة والعشرون — الكافر المخـالف للشرع كاليهودى والنصرانى يؤم المسلمين وهم لا يعلمون بكفره . وكان الشافعى وأحمـد يقولان : لا يجزئهم ويعيدون . وقاله مالك وأصحابه ؛ لأنه ليس من أهل القُربة . وقال الأوزاعى : يعاقب . وقال أبو ثور والمُزَنِىّ لا إعادة على مَن صلى خلفه ، ولا يكون بصلاته مسلمًا عنـد الشافعى وأبى ثور . وقال أحمد : يجبر على الإسلام .

الثالثة والعشرون — وأما أهل البِدع من أهل الأهواء كالمعتزلة والجهمية وغيرهما فذكر البخارى عن الحسن : صلّ ، وعليه بدعته . وقال أحمد : لايصلى خلف أحد من أهل الأهواء إذا كان داعية إلى هواه . وقال مالك : ويصلى خلف أئمة الجَور ، ولا يصلى خلف أهل البدع من القدرية وغيرهم . وقال آبن المنذر : كل من أخرجته بدعته إلى الكفر لم تجز الصلاة خلفه ، ومن لم يكن كذلك فالصلاة خلفه جائزة ؛ ولا يجوز تقديم مَن هذه صفته .

الرابعـة والعشرون — وأما الفاسق بجوارحه كالزانى وشارب الخمر ونحو ذلك فاختلف المذهب فيه ؛ فقال آبن حبيب : من صلى وراء من شرب الخمر فإنه يعيد أبدا ، إلا أن يكون الوالى الذى تؤدّى إليه الطاعة ، فلا إعادة على من صلى خلفه إلا أن يكون حينئذ سكران . قاله

(١) فى نسخة : « ابن أبى أيمن » .

من لقيت من أصحاب مالك . وروى من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبر : " لا تؤمّنّ امرأة رجلا ولا يؤمّنّ أعرابى مهاجرا ولا يؤمّنّ فاجر برًّا إلا أن يكون ذلك ذا سلطان " . قال أبو محمد عبد الحق : هـذا يرويه علىّ بن زيد بن جُدْعان عن سعيد بن المسيّب ، والأكثر يضعّف علىّ بن زيد . وروى الدارَقُطْنِيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سرّكم أن تُزَكُّوا صلاتكم فقدّموا خياركم " . فى إسناده أبو الوليد خالد بن إسماعيل المخزومى وهو ضعيف ؛ قاله الدارَقُطْنِى . وقال فيه أبو أحمد بن عَدىّ : كان يضع الحديث على ثقات المسلمين ؛ وحديثه هذا يرويه عن ابن جُريج عن عطاء عن أبى هريرة . وذكر الدارَقُطْنِيّ عن سلام بن سليمان عن عمر عن محمد بن واسع عن سعيد بن جُبير عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوا أئمتكم خياركم فإنهم وَفْدٌ فيما بينكم و بين الله " . قال الدارقطنى : عمر هذا هو عندى عمر بن يزيد قاضى المدائن ، وسلام بن سليمان أيضا مدائنى ليس بالقوى ؛ قاله عبد الحق .

الخامسة والعشرون — روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام ليُؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا كبّر فكبّروا و إذا ركع فاركعوا و إذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللّهُمّ ربّنا ولك الحمد و إذا سجد فاسجدوا و إذا صلى جالسا فصلوا جلوسًا أجمعون " .

وقد اختلف العلماء فيمن ركع أو خفض قبل الإمام عامدًا على قولين : أحدهما — أن صلاته فاسدة إن فعل ذلك فيها كلها أو فى أكثرها ؛ وهو قول أهل الظاهر ورُوِىَ عن ابن عمر . ذكر سُنيد قال حدّثنا ابن عُلَيّة عن أيوب عن أبى قِلابة عن أبى الورد الأنصارى قال : صلّيت إلى جنب ابن عمر فجعلت أرفع قبل الإمام وأضع قبله ، فلما سلّم الإمام أخذ ابن عمر بيدى فلوانى وجذبنى ، فقلت : مالك ! قال : مَن أنت ؟ قلتُ : فلان بن فلان ؛ قال : أنتَ من أهل بيت صدق ! فما يمنعك أن تصلّى ؟ قلت : أو ما رأيتنى إلى جنبك ! قال : قد رأيتك ترفع قبل الإمام وتضع قبله و إنه لا صلاة لمن خالف الإمام . وقال الحسن بن حَىّ فيمن ركع أو سجد قبل الإمام ثم رفع من ركوعه أو سجوده قبل أن يركع الإمام أو يسجد :

لم يعتدّ بذلك ولم يجزه . وقال أكثر الفقهاء : مَن فعل ذلك فقد أساء ولم تفسد صلاته ؛ لأن الأصل فى صلاة الجماعة والاتمام فيها بالأئمة سُنّة حسنة ، فمن خالفها بعد أن أدّى فرض صلاته بطهارتها وركوعها وسجودها وفرائضها فليس عليه إعادتها و إن أسقط بعض سننها ؛ لأنه لو شاء أن ينفرد فصلّى قبل إمامه تلك الصلاة أجزأت عنه ؛ و بئس ما فعل فى تركه الجماعة . قالوا : ومن دخل فى صلاة الإمام فركع بركوعه وسجد بسجوده ولم يكن فى ركعة و إمامه فى أخرى فقد اقتدى و إن كان يرفع قبله و يخفض قبله ؛ لأنه بركوعه يركع و بسجوده يسجد و يرفع وهو فى ذلك تبع له ، إلا أنه مسىء فى فعله ذلك لخلافه سنة المأموم المجتمع عليها .

قلت : ما حكاه ابن عبد البر عن الجمهور ينبئ على أن صلاة المأموم عندهم غير مرتبطة بصلاة الإمام ؛ لأن الإتباع الحسىّ والشرعى مفقود ، وليس الأمر هكذا عند أكثرهم . والصحيح فى الأثر والنظر القول الأوّل ؛ فإن الإمام إنما جُعل ليؤتم به و يُقتدَى به بأفعاله ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا »[1] أى يأتمّون بك ؛ على ما يأتى بيانه .

هذا حقيقة الإمام لغة وشرعا ، فمن خالف إمامه لم يتبعه ؛ ثم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن فقال : " إذا كبّر فكبّروا " الحديث . فأتى بالفاء التى توجب التعقيب ، وهو المبيِّن عن الله مراده . ثم أوعد من رفع أو ركع قبلُ وعيدًا شديدًا فقال : " أمَا يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورة حمار " . أخرجه المُوَطّأ والبخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم . وقال أبو هريرة : إنما ناصيته بيد شيطان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلُّ عملٍ ليس عليه أَمْرُنا فهو رَدٌّ " . يعنى مردود . فمن تعمّد خلاف إمامه عالما بأنه مأمور باتباعه منهىّ عن مخالفته فقد استخف بصلاته وخالف ما أُمِر به ؛ فواجب ألّا تجزى عنه صلاته تلك ؛ والله أعلم .

السادسة والعشرون — فإن رفع رأسه ساهياً قبل الإمام فقال مالك رحمه الله : السُّنّة فيمن سها ففعل ذلك فى ركوع أو فى سجود أن يرجع راكعا أو ساجدا وينتظر الإمام ، وذلك خطأ ممن فعله ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنما جُعل الإمام ليؤتم به

(١) راجع جـ ٢ ص ١٠٧

فلا تختلفوا عليه" . قال ابن عبد البر : ظاهر قول مالك هذا لا يوجب الإعادة على من فعله عامدا؛ لقوله : « وذلك خطأ ممن فعله »؛ لأن الساهى الإثمُ عنه موضوع .

السابعة والعشرون — وهذا الخلاف إنما هو فيما عدا تكبيرة الإحرام والسلام، أما السلام فقد تقدّم القول فيه . وأما تكبيرة الإحرام فالجمهور على أن تكبير المأموم لا يكون إلا بعد تكبير الإمام، إلا ما رُوِىَ عن الشافعىّ فى أحد قوليه : أنه إن كبّر قبل إمامه تكبيرة الإحرام أجزأت عنه؛ لحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إلى الصلاة فلما كبّر انصرف وأومأ إليهم — أى كما أنتم — ثم خرج ثم جاء ورأسه تقطر فصلّى بهم؛ فلما انصرف قال : "إنى كنت جُنُبًا فنسيتُ أن أغتسل" . ومن حديث أنس «فكبّر وكبّرنا معه» وسيأتى بيان هذا عند قوله تعالى : « وَلَا جُنُبًا » فى «النساء»(١) إن شاء الله تعالى .

الثامنة والعشرون — وروى مسلم عن أبى مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح منا كبنا فى الصلاة و يقول : "آستوُوا ولا تختلفوا فتختلفَ قلوبكم لِيَلِنِى منكم أولو الأحلام والنُّهَى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشدّ آختلافا . زاد من حديث عبد الله : "و إيّاكم وهَيْشات(٢) الأسواق" . وقوله : "آستوُوا" أمرٌ بتسوية الصفوف وخاصّةً الصف الأوّل وهو الذى يلى الإمام، على ما يأتى بيانه فى سورة « الحجر »(٣) إن شاء الله تعالى . وهناك يأتى الكلام على معنى هذا الحديث بحول الله تعالى .

التاسعة والعشرون — وآختلف العلماء فى كيفية الجلوس فى الصلاة لآختلاف الآثار فى ذلك؛ فقال مالك وأصحابه : يُفْضى المصلّى بأليَتَيْه إلى الأرض و ينصب رجله اليمنى ويَثْنِى رجله اليسرى؛ لما رواه فى مُوَطَّئه عن يحيى بن سعيد أن القاسم بن محمد أراهم الجلوس فى التشهد فنصب رجله اليمنى وثنى رجله اليسرى وجلس على وَرِكه الأيسر ولم يجلس على قدمه، ثم قال : أرانى هذا عبدُ الله بن عمر، وحدّثنى أن أباه كان يفعل ذلك .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٠٤ (٢) الهيشة (مثل الهوشة) : الاختلاط والمنازعة وارتفاع الأصوات .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٢٠

قلت : وهذا المعنى قد جاء فى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وكان إذا ركع لم يُشْخِص رأسه ولم يُصَوِّبه ، ولكن بين ذلك ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوى قائما ، وكان إذا رفع رأسه من السجدة لم يسجد حتى يستوى جالسا ، وكان يقول فى كل ركعتين التحية ، وكان يفرش رجله اليسرى وينصب رجله اليمنى ، وكان ينهى عن عُقْبة[1] الشيطان ، وينهى أن يفترش الرجل ذراعيه آفتراش السَّبُع ، وكان يختم الصلاة بالتسليم .

قلت : ولهذا الحديث — والله أعلم — قال آبن عمر : إنما سُنّة الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثنى اليسرى . وقال الثَّورى وأبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حَىّ : ينصب اليمنى ويقعد على اليسرى ، لحديث وائل بن حُجْر ؛ وكذلك قال الشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الجلسة الوسطى . وقالوا فى الآخرة من الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء كقول مالك ؛ لحديث أبى حُميد الساعدى رواه البخارىّ قال : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم إذا كبّر جعل يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هَصَر ظهره ، فإذا رفع آستوى حتى يعود كل فقار مكانه ، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما وآستقبل بأطراف أصابع رجليه القِبلة ، وإذا جلس فى الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى ، وإذا جلس فى الركعة الآخرة قدّم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته . قال الطبرى : إن فعل هذا فحسن ، كل ذلك قد ثبت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الموفية الثلاثين — مالك عن مسلم بن أبى مريم عن علىّ بن عبد الرحمن المُعَاوِىّ أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبث بالحصباء فى الصلاة ، فلما آنصرف نهانى فقال : آصنع كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؛ قلت : وكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قال : كان إذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه

(١) عقبة الشيطان : قال آبن الأثير : « هو أن يضع أليتيه على عقبيه بين السجدتين ، وهو الذى يجعله بعض الناس الإقعاء . وقيل : هو أن يترك عقبيه غير مغسولين فى الوضوء » .

كلها وأشار بأصبعه التى تلى الإبهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى ؛ وقال : هكذا كان يفعل . قال ابن عبـد البر : وما وصـفه ابن عمر من وضـع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابع يده تلك كلها إلا السبابة منها فإنه يشير بهـا ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى مفتوحة مفروجة الأصابع ؛ كل ذلك سنة فى الجلوس فى الصلاة مُجْمَعٌ عليه ، لا خلاف عَلِمته بين العلماء فيها ، وحسبك بهذا . إلا أنهم اختلفوا فى تحريك أصبعه السبابة ، فمنهم من رأى تحريكها ، ومنهـم من لم يره . وكل ذلك مروىّ فى الآثار الصحاح المسندة عن النبىّ صلىّ الله عليه وسلم ، وجميعه مباح ، والحمـد لله . وروى سفيان بن عُيينة هذا الحديث عن مسلم بن أبى مريم بمعنى ما رواه مالك وزاد فيه : قال سفيان : وكان يحيى بن سعيد حدّثناه عن مسـلم ثم لقيته فسمعته منه وزادنى فيـه : قال : " هى مذبّة الشيطان لا يسهو أحدكم ما دام يشير بإصبعه ويقول هكذا " .

قلت : روى أبو داود فى حديث ابن الزبير أنه عليـه السلام كان يشير بإصبعه إذا دعا ولا يحركها . وإلى هذا ذهب بعض العراقيين ، فمنع من تحريكها . وبعض علمائنا رأوا أن مدّها إشارة إلى دوام التوحيد . وذهب أكثر العلماء من أصحاب مالك وغيرهم إلى تحريكها ، إلا أنهم اختلفوا فى الموالاة بالتحريك على قولين ؛ تأوّل مَن والاه بأن قال : إن ذلك يذكر بموالاة الحضور فى الصلاة ؛ وبأنهـا مقمعة ومدفعة للشيطان على ما روى سفيان . ومن لم يوال رأى تحريكها عنـد التلفظ بكلمتى الشهادة ، وتأوّل فى الحركة كأنها نطق بتلك الجارحة بالتوحيد ؛ والله أعلم .

الحادية والثلاثون — واختلفوا فى جلوس المرأة فى الصلاة ؛ فقال مالك : هى كالرجل ، ولا تخالفه فيما بعـد الإحرام إلا فى اللباس والجهر . وقال الثورىّ : تسدُل المرأة جلبابها من جانب واحد ؛ ورواه عن إبراهيم النَّخَعِىّ . وقال أبو حنيفة وأصحابه : تجلس المرأة كأيسر ما يكون لهـا . وهو قول الشَّعْبى : تقعد كيف تيسر لهـا . وقال الشافعىّ : تجلس بأستر ما يكون لهـا .

الثانيـة والثلاثون — روى مسلم عن طاوس قال : قلنا لابن عبـاس فى الإقعاء على القدمين؛ فقال: هى السُّنّة ؛ فقلنا له إنا لنراه جفاء بالرجل؛ فقال ابن عباس : [بل](١) هى سُنّة نبيك صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف العلماء فى صفة الإقعاء ما هو؛ فقال أبو عبيد : الإقعاء جلوس الرجل على أليتيه ناصبًا فخـذيه مثل إقعاء الكلب والسَّبُع . قال ابن عبد البرّ : وهذا إقعاء مجتمَع عليه لا يختلف العلماء فيـه . وهذا تفسير أهل اللغة وطائفة من أهـل الفقه . وقال أبو عبيد : وأما أهـل الحديث فإنهم يجعلون الإقعاء أن يجعل أليتيه على عقبيه بين السجدتين . قال القاضى عياض : والأشبه عندى فى تأويل الإقعاء الذى قال فيه ابن عباس إنه من السُّنّة؛ الذى فسّر به الفقهاء من وضع الأليتين على العقبين بين السجدتين؛ وكذا جاء مفسَّرا عن ابن عبـاس : من السُّـنة أن تمس عقبـك أليتك . رواه إبراهيم بن مَيْسرة عن طاوس عنه؛ ذكره أبو عمر . قال القاضىّ : وقد رُوى عن جماعة من السلف والصحابة أنهم كانوا يفعلونه، ولم يقل بذلك عامة فقهاء الأمصار وسمّوْه إقعاء . ذكر عبد الرزاق عن مَعمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه رأى ابن عمر وابن عباس وابن الزبير يَقْعون بين السجدتين .

الثالثة والثلاثون — لم يختلف من قال من العلمـاء بوجوب التسليم وبعدم وجوبه أن التسليمة الثانية ليست بفرض، إلا ما روى عن الحسن بن حَىّ أنه أوجب التسليمتين معًا . قال أبو جعفر الطحاوىّ : لم نجد عن أحد من أهل العلم الذين ذهبوا إلى التسليمتين أن الثانية من فرائضها غيره . قال ابن عبد البر : من حجة الحسن بن صالح فى إيجابه التسليمتين جميعا — وقوله : إن من أحدث بعد الأولى وقبل الثانية فسدت صلاته — قولُه صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" . ثم بيّن كيف التسليم فكان يسلّم عن يمينه وعن يساره . ومن حجة من أوجب التسليمة الواحدة دون الثانية قوله صلى الله عليه وسلم : "تحليلها التسليم" قالوا : والتسليمة الواحدة يقع عليها اسم تسليم .

---

(١) الزيادة عن صحيح مسلم .

قلت: هذه المسئلة مبنية على الأخذ بأقل الاسم أو بآخره، ولما كان الدخول فى الصلاة بتكبيرة واحدة بإجماع فكذلك الخروج منها بتسليمة واحدة، إلا أنه تواردت[1] السنن الثابتة من حديث ابن مسعود — وهو أكثرها تواترا — ومن حديث وائل بن حُجْر الحضرمى وحديث عمّار وحديث البَراء بن عازب وحديث ابن عمر وحديث سعد بن أبى وَقّاص أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يسلم تسليمتين . روى ابن جُريج وسليمان بن بلال وعبد العزيز ابن محمد الدّراوَرْدِىّ كلُّهم عن عمرو بن يحيى المازنى عن محمد بن يحيى بن حَبّان عن عمه واسع بن حَبّان قال قلت لابن عمر : حدّثنى عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كانت ؟ فذكر التكبير كلما رفع رأسه وكلما خفضه ، وذكر السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه، السلام عليكم ورحمة الله عن يساره . قال ابن عبد البر : وهذا إسناد مدنى صحيح ، والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة ، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابرا عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل فى كل بلد؛ لأنه لايخفى لوقوعه فى كل يوم مرارا. وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين ومتوارث عندهم أيضا . وكل ما جرى هذا المجرى فهو اختلاف فى المباح كالأذان ، وكذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة ولا إنكار التسليمتين بل ذلك عندهم معروف ، وحديث التسليمة الواحدة رواه سعد بن أبى وقّاص وعائشة وأنس ؛ إلا أنها معلولة لا يصححها أهل العلم بالحديث .

الرابعة والثلاثون — روى الدّارَقُطْنىّ عن ابن مسعود أنه قال : من السُّنة أن يخفى التشهّد . واختار مالك تشهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو : التحيات لله الزكيات لله الطيبات الصلوات لله ، السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . واختار الشافعى وأصحابه واللّيث بن سعد تشهّد ابن عباس ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : " التحيات المباركات الصلوات الطيبات

(١) فى نسخة : « تواترت » .

لله، السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله " . وآختار الثوْرِى والكوفيون وأكثر أهل الحديث تشهد آبن مسعود الذى رواه مسلم أيضا قال : كنا نقول فى الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم : السلام على الله، السلام على فلان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم : " إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل التحيّات لله والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإذا قالها أصابت كل عبد [لله](١) صالح فى السماء والأرض — أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من المسألة ما شاء " . وبه قال أحمد وإسحاق وداود . وكان أحمد بن خالد بالأندلس يختاره ويميل إليه . وروى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا وموقوفا نحو تشهد آبن مسعود . وهذا كله آختلاف فى مباح ليس شىء منه على الوجوب ، والحمد لله وحده . فهذه جملة من أحكام الإمام والمأموم تضمّنها قوله جل وعز : « وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ » . وسيأتى القول فى القيام فى الصلاة عند قوله تعالى : « وَقُومُوا لِلَّهِ قَٰنِتِينَ »(٢) . ويأتى هناك حكم الإمام المريض وغيره من أحكام الصلاة ، ويأتى فى « آل عمرانَ »(٣) حكم صلاة المريض غير الامام ، ويأتى فى « النساء »(٤) فى صلاة الخوف حكم المفترض خلف المتنفل، ويأتى فى سورة « مريم »(٥) حكم الامام يصلى أرفع من المأموم، إلى غير ذلك من الأوقات والأذان والمساجد ؛ وهذا كله بيان لقوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » . وقد تقدّم فى أول السورة جملة من أحكامها، والحمد لله على ذلك .

قوله تعالى : أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

فيه تسع مسائل :

(١) الزيادة عن مسلم . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ (٣) راجع جـ ٤ ص ٣١١
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٥١ (٥) راجع جـ ١١ ص ٨٥

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ ﴾ هذا آستفهام معناه التوبيخ، والمراد فى قول أهل التأويل علماءُ اليهود . قال آبن عباس : كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ولذى قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين : آثبت على الذى أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجل — يريدون محمدا صلى الله عليه وسلم — فإن أمره حق ؛ فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . وعن آبن عباس أيضا : كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم بآتباع التوراة ، وكانوا يخالفونها فى جحدهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقال آبن جُريج : كان الأحبار يحضّون على طاعة الله وكانوا هم يواقعون المعاصى . وقالت فرقة : كانوا يحضّون على الصدقة ويبخلون . والمعنى متقارب . وقال بعض أهل الإشارات : المعنى أتطالبون الناس بحقائق المعانى وأنتم تخالفون عن ظواهر رسومها ! .

الثانيـــة — فى شدّة عذاب مَن هذه صفته ؛ روى حماد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة أُسرى بى مررت على ناس تُقرض شفاههم بمقاريضَ من نار ، فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا (١) يأمرون الناس بالبر وينسَوْن أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون " . وروى أبو أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسَوْن أنفسهم يجرّون قُصْبهم (٢) فى نار جهنم فيقال لهم من أنتم ؟ فيقولون نحن الذين كنا نأمر الناس بالخير وننسى أنفسنا " .

قلت : وهذا الحديث وإن كان فيه لين ؛ لأن فى سنده الحصيب بن جَحْدر كان الإمام أحمد يستضعفه ، وكذلك آبن مَعين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صُدىّ بن عجلان الباهلى ، وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن مَعين — حَزَوَّر القرشى مولى خالد بن عبد الله آبن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمى ، كان يختلف إلى

(١) كذا فى مسند الإمام أحمد بن حنبل (ج ٣ ص ١٢٠) وتفسير الفخر الرازى (ج ١ ص ٤٩٦) . وفى الأصول : « من أمتك » .

(٢) سيأتى معنى « القصب » .

الشام فى تجارته . قال يحيى بن مَعين : هو صالح الحديث ، فقـد رواه مسلم فى صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " يؤتَى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النـار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار [بالرحى](١) فيجتمع إليـه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم [تكُن](١) تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه " .

القُصْب (بضم القاف) : المِعَى ، وجمعـه أقصاب . والأقتاب : الأمعـاء ، واحدها قِتب . ومعنى « فتندلق » : فتخرج بسرعة . وروينا « فتنفلق » .

قلت : فقد دلّ الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالمـا بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيـام بوظيفة كل واحد منهما أشـد ممن لم يعلمه ؛ وإنمـا ذلك لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ، ومستخفّ بأحكامه ، وهو ممن لا ينتفع بعلمه ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشدّ النـاس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمـه " . أخرجه ابن ماجه فى سُننه .

الثالثـــة — اعلم وفّقك الله تعـالى أن التوبيخ فى الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذمّ الله تعـالى فى كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بهـا ؛ وبّخهم به توبيخًا يُتْـلَى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاس بِٱلْبِرِّ » الآية . وقال منصور الفقيه فأحسن :

إن قومًا يأمرونا * بالذى لا يفعـلونا
لمجانين وإن هـم * لم يكونوا يصرعونا

وقال أبو العتاهية :

وصفتَ التُّقَى حتى كأنك ذو تُقًى * وريحُ الخطايا من ثيابك تسطع

---

(١) الزيادة من صحيح مسلم .

وقال أبو الأسود الدُّؤَلِيّ :

لاتَنْـهَ عن خُلُقٍ وتأتَى مثـلَه * عارٌ عليـك إذا فعلتَ عظـيمُ
وآبدأ بنفسـك فانهها عن غيّها * فإن انتهتْ عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقبَل إن وَعظتَ ويُقتدَى * بالقول منـك وينفع التعلـيمُ

وقال أبو عمرو بن مطر : حضرت مجلس أبى عثمان الحِيرى الزاهد فخرج وقعـد على موضعه الذى كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته ؛ فناداه رجل كان يعرف بأبى العباس : ترى أن تقول فى سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول :

وغير تَقِيٍّ يأمر الناس بالتُّـقَى * طبيبٌ يداوى والطبيبُ مريضُ

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج .

الرابعـــة — قال إبراهيم النَّخَعِيّ : إنى لأكره القَصص لثلاث آيات ، قوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ » الآية، وقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ »[1] ، وقوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ »[2] . وقال سَلْم بن عمرو[3] :

ما أقبحَ التزهيـدَ من واعظٍ * يُزَهِّـد الناسَ ولا يَزْهَـدُ
لو كان فى تزهيده صـادقا * أضحى وأمسى بيتُه المسـجدُ
إنْ رفض الدنيا فما بالُه * يَستمنح النـاس ويسـترفِدُ
والرزق مقسومٌ على من تَرى * ينـالُه الأبيضُ والأسـودُ[4]

وقال الحسن لمطرِّف بن عبد الله : عِظ أصحابك ؛ فقال إنى أخاف أن أقول مالا أفعل ؛ قال : يرحمك الله ! وأينا يفعل ما يقول ! ويودّ الشيطان أنه قد ظَفِر بهذا، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر . وقال مالك عن ربيعـة بن أبى عبد الرحمن سمعت سعيد بن جُبير يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيـه شىء، ما أمر

(١) راجع جـ ١٨ ص ٧٧ (٢) راجع جـ ٩ ص ٨٩ (٣) كذا فى الأصول . والصحيح أن الأبيات لحجاز، وهو ابن أخت سـلم بن عمرو الخاسر . راجع الأغانى (ج ٤ ص ٧٦) طبع دار الكتب المصرية .
(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « يسعى له » .

أحد بمعروف ولا نَهَى عن منكر . قال مالك : وصدق، من ذا الذى ليس فيه شىء[1] ! .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ بِالْبِرِّ ﴾ البِرّ هنا الطاعة والعمل الصالح . والبِرّ : الصدق . والبِرّ : ولد الثعلب . والبِرّ : سَوق الغنم ؛ ومنه قولهم : « لا يعرف هِرًّا من بِر » أى لا يعرف دعاء الغنم من سَوقها . فهو مشترك ؛ وقال الشاعر :

لا هُمّ رَبّ إن بكرا دونكا[2] * يَبرُّك الناسُ ويفجرونكا

أراد بقوله « يبرّك الناس » : أى يطيعونك . ويقال : إن البِرّ الفؤادُ فى قوله :

أكون مكان البِرّ منه ودونه[3] * وأجعل مالى دونه وأُوامِرُه

والبُرُّ (بضم الباء) معروف، و (بفتحها) الإجلال والتعظيم ؛ ومنه ولد بَرٌّ وبارّ ؛ أى يُعظّم والديه ويكرمهما .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى تتركون . والنسيان (بكسر النون) يكون بمعنى التَّرك ؛ وهو المراد هنا، وفى قوله تعالى : « نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم[4] » ، وقوله : « فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به[5] » ، وقوله : « وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ[6] » . ويكون خلاف الذِّكر والحفظ ؛ ومنه الحديث : " نَسِىَ آدمُ فنسِيَتْ ذرّيتُه " . وسيأتى . يقال : رجل نَسْيان (بفتح النون) : كثير النِّسيان للشىء . وقد نَسِيت الشىء نِسْيانًا، ولا تقل نَسَيانا (بالتحريك) ؛ لأن النَّسَيان إنما هو تثنية نَسَا العِرْق . وأنفس : جمع نَفْس، جمع قِلّة . والنَّفْس : الروح ؛ يقال : خرجت نَفْسُه، قال أبو خِراش :

نجا سالم والنَّفْس منه بِشِدْقِهِ * ولم يَنْج إلا جَفْن سَيف ومِئْزرا

أى بجفن سيف ومِئْزر . ومن الدليل على أن النفس الروح قوله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا[7] » يريد الأرواح ؛ فى قول جماعة من أهل التأويل على ما يأتى . وذلك

---

(١) فى نسخة : «عليه» . (٢) كذا فى البحر المحيط لأبى حيان . وفى الأصول : « بكوا » بالواو . وفى تفسير الشوكانى : « إن يكونوا » . (٣) كذا فى الأصول واللسان مادة «برر» . وفى شرح القاموس : * يكون مكان البرمنى ودونه *

(٤) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ (٥) راجع جـ ٦ ص ٤٢٦ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٠٨

(٧) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٠

بيّن فى قول بلال للنبيّ صلّى الله عليه وسلم فى حديث آبن شهاب : أخذ بنفسى يا رسول الله الذى أخذ بنفسك . وقوله عليه السلام فى حديث زيد بن أسلم : "إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردّها إلينا فى حين غير هذا" . رواهما مالك ؛ وهو أولى ما يقال به . والنَّفْس أيضا الدم ؛ يقال : سالت نفسه ؛ قال الشاعر[1] :

تسيل على حدّ السّيوف[2] نفوسُنا * وليست على غير الظُّبات تسيل

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : ما ليس له نَفْس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه . والنفس أيضا الجسد ؛ قال الشاعر[3] :

نُبِّئْتُ أن بنى سُحَيم أدخلوا * أبياتَهم تامُورَ نَفْسِ المُنذِرِ

والتامور أيضا : الدم .

السابعة — قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ﴾ توبيخ عظيم لمن فَهِم . «وتَتْلُون» : تقرءون . «الكتاب» : التوراة . وكذا مَن فعل فعلهم كان مثلَهم . وأصل التلاوة الأتباع ، ولذلك آستعمل فى القراءة ؛ لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نَسَقه ؛ يقال : تلوته إذا تبعته تُلُوًّا ، وتلوتُ القرآن تِلاوة . وتلوتُ الرجلَ تُلُوًّا إذا خذلته . والتَّلِيّة والتُّلاوة (بضم التاء) : البقية ؛ يقال : تَلِيَتْ لى من حقى تُلاوة وتَلِية ؛ أى بقيت . وأتليت : أبقيت . وتتلّيتُ حقى إذا تتبعته حتى تستوفيه . قال أبو زيد : تَلَّى الرجلُ إذا كان بآخر رَمَق .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المردية لكم . والعقل : المنع ؛ ومنه عِقال البعير ؛ لأنه يمنع عن الحركة . ومنه العقل للدية ؛ لأنه يمنع ولىّ المقتول عن قتل الجانى . ومنه آعتقال البطن واللّسان . ومنه يقال للحصن : مَعْقِل . والعقل . نقيض الجهل . والعقل : ثوب أحمر تتخذه نساء العرب تُغَشّى به الهوادج ؛ قال عَلقمة :

عَقْلًا ورَقْمًا تكاد الطير تخطفه * كأنه من دم الأجواف مَدمومُ

(١) هو السموءل . (٢) فى اللسان : « حد الظبات » . (٣) هو أوس بن حجر ؛ يحرّض عمرو بن هند على بنى حنيفة وهم قتلة أبيه المنذر بن ماء السماء . أى حملوا دمه إلى أبياتهم . (عن اللسان) .

المدموم (بالدال المهملة) : الأحمر، وهو المراد هنا . والمدموم : المتلئ شحماً من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والعقل من شيات الثياب ما كان نقشه طولا؛ وما كان نقشه مستديرا فهو الرَّقْم . وقال الزجاج : العاقل مَن عمل بما أوجب الله عليه، فمن لم يعمل فهو جاهل .

التاسعة — اتفق أهل الحق على أن العقل كائن موجود ليس بقديم ولا معدوم؛ لأنه لو كان معدوما لما اختصّ بالاتصاف به بعض الذوات دون بعض ؛ وإذا ثبت وجوده فيستحيل القول بقدمه ؛ إذ الدليل قد قام على أن لا قديم إلا الله تعالى، على ما يأتى بيانه فى هذه السورة وغيرها، إن شاء الله تعالى .

وقد صارت الفلاسفة إلى أن العقل قديم ؛ ثم منهم من صار إلى أنه جوهر لطيف فى البدن ينبثّ شعاعه منه بمنزلة السراج فى البيت، يفصل به بين حقائق المعلومات . ومنهم من قال : إنه جوهر بسيط ؛ أى غير مركب . ثم اختلفوا فى محله ؛ فقالت طائفة منهم : محله الدماغ ؛ لأن الدماغ محل الحِسّ . وقالت طائفة أخرى : محله القلب ، لأن القلب معدن الحياة ومادة الحواس . وهذا القول فى العقل بأنه جوهر فاسد ، من حيث إن الجواهر متماثلة؛ فلو كان جوهر عقلا لكان كل جوهر عقلا . وقيل : إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هى عليه من حقائق المعانى . وهذا القول وإن كان أقرب مما قبله فيبعد عن الصواب من جهة أن الإدراك من صفات الحىّ ، والعقل عَرَض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون ملتذا ومشتهيا . وقال الشيخ أبو الحسن الأشعرى والأستاذ أبو إسحاق الأسفرايني وغيرهما من المحققين : العقل هو العلم ، بدليل أنه لا يقال : عَقَلت وما علمت ، أو علمت وما عقلت . وقال القاضى أبو بكر : العقل علوم ضرورية بوجوب الواجبات وجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ؛ وهو اختيار أبى المعالى فى الإرشاد ؛ واختار فى البرهان أنه صفة يتأتّى بها درك العلوم . واعترض على مذهب القاضى واستدل على فساد مذهبه . وحكى فى البرهان عن المحاسبى أنه قال : العقل غريزة . وحكى الأستاذ

أبو بكر عن الشافعي وأبي عبـد الله بن مجاهـد أنهما قالا : العقـل آلة التمييز . وحكى عن أبي العباس القَلانسيّ أنه قال : العقل قوة التمييز . وحكى عن المحاسبي أنه قال : العقل أنوار وبصائر . ثم رتّب هذه الأقوال وحملها على محامل فقال : والأوْلى ألا يصح هذا النقل عن الشافعيّ ولا عن ابن مجاهد ، فإن الآلة إنما تستعمل فى الآلة المثبتة[1] واستعمالها فى الأعراض مجاز . وكذلك قول من قال : إنه قوة ، فإنه لا يعقل من القوة إلا القدرة ؛ والقلانسيّ أطلق ما أطلقه توسّعاً فى العبارات ، وكذلك المحاسبي . والعقل ليس بصورة ولا نور ، ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر . وسيأتى فى هذه السورة بيان فائدته فى آية[2] التوحيد إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ الصبر : الحبس فى اللغة . وقُتِل فلان صَبْراً ؛ أى أُمْسِك وحُبِس حتى أُتلف . وصَبَرْتُ نفسى على الشىء : حبستها . والمصبورة التى نُهى عنها فى الحديث هى المحبوسة على الموت ، وهى المُجَثَّمة . وقال عنترة :

فصَبَرْتُ عارفةً لذلك حُرَّةً * تَرْسُو إذا نَفْسُ الجبان تَطَلَّعُ

الثانيـــة — أمر تعالى بالصبر على الطاعة وعن المخالفة فى كتابه فقال : « وَٱصْبِرُوا » . يقال : فلان صابر عن المعاصى ؛ وإذا صبر عن المعاصى فقـد صبر على الطاعة ؛ هـذا أصح ما قيل . قال النحاس : ولا يقال لمن صبر على المصيبة : صابر ؛ إنما يقال : صابر على كذا . فإذا قلت : صابر مطلقا فهو على ما ذكرنا ؛ قال الله تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ »[3] .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱلصَّلَاةِ ﴾ خصّ الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويهاً بذكرها . وكان عليه السلام إذا حَزَبه[4] أمرٌ فزَع إلى الصلاة ؛ ومنه ما روى أن عبد الله

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى الآلة المبنية » .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٤١ .
(٤) حزبه : أى نزل به مُهِمّ أو أصابه غم .

ابن عباس نُعِيَ له أخوه قُثَم — وقيل بنت له — وهو فى سفر فاسترجع وقال : عَوْرة سترها الله، ومؤنة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله . ثم تنحّى عن الطريق وصلّى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ : « وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ » . فالصلاة على هـذا التأويل هى الشرعية . وقال قوم : هى الدعاء على عُرْفها فى اللغة ؛ فتكون الآية على هذا التأويل مشبهة لقوله تعالى : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ » ؛ لأن الثبات هو الصبر، والذكر هو الدعاء . وقول ثالث، قال مجاهد : الصبر فى هـذه الآية الصوم ؛ ومنه قيـل لرمضان : شهر الصبر ، لجاء الصوم والصلاة على هـذا القول فى الآية متناسبًا فى أن الصيام يمنع من الشهوات ويزهّد فى الدنيا ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتُخشع ويُقرأ فيها القرآن الذى يذكّر الآخرة . والله أعلم .

الرابعـة — الصبر على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس وقمعها عن شهواتها ومنعها من تطاولها ، وهو من أخلاق الأنبياء والصالحين . قال يحيى بن اليمان : الصبر ألا تتمنّى حالة سوى ما رزقك الله ، والرضا بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك . وقال الشعبىّ : قال علىّ رضى الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . قال الطبرى : وصدق علىّ رضى الله عنه ؛ وذلك أن الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ؛ فمن لم يصبر على العمل بجوارحه لم يستحق الإيمان بالإطلاق . فالصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من الجسد للإنسان الذى لا تمام له إلا به .

الخامسـة — وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهاية وحدًّا فقال : « مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا »(١) . وجعـل جزاء الصدقة فى سبيل الله فوق هـذا فقال : « مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ »(٢) الآية . وجعل أجر الصابرين بغير حساب ، ومدح أهله فقال : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ » . وقال : « وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ »(٣) . وقد قيل : إن المراد بالصابرين فى قوله : « إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ » أى الصائمون ؛ لقوله تعالى فى صحيح السُّنّة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " الصيام لى وأنا أَجْزِى به " فلم يذكر ثوابا مقدرا كما لم يذكره فى الصبر . والله أعلم .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٠٢ . (٣) راجع جـ ١٦ ص ٤٤ .

السادســـة — مِن فَضْل الصّبر وصفَ الله تعالى نفسـه به ؛ كما فى حديث أبى موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد أو ليس شيء أصـبرَ على أذًى سمعه من الله تعالى إنهم ليَدْعُون له ولدا و إنه ليعافيهـم و يرزقهم " . أخرجه البخارى . قال علمـاؤنا : وصفُ الله تعالى بالصبر إنمـا هو بمعنى الحلم ، ومعنى وصـفه تعالى بالحلم هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها ، ووصفه تعالى بالصبر لم يَرِد فى التنزيل و إنما ورد فى حديث أبى موسى ، وتأوّله أهل السُّنة على تأويل الحلم ؛ قاله ٱبن فُورَك وغيره . وجاء فى أسمائه «الصبور» للبالغة فى الحلم عمن عصاه .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ اختلف المتأوّلون فى عود الضمير من قوله : « و إنهـا » ؛ فقيل : على الصلاة وحدها خاصة ؛ لأنها تكبر على النفوس مالا يكبر الصوم . والصبر هنا : الصوم . فالصلاة فيها سجن النفوس ، والصوم إنما فيه منع الشهوة ؛ فليس مَن مُنع شهوة واحدة أو شهوتين كمن مُنع جميع الشهوات . فالصائم إنما منع شهوة النساء والطعام والشراب ، ثم ينبسط فى سائر الشهوات من الكلام والمشى والنظـر إلى غير ذلك من ملاقاة الخلق ، فيتسلّى بتلك الأشياء عما مُنع . والمصـلّى يمتنع من جميع ذلك ، بجوارحه كلها مقيَّدة بالصلاة عن جميع الشهوات . و إذا كان ذلك كانت الصـلاة أصعبَ على النفس ومكابدتها أشـدّ ، فلذلك قال : « و إنَّها لَكبِيرةٌ » . وقيـل : عليهما ، ولكنه كَنَى عن الأغلب وهو الصلاة ؛ كقوله : « وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّـةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ »[1] ، وقوله : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْـوًا ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا »[2] . فردّ الكناية إلى الفضة ؛ لأنها الأغلب والأعم ، وإلى التجارة ؛ لأنها الأفضل والأهم . وقيل : إن الصبر لمّا كان داخلا فى الصلاة أعاد عليها ؛ كما قال : « وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ »[3] . ولم يقل : يرضوهما ؛ لأن رضا الرسول داخل فى رضا الله جل وعز ؛ ومنه قول الشاعر[4] :

إنّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسـ * ـودَ ما لم يُعاصَ كان جنونا

(١) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ — ١٢٧ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٠٩
(٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ (٤) هو حسان بن ثابت .

ولم يقل يعاصيا ، ردّ إلى الشباب لأن الشّعر داخل فيه . وقيل : ردّ الكناية إلى كل واحد منهما لكن حذف اختصارا ؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً »[1] ولم يقل آيتين ؛ ومنه قول الشاعر[2] :

فمن يك أمسى بالمدينة رَحْلُه * فإنى وقيّارٌ بها لغريبُ

وقال آخر[3] :

لكلّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ * والصُّبْحُ والمُسْىُ لا فلاح معَهْ

أراد : لغريبان ، لا فلاح معهما . وقيل : على العبادة التى يتضمّنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة . وقيل : على المصدر ، وهى الاستعانة التى يقتضيها قوله : «وٱستعينُوا» . وقيل : على إجابة محمد عليه السلام ؛ لأن الصبر والصلاة مما كان يدعو إليه . وقيل : على الكعبة ؛ لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها . « وكبيرةٌ » معناه ثقيلة شاقة ، خبر « إنّ » . ويجوز فى غير القرآن : وإنه لكبيرة . « إلا على الخاشعين » فإنها خفيفة عليهم . قال أرباب المعانى : إلا على من أُيِّد فى الأزل بخصائص الاجتباء والهدى .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ الخاشعون جمع خاشع وهو المتواضع . والخشوع : هيئة فى النفس يظهر منها فى الجوارح سكون وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب ، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة . قال الزجاج : الخاشع الذى يُرَى أثر الذل والخشوع عليه ؛ كخشوع الدار بعد الإقواء . هذا هو الأصل . قال النابغة :

رَمادٌ كِكُحْلِ العينِ لأْيًا أُبِينُه * ونُؤْىٌ كجِذْمِ الحوضِ أثْلَمُ خاشِعُ

ومكان خاشع : لا يُهتَدَى له . وخَشَعت الأصوات أى سكنت . وخَشَعت خَراشِىُّ صدرِه إذا ألقى بُصاقًا لزِجًا . وخَشَع ببصره إذا غَضّه . والخُشْعة : قطعة من الأرض رِخوة ؛ وفى الحديث : "كانت خُشْعة على الماء ثم دُحيت بعد"[4] . وبلدة خاشعة : مغبرّة لا منزل

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٦ (٢) هو ضابئ البرجمى ؛ كما فى اللسان مادة (قير) والكامل للمبرد (جـ ١ ص ١٨١) طبع أوربا . (٣) هو الأضبط بن قريع السعدى ؛ عن اللسان مادة (مسا) .
(٤) الذى فى نهاية ابن الأثير مادة (خشع) : « كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض » .

بها . قال سفيان الثورىّ : سألت الأعمشَ عن الخشوع فقال : يا ثورىّ ، أنت تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! سألت إبراهيم النخعىّ عن الخشوع ، فقال : أُعَيْمِش ! تريد أن تكون إماما للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس ! لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنىء فى الحق سواء ، وتخشع لله فى كل فرض افترض عليك . ونظر عمر بن الخطاب إلى شاب قد نكس رأسه فقال : يا هذا ! ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال علىّ بن أبى طالب : الخشوع فى القلب ، وأن تلين كفّيك للمرء المسلم ، وألّا تلتفت فى صلاتك . وسيأتى هذا المعنى مجوّدا عند قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ »[1] . فمن اظهر للناس خشوعًا فوق ما فى قلبه فإنما أظهر نفاقا على نفاق . قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعا حتى تخشع كل شعرة على جسده ؛ لقول الله تبارك وتعالى : « تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ »[2] .

قلت : هذا هو الخشوع المحمود ؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه ، فتراه مطرقًا متأدّبًا متذلّلًا . وقد كان السلف يجتهدون فى ستر ما يظهر من ذلك ؛ وأما المذموم فتكلّفه والتباكى ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال ليُرَوْا بعين البر والإجلال ، وذلك خدع من الشيطان ، وتسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلا تنفّس عند عمر بن الخطاب كأنه يتحازن ؛ فلكزه عمر ، أو قال لكمه . وكان عمر رضى الله عنه إذا تكلّم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان ناسكا صدقا ، وخاشعا حقًّا . وروى ابن أبى نَجِيح عن مجاهد قال : الخاشعون هم المؤمنون حقًّا .

قوله تعالى : الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾ «الذين» فى موضع خفض على النعت للخاشعين ، ويجوز الرفع على القطع . والظن هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[3] وقوله : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا »[4] . قال دُريد بن الصِّمّة :

فقلت لهم ظُنُّوا بألفَىْ مدجَّج * سَراتُهُم فى الفارسىّ المُسَرَّدِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٠٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٨ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٧٠ (٤) راجع جـ ١١ ص ٣

وقال أبو دُواد :

رُبَّ هَمٍّ فرّجتـه بغـريم * وغيوب كشفتهـا بظنون

وقد قيل : إن الظن فى الآية يصح أن يكون على بابه، ويضمر فى الكلام بذنوبهم؛ فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين؛ ذكر المهدوىّ والماوَرْدِى . قال ابن عطية : وهـذا تعسُّف . وزعم الفَرّاء أن الظنّ قـد يقع بمعنى الكذب ؛ ولا يعرف ذلك البصريون . وأصـل الظن وقاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع موقع اليقين؛ كما فى هذه الآية وغيرها ، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحِسّ؛ لا تقول العرب فى رجل مرئىّ حاضر : أظن هـذا إنسانا . وإنمـا تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحِسّ بعـد؛ كهذه الآية والشـعر ، وكقوله تعـالى : « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا » . وقد يجىء اليقين بمعنى الظن، وقد تقدّم بيـانه أوّل السورة . وتقول : سُـؤت به ظنًّا ، وأسأت به الظن . يدخلون الألف إذا جاءوا بالألف واللام . ومعنى ﴿ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ جزاء رَبّهم . وقيل : جاء على المفاعلة وهو من واحد؛ مثل عافاه الله . ﴿ وَأَنَّهُمْ ﴾ بفتح الهمزة عطف على الأوّل، ويجوز «وإنهم» بكسرها على القطع . ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى ربهم، وقيل إلى جزائه . ﴿ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار بالبعث والجزاء والعَرْض على الملك الأعلى .

قوله تعـالى : يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ تقدّم[1] . ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ ﴾ يريد على عالَمى زمانهم، وأهل كل زمان عالَم . وقيل: على كل العالمين بمـا جعل فيهم من الأنبياء . وهذا خاصّة لهم وليست لغيرهم .

قوله تعـالى : وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

(١) راجع ص ٣٣٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ أمرٌ معناه الوعيد، وقد مضى الكلام فى التقوى (١) . « يومًا » يريد عذابه وهَوْله ، وهو يوم القيامة . وٱنتصب على المفعول بـ« ٱتقوا » . ويجوز فى غير القرآن يوم لا تجزى ، على الإضافة . وفى الكلام حذف بين النحويين فيه ٱختلاف . قال البصريون : التقدير يوما لا تجزى فيـه نفس عن نفس شيئا ، ثم حذف فيه ، كما قال :

* ويومًا شهدناه سُليمًا وعامرا (٢) *

أى شهدنا فيه . وقال الكسائى : هـذا خطأ لا يجوز حذف « فيه » ولكن التقدير : وٱتقوا يوما لا تجزيه نفس ، ثم حذف الهاء . وإنمـا يجوز حذف الهاء لأن الظروف عنده لا يجوز حذفها . قال : لا يجوز أن تقول : هـذا رجلا قصدت ، ولا رأيت رجلا أرغب ، وأنت تريد قصدت إليه وأرغب فيه . قال : ولو جاز ذلك لجاز : الذى تكلمت زيد ، بمعنى تكلمت فيه زيد . وقال الفَرّاء : يجوز أن تحذف الهـاء وفيه . وحكى المهدوىّ أن الوجهين جائزان عند سيبويه والأخفش والزجاج .

ومعنى « لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا » : أى لا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ولا تدفع عنها شيئا ، تقول : جَزَى عنّى هـذا الأمر يَجْزِى ، كما تقول : قَضَى عنى . وٱجتزأت بالشىء ٱجتزاء إذا ٱكتفيت به ، قال الشاعر :

فإنّ الغـدر فى الأقوام عارٌ * وأن الحرّ يَجزأ بالكُراع

أى يكتفى بهـا . وفى حديث عمر : " إذا أجريت المـاء على المـاء جَزَى عنـك " . يريد إذا صببت المـاء على البول فى الأرض فجرى عليه طهر المكان ، ولا حاجة بك إلى غسل ذلك الموضع وتنشيف المـاء بخرقة أو غيرها كما يفعل كثير من الناس . وفى صحيح الحـديث عن أبى بُردة بن نِيَار فى الأُضْحِيّة : " لن تَجزِىَ عن أحد بعدك " أى لن تغنى . فمعنى لا تجزى : لا تقضى ولا تغنى ولا تكفى إن لم يكن عليهـا شىء ، فإن كان فإنهـا تجزى وتقضى وتغنى ،

(١) راجع ص ١٦١ من هذا الجزء . (٢) سليم وعامر : قبيلتان من قيس عيلان .

بغير آختيـارها من حسناتها ما عليهـا من الحقوق؛ كما فى حديث أبى هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من كانت عنـده مَظلِمة لأخيـه من عِرْضه أو شىءٍ فليتحلّله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلِمته و إن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليه" . خرّجه البخارى . ومثله حديثه الآخر فى المُفْلِس، وقد ذكرناه فى التذكرة خرّجه مسلم[1] . وقرى « تُجزِئ » بضم التاء والهمز . ويقال : جَزَى وأجزى بمعنًى واحد . وقد فرق بينهما قوم فقالوا : جَزَى بمعنى قضى وكافأ . وأجزى بمعنى أغنى وكفى . أجزأنى الشىء يجزئنى أى كفانى؛ قال الشاعر :

وأجزأتَ أمر العالمين ولم يكن * ليجزئ إلا كاملٌ وآبنُ كامل

الثالثـــة[2] — قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَـلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ الشفاعة مأخوذة من الشَّفع وهما الآثنان؛ تقول : كان وَتْرًا فشفَعتُه شَـفْعًا؛ والشُّفْعة منـه ؛ لأنك تضم ملك شريكك إلى ملكك . والشفيع : صاحب الشُّفْعة وصاحب الشفاعة . وناقة شافع : إذا آجتمع لها حَمْل وولد يتبعها؛ تقول منه : شَفعتِ الناقة شَفْعًا . وناقة شَفُوع وهى التى تجمع بين مِحْلَبين فى حَلْبة واحدة . وآستشفعته إلى فلان : سألته أن يشفع لى إليه . وتشفّعت إليـه فى فلان فشفّعنى فيـه؛ فالشفاعة إذًا ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك ؛ فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفَّع، وإيصال منفعته للمشفوع .

الرابعـــة — مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق؛ وأنكرها المعتزلة وخلّدوا المؤمنين من المذنبين الذين دخلوا النار فى العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحّدين من أمم النبيين هم الذين تنـالهم شفاعة الشافعين من الملائكة والنبيّين والشهداء والصالحين . وقـد تمسّك القاضى عليهـم فى الردّ بشيئين : أحدهما — الأخبار الكثيرة التى تواترت فى المعنى . والثانى : الإجماع من السلف على تلقّى هذه الأخبار بالقبول ؛ ولم يَبْدُ من

(١) راجع صحيح مسلم، باب تحريم الظلم (جـ ٢ ص ٢٨٣) طبع بولاق .

(٢) يلاحظ أن جميع نسخ الأصل التى بأيدينا لم تذكر المسألة الأولى والثانية فى هذه الآية .

أحد منهم فى عصر من الأعصار نكير ؛ فظهور رواياتها و إطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفساد دين المعتزلة .

فإن قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هـذه الأخبار ؛ مثل قوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شَفِيعٍ يُطَاعُ » . قالوا : وأصحاب الكبائر ظالمون . وقال : « مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ »[1] ، « ولا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ » . قلنا : ليست هـذه الآيات عامة فى كل ظالم ، والعموم لا صيغة له ؛ فلا تعم هـذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، و إنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة فى ذلك . وأيضا فإن الله تعالى أثبت شـفاعةً لأقوام ونفاها عن أقوام ؛ فقـال فى صفة الكافرين : « فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ »[2] وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى »[3] وقال : « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ »[4] . فعلمنا بهذه الجملة أن الشفاعة إنما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنها شَفَاعَةٌ » النفسُ الكافرة لا كل نفس . ونحن و إن قلنا بعموم العـذاب لكل ظالم عاص فلا نقول : إنهم مخلَّدون فيها بدليـل الأخبار التى رويناها ، و بدليل قوله : « و يَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »[5] ، وقوله : « إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ » .

فإن قالوا : فقـد قال تعالى « ولا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى » والفاسق غير مُرْتَضًى . قلنا : لم يقل لمن لا يرضى ، و إنمـا قال : « لِمَنِ ارْتَضَى » ومن ارتضاه الله للشفاعة هم الموحّدون ؛ بدليل قوله : « لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا »[6] . وقيـل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : " أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئا " . وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله .

فإن قالوا : المرتَضَى هو التائب الذى اتخذ عند الله عهدا بالإنابة إليه ، بدليل أن الملائكة استغفروا لهم ؛ وقال : « فَاغْفِرْ لِلذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » . وكذلك شفاعة الأنبياء عليهم السلام إنما هى لأهل التوبة دون أهل الكبائر . قلنا : عندكم يجب على الله تعالى قبول التو بة ،

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٩٦ (٢) راجع جـ ١٩ ص ٨٦ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٨١
(٤) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ (٥) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٦) راجع جـ ١١ ص ١٥٣

فإذا قبـل الله توبة المذنب فلا يحتاج إلى الشـفاعة ولا إلى الاستغفار . وأجمع أهل التفسير على أن المراد بقوله : « فاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » أى من الشرك « وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يغفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم ؛ كما قال تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فإن قالوا : جميـع الأمة يرغبون فى شفاعة النبىّ صلى الله عليـه وسلم ، فلو كانت لأهل الكبائر خاصّة بطل سؤالهم .

قلنا : إنمـا يطلب كل مسلم شفاعة الرسول و يرغب إلى الله فى أن تناله ؛ لاعتقاده أنه غير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه ؛ بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب و يرجو النجاة ؛ وقال صلى الله عليه وسلم : " لا ينجو أحد إلا برحمة الله تعـالى — فقيل : ولا أنت يا رسـول الله؟ — فقال : ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته " .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «تُقبل» بالتاء ؛ لأن الشفاعة مؤنثة . وقرأ الباقون بالياء على التذكير ؛ لأنها بمعنى الشفيع . وقال الأخفش : حَسُن التذكير ، لأنك قد فرّقت ؛ كما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ »(١) .

السادســة — قوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى فِداء . والعدل (بفتح العين) : الفِداء ، و(بكسرها) : المِثْل ؛ يقال : عِدْل وعَدِيل للذى يماثلك فى الوزن والقدر . و يقال : عَدْلُ الشىء هو الذى يساويه قيمةً وقدرا و إن لم يكن من جنسه . والعِدل (بالكسر) : هو الذى يساوى الشىء من جنسه وفى جِرْمه . وحكى الطبرىّ : أن من العـرب من يكسر العين من معنى الفِدية . فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير .

قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أى يعانون . والنّصْر : العَوْن . والأنصار : الأعوان ؛ ومنـه قوله : « مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ »(٢) أى من يضم نُصرته إلى نصرتى . وانتصر الرجل : انتقم . والنصر : الإتيان ؛ يقال : نصرتُ أرضَ بنى فلان : أتيتها ؛ قال الشاعر(٣) :

(١) راجع ص ٣٢٦ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٩ (٣) هو الراعى يخاطب خيلا (عن اللسان) .

إذا دخل الشهرُ الحرامُ فودِّعى * بلادَ تميم وانصُرِى أرضَ عامِرِ

والنصر : المطر، يقال : نُصِرَت الأرض : مُطِرت . والنصر العطاء، قال :

إنى وأَسْطارٍ سُطِرن سطرًا * لقائلٌ يا نصرُ نصرًا نصرًا

وكان سبب هذه الآية فيما ذكروا أن بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا أباؤنا ؛ فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعات ولا يؤخذ فيه فِدْية . وإنما خص الشفاعة والفِدية والنصر بالذكر ؛ لأنها هى المعانى التى اعتادها بنو آدم فى الدنيا، فإن الواقع فى الشدّة لا يتخلص إلا بأن يُشفع له أو يُنصر أو يُفتدى .

قوله تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

فيه ثلاث عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «إذ» فى موضع نصب عطف على « اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ » . وهذا وما بعده تذكير ببعض النعم التى كانت له عليهم ؛ أى اذكروا نعمتى بإنجائكم من عدوكم وجعل الأنبياء فيكم . والخطاب للموجودين والمراد مَن سلف من الآباء، كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ »[1] أى حملنا آباءكم . وقيل : إنما قال « نجيناكم » لأن نجاة الآباء كانت سببا لنجاة هؤلاء الموجودين . ومعنى « نجيناكم » ألقيناكم على نَجْوَة من الأرض ، وهى ما ارتفع منها . هذا هو الأصل ؛ ثم سُمِّى كل فائز ناجيًا . فالناجى مَن خرج من ضيق إلى سَعة . وقرئ : « وإذ نجيتكم » على التوحيد .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ «آل فرعون» قومه وأتباعه وأهل دينه . وكذلك آل الرسول صلى الله عليه وسلم من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار، سواء كان نسيبا له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبَه وقريبَه . خلافا للرافضة حيث قالت : إن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة

(١) راجع جـ ١٨ ص٢٦٣ .

والحسن والحسين فقط . دليلنا قوله تعـالى : « وأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ » « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(١) أى آل دينه ؛ إذ لم يكن له ابن ولا بنت ولا أب ولا عم ولا أخ ولا عصبة . ولأنه لا خلاف أن من ليس بمؤمن ولا مُوَحِّد فإنه ليس من آل محمـد و إن كان قريبا له ؛ ولأجل هذا يقال : إن أبا لهب وأبا جهل ليسا من آله ولا من أهله ؛ و إن كان بينهما و بين النبىّ صلى الله عليه وسلم قرابة ؛ ولأجل هذا قال الله تعالى فى ابن نوح : « إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ »(٢) . وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جِهارًا غيرَ سِرّ يقول : " [ألا](٣) إنّ آلَ أبى — يعنى(٤) فلانا — ليسوا [لى](٣) بأولياء إنما وَلِيِّىَ اللهُ وصالحُ المؤمنين " . وقالت طائفة : آل محمد أزواجُه وذريّتُه خاصة ؛ لحديث أبى حُميد السّاعدى أنهم قالوا : يارسول الله كيف نصلّى عليك ؟ قال : " قولوا اللّهُمّ صلّ على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما صلّيت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذُرّيته كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميد مجيـد " . رواه مسلم . وقالت طائفة من أهل العلم : الأهل معلوم ، والآل : الأتباع . والأول أصح لما ذكرناه ؛ ولحديث عبـد الله بن أبى أَوْفَى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : " اللّهُمّ صلّ عليهم " فأتاه أبى بصدقته فقال : " اللّهُمّ صلّ على آل أبى أَوْفَى " .

الثالثـــة — اختلف النحاة هل يضاف الآل إلى البلدان أو لا ؟ فقال الكسائى : إنما يقال آل فلان وآل فلانة ، ولا يقال فى البـلدان هو من آل حمص ولا من آل المدينة . قال الأخفش : إنما يقال فى الرئيس الأعظم ، نحو آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل فرعون لأنه رئيسهم فى الضلالة . قال : وقد سمعناه فى البلدان ، قالوا : أهل المدينة وآل المدينة .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣١٩ (٢) راجع جـ ٩ ص ٤٦ (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٤) قوله : يعنى فلانا . وروى "ألا إن آل أبى فلان" . قال النووى : «هذه الكناية هى من بعض الرواة ، خشى أن يسميه فيترتب عليه مفسدة وفتنة ... قال القاضى عياض : قيل إن المكنّى عنه ها هنا هو الحكم بن أبى العاص » . والحكم هذا ، من النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته . راجع سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ٢٧٦) طبع أوربا .

الرابعـــة — وٱختلف النحاة أيضا هـل يضاف الآل إلى المضمر أولا ؟ فمنع من ذلك النحاس والزبيدى والكسائىّ ؛ فلا يقال إلا اللّهُمّ صلّ على محمد وآل محمد، ولا يقال وآله، والصواب أن يقال : أهله . وذهبت طائفة أخرى إلى أن ذلك يقال؛ منهم ٱبن السيِّد وهو الصواب؛ لأن السماع الصحيح يَعْضُده، فإنه قد جاء فى قول عبد المطلب :

لا هُمّ إن العبـــد يمـ * ـنع رَحْلَه فامنـــع حِلالكْ[1]

وٱنصـــر على آل الصّليـ * ـب وعابديه اليـــومَ آلكْ

وقال نُدْبة :

أنا الفارس الحامى حقيقةَ والدى * وآلى كما تَحْمِى حقيقـــةَ آلِكَا

الحقيقة (بقافين) : ما يَحُقّ على الإنسان أن يحميه؛ أى تجب عليه حمايته .

الخامســـة — وٱختلفوا أيضا فى أصل آل ؛ فقال النحاس : أصـله أهل، ثم أبدل من الهاء ألفا ، فإن صغّرته رددته إلى أصله فقلت : أُهَيْل . وقال المهدَوِىّ : أصله أوْل . وقيل : أهل؛ قُلبت الهاء همزة ثم أبدلت الهمزة ألفا . وجمعه آلون ، وتصغيره أُوَيْل؛ فيما حكى الكسائى . وحكى غيره أهيل، وقد ذكرناه عن النحاس . وقال أبو الحسن بن كَيْسان : إذا جمعت آلًا قلت آلون؛ فإن جمعت آلًا الذى هو السراب قلت آوال؛ مثل مال وأموال .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ « فرعون » قيل : إنه ٱسم ذلك المَلِك بعينه . وقيـل إنه ٱسم كل ملك من ملوك العمالقة ؛ مثل كسرى للفرس ، وقَيْصر للروم، والنجاشى للحبشة . وإن ٱسم فرعون موسى : قابوس؛ فى قول أهل الكتاب . وقال وهب : ٱسمه الوليد ٱبن مصعب بن الريّان ، ويكنى أبا مُرّة وهو من بنى عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . قال السهيلىّ : وكل من وَلِى القبط ومصر فهو فرعون . وكان فارسيًّا من أهل اصْطَخْر . قال المسعودى : لا يعرف لفرعون تفسير بالعربيـة . قال الجوهرى : فرعون لقب الوليد بن مصعب ملك مصر ؛ وكل عاتٍ فرعون . والعتاة : الفراعنة؛ وقد تفرعن،

(١) الحلال (بالكسر) : القوم المقيمون المتجاورون . يريد بهم سكان الحرم .

وهو ذو فرعنة؛ أى دهاء ونكر . وفى الحديث : " أخذنا فرعون هذه الأمة " . « وفرعون » فى موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعُجْمته .

السابعـة — قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ قيل : معناه يذيقونكم ويلزمونكم إياه . وقال أبو عبيدة : يُولُونكم ؛ يقال : سامه خُطّة خَسْف إذا أوْلاه إياها ؛ ومنه قول عمرو ابن كُلثوم :

إذا ما المَلِك سام الناسَ خَسْفًا * أبَينا أن نُقِرّ الخسف فينا

وقيل : يديمون تعذيبكم . والسَّوْم : الدوام ؛ ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرَّعْى . قال الأخفش : وهو فى موضع رفع على الابتداء[1] ، وإن شئت كان فى موضع نصب على الحال؛ أى سائمين لكم .

الثامنـة — قوله تعالى : ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ مفعول ثان لـ « يسومونكم » ومعناه أشد العذاب . ويجوز أن يكون بمعنى سوم العذاب . وقد يجوز أن يكون نعتًا؛ بمعنى سوما سيئا . فروى أن فرعون جعل بنى إسرائيل خَدَمًا وخَوَلًا وصنفهم فى أعماله ؛ فصنف يبنون ، وصنف يحرثون ويزرعون ، وصنف يتخدمون — وكان قومه جندا ملوكا — ومن لم يكن منهم فى عمل من هذه الأعمال ضُربت عليه الجزية ؛ فذلك سوء العذاب .

التاسـعة — قوله تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ « يذبحون » بغير واو على البدل من قوله : « يسومونكم » كما قال — أنشده سيبويه — :

مَتَى تأتنا تُلْمِم بنا فى ديارنا * تجد حطبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا

قال الفرّاء وغيره : « يذبحون » بغير واو على التفسير لقوله : « يَسُومُونكم سُوءَ العذابِ » كما تقول : أتانى القوم زيد وعمرو ؛ فلا تحتاج إلى الواو فى زيد؛ ونظيره : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ »[2] ، وفى سورة إبراهيم : « ويذبّحون » بالواو ، لأن المعنى

(١) يريد أنها مستأنفة . وعبارة البحر لأبى حيان : « يحتمل أن تكون هـذه الجملة مستأنفة وهى حكاية حال ماضية ، ويحتمل أن تكون فى موضع الحال؛ أى سائميكم » .

(٢) راجع جـ ١٣ ص ٧٦ .

يعـذّبونكم بالذّبح وبغير الذّبح . فقوله : « وَيُذَبِّحون أبناءَكم » جنس آخر من العذاب ، لا تفسير لما قبله . والله أعلم .

قلت : قد يحتمل أن يقال : إن الواو زائدة بدليل سورة « البقـرة » والواو قد تزاد ، كما قال :

* فلمّـا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى *

أى قد انتحى . وقال آخر :

إلى المَـلِك القَرْم وابن الهمام * وليثِ الكتيبة فى المُزْدحم

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة ؛ وهو كثير .

العـاشرة — قوله تعـالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ قراءة الجماعة بالتشديد على التكثير . وقرأ ابن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بفتح الباء . والذَّبح : الشّق . والذِّبح : المذبوح . والذُّبَاح : تشقق فى أصول الأصابع . وذبحت الدّن : بزلته ؛ أى كشفته . وسعدُ الذّابحُ : أحد السـعود . والمذابح : المحاريب . والمذابح : جمع مذبح ، وهو إذا جاء السيل نخدّ فى الأرض ، فما كان كالشبر ونحوه سمى مذبحا . فكان فرعون يَذْبح الأطفال ويُبقى البنات ، وعبّر عنهم باسم النساء بالمآل . وقالت طائفة : « يذبّحون أبناءكم » يعنى الرجال ، وسُمُّوا أبناء لما كانوا كذلك ؛ واستدل هذا القائل بقوله : « نِساءكم » . والأوّل أصح ؛ لأنه الأظهر ، والله أعلم .

الحادية عشرة — نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون ؛ وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانه ؛ لتولّيهم ذلك بأنفسهم ؛ وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله . قال الطبرىّ : ويقتضى أن من أمره ظالم بقتل أحد فقتله المأمور فهو المأخوذ به .

قلت : وقد اختلف العلماء فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال : يُقتلان جميعا ، هذا بأمره والمأمور بمباشرته . هكذا قال النّخَعِىّ ؛ وقاله الشافعىّ ومالك فى تفصيل لهما . قال الشافعى : إذا أمر السلطان رجلا بقتل رجل والمأمور يعلم أنه أمر بقتله ظُلما كان عليه وعلى الإمام القَوَد كقاتلَيْن معًا ، وإن أكرهه الإمام عليه وعلم أنه يقتله ظلما كان على الإمام القَوَد . وفى المأمور

قولان : أحدهما — أن عليه القَوَد . والآخر لا قَوَد عليه وعليه نصف الدِّيَة ؛ حكاه ابن المنذر . وقال علماؤنا : لا يخلو المأمور أن يكون ممن تلزمه طاعة الآمر ويخاف شره كالسلطان والسيد لعبده ، فالقَوَد فى ذلك لازم لهما ؛ أو يكون ممن لا يلزمه ذلك فيُقتَل المباشرُ وحده دون الآمر ؛ وذلك كالأب يأمر ولده ، أو المعلّم بعضَ صبيانه ، أو الصانع بعضَ متعلّميه إذا كان مُحتَلِمًا ؛ فإن كان غير محتلم فالقتل على الآمر ، وعلى عاقلة الصبىّ نصف الدية . وقال ابن نافع : لا يُقتل السيد إذا أمر عبده — وإن كان أعجميًّا — بقتل إنسان . قال ابن حبيب : وبقول ابن القاسم أقول إن القتل عليهما . فأما أمر من لا خوف على المأمور فى مخالفته فإنه لا يلحق بالإكراه بل يُقتل المأمور دون الآمر ، ويُضرب الآمر ويُحبس . وقال أحمد فى السيّد يأمر عبده أن يقتل رجلا : يُقتل السيّد . وروى هذا القول عن علىّ بن أبى طالب وأبى هريرة رضى الله عنهما . وقال علىّ : ويُستودع العبد السجن . وقال أحمد : ويُحبس العبد ويُضرب ويؤدّب . وقال الثورىّ : يُعزَّر السيد . وقال الحكم وحمّاد : يُقتل العبد . وقال قتادة : يُقتلان جميعا . وقال الشافعىّ : إن كان العبد فصيحا يَعقِل قَتل العبد وعُوقب السيد ؛ وإن كان العبد أعجميًّا فعلى السيّد القَود . وقال سليمان بن موسى : لا يُقتل الآمر ولكن تُقطع يديه ثم يُعاقب ويُحبس — وهو القول الثانى — ويقتل المأمور للمباشرة . كذلك قال عطاء والحكم وحماد والشافعىّ وأحمد وإسحاق فى الرجل يأمر الرجلَ بقتل الرجل ؛ وذكره ابن المنذر . وقال زُفَر : لا يُقتل واحد منهما — وهو القول الثالث — حكاه أبو المعالى فى البرهان ؛ ورأى أن الآمر والمباشر ليس كل واحد منهما مستقلا فى القَوَد ؛ فلذلك لا يُقتل واحد منهما عنده . والله أعلم .

الثانية عشرة — قرأ الجمهور « يذبّحون » بالتشديد على المبالغة . وقرأ ابن مُحَيْصِن « يَذْبَحون » بالتخفيف . والأولى أرجح إذ الذبح متكرر . وكان فرعون على ما رُوِىَ قد رأى فى منامه نارا خرجت من بيت المَقْدِس فأحرقت بيوت مصر ؛ فأُوِّلت له رؤياه : أن مولودا من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ؛ والمعنى متقارب .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر؛ أى وفى فعلهم ذلك بكم بلاء، أى آمتحان وآختبار. و ﴿ بَلَاءٌ ﴾ نعمة؛ ومنه قوله تعالى : « وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا » . قال أبو الهيثم : البلاء يكون حَسَنًا و يكون سيئا ، وأصله المِحنة؛ والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، و يبلوه بالبلوى التى يكرهها ليمتحن صبره؛ فقيل للحَسَن بلاء، وللسيّئ بلاء؛ حكاه الهَرَوِىّ . وقال قوم : الإشارة بـ« ذلكم » إلى التنجية؛ فيكون البلاء على هذا فى الخير، أى تنجيتكم نعمة من الله عليكم . وقال الجمهور : الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا فى الشر؛ والمعنى : وفى الذبح مكروه وآمتحان . وقال آبن كَيْسان : ويقال فى الخير أبلاه الله و بلاه ؛ وأنشد :

جزَى اللهُ بالإحسان ما فعلا بكم * وأبلاهما خيرَ البلاء الذى يَبْلُو[1]

بجمع بين اللغتين . والأكثر فى الخير أبليته ، وفى الشر بلوته ، وفى الآختبار أبتليته و بلوته ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ « إذ » فى موضع نصب . و « فَرَقْنَا » فلقنا ؛ فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، أى الجبل العظيم . وأصل الفَرْق الفصل ؛ ومنه فَرْق الشَّعر ؛ ومنه الفُرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل أى يفصل ؛ ومنه : « فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا »[2] يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل؛ ومنه : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ »[3] يعنى يوم بَدْر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ »[4] أى فصّلناه وأحكمناه . وقرأ الزُّهْرِىّ : « فرّقنا » بتشديد الراء؛ أى جعلناه فرقا . ومعنى « بكم » أى لكم، فالباء بمعنى اللام . وقيل : الباء فى مكانها؛ أى فرقنا البحر بدخولكم إياه . أى صاروا بين الماءين، فصار الفرق بهم؛ وهذا أولَى، يبيّنه « فآنفلق » .

(١) قائله زهير (٢) راجع جـ١٩ ص١٥٣ (٣) راجع جـ٨ ص٢٠ (٤) راجع جـ١٠ ص٣٣٩

قوله تعالى : ﴿ ٱلْبَحْرَ ﴾ البحر معروف ، سُمّى بذلك لاتساعه . ويقال : فَرَسٌ بَحْرٌ إذا كان واسع الجَرْى ؛ أى كثيره . ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مَنْدُوبٍ فرس أبى طلحة : " وإنْ وجدناه لبحرًا " . والبحر : الماء الملح . ويقال : أبحر الماء : مَلُح ؛ قال نُصَيب :

وقد عاد ماءُ الأرض بَحْـرًا فزادنى * إلى مَرَضِى أن أبْحَرَ المَشْرَبُ العذْبُ

والبحر : البلدة ؛ يقال : هذه بَحْرَتُنا ؛ أى بلدتنا . قاله الأُمَوىّ . والبَحَر : السُّلال (١) يصيب الإنسان . ويقولون : لقيته صَحْـرَةً بَحْرَةً ؛ أى بارزا مكشوفا . وفى الخبر عن كعب الأحبار قال : إن لله ملَكًا يقال له : صندفاييل ، البحار كلها فى نقرة إبهامه . ذكره أبو نعيم عن ثور ابن يزيد عن خالد بن مَعْدان عن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أى أخرجناكم منه ؛ يقال : نجوت من كذا نجاء ، ممـدود ، ونجاة ، مقصور . والصدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته ؛ وقرئ بهما « وإذ نجيناكم » ، « فأنجيناكم » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يقال : غَرِق فى الماء غَرَقًا فهو غَرِق وغارق أيضا ؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

* من بين مقتولٍ وطافٍ غارِقِ * (٢)

وأغرقه غيره وغَرّقه فهو مغرَّق وغريق . ولجام مغرّق بالفضة ؛ أى مُحَلًّى . والتغريق : القتل ؛ قال الأعشى :

* ألا ليت قَيْسًا غَرّقته القوابل * (٣)

وذلك أن القابلة كانت تغرّق المولود فى ماء السَّلَى عام القحط ، ذكرا كان أو أنثى حتى يموت ، ثم جعل كل قتل تغريقا ؛ ومنه قول ذى الرُّمّة :

(١) السـلال (كغراب) : قرحة تحدث فى الرئة أوزكام ونوازل أو سعال طويل ، وتلزمها حمى هادئة . (عن القاموس) .

(٢) صدر البيت : * فأصبحوا فى الماء والخنادق *

(٣) المراد به قيس بن مسعود الشيبانى . وصدر البيت : * أطوربن فى عام غزاة ورحلة *

إذا غَرَّقتْ أرباضُها ثِنْيَ بَكْرةٍ * بتَيْهاءَ لم تُصبِح رَءُوماً سَلُوبُها

والأرباض : الحبال . والبَكْرة : الناقة الفتيّة . وثِنْيُها : بطنها الثانى ؛ وإنما لم تعطف على ولدها لما لحقها من التعب .

القول فى آختلاف العلماء فى كيفيّة إنجاء بنى إسرائيل

فذكر الطبرى أن موسى عليه السلام أُوحِىَ إليه أن يسرى من مصر ببنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلىّ والمتاع من القبط ، وأحلّ الله ذلك لبنى إسرائيل ؛ فسرى بهم موسى من أول الليل ؛ فأُعلم فرعون فقال : لا يتبعهم أحد حتى تصيح الدِّيكة ، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك ؛ وأمات الله تلك الليلة كثيرا من أبناء القبط فاشتغلوا فى الدفن وخرجوا فى الأتباع مشرقين ؛ كما قال تعالى : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ »[1] . وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه . وكانت عِدّة بنى إسرائيل نَيِّفا على ستمائة ألف . وكانت عِدّة فرعون ألف ألف ومائتى ألف . وقيل : إن فرعون اتّبعه فى ألف ألف حصان سوى الإناث . وقيل : دخل إسرائيل — وهو يعقوب عليه السلام — مصر فى ستة وسبعين نفسا من ولده وولد ولده ؛ فأنمى الله عددهم وبارك فى ذرّيته ؛ حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيوخ والذرية والنساء . وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال حدّثنا شَبَابة بن سَوّار عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت ، ثم قال : لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع لى ستمائة ألف من القبط ؛ قال : فانطلق موسى حتى آنتهى إلى البحر ؛ فقال له : آفْرُق ؛ فقال له البحر : لقد آستكبرت ياموسى ! وهل فَرَقْت لأحد من ولد آدم فأفرق لك ! قال : ومع موسى رجل على حصان له ؛ قال : فقال له ذلك الرجل : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال : ما أُمِرتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : فأقحم فرسه فسَبَح فخرج . فقال أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ قال ما أُمِرْتُ إلا بهذا الوجه ؛ قال : والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ ؛ ثم آقتحم الثانية فسَبَح به حتى خرج ؛ فقال : أين أُمرتَ يانبىّ الله ؟ فقال : ما أمرتُ

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠٥ .

إلا بهذا الوجه؛ قال: والله ما كَذَبْتَ ولا كُذِّبْتَ؛ قال فأوحى الله إليه: «أنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ» فضربه موسى بعصاه؛ «فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ». فكان فيه اثنا عشر فِرقا، لاثنى عشر سِبْطا، لكل سبط طريق يتراءون؛ وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا؛ فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم. ويذكر أن البحر هو بحر القُلْزم، وأن الرجل الذى كان مع موسى على الفرس هو فتاه يوشع بن نون. وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك؛ فبات البحر تلك الليلة يضطرب؛ فحين أصبح ضرب البحر وكأنه أبا خالد[1]. ذكره ابن أبى شيبة أيضا. وقد أكثر المفسرون فى قصص هذا المعنى؛ وما ذكرناه كاف، وسيأتى فى سورة «يونس، والشعراء»[2] زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

فصـــل — ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان ذلك فيه. فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هذا اليوم الذى تصومونه" فقالوا: هـذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغَرّق فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكرا؛ فنحن نصومه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فنحن أحق وأولى بموسى منكم" فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضا عن ابن عباس، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "أنتم أحق بموسى منهم فصوموا".

مسئلة — ظاهر هذه الأحاديث تدل على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنما صام عاشوراء وأمر بصيامه اقتداء بموسى عليه السلام على ما أخبره به اليهود. وليس كذلك؛ لما روته عائشة رضى الله عنها قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية؛ فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه؛ فلما فُرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه. أخرجه البخارىّ ومسلم.

(١) أى كنى موسى البحر. (٢) راجع جـ ٨ ص ٣٧٧ وجـ ١٣ ص ١٠٥.

فإن قيل : يحتمل أن تكون قريش إنما صامته بإخبار اليهود لها لأنهم كانوا يسمعون منهم؛ لأنهم كانوا عندهم أهل علم ؛ فصامه النبيّ عليه السلام كذلك فى الجاهلية، أى بمكة ؛ فلما قدم المدينة ووجد اليهود يصومونه قال : "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم" فصامه اتباعا لموسى . «وأمر بصيامه» أى أوجبه وأكّد أمره، حتى كانوا يصومونه الصغار . قلنا : هذه شبهة من قال : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلّه كان متعبّدا بشريعة موسى؛ وليس كذلك، على ما يأتى بيانه فى «الأنعام»[1] عند قوله تعالى : « فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » .

مسئلة — اختلف فى يوم عاشوراء ؛ هل هو التاسع من المحرّم أو العاشر ؟ فذهب الشافعيّ إلى أنه التاسع؛ لحديث الحكم بن الأعرج قال : انتهيت إلى ابن عباس رضى الله عنهما وهو متوسّد رداءه فى زمزم، فقلت له : أخبرنى عن صوم عاشوراء؛ فقال : إذا رأيت هلال المحرّم فاعدُد وأصبِحْ يوم التاسع صائما . قلت : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال نعم . خرّجه مسلم . وذهب سعيد بن المسيّب والحسن البصرى ومالك وجماعة من السلف إلى أنه العاشر . وذكر الترمذى حديث الحَكَم ولم يصفه بصحة ولا حسن . ثم أردفه : أنبأنا قُتيبة أنبأنا عبد الوارث عن يونس عن الحسن عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوم عاشوراء يوم العاشر . قال أبو عيسى : حديث ابن عباس حديث حسن صحيح . قال الترمذىّ : وروى عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود . وبهذا الحديث يقول الشافعيّ وأحمد بن حنبل وإسحاق . قال غيره : وقول ابن عباس للسائل : « فاعدُد وأصبح يوم التاسع صائما » ليس فيه دليل على ترك صوم العاشر، بل وعد أن يصوم التاسع مضافا إلى العاشر . قالوا : فصيام اليومين جَمْع بين الأحاديث . وقول ابن عباس للحَكَم لما قال له : هكذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يصومه؟ قال : نعم . معناه أن لو عاش ؛ وإلا فما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم صام التاسع قطّ . يبيّنه ما خرّجه ابن ماجه فى سُننه ومسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لئن بَقِيت إلى قابلٍ لأصومنّ اليوم التاسع" .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ .

فضيلة ــ روى أبو قتادة أن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم قال : "صيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفّر السّنة التى قبله". أخرجه مسلم والترمذىّ ، وقال : لا نعلم فى شىء من الروايات أنه قال : "صيام يوم عاشوراء كفّارة سنة" إلا فى حديث أبى قتادة .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْـتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضـع الحال، ومعناه بأبصاركم؛ فيقال إن آل فرعون طفوا على المـاء فنظروا إليهم يغرقون، وإلى أنفسهم ينجون؛ ففى هذا أعظم المِنّة. وقد قيل : إنهم أخرجوا لهم حتى رأوهم . فهذه مِنّة بعد مِنّة . وقيل : المعنى «وأنتم تنظرون» أى ببصائركم الاعتبار ؛ لأنهم كانوا فى شـغل عن الوقوف والنظر بالأبصار . وقيل : المعنى وأنتم بحال من ينظر لو نظر؛ كما تقول: هذا الأمر منك بمرأى ومسمع؛ أى بحال تراه وتسمعه إن شئت . وهذا القول والأول أشبه بأحوال بنى إسرائيل لتوالى عدم الاعتبار فيما صدر من بنى إسرائيل بعد خروجهم من البحر ؛ وذلك أن الله تعالى لمـا أنجاهم وغرّق عدوّهم قالوا : ياموسى إن قلوبنا لا تطمئن، إن فرعون قد غَرِق! حتى أمر الله البحر فلفَظَه فنظروا إليه.

ذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن قيس بن عُبَـاد أن بنى إسرائيل قالت : ما مات فرعون وما كان ليموت أبدا ! قال : فلما أن سمع الله تكذيبهم نبيـه عليه السلام، رمى به على ساحل البحر كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل؛ فلما أطمأنوا وبُعثوا من طريق البر إلى مدائن فرعون حتى نقلوا كنوزه وغرقوا فى النعمة، رأوا قوما يعكُفون على أصنام لهم؛ قالوا ياموسى اجعل لنا إلهًـا كما لهم آلهة؛ حتى زجرهم موسى وقال : أغير الله أبغيكم إلهًـا وهو فضّلكم على العالمين؛ أى عالمى زمانه . ثم أمرهم أن يسيروا إلى الأرض المقدّسة التى كانت مساكن آبائهم ويتطهروا من أرض فرعون . وكانت الأرض المقدّسـة فى أيدى الجبارين قد غُلبوا عليهـا فاحتاجوا إلى دفعهم عنها بالقتال ؛ فقالوا : أتريد أن تجعلنا لُحْمة للجبارين ! فلو أنك تركتنا فى يد فرعون كان خيرا لنـا . قال : « يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَـةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ » إلى قوله « قَاعِدُونَ » حتى دعا عليهم وسمّـاهم فاسقين . فبقوا فى التّيه أربعين سـنة عقوبة ثم رحمهم فمنّ عليهم بالسّلْوَى وبالغمام ــ على مايأتى بيانه ــ ، ثم سار موسى إلى طُورِ سَيْناء

(١) فى نسخة : « فلم يَعْدُ أن سمع الله ... » الخ .

ليجيئهم بالتوراة؛ فاتخذوا العجل — على ما يأتى بيانه[1] — ، ثم قيل لهم : قد وصلتم إلى بيت المقدس فادخلوا الباب سُجّدًا وقولوا حِطّة — على ما يأتى — ، وكان موسى عليه السلام شديد الحياء سِتّيرا ؛ فقالوا : إنه آدر[2] . فلما اغتسل وضع على الحجر ثوبه ؛ فعدا الحجر بثوبه إلى مجالس بنى إسرائيل ، وموسى على أثره عُريان وهو يقول : يا حجر ثوبى ! فذلك قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا » — على ما يأتى بيانه[3] — ، ثم لما مات هارون قالوا له : أنت قتلت هارون وحسدته ؛ حتى نزلت الملائكة بسريره وهارون ميت عليه — وسيأتى فى المائدة[4] — ، ثم سألوه أن يعلّموا آية فى قبول قربانهم ؛ فجعلت نار تجىء من السماء فتقبل قربانهم ؛ ثم سألوه أنْ بيّن لنا كفارات ذنوبنا فى الدنيا ، فكان من أذنب ذنبا أصبح على بابه مكتوب : « عملت كذا ، وكفارته قطع عضو من أعضائك » يسمّيه له ؛ ومن أصابه بول لم يطهر حتى يقرضه ويزيل جلدته من بدنه ؛ ثم بدّلوا التوراة وافتروا على الله وكتبوا بأيديهم واشتروْا به عَرَضًا ؛ ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم . فهذه معاملتهم مع ربّهم وسيرتهم فى دينهم وسوء أخلاقهم . وسيأتى بيان كل فصل من هذه الفصول مستوفًى فى موضعه إن شاء الله تعالى . وقال الطبرى : وفى أخبار القرآن على لسان محمد عليه السلام بهذه المغيّبات التى لم تكن من علم العرب ولا وقعت إلا فى حق بنى إسرائيل دليل واضح عند بنى إسرائيل قائم عليهم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾

فيه ست مسائل :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٧٣ (٢) الأدرة (بالضم) : نفخة فى الخصية .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٠ (٤) راجع جـ ٦ ص ١٣٠

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ قرأ أبو عمرو « وَعَدْنَا » بغير ألف ، واختاره أبو عبيد ورجّحه وأنكر « واعدنا » قال : لأن المواعدة إنما تكون من البشر ، فأما الله جل وعز فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد . على هـذا وجدنا القرآن ؛ كقوله عز وجل : « وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ »[1] وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »[2] ، وقوله : « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » . قال مكيّ : وأيضا فإن ظاهر اللفظ فيه وَعْدٌ من الله تعالى لموسى ، وليس فيه وعد من موسى ؛ فوجب حمله على الواحد ، لظاهر النص أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده ؛ وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وأبى جعفر وشيبة وعيسى بن عمر ؛ وبه قرأ قتادة وابن أبى إسحاق . قال أبو حاتم : قراءة العامة عندنا «وعدنا» بغير ألف ؛ لأن المواعدة أكثر ما تكون بين المخلوقين والمتكافئين ، كل واحد منهما يَعِد صاحبه . قال الجوهرى : الميعاد : المواعدة والوقت والموضع . قال مكيّ : المواعدة أصلها من اثنين ، وقد تأتى المفاعلة من واحد فى كلام العرب ؛ قالوا : طارقت النّعل ، وداويت العليل ، وعاقبت اللص ؛ والفعل من واحد . فيكون لفظ المواعدة من الله خاصة لموسى كمعنى وعدنا ؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . والاختيار «واعدنا» بالألف لأنه بمعنى «وعدنا» فى أحد معنييه ، ولأنه لا بدّ لموسى من وعد أو قبول يقوم مقام الوعد فتصح المفاعلة . قال النحاس : وقراءة «واعدنا» بالألف أجود وأحسن ، وهى قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائى ؛ وليس قوله عز وجل : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » من هذا فى شىء ؛ لأن «واعدنا موسى» إنما هو من باب الموافاة ؛ وليس هذا من الوعد والوعيد فى شىء ، وإنما هو من قولك : موعدك يوم الجمعة ، وموعدك موضع كذا . والفصيح فى هـذا أن يقال : واعدته . قال أبو إسحاق الزجاج : « واعدنا » ها هنا بالألف جيّد ؛ لأن الطاعة فى القبول بمنزلة المواعدة ؛ فمن الله جل وعز وَعْد ، ومن موسى قبول واتباع يجرى مجرى المواعدة . قال ابن عطية . ورجّح أبو عبيدة « وعدنا » وليس بصحيح ؛ لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٥٦ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٧

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُوسَى ﴾ موسى اسم أعجمى لا ينصرف للعُجْمة والتعريف. والقبط على — مايروى — يقولون للماء : مو، وللشجر : شا (١). فلما وُجِد موسى فى التابوت عند ماء وشجر، سُمّى موسى . قال السُّدّى : لما خافت عليه أمّه جعلته فى التابوت وألقته فى اليَمّ — كما أوحى الله إليها — فألقته فى اليَمّ بين أشجار عند بيت فرعون؛ فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه؛ فسُمّى باسم المكان . وذكر النقاش وغيره : أن اسم الذى التقطته صابوث . قال ابن إسحاق : وموسى هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث ابن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله (٢) بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أربعين نصب على المفعول الثانى، وفى الكلام حذف ؛ قال الأخفش : التقدير وإذ واعدنا موسى تمام أربعين ليلة؛ كما قال : « وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ » والأربعون كلها داخلة فى الميعاد .

والأربعون فى قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشرة من ذى الحجة . وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله ؛ فخرج إلى الطور فى سبعين من خيار بنى إسرائيل، وصعدوا الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة؛ فعدّوا — فيما ذكر المفسرين — عشرين يوما وعشرين ليلة، وقالوا قد أخلفنا موعده . فاتخذوا العجل؛ وقال لهم السامرى : هذا إلهكم وإله موسى، فاطمئنوا إلى قوله . ونهاهم هارون وقال : « يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى . قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى » (٣). فلم يتبع هارون ولم يطعه فى ترك عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفا فيما روى فى الخبر . وتهافت فى عبادته سائرهم وهم أكثر من ألفى ألف ؛ فلما رجع موسى ووجدهم على تلك الحال، ألقى الألواح فرفع من جملتها ستة أجزاء وبقى جزء واحد وهو الحلال والحرام وما يحتاجون ؛ وأحرق العجل وذراه فى البحر؛ فشربوا من مائه حُبًّا للعجل؛ فظهرت على شفاههم صفرة

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل ، وفى بعضها : « سا » بالسين المهملة . وفى القاموس وشرحه : « ... وسا الشجر ؛ كذا فى سائر النسخ ؛ وقال ابن الجواليقى : هو بالشين المعجمة » .

(٢) كذا فى الأصول، واسم الجلالة زائد، ولا يبعد أن يكون الأصل : عبد الله، وهو معنى إسرائيل . راجع ص ٣٣١ من هذا الجزء .

(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ .

وورِمت بطونهم ؛ فتابوا ولم تُقبل توبتهم دون أن يَقتلوا أنفسهم ؛ فذلك قوله تعالى : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » . فقاموا بالخناجر والسيوف بعضهم إلى بعض من لَدُن طلوع الشمس إلى آرتفاع الضّحى ؛ فقتل بعضهم بعضا ، لا يسئل والد عن ولده ولا ولد عن والده ، ولا أخ عن أخيه ولا أحد عن أحدٍ ؛ كل من آستقبله ضربه بالسيف وضربه الآخر بمثله ؛ حتى عَجَّ موسى إلى الله صارخا : يارَبّاه ، قد فنيت بنو إسرائيل ! فرحمهم الله وجاد عليهم بفضله ؛ فقبل توبة مَن بقى وجعل مَن قُتل فى الشهداء ؛ على ما يأتى .

الرابعة — إن قيل : لم خصّ الليالى بالذكر دون الأيام ؟ قيل له : لأن الليلة أسبق من اليوم فهى قبله فى الرتبة ، ولذلك وقع بها التاريخ ، فالليالى أوّل الشهور والأيام تَبَع لها .

الخامسة — قال النقاش : فى هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ؛ لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نصّ على الليالى آقتضت قوّة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوما بلياليها . قال آبن عطية : سمعت أبى يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهرىّ رحمه الله يعظ الناس فى الخلوة بالله والدنُوّ منه فى الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول : أين حال موسى فى القرب من الله ! ووِصال ثمانين من الدهر من قوله حين سار إلى الخضر لفتاه فى بعض يوم : « آتِنَا غَدَاءَنَا » .

قلت : وبهذا آستدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما . وسيأتى الكلام فى الوصال فى آى الصيام[1] من هذه السورة إن شاء الله تعالى . ويأتى فى « الأعراف »[2] زيادة أحكام لهذه الآية عند قوله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » ، ويأتى لقصة العجل بيانٌ فى كيفيته وخُواره هناك وفى « طه »[3] إن شاء الله تعالى .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى آتخذتموه إلها من بعد موسى . وأصل آتخذتم ائتخذتم ، من الأخذ ، ووزنه آفتعلتم ، سهلت الهمزة الثانية لآمتناع همزتين بجاء إيتخذتم ، فآضطربت الياء فى التصريف جاءت ألفا فى ياتخذ ، وواوا فى موتخذ ،

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٢٩ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٧٤ وص ٢٨٤ (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٣٥

فبُدِلت بحرف جَلْد ثابت من جنس ما بعدها وهى التاء وأدغمت ؛ ثم آجتُلبت ألف الوصل للنطق ، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير ؛ كقوله تعالى : « قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا » فآستغنى عن ألف الوصل بألف التقرير ؛ قال الشاعر (١) :

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عن أشياعهم خَبَرًا • أم راجع القلبَ من أطرابه طَرَبُ

ونحوه فى القـرآن : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » . « أَصْطَفَى الْبَنَاتِ » . « أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ » . ومذهب أبى علىّ الفارسىّ أن « آتخذتم » ، من تخذ لا من أخذ . ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . وقد تقدّم معنى الظلم (٢) . والحمد لله .

قوله تعالى : ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ العَفْوُ : عفوُ الله جل وعز عن خلقه ؛ وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغُفران فإنه لا يكون معه عقوبةٌ البتّة . وكل من آستحق عقوبة فتُرِكت له فقـد عُفِىَ عنه . فالعفو : مَحْوُ الذنب ؛ أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم . مأخوذ من قولك : عَفَتِ الريح الأثر ؛ أى أذهبته . وعفا الشىءُ : كثر . فهو من الأضداد ؛ ومنه قوله تعالى : « حَتَّى عَفَوْا » .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى من بعد عبادتكم العجل . وسُمِّىَ العجل عِجْلًا لآستعجالهم عبـادته . والله أعلم . والعجل : ولد البقرة . والعِجْوْل مثـله ، والجمع العجاجيل ؛ والأنثى عِجْلة . عن أبى الجرّاح .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كى تشكروا عفو الله عنكم . وقد تقدّم معنى لعل (٣) . وأما الشكر فهو فى اللغـة الظهور ؛ من قوله : دابة شَكور ؛ إذا ظهر عليهـا من السِّمَن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . وحقيقته الثنـاء على الإنسان بمعروف يُولِيكه . كما تقدّم

---

(١) هو ذو الرمة . (٢) راجع ص ٣٠٩ (٣) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

فى الفاتحة[1] . قال الجوهرى : الشكر : الثناء على المحسن بما أوْلاكه من المعروف ؛ يقال : شكرته وشكرت له ؛ و باللام أفصح . والشكران : خلاف الكُفران . وتشكّرت له مثل شَكَرت له . وروى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يشكر الله من لا يشكر الناس" . قال الخطابى : هذا الكلام يتأوّل على معنيين : أحدهما — أن من كان من طبعه كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عز وجل وترك الشكر له . والوجه الآخر — أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذ كان العبد لا يشكر إحسان الناس إليه و يكفر معروفهم ؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر .

الرابعـــة — فى عبارات العلمـاء فى معنى الشكر ؛ فقال سَهْل بن عبـد الله : الشكر : الاجتهاد فى بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصـية فى السر والعلانيـة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف فى تقصـير الشكر للمنعم ؛ ولذلك قال تعالى : « اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً »[2] . فقال داود : كيف أشكرك يا رب ، والشكر نعمة منـك ! قال : الآن قد عرفتنى وشكرتنى ؛ إذ قد عرفت أن الشـكر منى نعمة . قال : يا ربّ فأرنى أخْفَى نعمك علىّ . قال : يا داود تنفّس ؛ فتنفّس داود . فقال الله تعالى : مَن يُحصى هذه النعمة الليلَ والنهارَ . وقال موسى عليه السـلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى الآن شكرتنى . وقال الجُنَيْد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه قال : كنت بين يدى السَّرِىّ السَّقَطِىّ ألعب وأنا ابن سبع سنين و بين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ، فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعْصَى الله بنعمه . فقال لى : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيـد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرِىّ لى . وقال الشـبلىّ : الشكر : التواضع والمحافظة على الحسـنات ، ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ، ومراقبة جبّار الأرض والسموات . وقال ذو النُّون المصرىّ أبو الفَيْض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال .

---

(١) راجع ص ١٣٣ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٧٦

قوله تعالى : وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

« إذا » اسم للوقت الماضى . و « إذا » اسم للوقت المستقبل . و « آتينا » : أعطينا . وقد تقدّم جميع هـذا[1] . والكتاب : التوراة بإجماع من المتأولين . واختلف فى الفرقان ؛ فقال الفرّاء وقُطْرُب : المعنى آتينا موسى التوراة ، ومحمدا عليه السلام الفرقان . قال النحاس : هـذا خطأ فى الإعراب والمعنى ؛ أما الإعراب فإن المعطوف على الشىء مثله ؛ وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشىء خلافه . وأما المعنى فقد قال تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ ٱلْفُرْقَانَ » . قال أبو إسحاق الزجاج : يكون الفرقان هو الكتاب ؛ أعيد ذكره باسمين تأكيدا . وحكى عن الفرّاء ؛ ومنه قول الشاعر :

وقَدْمتِ الأديمَ لراهِشَيْهِ[2] * وأَلْفَى قولَها كذِبًا ومَيْنَا

وقال آخر[3] :

ألا حبّذا هِنـدٌ وأرضٌ بها هِنـدُ * وهندٌ أتى من دونها النّأْىُ والبُعْدُ

فنسق البُعْد على النّأى ، والمَيْنُ على الكذب ؛ لاختلاف اللفظين تأكيدا ؛ ومنه قول عنترة :

حُيِّيتِ مِن طَلَلٍ تقادمَ عهدُه * أقْوَى وأقفرَ بعـد أمّ الهيْـثَمِ

قال النحاس : وهذا إنما يجىء فى الشعر ، وأحسن ما قيل فى هذا قول مجاهد : فرقا بين الحق والباطل ؛ أى الذى علمه إياه . وقال ابن زيد : الفرقان انفراق البحر له حتى صار فِرَقًا فعبروا . وقيل : الفرقان الفرج من الكرب ؛ لأنهم كانوا مستعبدين مع القبط ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنْ تَتَّقُوا ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا » أى فرجا ومخرجا . وقيل : إنه الحجة والبيان . قاله ابن بحر . وقيل : الواو صلة ، والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان ، والواو قد تزاد فى النعوت ؛ كقولهم : فلان حسن وطويل ؛ وأنشد :

إلى المَلِك القَرْم وابن الهمام * ولِيثِ الكَتيبةِ فى المُزْدَحَمْ

---

(١) راجع ص ٢٦١ ص ٣٤٣ (٢) الرواية المشهورة فى البيت : « فقددت الأديم » وهو لعدى بن زيد . والقد : القطع . والأديم : الجلد . والراهشان : عرقان فى باطن الذراع . (٣) هو الحطيئة .

أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة . ودليل هذا التأويل قوله عز وجل : « ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ »[1] أى بين الحرام والحلال والكفر والإيمان والوعد والوعيد، وغير ذلك . وقيل : الفرقان الفَرْق بينهم وبين قوم فرعون ؛ أنجى هؤلاء وأغرق أولئك . ونظيره : « يَوْمَ الْفُرْقَانِ » . فقيل : يعنى به يوم بَدْر ؛ نصر الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأهلك أبا جهل وأصحابه . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكى تهتدوا من الضلالة . وقد تقدم[2] .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ القوم : الجماعة الرجال دون النساء ؛ قال الله تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » ثم قال : « وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ » . وقال زُهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى * أقــومٌ آلُ حِصْنٍ أم نســاءُ

وقال تعالى : « وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » أراد الرجال دون النساء . وقد يقع القوم على الرجال والنساء ؛ قال الله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ » وكذا كل نبيّ مرسَل إلى النساء والرجال جميعا .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ منادَى مضاف . وحذفت الياء فى « يا قَوْم » لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها ؛ وهى بمنزلة التنوين فحذفتها كما تحذف التنوين من المفرد . ويجوز فى غير القرآن إثباتها ساكنة ؛ فتقول : يا قومى ؛ لأنها اسم وهى فى موضع خفض . وإن شئت فتحتها وإن شئت ألحقت معها هاء ؛ فقلت : يا قومِيَهْ . وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخفّ ؛ فقلت : يا قوما ، وإن شئت قلت : يا قوم ؛ بمعنى يأيها القوم . وإن جعلتهم نكرة نصبت ونوّنت . وواحد القوم امرؤ على غير اللفظ . وتقول : قوم وأقوام ؛ وأقاوم جمع الجمع . والمراد هنا بالقوم عَبَدة العجل ، وكانت مخاطبته عليه السلام لهم بأمر من الله تعالى .

(١) راجع جـ ٧ ص ١٤٢ (٢) راجع ص ١٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ آستغنى بالجمع القليل عن الكثير؛ والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القِلة ، والقليل موضع الكثرة ؛ قال الله تعالى : « ثَلَاثَةَ قروءٍ » . وقال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ » . ويقال لكل مَن فعل فعلا يعود عليه ضرره : إنما أسأتَ إلى نفسك . وأصل الظلم وضع الشيء فى غير موضعه . ثم قال تعالى : ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ قال بعض أرباب المعانى : عِجْلُ كلّ إنسان نفسه ؛ فمن أسقطه وخالف مراده فقد برئ من ظلمه . والصحيح أنه هنا عِجل على الحقيقة عبدوه كما نطق به التنزيل . والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ لما قال لهم : فتوبوا إلى بارئكم ؛ قالوا : كيف ؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ . قال أرباب الخواطر : ذَلِّلوها بالطاعات وكُفّوها عن الشهوات . والصحيح أنه قَتْلٌ على الحقيقة هنا . والقتل : إماتة الحركة . وقتلت الخمر : كسرت شدّتها بالماء . قال سفيان بن عُيَيْنَة : التوبة نعمة من الله أنعم الله بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم ؛ وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزُّهْرِىّ : لما قيل لهم : « فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضا ؛ حتى قيل لهم : كُفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحىّ ؛ على ما تقدّم . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاما ففعلوا ذلك . وقيل : وقف الذين عبدوا العجل صفًّا ، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . وقيل : قام السبعون الذين كانوا مع موسى فقَتَلُوا — إذ لم يعبدوا العجل — مَن عبد العجل . ويروى أن يوشع بن نون خرج عليهم وهم مُحْتَبُون فقال : ملعون من حلّ حَبْوَته أو مدّ طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رِجل . فما حلّ أحد منهم حبوته حتى قتل منهم — يعنى من قتل — وأقبل الرجل يقتل من يليه . ذكره النحاس وغيره . وإنما عوقب الذين لم يعبدوا العجل بقتل أنفسهم — على القول الأول — ؛ لأنهم لم يغيّروا المنكر حين عبدوه ؛ وإنما آعتزلوا ، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبده . وهذه سنة الله فى عباده إذا فشا المنكر ولم يُغَيَّر عوقب الجميع . روى جَرِير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم يُعمل فيهم

بالمعاصى هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلا عَمّهم الله بعقاب" . أخرجه ابن ماجه فى سُننه . وسيأتى الكلام فى هذا المعنى إن شاء الله تعالى . فلما اسْتَحَرّ(١) فيهم القتل و بلغ سبعين ألفا عفا الله عنهم . قاله ابن عباس وعلىّ رضى الله عنهما . وإنما رفع الله عنهم القتل لأنهم أعطوا المجهود فى قتل أنفسهم . فما أنعم الله على هذه الأمة نعمة بعد الإسلام هى أفضل من التوبة . وقرأ قتادة : فاقيلوا أنفسكم — من الإقالة — ؛ أى استقبلوها من العثرة بالقتل .

قوله تعالى : ﴿ بَارِئِكُمْ ﴾ البارئ : الخالق ؛ و بينهما فرق ، وذلك أن البارئ هو المبدع المحدِث . والخالق هو المقدّر الناقل من حال إلى حال . والبَرِيّة : الخلق ؛ وهى فَعِيلة بمعنى مفعولة غير أنها لا تُهمز . وقرأ أبو عمرو «بارئكم» — بسكون الهمزة — ويشعركم وينصركم ويأمركم . واختلف النحاة فى هذا ؛ فمنهم من يُسكن الضمة والكسرة فى الوصل ؛ وذلك فى الشعر . وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالى الحركات فى حرف الإعراب فى كلام ولا شعر . وقراءة أبى عمرو لحن . قال النحاس وغيره : وقد أجاز ذلك النحويون القدماء الأئمة ؛ وأنشدوا :

إذا اعْوَجَجْنَ قلتُ صاحبْ قَوِّمِ * بالدَّوِ أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ(٢)

وقال امرؤ القيس :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ * إثْمًا من الله ولا واغِلِ(٣)

وقال آخر :

* قالتَ سُلَيمَى اشترْ لنا سَوِيقا *

وقال الآخر :

رُحتِ وفى رجليك ما فيهما * وقد بدا هَنْكِ من المِئْزَرِ

---

(١) استحرّ : اشتدّ وكثر . (٢) الدو (بفتح الدال وتشديد الواو) : الصحراء . وأراد بأمثال السفين رواحل تحمل تقطع الصحراء قطع السفن البحر . (٣) المستحقب : المتكسب . والواغل : الذى يدخل على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير أن يدعوه . يقول هذا حين قتل أبوه ونذر ألا يشرب الخمر حتى يثأر به ؛ فلما أدرك ثأره حلت له بزعمه فلا يأثم بشربها ، إذ وفى بنذره فيها .

فمن أنكر التسكين فى حرف الإعراب فحجّته أن ذلك لا يجوز من حيث كان علما للإعراب. قال أبو علىّ : وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة فى جواز تسكينها مع توالى الحركات. وأصل برأ من تبرّى الشىء من الشىء وهو آنفصاله منه . فالخلق قد فُصلوا من العدم إلى الوجود ؛ ومنه بَرَأْت من المرض بَرْءًا (بالفتح) كذا يقول أهل الحجاز . وغيرهم يقول : برِئت من المرض بُرْءًا (بالضم) ؛ و برئت منـك ومن الديون والعيوب براءة ؛ ومنه المبـارأة للمرأة . وقد بارأ شريكه وآمرأته .

قوله تعـالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، تقـديره ففعلتم « فتاب عليكم » ؛ أى فتجاوز عنكم ، أى على الباقين منكم . ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدّم معناه[1] ، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وإِذْ قُلْتُمْ ﴾ معطوف . ﴿ يا مُوسَى ﴾ نداء مفرد . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ أى نصدّقك . ﴿ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ﴾ قيل : هم السبعون الذين آختارهم موسى ؛ وذلك أنهم لمـا أسمعهم كلام الله تعالى قالوا له بعد ذلك : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ » . والإيمـان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم . فأرسل الله عليهم نارا من السماء فأحرقهم ؛ ثم دعا موسى ربه فأحياهم ؛ كما قال تعالى : « ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعدِ مَوْتِكُمْ » . وستأتى قصة السبعين فى الأعراف[2] إن شاء الله تعـالى . قال آبن فُورَك : يحتمل أن تكون معاقبتهم لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى : « أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً » وليس ذلك من مقدور موسى عليه السلام .

وقد آختُلِف فى جواز رؤية الله تعالى ؛ فأكثر المبتدعة على إنكارها فى الدنيـا والآخرة . وأهل السُّـنَّة والسلف على جوازها فيهما ووقوعها فى الآخرة ؛ فعلى هـذا لم يطلبوا من الرؤية

(١) راجع ص ١٠٣ فما بعدها وص ٣٢٥　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٩٤

محالا ؛ وقد سألها موسى عليه السلام . وسيأتى الكلام فى الرؤية فى «الأنعام» و«الأعراف»[1] إن شاء الله تعالى .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ جَهْرَةً ﴾ مصدر فى موضع الحال ، ومعناه علانية . وقيل عِيانا ؛ قاله ابن عباس . وأصل الجهر الظهور ؛ ومنه الجهر بالقراءة إنما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى : المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهارا وجهرة ؛ أى غير مستتر بشىء . وقرأ ابن عباس « جَهَرة » بفتح الهاء . وهما لغتان ؛ مثل زَهْرة وزَهَرة . وفى الجهر وجهان : أحدهما — أنه صفة لخطابهم لموسى أنهم جهروا به وأعلنوا ؛ فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ؛ والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى . الثانى — أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى أن يروه جهرة وعِيانا ؛ فيكون الكلام على نسقه لا تقديم فيه ولا تأخير . وأكّد بالجهر فرقا بين رؤية العيان ورؤية المنام .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ قد تقدّم فى أول السورة معنى الصاعقة[2] . وقرأ عمر وعثمان وعلىّ « الصَّعْقة » ، وهى قراءة ابن مُحَيْصِن فى جميع القرآن . ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ جملة فى موضع الحال . ويقال : كيف يموتون وهم ينظرون ؟ فالجواب أن العرب تقول : دور آل فلان تراءى ؛ أى يقابل بعضها بعضا . وقيل : المعنى « تنظرون » أى إلى حالكم وما نزل بكم من الموت وآثار الصعقة .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ أى أحييناكم . قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثُمّ ردوا لاستيفاء آجالهم . قال النحاس : وهذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش ، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا ، والمعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ما فعل بكم من البعث بعد الموت . وقيل : ماتوا مَوْتَ هجودٍ يعتبر به الغير ، ثم أرسلوا . وأصل البعث الإرسال . وقيل : بل أصله إثارة الشىء من محله ؛ يقال : بعثت الناقة : أثرتها ، أى حركتها ؛ قال امرؤ القيس :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ وص ٢٧٨ (٢) راجع ص ٢١٩ من هذا الجزء .

وفتيان صدق قد بعثتُ بسُحْرة[1] * فقاموا جميعًا بين عاثٍ ونَشْوان

وقال عنـــترة :

وصحابةٍ شُمّ الأنوف بعثتهـــم * ليـلا وقد مال الكرى بطُلاها[2]

وقال بعضهم : « بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ » علّمناكم من بعد جهلكم .

قلت : والأول أصح ؛ لأن الأصـل الحقيقةُ ، وكان موت عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ » . على ما يأتى[3] .

الخامســـة — قال المـاوَرْدِىّ : واختُلِف فى بقاء تكليف مَن أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين : أحدهما — بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبّد . الثانى : سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار .

قلت : والأول أصح ؛ فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم ؛ وذلك ممـا اضطرهم إلى الإيمـان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ؛ ومثلهم قوم يونس . ومحال أن يكونوا غير مكلّفين . والله أعلم .

قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

فيه ثمـانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ أى جعلناه عليكم كالظُّلّة . والغمام جمع غمامة ، كسحابة وسحاب ؛ قاله الأخفش سعيد . قال الفراء : ويجوز غمائم وهى السحاب ؛ لأنها تغمّ السماء أى تسترها ؛ وكل مغطّى فهو مغموم ؛ ومنه المغموم على عقله . وغُمّ الهلال

(١) السحرة (بضم أوله) : السَّحَر . وقيل : أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .

(٢) الطلى (بضم ففتح) : الأعناق . (٣) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠

إذا غطّاه الغَيْم . والغين مثل الغيم ؛ ومنه قوله عليه السلام : " إنه ليُغان على قلبى " . قال صاحب العين : غِين عليه : غطّى عليه . والغَيْن : شجر ملتفّ . وقال السُّدّى : الغمام السحاب الأبيض . وفعل هذا بهم ليقيهم حرّ الشمس نهارا ، وينجلى فى آخره ليستضيئوا بالقمر ليلا . وذكر المفسرون أن هذا جرى فى التِّيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم ؛ وقالوا لموسى : « فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا »(١) . فعوقبوا فى ذلك الفَحْص(٢) أربعين سنة يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستة . رُوى أنهم كانوا يمشون النهار كله ويتزاولون للبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس . وإذ كانوا بأجمعهم فى التِّيه قالوا لموسى : مَن لنا بالطعام ! فأنزل الله عليهم المنّ والسَّلْوَى . قالوا : مَن لنا من حَرّ الشمس ! فظلّل عليهم الغمام . قالوا : فبم نستصبح ! فضرب لهم عمود نور فى وسط محلّتهم . وذكر مكىّ : عمود من نار . قالوا : من لنا بالماء ! فأمر موسى بضرب الحجر . قالوا : من لنا باللباس ! فأعطوا ؛ ألّا يبلى لهم ثوب ولا يَخْلَق ولا يدرَن ؛ وأن تنمو صغارها حسب نموّ الصبيان . والله أعلم .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى المنّ ما هو وتعيينه على أقوال ؛ فقيل : التَّرَنْجَبِين(٣) — بتشديد الراء وتسكين النون ، ذكره النحاس ، ويقال : الطَّرَنْجَبِين بالطاء — وعلى هذا أكثر المفسرين . وقيل : صمغة حُلوة . وقيل عسل : وقيل شراب حلو . وقيل : خبز الرُّقاق ؛ عن وهب بن مُنَبِّه . وقيل : « المنّ » مصدر يعم جميع ما منّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ؛ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل : " الكمأة من المنّ الذى أنزل الله على بنى إسرائيل وماؤها شفاء للعين " فى رواية " من المنّ الذى أنزل الله على موسى " . رواه مسلم . قال علماؤنا : وهذا الحديث يدل على أن الكمأة مما أنزل الله على بنى إسرائيل ؛ أى مما خلقه الله لهم فى التِّيه . قال أبو عبيد : إنما شبهها بالمنّ لأنه لا مؤونة فيها ببذر ولا سقى ولا علاج ؛ فهى منه . أى من جنس مَنّ

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢٨ (٢) الفحص : كل موضع يسكن . وفى حديث كعب : « إن الله بارك فى الشام وخص بالتقديس من فحص الأردنّ إلى رخ ... » وفحصه ما بسط منه وكشف من نواحيه . (عن القاموس والنهاية) . (٣) الترنجبين : طل يقع من السماء وهو ندى شبيه بالعسل جامد متحبب (عن مفردات ابن البيطار) .

بنى إسرائيل فى أنه كان دون تكلُّف . روى أنه كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج ؛ فيأخذ الرجل ما يكفيه ليومه ، فإن آدّخر منـه شيئا فسد عليه ، إلا فى يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ؛ لأن يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شىء .

الثالثـــة — لمـا نصّ عليـه السلام على أن ماء الكمأة شفاء للعين قال بعض أهل العلم بالطب : اما لتبريد العين من بعض ما يكون فيها من الحرارة فتستعمل بنفسها مفردة ، واما لغير ذلك فمركبة مع غيرها . وذهب أبو هريرة رضى الله عنه إلى آستعمالها بحتًا فى جميع مرض العين . وهذا كما آستعمل أبو وَجْزَة العسلَ فى جميع الأمراض كلّها حتى فى الكحل ، على ما يأتى بيانه فى سورة « النحل »[1] إن شاء الله تعالى . وقال أهل اللغة : الكمء واحد ، وكمآن آثنان ، وأكمؤ ثلاثة ، فإذا زادوا قالوا : كمأة — بالتاء — على عكس شجرة وشجر . والمنّ آسم جنس لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ قاله الأخفش .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ اختُلف فى السَّلْوَى ، فقيل : هو السُّمَانَى بعينه ؛ قاله الضحاك . قال آبن عطية : السَّلْوَى طير بإجماع المفسرين ؛ وقد غَلِط الهُذَلِىّ[2] فقال :

وقاسمها بالله جَهْـدًا لَأَنْتُمُ * ألذّ من السّلوَى إذا ما نَشُورُهَا

ظنّ السلوى العسل .

قلت : ما آدّعاه من الإجماع لا يصح ؛ وقد قال المؤرّج[3] أحد علماء اللغة والتفسير : إنه العسل ؛ وآستدلّ ببيت الهذلىّ ، وذكر أنه كذلك بلغة كنانة ؛ سُمّىَ به لأنه يسلى به ؛ ومنه عين السُّلوان[4] ؛ وأنشد :

لو أشرب السُّـلوان ما سَلِيتُ * ما بى غنًى عنـك وإن غَنِيتُ[5]

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ (٢) هو خالد بن زهير . (٣) هو مؤرّج بن عمر السدوسى ، ويكنى أبا فيد . كان من أصحاب الخليل بن أحمـد ؛ مات سنة خمس وتسعين ومائة . (٤) عين السلوان : عين نضاخة يتبرك بها ويستشفى منها بالبيت المقدس . (عن معجم ياقوت) . (٥) البيت لرؤبة .

وقال الجوهرى : والسلوى العسل ؛ وذكر بيت الهُذَلىّ :

* ألذّ من السَّلْوَى إذا ما نَشُورُهَا *

ولم يذكر غلطا . والسُّلوانة (بالضم) : خرزة كانوا يقولون إذا صُبّ عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا ؛ قال :

شربتُ على سُلوانةٍ ماءَ مُزْنَةٍ * فلا وجديد العيش يا مَىّ ما أسْلُو

وآسم ذلك الماء السُّلوان . وقال بعضهم : السلوان دواء يُسقاه الحزين فيسلو ؛ والأطباء يسمونه المُفَرِّح . يقال : سَلِيت وسلوْت ؛ لغتان . وهو فى سُلوة من العيش ، أى فى رغد ؛ عن أبى زيد .

الخامسة — وآختُلِف فى السَّلْوَى هل هو جمع أو مفرد ؛ فقال الأخفش : جمع لا واحد له من لفظه ؛ مثل الخير والشر ؛ وهو يشبه أن يكون واحده سَلْوَى مثل جماعته ؛ كما قالوا : دِفْلَى[1] للواحد والجماعة ، وسُمّانَى وشُكاعَى[2] فى الواحد والجميع . وقال الخليل : واحده سَلواة ؛ وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكرك هِزَّةٌ[3] * كما آنتفض السَّلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السَّلْوَى واحدة ، وجمعه سلاوى .

السادسة — «السَّلْوَى» عطفٌ على «المنّ» ، ولم يظهر فيه الإعراب ، لأنه مقصور . ووجب هذا فى المقصور كله ؛ لأنه لا يخلو من أن يكون فى آخره ألف . قال الخليل : والألف حرف هوائى لا مستقر له ؛ فأشبه الحركة فآستحالت حركته . وقال الفرّاء : لو حرّكت الألف صارت همزة .

السابعة — قوله تعالى : ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ «كلوا» فيه حذف ، تقديره وقلنا كلوا ؛ فحذف اختصارا لدلالة الظاهر عليه . والطيبات هنا قد جمعت الحلال واللذيذ .

---

(١) الدفلى (كذكرى) : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية . (٢) الشكاعى (كحبارى وقد تفتح) : من دق النبات ، وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء ، والناس يتداوون بها . (٣) فى الأصول : « سلوة » وهو تحريف .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ يقدّر قبله فعصوا ولم يقابلوا النّعم بالشكر . ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لمقابلتهم النعم بالمعاصى .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ حُذفت الألف من «قلنا» لسكونها وسكون الدال بعدها ، والألف التى يُبتدأ بها قبل الدال ألف وصل ؛ لأنه من يدخل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ أى المدينة ؛ سُمّيت بذلك لأنها تقرّت أى ٱجتمعت ؛ ومنه قَرَيت الماء فى الحوض ؛ أى جمعته ؛ وٱسم ذلك الماء قِرًى (بكسر القاف) مقصور . وكذلك ما قُرِىَ به الضيف ؛ قاله الجوهرى . والمِقْراة للحوض . والقَرِىّ لمسيل الماء . والقَرَا للظهر ؛ ومنه قوله (١) :

* لاحِـقُ بطنٍ بِقَـرًا سمينِ *

والمقارِى : الجِفان الكبار ؛ قال :

* عظام المقارى ضيفهم لا يُفَزَّع *

وواحد المقارى مِقراة ؛ وكله بمعنى الجمع غير مهموز . والقِرية (بكسر القاف) لغة اليمن . وٱختُلف فى تعيينها ؛ فقال الجمهور : هى بيت المقدس . وقيل : أريحاء من بيت المقدس . قال عمر بن شَبّة : كانت قاعدة ومسكن ملوك . ٱبن كَيْسان : الشام . الضحاك : الرَّمْلة والأُرْدُنّ وفلسطين وتَدْمُر . وهـذه نعمة أخرى ، وهى أنه أباح لهم دخول البلدة وأزال عنهم التّيه .

(١) هو حميد الأرقط . وصف فرسا بضمور البطن ثم نفى أن يكون ضمره من هزال ، فقال : « بقرا سمين » . واللاحق الضامر . (عن شرح الشواهد) .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا ﴾ إباحة . و ﴿ رَغَدًا ﴾ كثيرًا واسعًا ؛ وهو نعت لمصدر محذوف ؛ أى أكلًا رَغَدًا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال ؛ على ما تقدّم . وكانت أرضا مباركة عظيمة الغَلّة ، فلذلك قال : « رغدا » .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾ الباب يُجمع أبوابا ؛ وقد قالوا : أَبْوِبَة(١) للأزدواج ؛ قال الشاعر :

هتّاك أخْبِيةٍ ولّاج أبوِبَة * يَخْلِط بالبِرّ منه الجِدَّ واللِّينا

ولو أفرده لم يجز . ومثله قوله عليه السلام : " مرحبا بالقوم — أو بالوفد — غير خَزَايا ولا نَدامَى " . وتبوّبت بوّابا اتخذته . وأبواب مبوّبة ؛ كما قالوا : أصناف مُصنّفة . وهذا شىء من بابتك ؛ أى يصلح لك . وقد تقدّم معنى السجود(٢) فلا معنى لإعادته . والحمد لله .

والباب الذى أمروا بدخوله هو باب فى بيت المقدس يعرف اليوم بـ« باب حِطّة » ؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : باب القُبّة التى كان يصلى إليها موسى وبنو إسرائيل . و « سجدا » قال ابن عباس : منحنين ركوعا . وقيل : متواضعين خضوعا لا على هيئة متعينة .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا ﴾ عطف على ادخلوا . و ﴿ حِطَّةٌ ﴾ بالرفع قراءة الجمهور ؛ على إضمار مبتدأ ، أى مسئلتنا حطة ، أو يكون حكاية . قال الأخفش : وقرئت « حِطَّةً » بالنصب ، على معنى احطط عنا ذنوبنا حِطة . قال النحاس : الحديث(٣) عن ابن عباس أنه قيل لهم : قولوا لا إله إلا الله ، وفى حديث آخر عنه قيل لهم : قولوا مغفرة — تفسير للنصب ؛ أى قولوا شيئا يحط ذنوبكم ؛ كما يقال : قل خيرا . والأئمة من القراء على الرفع . وهو أولى فى اللغة ؛ لما حكى عن العرب فى معنى بدّل ، قال أحمد بن يحيى : يقال بدّلته ؛ أى غيرته ولم أزل عينه . وأبدلته أزلت عينه وشخصه ؛ كما قال(٤) :

* عَزْل الأمير للأمير المُبْدَل *

---

(١) هو القلاخ بن جناب . وقيل : هو ابن مقبل . (عن اللسان) (٢) راجع ص ٣٤٥ .

(٣) فى الأصول : « قال النحاس جاء الحديث ... » والتصويب عن إعراب القرآن للنحاس . و« الحديث » مبتدأ ، وخبره « تفسير » .

(٤) هو أبو النجم . (عن إعراب القرآن للنحاس) .

وقال الله عز وجل : « قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ »[1] . وحديث ابن مسعود قالوا : «حِطّة» تفسير على الرفع . هذا كله قول النحاس . وقال الحسن وعكرمة : « حِطّةٌ » بمعنى حُطّ ذنوبنا ؛ أُمروا أن يقولوا : لا إله إلا الله ليحطّ بها ذنوبهم . وقال ابن جبير : معناه الاستغفار . أبان بن تَغْلِب : التوبة ؛ قال الشاعر :

فاز بالحطة التي جعـــل اللّ * ـه بها ذنب عبده مغفورا

وقال ابن فارس فى المُجْمَل : «حِطّة» كلمة أمِر بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرى أيضا فى الصحاح .

قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللفظ بعينه ، وهو الظاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سُجّدًا وقولوا حِطّةٌ يُغفر لكم خطاياكم [فبدّلوا][2] فدخلوا الباب يَزْحَفُون على أستاههم وقالوا حَبّة فى شَعَرة " . وأخرجه البخارىّ وقال : " فبدّلوا وقالوا حِطّةٌ حبّةٌ فى شعرة ". فى غير الصحيحين : « حنطة فى شَعَر » . وقيل : قالوا هِطّا سُمْهانا . وهى لفظة عبرانية ، تفسيرها : حنطة حمراء ؛ حكاها ابن قتيبة ، وحكاه الهروى عن السدّى ومجاهد . وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به فعصوا وتمرّدوا واستهزءوا ؛ فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب . وقال ابن زيد : كان طاعونا أهلك منهم سبعين ألفا . وُرِوىَ أن الباب جُعل قصيرا ليدخلوه ركّعًا فدخلوه متوركين على أستاههم . والله أعلم .

السادســـة — استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها فى الشريعـة لا يخلو أن يقع التعبُّد بلفظها أو بمعناها ؛ فإن كان التعبُّـد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها ؛ لذم الله تعالى مَن بدّل ما أمره بقوله . وإن وقع بمعناها جاز تبديلها بما يؤدّى إلى ذلك المعنى ؛ ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه .

---

(١) فى الأصل : « ولحديث ابن مسعود » . والتصويب عن النحاس .

(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

وقد آختلف العلماء فى هذا المعنى ؛ فحُكِىَ عن مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم أنه يجوز للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته نقل الحديث بالمعنى لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله ؛ وهو قول الجمهور . ومنع ذلك جمعٌ كثير من العلماء منهم آبن سيرين والقاسم بن محمد ورجاء بن حَيْوَة . وقال مجاهد : أنْقُص من الحديث إن شئت ولا تزد فيه . وكان مالك بن أنس يشدّد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التاء والياء ونحو هذا . وعلى هذا جماعة من أئمة الحديث لا يرون إبدال اللفظ ولا تغييره حتى إنهم يسمعون ملحونا و يعلمون ذلك ولا يغيّرونه . وروى أبو مِجْلَز عن قيس بن عُبَاد قال قال عمر بن الخطاب : مَن سمع حديثا فحدّث به كما سمع فقد سلم . وروى نحوه عن عبد الله بن عمرو وزيد بن أرقم . وكذا الخلاف فى التقديم والتأخير والزيادة والنقصان ؛ فإن منهم من يعتدّ بالمعنى ولا يعتدّ باللفظ ، ومنهم من يشدّد فى ذلك ولا يفارق اللفظ . وذلك هو الأحوط فى الدّين والأتقى والأولى ؛ ولكن أكثر العلماء على خلافه . والقول بالجواز هو الصحيح إن شاء الله تعالى ؛ وذلك أن المعلوم من سيرة الصحابة رضى الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الوقائع المتحدة بألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للمعانى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثلة بن الأَسْقع أنه قال : ليس كل ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلناه إليكم ؛ حسبكم المعنى . وقال قتادة عن زُرارة بن أوْفَى : لقيت عدّة من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فآختلفوا علىّ فى اللفظ وآجتمعوا فى المعنى . وكان النّخَعِىّ والحسن والشعبىّ رحمهم الله يأتون بالحديث على المعانى . وقال الحسن : إذا أصبت المعنى أجزأك . وقال سفيان الثورِىّ رحمه الله : إذا قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدّقونى ؛ إنما هو المعنى . وقال وَكِيع رحمه الله : إن لم يكن المعنى واسعًا فقد هلك الناس . وآتفق العلماء على جواز نقل الشرع للعجم بلسانهم وترجمته لهم ؛ وذلك هو النقل بالمعنى . وقد فعل الله ذلك فى كتابه فيما قص من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قِصصًا ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربىّ وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير ، والحذف والإلغاء ،

والزيادة والنقصان . و إذا جاز إبدال العربية بالعجمية فلأن يجـوز بالعربية أولى . احتج بهذا المعنى الحسن والشافعيّ ، وهو الصحيح فى الباب .

فإن قيل : فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " نضّر الله امرأً سمع مقالتى فبلّغها كما سمعها " وذكر الحديث . وما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر رجلا أن يقول عند مضجعه فى دعاء علمه : " آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيّك الذى أرسلت " ؛ فقال الرجل : ورسولك الذى أرسلت ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ونبيّك الذى أرسلت " . قالوا : أفلا ترى أنه لم يسوّغ لمن علمه الدعاء مخالفة اللفظ وقال : " فأدّاها كما سمعها " . قيل لهم : أما قوله " فأدّاها كما سمعها " فالمراد حكمها لا لفظها ؛ لأن اللفظ غير معتدٍّ به . ويدلّك على أن المراد من الخطاب حكمه قوله : " فربّ حاملِ فقه غير فقيه وربّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه " . ثم إن هذا الحديث بعينه قد نقل بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ؛ وإن أمكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أوقات مختلفة ؛ لكن الأغلب أنه حديث واحد نقل بألفاظ مختلفة ؛ وذلك أدلّ دليل على الجواز . وأما ردّه عليه السلام الرجلَ من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ؛ لأن لفظ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمدح ؛ ولكل نعت من هذين النعتين موضع . ألا ترى أن اسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبيّ لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام ! وإنما فُضّل المرسلون من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوّة والرسالة . فلما قال : "ونبيك" ، جاء بالنعت الأمدح ، ثم قيّده بالرسالة بقوله : "الذى أرسلت" . وأيضا فإن نقله من قوله : "ورسولك — إلى قوله — ونبيك" ليجمع بين النبوّة والرسالة . ومستقبح فى الكلام أن تقول : هذا رسول فلان الذى أرسله ، وهذا قتيل زيد الذى قتله ؛ لأنك تجتزئ بقولك : رسول فلان ، وقتيل فلان عن إعادة المرسل والقاتل ؛ إذ كنت لا تفيد به إلا المعنى الأوّل . وإنما يحسن أن تقول : هذا رسول عبد الله الذى أرسله إلى عمرو ، وهذا قتيل زيد الذى قتله بالأمس أو فى وقعة كذا . والله ولىّ التوفيق .

فإن قيل : إذا جاز للرّاوى الأوّل تغيير ألفاظ الرسول عليه السلام جاز للثانى تغيير ألفاظ الأوّل، و يؤدّى ذلك إلى طمس الحديث بالكلية لدقة الفروق وخفائها . قيل له : الجواز مشروط بالمطابقة والمساواة كما ذكرنا ؛ فإن عُدمت لم يجز . قال ٱبن العربىّ : الخلاف فى هذه المسألة إنما يُتصوّر بالنظر إلى عصر الصحابة والتابعين لتساويهم فى معرفة اللغة الجبلّية الذّوقية ؛ وأما من بعدهم فلا نشك فى أن ذلك لا يجوز ؛ إذ الطباع قد تغيّرت ، والفهوم قد تباينت ، والعوائد قد ٱختلفت ؛ وهذا هو الحق . والله أعلم .

قال بعض علمائنا : لقد تعاجم ٱبن العربىّ رحمه الله ؛ فإن الجواز إذا كان مشروطا بالمطابقة فلا فرق بين زمن الصحابة والتابعين وزمن غيرهم ؛ ولهذا لم يفصّل أحد من الأصوليين ولا أهل الحديث هذا التفصيل . نعم ، لو قال : المطابقة فى زمنه أبعد كان أقرب ، والله أعلم .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ قراءة نافع بالياء مع ضمها . وٱبن عامر بالتاء مع ضمها ، وهى قراءة مجاهد . وقرأها الباقون بالنون مع نصبها ، وهى أبينها ؛ لأن قبلها «وَ إِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا» فجرى «نَغْفِرْ» على الإخبار عن الله تعالى ؛ والتقدير وقلنا ٱدخلوا الباب سُجّدًا نغفر ، ولأن بعده « وسَنَزِيدُ » بالنون . و « خطاياكم » ٱتباعا للسواد وأنه على بابه . ووجه من قرأ بالتاء أنه أنث لتأنيث لفظ الخطايا ؛ لأنها جمع خطيئة على التكسير . ووجه القراءة بالياء أنه ذكّر لما حال بين المؤنث و بين فعله ؛ على ما تقدّم فى قوله : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٌ » . وحَسُن الياء والتاء و إن كان قبله إخبار عن الله تعالى فى قوله : « و إذ قلنا » لأنه قد عُلِم أن ذنوب الخاطئين لا يغفرها إلا الله تعالى ؛ فٱستغنى عن النون وردّ الفعل إلى الخطايا المغفورة .

الثامنـــة — واختلف فى أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة ؛ فقال الخليل : الأصل فى خطايا أن يقول : خطايِئ ، ثم قلب فقيل : خطائى بهمزة بعدها ياء ، ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فتقول : خطاءا ؛ فلما ٱجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جنس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث ألفات ، فأبدلت من الهمزة ياء فقلت : خطايا . وأما سيبويه فمذهبه أن الأصل مثل الأوّل خطايِئ ، ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها فى مدائن فتقول :

خطائئ ، ولا تجتمع همـزتان فى كلمة ؛ فأبدلت من الثانيـة ياء فقلت : خطائى ، ثم عملت كما عملت فى الأول . وقال الفرّاء : خطايا جمع خطية بلا همز؛ كما تقول : هديّة وهدايا . قال الفراء : ولو جمعت خطيئة مهموزة لقلت : خطاءا . وقال الكسائى : لو جمعتها مهموزة أدغمت الهمزة فى الهمزة؛ كما قلت : دواب .

التاســعة — قوله تعالى : ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى فى إحسان من لم يعبد العجل . ويقال : يغفر خطايا من رفع المنّ والسَّلْوَى للغد ، وسـنزيد فى إحسان من لم يرفع للغـد . ويقال : يغفر خطايا من هو عاص ، وسيزيد فى إحسان من هو محسن؛ أى نزيدهم إحسانا على الإحسان المتقدّم عندهم . وهو آسم فاعل من أحسن . والمحسن : من صحح عقد توحيده ، وأحسن سـياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه . وفى حديث جبريل عليه السلام : "ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال صدقت" وذكر الحديث . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

فية أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا ﴾ «الذين» فى موضع رفع؛ أى فبدّل الظالمون منهـم قولا غير الذى قيل لهم . وذلك أنه قيل لهم : قولوا حِطّة؛ فقالوا حنطة ، على ما تقدم؛ فزادوا حرفا فى الكلام فلقوا من البـلاء مالقوا؛ تعريفا أن الزيادة فى الدِّين والآبتداع فى الشريعة عظيمة الخطر شديدة الضرر . هذا فى تغيير كلمة هى عبارة عن التوبة أوجبت كل ذلك من العذاب؛ فما ظنك بتغيير ما هو من صفات المعبود! هذا والقول أنقص من العمل ، فكيف بالتبديل والتغيير فى الفعل .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ ﴾ تقدم معنى بدّل وأبدل ، وقُرئ « عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْـدِلَنَا » على الوجهين . قال الجوهرى : وأبدلت الشىء بغـيره . وبدّله الله من الخوف

أمنًا . وتبديل الشيء أيضا تغييره و إن لم يأت ببدَل . وٱستبدل الشيء بغيره ، وتبدّله به إذا أخذه مكانه . والمبادلة التبادل . والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ؛ إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر . قال ٱبن دُرَيد : الواحد بديل . والبـديل : البدل . و بدَلُ الشيء : غيره ؛ يقال : بَدَلٌ وبِدْلٌ ، لغتان ؛ مثل : شَبَه وشِبْه ، ومَثَل ومِثْل ، ونَكَل ونِكْل . قال أبو عبيد[1] : لم يُسمع فى فَعَل وفِعْل غير هذه الأربعة الأحرف . والبَدَل : وَجَع يكون فى اليدين والرجلين . وقد بَدِل (بالكسر) يَبْدَلُ بَدَلًا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ كرر لفظ «ظلموا» ولم يضمره تعظيما للأمر . والتكرير يكون على ضربين ؛ أحدهما : استعماله بعد تمام الكلام ؛ كما فى هذه الآية وقوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ » ، ثم قال بعدُ : « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ » ولم يقل : مما كتبوا . وكرر الويل تغليظا لفعلهم ؛ ومنه قول الخنساء :

تَعَـرّقنى الدهرُ نَهْسًا[2] وحَزّا * وأوجعنى الدهرُ قَرْعًا وغَمْزَا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها . والضرب الثانى : مجىء تكرير الظاهر فى موضع المضمر قبل أن يتم الكلام ؛ كقوله تعالى : «ٱلْحَاقَّةُ . مَا ٱلْحَاقَّةُ » و « ٱلقَارِعَةُ . مَا ٱلْقَارِعَةُ » كان القياس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيم : الحاقة ما هى ، والقارعة ما هى ، ومثله : «فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ» . كرر « أصحاب الميمنة» تفخيمًا لما ينيلهم من جزيل الثواب ؛ وكرر لفظ « أصحاب المشأمة » لما ينالهم من أليم العذاب . ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليتَ الغرابَ غداةَ ينعَبُ دائبًا * كان الغـرابُ مقطّع الأوداج

وقد جمع عَدِىّ بن زيد المعنيين فقال :

---

(١) فى الأصل : « أبو عبيدة » والتصويب عن اللسان وصحاح الجوهرى .

(٢) فى بعض الأصول : « نهشا » بالشين المعجمة . والنهش : أن يتناول المرء الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه . والنهس : القبض على اللحم وغيره ، أى جذبه .

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شيءٌ * نغَّص الموتُ ذا الغِنَى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاثا، وهو من الضرب الأوّل؛ ومنه قول الآخر :

ألا حبّذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ * وهندٌ أتى مِن دونها النّأْىُ والبُعْدُ

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ رِجْزًا ﴾ قراءة الجماعة «رِجْزًا» بكسر الراء، وآبن مُحَيْصن بضم الراء . والرجز : العذاب (بالزاى)، و (بالسين) : النَّتْن والقَذَر؛ ومنه قوله تعالى : «فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ؛ أى نَتْنًا إلى نَتْنهم؛ قاله الكسائى . وقال الفرّاء : الرِّجْز هو الرِّجْس . قال أبو عبيد : كما يقال السُّدْغ والزُّدْغ ، وكذا رِجْس ورِجْز بمعنًى . قال الفرّاء : وذكر بعضهم أن الرُّجْز (بالضم) : آسم صنم كانوا يعبدونه؛ وقرئ بذلك فى قوله تعالى : « والرُّجْزَ فَاهْجُرْ »[1] . والرَّجَز (بفتح الراء والجيم) : نوع من الشِّعْر؛ وأنكر الخليل أن يكون شِعرا . وهو مشتق من الرَّجَز؛ وهو داء يصيب الإبل فى أعجازها، فإذا ثارت آرتعشت أفخاذها . ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بفسقهم . والفِسْق الخروج، وقد تقدّم[2] . وقرأ آبن وَثّاب والنَّخَعِىّ : « يَفْسِقُون » بكسر السين .

قوله تعالى : وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ كُسرت الذال لآلتقاء الساكنين . والسين سين السؤال؛ مثل : آستعلم وآستخبر وآستنصر، ونحو ذلك؛ أى طلب وسأل السُّقْيَ لقومه . والعرب تقول : سقيته وأسقيته، لغتان بمعنًى؛ قال[3] :

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦٥ (٢) يراجع ص ٢٤٥ من هذا الجزء . (٣) هو لبيد (كما فى اللسان).

سقى قومى بنى مَجْدٍ وأسْـقَى * نُمَـيْراً والقبائلَ من هِـلال

وقيل : سقيتُه مِن سقِ الشَّفَة، وأسقيته دَلَلْته على المـاء .

الثانيـــة — الاستسقاء إنما يكون عند عدم المـاء وحبس القطر، وإذا كان كذلك فالحكم حينئذ إظهار العبودية والفقر والمسكنة والذِّلة مع التوبة النَّصوح . وقد استسقى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فخرج إلى المصلَّى متواضعًا متذلِّلًا متخشعًا مترسِّلًا متضرّعًا، وحسبك به ! فكيف بنا ولا توبة معنا إلا العناد ومخالفة رب العباد؛ فأنَّى نُسْقَى ! لكن قد قال صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عمر: "ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا" الحديث . وسيأتى بكماله إن شاء الله .

الثالثـــة — سُنّة الاستسقاء الخروج إلى المصلَّى — على الصفة التى ذكرنا — والخطبة والصلاة؛ وبهـذا قال جمهور العلمـاء . وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سُنّته صـلاة ولا خروج، وإنمـا هو دعاء لا غير . واحتج بحديث أنس الصحيح، أخرجه البخارىّ ومسلم . ولا حجة له فيه؛ فإن ذلك كان دعاء عُجِّلت إجابته فاكتفى به عما سواه، ولم يقصـد بذلك بيان سُنّة؛ ولمـا قصد البيان بيّن بفعـله، حسب ما رواه عبد الله بن زيد المـازنىّ قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فاستسقى وحوّل رداءه ثم صلى ركعتين . رواه مسلم . وسيأتى من أحكام الاستسقاء زيادة فى سورة « هود »[1] إن شاء الله .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾[2] العصا : معروف، وهو اسم مقصور مؤنّث وألفه منقلبة عن واو؛ قال :

* على عصويها سابِرِىٌّ مُشَبْرَقُ *[3]

---

(١) لم يذكر المصنف شيئا عن الاستسقاء فى سـورة « هود »، وإنمـا هو مذكور فى سورة « نوح » جـ ١٨ ص ٣٠٢ (٢) هو ذو الرمة . وصدر البيت : * جاءت بنسج العنكبوت كأنه *

(٣) عصويها : عرقوتى الدلو، وهما الخشبتان اللتان يعترضان على الدلو كالصليب . والسابرى : الدقيق من الثياب . والمشبرق : المخرق .

والجمع عُصِيّ وعِصِيّ ، وهو فعول ، وإنما كُسرت العين لما بعدها من الكسرة ؛ وأعْصٍ أيضا مثله ؛ مثل زَمَنٍ وأزْمُنٍ . وفى المثل : «العَصَا من العُصَيّة» أى بعض الأمر من بعض . وقولهم : « أَلْقَى عصاه » أى أقام وترك الأسفار ، وهو مَثَل . قال :

فألقتْ عصاها واستقرّ بها النَّوى * كما قَرّ عَيْنًا بالإياب المسافرُ

وفى التنزيل : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا » (١) . وهناك يأتى الكلام فى منافعها إن شاء الله تعالى . قال الفرّاء : أوّل لحن سُمع بالعراق هذه عصاتى . وقد يعبّر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ؛ ومنه يقال فى الخوارج : قد شَقُّوا عصا المسلمين ؛ أى اجتماعهم واتئلافهم . وانشقّت العصا ؛ أى وقع الخلاف ؛ قال الشاعر :

إذا كانت الهَيْجاءُ وانشقّتِ العصا * فحَسْبُكَ والضّحاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدُ

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم : لا ترفع عصاك عن أهلك ؛ يراد به الأدب . والله أعلم .

والحجر معروف ، وقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار ، وفى الكثير حِجار وحِجارة ؛ والحجارة نادر . وهو كقولنا : جَمَل وجِمالة ، وذَكَر وذِكارة ؛ كذا قال ابن فارس والجوهرى .

قلت : وفى القرآن « فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ » . « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ » . « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً » . « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ » . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً » فكيف يكون نادرا ، إلا أن يريدا أنه نادر فى القياس كثير فى الاستعمال فصيح . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فى الكلام حذف ؛ تقديره فضرب فانفجرت . وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد ؛ وليرتّب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد . والانفجار : الانشقاق ؛ ومنه انشق الفجر . وانفجر الماء انفجارا : انفتح . والفُجْرة : موضع تفجّر الماء . والانبجاس أضيق من الانفجار ؛ لأنه يكون انبجاسا ثم يصير انفجارا . وقيل : انبجس وتبجّس وتفجّر وتفتّق ، بمعنًى واحد ؛ حكاه الهَرَوِىّ وغيره .

(١) راجع جـ ١١ ص ١٨٦ .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ « اثنتا » فى موضع رفع بـ « انفجرت » وعلامة الرفع فيها الألف . وأُعربت دون نظائرها لأن التثنية معرَبة أبدا لصحة معناها . « عَيْنًا » نُصب على البيان . وقرأ مجاهد وطلحة وعيسى « عَشِرة » بكسر الشين ؛ وهى لغة بنى تميم ، وهذا من لغتهم نادر ؛ لأن سبيلهم التخفيف . ولغة أهل الحجاز « عشْرة » وسبيلهم التثقيل . قال جميعه النحاس . والعَيْن من الأسماء المشتركة ؛ يقال : عَيْنُ الماء ، وعَيْنُ الإنسان ، وعينُ الرُّكْبة[1] ، وعين الشمس . والعَيْن : سحابة تُقبل من ناحية القِبلة . والعين : مطر يدوم خمسًا أو ستًّا لا يقلع . وبلد قليل العَيْن : أى قليل الناس . وما بها عين ، محرّكة الياء[2] . والعين : الثقب فى المزادة . والعَيْنُ من الماء مُشَبّهة بالعين من الحيوان ؛ لخروج الماء منها كخروج الدمع من عين الحيوان . وقيل : لما كان عين الحيوان أشرف ما فيه ، شُبّهت به عين الماء ؛ لأنها أشرف ما فى الأرض .

السادســـة : لما استسقى موسى عليه السلام لقومه أمر أن يضرب عند استسقائه بعصاه حجرا ؛ قيل : مربّعًا طُورِيًّا (من الطور) على قدر رأس الشاة يلقى فى كسر جُوالق ويُرحل به ؛ فإذا نزلوا وُضع فى وسط محلّتهم . وذُكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه فى كل مرحلة فى منزلته من المرحلة الأولى ؛ وهـذا أعظم فى الآية والإعجاز . وقيل : إنه أطلق له آسم الحجر ليضرب موسى أىّ حجر شاء ؛ وهذا أبلغ فى الإعجاز . وقيل : إن الله تعالى أمره أن يضرب حجراً بعينه بيّنه لموسى عليه السلام ؛ ولذلك ذكر بلفظ التعريف . قال سعيد بن جُبير : هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل ، وفر بثوبه حتى برّأه الله مما رماه به قومه . قال ابن عطية : ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربّعًا ، تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ، وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفّت العيون .

---

(١) كذا فى بعض نسخ الأصل . وعين الركبة (براء مضمومة وباء موحدة) : نقرة فى مقدمها عند الساق ، ولكل ركبة عينان ؛ على التشبيه بنقرة العين الحاسة . وفى البعض الآخر : « عين الركبة » (براء مفتوحة وياء مثناة من تحت) وهى مفجر ماء البئر ومنبعها .

(٢) الذى فى القاموس أن الياء تحرك وتسكن فى العين بهذا المعنى .

قلت : ما أوتى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم فى المعجزة ؛ فإنا نشاهد الماء يتفجّر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار ؛ ومعجزة نبيّنا عليه السلام لم تكن لنبيّ قبل نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، يخرج الماء من بين لحم ودم ! . روى الأئمة الثّقات والفقهاء الأثبات عن عبد الله قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم نجد ماء فأتِيَ بتَوْر[1] فأدخل يده فيه ؛ فلقد رأيت الماء يتفجّر من بين أصابعه ويقول : " حيّ على الطّهور " . قال الأعمش : فحدّثنى سالم بن أبى الجَعْد قال قلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : ألفا وخمسمائة . لفظ النسائى .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ يعنى أن لكل سِبْط منهم عيناً قد عرفها لا يشرب من غيرها . والمَشْرَب : موضع الشرب . وقيل : المشروب . والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، وهم ذُرّية الاثنى عشر أولاد يعقوب عليه السلام ؛ وكان لكل سِبْط عَيْنٌ من تلك العيون لا يتعدّاها . قال عطاء : كان للحَجَر أربعة أوجه ، يخرج من كل وجه ثلاث أعين ؛ لكل سِبط عَين لا يخالطهم سواهم . وبلغنا أنه كان فى كل سبط خمسون ألف مقاتل سوى خيلهم ودوابهم . قال عطاء : كان يظهر على كل موضع من ضربة موسى مثل ثدى المرأة على الحجر فيعرق أوّلا ثم يسيل .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ فى الكلام حذف تقديره وقلنا لهم كلوا المنّ والسلوى ، واشربوا الماء المتفجّر من الحجر المنفصل . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا ﴾ أى لا تفسدوا . والعيث : شدّة الفساد ؛ نهاهم عن ذلك . يقال : عَثِيَ يَعْثَى عُثِيًّا ، وعثا يَعْثُو عُثُوًّا ، وعاث يَعِيث عَيْثًا وعُيُوثًا ومَعَاثًا ؛ والأوّل لغة القرآن . ويقال : عَثّ يَعُثّ فى المضاعف : أفسد ؛ ومنه العُثّة ، وهى السُّوسة التى تَلْحَس الصّوف . و ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ حال ؛ وتكرر المعنى تأكيدا لاختلاف اللفظ . وفى هذه الكلمات إباحة النعم وتعدادها ، والتقدّم فى المعاصى والنهى عنها .

---

(١) التور (بالتاء المثناة) : إناء من صُفْر أو حجارة يشرب منه أو يتوضأ .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴾ كان هذا القول منهم فى التيه حين مَلُّوا المنّ والسَّلْوَى ، وتذكّروا عيشهم الأول بمصر . قال الحسن : كانوا نَتَانَى أهل كُرّاث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عِكْرِهم (١) عِكرِ السّوء ، وآشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا : لن نصبر على طعام واحد . وكنوا عن المنّ والسلوى بطعام واحد وهما آثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر ؛ فلذلك قالوا : طعام واحد . وقيل : لتكرارهما فى كل يوم غذاء ؛ كما تقول لمن يداوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد ؛ لملازمته لذلك . وقيل : المعنى لن نصبر على الغنى فيكون جميعنا أغنياء فلا يقدر بعضنا على الآستعانة ببعض ؛ لآستغناء كل واحد منّا بنفسه . وكذلك كانوا ؛ فهم أوّل من آتخذ العبيد والخَدَم .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى طَعَامٍ ﴾ الطعام يُطلق على ما يُطعم ويُشرب ؛ قال الله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى » وقال : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا » (٢) أى ما شربوه من الخمر ، على ما يأتى بيانه . وإن كان السلوى العسل — كما حكى المؤرّج — فهو مشروب أيضا . وربما خُصّ بالطعام البُرُّ والتمرُ ، كما فى حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ قال : كنا نُخرج صدقةَ الفطر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعام أو صاعا من

(١) العكر (بكسر أوله وسكون ثانيه) : الأصل . وقيل : العادة والديدن . و العكر (بالتحريك) : دُرْدِىّ كل شىء .

(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٩٣ .

شعير ؛ الحديث . والعرف جارٍ بأن القائل : ذهبت إلى سـوق الطعام، فليس يفهم منه إلا موضع بيعه دون غيره مما يؤكل أو يُشرب . والطَّعْم (بالفتح) : هو ما يؤدّيه الذوق؛ يقال : طعمه مرّ . والطَّعْم أيضا : ما يشتهى منه ؛ يقال : ليس له طعم . وما فلان بذى طعم : إذا كان غثًّا . والطُّعم (بالضم) : الطعام؛ قال أبو خِراش :

أُرِدّ شُجاعَ البطن لو تعلمينه (١) * وأُوثِرُ غيرى من عِيالِكِ بالطُّعْمِ

وأغتبِـق الماء القَـرَاحَ فأنتهى * إذا الزادُ أمسى للمُزَجَّجِ (٢) ذا طَعْـمِ

أراد بالأوّل الطعام، وبالثانى ما يُشتهى منه . وقد طَعِم يَطْعَمُ فهو طاعم إذا أكل وذاق؛ ومنه قوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّه مِنِّى » أى من لم يذقه . وقال : « فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا » أى أكلتم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمزم : " إنها طَعامُ طُعْمٍ وشِفاءُ سُـقْمٍ (٣) " . وآستطعمنى فلان الحديث إذا أراد أن تحدّثه . وفى الحديث : " إذا آستطعمكم الإمامُ فأطعموه " . يقول : إذا آستفتح فافتحوا عليه . وفلان ما يَطْعَم النوم إلا قائما . وقال الشـاعر :

تعامًا بوَجْرَةَ صُفر الخدو * د ما تَطْعَمِ النومَ إلا صِيامًا (٤)

قوله تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ لغة بنى عامر «فادِع» بكسر العين لالتقاء الساكنين؛ يُجرون المعتل مجرى الصحيح ولا يراعون المحـذوف . و« يُخْرِجْ » مجزوم على معنى سَلْه وقل له : أَخْرِجْ، يُخْرِج . وقيل : هو على معنى الدعاء على تقدير حذف

(١) فى ديوان الهذليين واللسان مادّة (طعم) : « قد تعلمينه » . (٢) المزجّج : من معانيه البخيل . والمزق بالقوم وليس منهم . وكلاهما محتمل . (٣) أى يشبع الإنسان إذا شرب ماءها كما يشبع من الطعام .

(٤) كذا فى نسخ الأصل . ووجرة (بفتح فسكون) : موضع بين مكة والبصرة . والذى فى كتب اللغة ومعاجم البلدان :

تعاما بخطمة صعر الخـدو * د لا تطعم الماء إلا صياما

وقبله : فأما بنـــو عامر بالنسار * غداة لقونا فكانوا نعـاما

وهو لبشر بن أبى خازم . وخطمة (بفتح فسكون) : موضع أعلى المدينة . وفى اللسان بعد البيت : « يقول : هى صائمة منه لا تطعمه ؛ قال : وذلك لأن النعام لا ترد الماء، ولا تطعمه » .

اللام ، وضعّفه الزجاج . و « مِن » ، فى قوله « مِمّـا » زائدة فى قول الأخفش ، وغير زائدة فى قول سيبويه ؛ لأن الكلام موجب . قال النحاس : وإنمـا دعا الأخفش إلى هذا لأنه لم يجد مفعولا لـ « يُخرِج » فأراد أن يجعل « ما » مفعولا . والأوْلى أن يكون المفعول محذوفا دلّ عليه سائر الكلام ؛ التقدير : يخرج لنا ممـا تُنبت الأرض مأكولا . فـ « مِن » الأولى على هذا للتبعيض ، والثانية للتخصيص . و ﴿ مِنْ بَقْلِهَا ﴾ بدل من « ما » بإعادة الحرف . ﴿ وَقِثَّائِهَا ﴾ عطف عليه ، وكذا ما بعده ؛ فاعلمه . والبَقْلُ معروف ، وهو كل نبات ليس له ساق . والشجر : ما له سـاق . والقِثّاء أيضا معـروف ، وقد تُضمّ قافه ، وهى قراءة يحيى بن وَثّاب وطلحة ابن مُصَرِّف ، لغتان والكسر أكثر . وقيل فى جمع قِثّاء : قَثَائِىّ ؛ مثلُ عِلْبَاء وعَلَابِىّ ؛ إلا أن قثاء من ذوات الواو ؛ تقول : أقثأتُ القوم ؛ أى أطعمتهم ذلك .

[وفَثَأْتُ(١) القِدْرَ سكّنت غليانها بالمـاء ؛ قال الجَعْدِىّ :

تَفُور علينا قِدْرُهم فنُدِيمُهَا * ونَفْثَؤُها عنّا إذا حَمِيُهَا غلا

وفثأتُ الرجل إذا كسرتَه عنك بقول أو غيره وسكّنت غضبه . وعدا حتى أفثأ ؛ أى أعْيَا وآنهر . وأفثأ الحَـرُّ أى سكن وفتر . ومن أمثالهم فى اليسير من البِرّ قولهم : إنّ الرَّثِيئـة تفثأ فى الغضب » . وأصله أن رجلا كان غَضِب على قوم وكان مع غضبه جائعا ، فسَقَوْه رَثِيئة فسكن غضبه وكفّ عنهم . الرثيئة : اللبن المحلوب على الحامض ليَخْثُر . رَثَأْت اللبن رَثْأً إذا حلبته على حامض فخثُر ، والاسم الرَّثيئة . وآرتثأ اللبن خثر] .

وروى آبن ماجه حدّثنا محمـد بن عبـد الله بن نمير حدّثنا يونس بن بُكير حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : كانت أمّى تعالجنى للسِّمْنة ، تريد أن تُدخلنى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فـما آستقام لها ذلك حتى أكلت القِثّاء بالرُّطَب فسَمِنتُ كأحسن سِمْنة . وهذا إسناد صحيح .

---

(١) الكلام الموضوع بين المربعين نقله المؤلف من معاجم اللغة سهوا على أنه من مادة « قثأ » بالقاف ؛ والواقع أنه من مادة « فثأ » بالفاء .

قوله تعالى : ﴿وَفُومِهَا﴾ اختلف فى الفُوم، فقيل : هو الثُّوم؛ لأنه المشاكل للبصل . رواه جُوَيْبِر عن الضحاك . والثاء تبدل من الفاء، كما قالوا : مغافير ومغاثير[1] . وجَدَثٌ وجَدَفٌ؛ للقبر . وقرأ آبن مسعود « ثومها » بالثاء المثلثة ؛ وروى ذلك عن آبن عباس . وقال أُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَرَادِيسُ والفُومَانُ والبَصَلُ

الفراديس : واحدها فرديس . وكَرْم مُفَرْدَس؛ أى معرّش .

وقال حسّان :

وأنتم أناسٌ لئامُ الأصول * طعامُكُمُ الفُومُ والحَوْقَلُ

يعنى الثوم والبصل ؛ وهو قول الكسائى والنّضر بن شُمَيل . وقيل : الفُوم الحنطة؛ روى عن آبن عباس أيضا وأكثر المفسرين ؛ وآختاره النحاس، قال : وهو أَوْلى، ومن قال به أعلى ، وأسانيده صحاح ؛ وليس جُوَيْبر بنظير لرُوايته ؛ وإن كان الكسائى والفراء قد آختارا القول الأوّل، لإبدال العرب الفاء من الثاء ؛ والإبدال لا يقاس عليه؛ وليس ذلك بكثير فى كلام العرب . وأنشد آبن عباس لمن سأله عن الفوم وأنه الحنطة، قول أُحَيْحَة بن الجُلَاح :

قد كنتُ أغنَى الناسِ شخصًا واحدًا * ورَدَ المدينةَ عن زراعة فُومِ

وقال أبو إسحاق الزجاج : وكيف يطلب القوم طعامًا لا بُرّ فيه، والبرّ أصل الغذاء ! .

وقال الجوهرى أبو نصر : الفوم الحنطة . وأنشد الأخفش :

قد كنت أحسبنى كأغنى واجد * نزل المدينة عن زراعة فُومِ[2]

وقال آبن دُرَيد : الفُومة السُّنْبلة ؛ وأنشد :

وقال رَبِيئهم[3] لمّا أتانا * بِكَفّهِ فومةٌ أو فُومتان

---

(١) المغافير : قيل : هو صمغ يسيل من شجر العرفط رائحته ليست بطيبة .

(٢) فى الأغانى (جـ ٢١ ص ٢١١) طبع أوربا : « عن زراعة فول » . وقبل البيت :

ولقد نظرت إلى الشموس ودونها * حرج من الرحمن غير قليل

وعلى هذا فالقافية لامية . (٣) فى بعض الأصول : « وقال رئيسهم » . الربى . (ومثله الربيئة) : العين والطليعة الذى ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو ، ولا يكون إلا على جبل أو شرف ينظر منه .

والهـاء فى « كَفّه » غير مشبعة . وقال بعضهم : الفُوم : الحِمّص ؛ لغةٌ شاميّة . و بائعه فامىّ ، مغيَّر عن فُومىّ ؛ لأنهم قد يغيّرون فى النسب ؛ كما قالوا : سُهْلِىّ ودُهْرِىّ . ويقال : فَوِّموا لنا ؛ أى آختبزوا . قال الفرّاء : هى لغة قديمة . وقال عطاء وقتادة : الفُوم كل حب يُخْتَـبز .

مسئلة — آختلف العلماء فى أكل البصل والثوم وما له رائحة كريهة من سائر البقول . فذهب جمهور العلماء إلى إباحة ذلك ؛ للا حاديث الثابتة فى ذلك . وذهبت طائفة من أهل الظاهر — القائلين بوجوب الصلاة فى الجماعة فرضًا — إلى المنع ، وقالوا : كل ما مَنَع من إتيان الفرض والقيام به فحرام عمله والتشاغل به . وآحتجّوا بأن رسـول الله صلى الله عليه وسلم سمّاها خبيثة ؛ والله عز وجل قد وصف نبيّـه عليه السلام بأنه يحرّم الخبائث . ومن الحجـة للجمهور ما ثبت عن جابر أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أُتِىَ ببَدْر[1] فيه خَضِرات من بقول فوجد لها ريحا ؛ قال : فأخْبِر بما فيها من البقول ؛ فقال : "قرّبوها" — إلى بعض أصحابه كان معه — فلما رآه كره أكلها ، قال : "كُلْ فإنّى أُناجِى مَن لا تُناجِى" . أخرجه مسلم وأبو داود . فهذا بيّنٌ فى الخصوص له والإباحة لغيره . وفى صحيح مسلم أيضا عن أبى أيوب أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل على أبى أيوب ، فصنع للنبىّ صلى الله عليه وسلم طعاما فيه ثُوم ، فلما رُدّ إليه سأل عن موضع أصابع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقيل له : لم يأكل . ففزع وصعد إليه فقال : أحرامٌ هو ؟ قال النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "لا ولكنى أكْرَهُه" . قال : فإنى أكره ما تكره أو ما كرهت ، قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى (يعنى يأتيه الوحى) . فهذا نصّ على عدم التحريم . وكذلك ما رواه أبو سـعيد الخُدْرِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثّوم زمنَ خَيْبَر وفتحها : "أيها الناس إنه ليس لى تحـريمُ ما أحلّ الله ولكنها شجـرة أكره ريحها" . فهـذه الأحاديث تُشـعر بأن الحكم خاصّ به ، إذ هو المخصوص بمناجاة المَلَك . لكن قد علمنا هذا الحكم فى حديث جابر بمـا يقتضى التسوية بينه و بين غيره فى هذا الحكم حيث قال : "من أكل من هـذه البقلةِ الثـومِ — وقال مرة : من أكل البصل والثـوم

(١) فى الأصول : « بقدر » . والتصويب عن سنن أبى داود . يعنى بالبدر الطبق ؛ شبه بالبدر لاستدارته .

والكُرّاث — فلا يَقْرَبَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذّى مما يتأذّى منه بنو آدم" . وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى حديث فيه طُول : إنكم أيها الناس ، تأكلون شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين ، هـذا البصل والثوم . ولقد رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم إذا وجد ريحهما من الرجل فى المسـجد أمر به فأُخرِج إلى البَقيـع ، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهما طبخا . خرّجه مسلم .

قوله تعالى : ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ العدس معروف . والعَدَسَةُ : بَثْرَةٌ تخرج بالإنسان ، وربما قتلت . وعَدَسٌ : زَجْرٌ للبغال ؛ قال :

عَدَسْ ما لِعَبّادٍ عليـكِ إمارةٌ * نَجَوْتِ وهـذا تحملين طَلِيق (١)

والعَـدْس : شـدّة الوطء ، والكَدْح أيضا ؛ يقال : عَدَسَـه . وعَدَسَ فى الأرض : ذهب فيها . وعَدَستْ إليه المنيّة أى سارت ؛ قال الكُمَيْت :

أُكَلِّفها هَوْلَ الظـلامِ ولم أزَلْ * أخا الليـلِ مَعْدوسًا إلىّ وعادِسَا

أى يُسار إلىّ بالليل . وعَدَسٌ : لغة فى حَدَس ؛ قاله الجوهرى . ويؤثَر عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم من حديث علىّ أنه قال : "عليكم بالعـدس فإنه مبارَك مقـدّس وإنه يَرِقّ القلب ويكثر الدَّمعة فإنه بارك فيه سبعون نبيًّا آخرهم عيسى بن مريم" ؛ ذكره الثعلبى وغيره . وكان عمر بن عبد العزيز يأكل يوما خبزا بزيت ، ويوما بلحم (٢) ، ويوما بعدس . قال الحَلِيمىّ : والعـدس والزيت طعام الصالحين ؛ ولو لم يكن له فضـيلة إلا أنه ضيافة إبراهيم عليه السلام فى مدينته لا تخلو منه لكان فيه كفاية . وهو مما يخفّف البدن فيخِفّ للعبادة ، ولا تثور منه الشهوات كما تثور من اللحم . والحِنْطة من جملة الحبوب وهى الفُوم على الصحيح ، والشـعير قريب منها وكان طعام أهل المدينـة ، كما كان العدس من طعام قرية إبراهيم عليه السلام ؛ فصار لكل واحد من الحبتين بأحد النبيين عليهما السلام فضيلة . وقد روى أن النبىّ صلى الله

(١) البيت لزيد بن مفرغ . (٢) فى بعض نسخ الأصل : « بملح » .

عليـه وسلم لم يَشْبع هو وأهله من خُبْزِ بُرٍّ ثلاثة أيام متتابعة منذ قدِم المدينة إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ الاستبدال : وضع الشيء موضع الآخر ، ومنه البدل ، وقد تقدّم . و « أدْنَى » مأخوذ — عند الزجاج — من الدُّنُوّ أى القُرْب فى القيمة ، من قولهم : ثَوْبٌ مقارِب ، أى قليل الثمن . وقال علىّ بن سليمان : هو مهموز من الدنىء البيّن الدناءة بمعنى الأخس ، إلا أنه خفّف همزته . وقيل : هو مأخوذ من الدُّون أى الأحط ، فأصله أَدْوَن ، أفْعَل ، قُلِب فجاء أفْلَع ، وحُوّلت الواو ألفا لتطرُّفها . وقُرِئ فى الشّواذّ « أدنى »[1] . ومعنى الآية : أتستبدلون البَقْل والقِثّاء والفُومَ والعَدَس والبَصل الذى هو أدنى بالمنّ والسَّلْوَى الذى هو خير .

واختُلِف فى الوجوه التى توجب فضل المنّ والسَّلْوَى على الشيء الذى طلبوه وهى خمسة :

الأول — أن البقول لما كانت لا خطر لها بالنسبة إلى المنّ والسلوى كانا أفضل ، قاله الزجاج .

الثانى — لمّا كان المنّ والسلوى طعاما منّ الله به عليهم وأمرهم بأكله وكان فى استدامة أمر الله وشكر نعمته أجر وذُخْرٌ فى الآخرة ، والذى طلبوه عارٍ من هـذه الخصائل ، كان أدنى فى هذا الوجه .

الثالث — لمّا كان ما منّ الله به عليهم أطيب وألذّ من الذى سألوه ، كان ما سألوه أدنى من هذا الوجه لا محالة .

الرابـع — لمّا كان ما أُعْطُوا لا كُلْفَةَ فيه ولا تعب ، والذى طلبوه لا يجىء إلا بالحرث والزراعة والتعب ، كان أدنى .

الخامس — لمّا كان ما ينزل عليهم لا مِرْيَةَ فى حِلّه وخُلوصـه لنزوله من عند الله ، والحبـوب والأرض يتخلّلها البيوع والغصوب وتدخلها الشُّبه ، كانت أدنى من هذا الوجه .

(١) كذا فى نسخ الأصل . والذى فى كتب الشواذ : « أدنأ بالهمز » وهى قراءة زهير الفرقبى » .

مسئلة ـــ فى هـذه الآية دليلٌ على جـواز أكل الطيّبات والمطاعم المستلذّات ، وكان النبيّ صلى الله عليه وسـلّم يحبّ الحَلْوى والعَسَـل ، ويشرب المـاء البارد العَذْب ؛ وسيأتى هذا المعنى فى « المـائدة »(١) و « النحل »(٢) إن شاء الله مستوفًى .

قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾(٣) تقدّم معنى الهبوط ؛ وهذا أمر معناه التعجيز ؛ كقوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا » . لأنهم كانوا فى التّيه وهذا عقوبة لهم . وقيل : إنهم أُعطوا ما طلبوه . و « مِصْرًا » بالتنوين منكّرًا قراءة الجمهور ، وهو خطّ المصحف . قال مجاهد وغيره : فمن صَرَفها أراد مِصْرًا من الأمصار غير معيَّن . وروى عكرمة عن ابن عباس فى قوله : « اهْبِطُوا مِصْرًا » قال : مِصْرًا من هـذه الأمصار . وقالت طائفة ممن صَرَفها أيضا : أراد مِصْرَ فرعون بعينها . استدلّ الأوّلون بما اقتضاه ظاهر القرآن من أمرهم دخول القرية ، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعـد التّيه . واستدلّ الآخرون بما فى القـرآن من أن الله أورث بنى إسرائيل ديار آل فرعون وآثارهم ، وأجازوا صرفها . قال الأخفش والكسائى : خفّتها وشبهها بِهِنْد ودَعْد ؛ وأنشد :

لم تَتَلَفَّعْ بفضـــل مِئْزرها * دَعْدٌ ولم تُسْقَ دَعْدُ فى العُلَبِ(٤)

بجمع بين اللغتين . وسيبويه والخليل والفرّاء لا يجيزون هـذا ؛ لأنك لو سمّيت امرأة بزيد لم تصرف . وقال غير الأخفش : أراد المكان فصَرَف . وقرأ الحسن وأبان بن تغْلِب وطلحة : « مِصْرَ » بترك الصرف . وكذلك هى فى مصحف أُبَيّ بن كعب وقراءة ابن مسعود . وقالوا : هى مصر فرعون . قال أشهب قال لى مالك : هى عندى مصر قريتك مسكن فرعون ؛ ذكره ابن عطية . والمِصر أصله فى اللغة الحدّ . ومِصر الدّار : حدودها . قال ابن فارس ويقال : إن أهل هَجَر يكتبون فى شروطهم «اشترى فلان الدار بمُصُورها» أى حدودها ؛ قال عَدِيّ :

وجاعلُ الشمسِ مصراً لا خفاءَ به * بين النهار وبين الليـل قد فَصَـلاَ

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٣ . (٢) راجع جـ ١٠ ص ١٣٦ . (٣) راجع ص ٣١٩ .

(٤) البيت لجرير . والعلب : أقداح من جلود يحلب فيها اللبن ويشرب . يقول هى حضرية رقيقة العيش لا تلبس لبس الأعراب ولا تتغذى غذاءهم . (شرح الشواهد) .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ «ما» نصب بإن . وقرأ ابن وثّاب والنَّخَعِيّ «سِألتم» بكسر السين ؛ يقال : سألت وسلت بغير همز . وهو من ذوات الواو ، بدليل قولهم : يتساولان . ومعنى ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى أُلزِموهما وقُضِىَ عليهم بهما ؛ مأخوذ من ضرب القباب ، قال الفرزدق فى جرير :

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنَسْجها * وقضَى عليك به الكتابُ المُنْزَلُ

وضرب الحاكم على اليد ؛ أى حمل وألزم . والذِّلّة : الذُّل والصَّغار . والمسكنة : الفقر . فلا يوجد يهودىّ وإن كان غَنِيًّا خاليًا من زِىّ الفقر وخضوعه ومهانته . وقيل : الذلة فرض الجزية ؛ عن الحسن وقتادة . والمسكنة الخضوع ، وهى مأخوذة من السكون ؛ أى قلّل الفقر حركته ؛ قاله الزجاج . وقال أبو عبيدة : الذِّلة الصَّغار . والمسكنة مصدر المسكين . وروى الضّحاك بن مُزاحم عن ابن عباس : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ والمسكنةُ » قال : هم أصحاب القَبَالات (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَبَاءُوا ﴾ أى انقلبوا ورجعوا ؛ أى لزمهم ذلك . ومنه قوله عليه السلام فى دعائه ومناجاته : "أَبُوءُ بنعمتك علىّ" أى أُقِرّ بها وألزمها نفسى . وأصله فى اللغة الرجوع ؛ يقال باء بكذا ، أى رجع به . وباء إلى المَبَاءة — وهى المنزل — أى رجع . والبواء : الرجوع بالقَوَد . وهم فى هذا الأمر بَوَاء ؛ أى سواء ، يرجعون فيه إلى معنًى واحد . وقال الشاعر (٢) :

ألَا تَنْتَهِى عنّا ملوكٌ وتتّقِى * محارِمَنا لا يَبْؤُؤُ الدّمُ بالدّمِ

أى لا يرجع الدّم بالدم فى القَوَد . وقال :

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايَا * وأُبْنَا بالملوكِ مُصَفَّدِينَا (٣)

أى رجعوا ورجعنا . وقد تقدّم معنى الغضب فى الفاتحة (٤) .

---

(١) فى تفسير ابن كثير : « ..... القبالات يعنى الجزية » . (٢) هو جابر بن جبير النغلبى (عن شرح الشواهد) . (٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم النغلبى ، ولا شاهد فيه ، إذ الرواية فيه : «فآبوا ... وأبنا» ومادة «آب» غير مادة «باء» وإن كان معنى المادتين واحدا . (٤) راجع ص ١٤٩ .

قوله تعـالى : ﴿ذَلِكَ﴾ «ذلك» تعليل. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى يكذّبون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى بكتابه ومعجزات أنبيائه؛ كعيسى ويحيى وزكريا ومحمد عليهم السلام. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ معطوف على « يكفرون » . ورُوِىَ عن الحسن « يُقَتِّلُون » وعنه أيضا كالجماعة . وقرأ نافع « النَّبِيئين » بالهمز حيث وقع فى القرآن إلا فى موضعين : فى سورة الأحزاب : « إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ »[1] . و « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا » فإنه قرأ بلا مَدّ ولا همز . وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين . وتَرَكَ الهمزَ فى جميع ذلك الباقون . فأمّا من همز فهو عنده من أنبأ إذا أخبر؛ وآسم فاعله مُنْبِئ . ويجمع نبىء أنبياء، وقد جاء فى جمع نبىّ نُبآء؛ قال العباس بن مِرْدَاس السُّلَمىّ يمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم :

يا خاتَمَ النُّبَآءِ إنك مُرْسَـلٌ * بالحق كلُّ هُدَى السبيلِ هُدَاكَا

هذا معنى قراءة الهمز . وآختلف القائلون بترك الهمز؛ فمنهم من آشتق آشتقاق من همز، ثم سهّل الهمز . ومنهـم من قال : هو مشتق من نَبَـا يَنْبُـو إذا ظهر . فالنبىّ من النبوّة وهو الآرتفاع؛ فمنزلة النبىّ رفيعة . والنبىّ بترك الهمز أيضا الطريق، فسُمِّىَ الرسول نَبِيًّا لآهتداء الخلق به كالطريق؛ قال الشاعر[2] :

لَأصبح رَثْمًا دُقاق الحَصَى * مكانَ النَّبِيِّ من الكاثِبِ

رَثَمْت الشىء : كسرته؛ يقال : رثم أنفه ورثمه، بالثاء والثـاء جميعا . والرثم أيضا المرثوم أى المكسور . والكاثب آسم جبل . فالأنبياء لنـا كالسُّبُل فى الأرض . ويروى أن رجلا قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : السلام عليك يانبىء الله؛ وهمز . فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "لستُ بنبىء الله — وهمز — ولكنى نبىّ الله" ولم يهمز . قال أبو علىّ : ضُعِّف سند هذا الحديث؛ ومما يقوّى ضعفه أنه عليه السلام قد أنشده المـادح : * ياخاتَمَ النُّبَآء ... * ولم يُؤْثَر فى ذلك إنكار .

---

(١) جـ ١٤ ص ٢١٠ وص ٢٢٣

(٢) هو أوس بن حجر (كما فى اللسان) .

قوله تعـالى : ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ تعظيم للشُّنْعة والذنب الذى أتوه .

فإن قيل : هذا دليل على أنه قد يصح أن يُقتلوا بالحق ؛ ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يُقتلون به . قيل له : ليس كذلك ؛ وإنما خرج هـذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظُلم وليس بحق ؛ فكان هـذا تعظيما للشُّنْعة عليهم ؛ ومعلوم أنه لا يُقتل نبىّ بحق ، ولكن يُقتل على الحق ؛ فصرّح قوله : « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » عن شُنعة الذنب ووضوحه ؛ ولم يأت نبىّ قط بشىء يوجب قتله .

فإن قيل : كيف جاز أن يخلّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل : ذلك كرامة لهم وزيادة فى منازلهم ؛ كمثل من يُقتل فى سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم . قال ابن عباس والحسن : لم يُقتل نبىّ قط من الأنبيـاء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكلّ من أمر بقتال نُصر .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ «ذلك» ردّ على الأول وتأكيد للإشارة إليه . والباء فى « بما » باء السبب . قال الأخفش : أى بعصيانهم . والعصيان : خلاف الطاعة . واعتصتِ النّواةُ إذا اشـتدّت . والاعتداء : تجاوز الحـدّ فى كل شىء ؛ وعُرف فى الظلم والمعـاصى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فيه ثمانى مسائل :

الأولى — قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا) أى صـدّقوا بمحمد صلى الله عليه وسـلم . وقال سُـفيان : المراد المنافقون . كأنه قال : الذين آمنوا فى ظاهر أمرهم ؛ فلذلك قَرَنهم باليهود والنصارى والصابئين ، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ هَادُوا) معناه صاروا يهودا ؛ نُسِبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليـه السلام ؛ فقلبت العرب الذال دالا ؛ لأن الأعجمية إذا عُرِّبت غُيِّرت

عن لفظها . وقيل : سُمّوا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل . هاد : تاب . والهائد : التائب ؛ قال الشاعر :

* إنى امرؤ من حُبّه هائِدُ *

أى تائب . وفى التنزيل : « إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ » أى تُبْنَا . وهاد القوم يهودون هَوْدًا وهيادة إذا تابوا . وقال ابن عرفة : « هُدْنَا إليك » أى سكنّا إلى أمرك . والهوادة السكون والموادعة . قال : ومنه قوله تعالى : « إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا » . وقرأ أبو السَّمّال : « هادَوْا » بفتح الدال .

الثالثة — قوله تعالى : (وَالنَّصَارَى) جمع ، واحده نَصْرانىّ . وقيل : نَصْرَان بإسقاط الياء ؛ وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة ؛ كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرّف بالألف واللام ؛ قال الشاعر[1] :

صدّتْ كما صدّ عمّا لا يَحِلّ له * ساقِى نَصارَى قُبيل الفِصْح صُوّامِ[2]

فوصفه بالنكرة . وقال الخليل : واحد النصارى نَصْرىّ ؛ كمَهْرِىّ ومَهارَى . وأنشد سيبويه شاهدًا على قوله :

تــراه إذا دار العِشَــا مُتَحَنِّفًا * ويُضْحى لديه وهو نَصْرانُ شامِس

وأنشــد :

فكلتاهما خَرّتْ وأسجد رأسُها * كما أسجدتْ نَصرانةٌ لم تَحَنَّفِ[3]

يقال : أسجد إذا مال . ولكن لا يستعمل نَصران ونَصرانة إلا بياءى النسب ؛ لأنهم قالوا : رجل نصرانىّ وامرأة نصرانية . ونَصّره : جعله نَصرانيًّا . وفى الحديث : " فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنَصّرانِه " . وقال عليه السلام : " لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يَهُودىّ ولا نَصرانىّ

(١) هو النمر بن تولب . يصف ناقة عرض عليها الماء فعافته . (٢) فى نسخ الأصل : « الصبح » بالباء . والتصويب عن كتاب سيبويه . والفصح . فطر النصارى ، وهو عيدهم . (٣) البيت لأبى الأخزر الحمانى ، يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء . فشبه رأس الناقة برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . (عن شرح القاموس واللسان) .

ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النـار " . وقد جاءت جموع على غير ما يستعمل واحدها ؛ وقياسـه النصرانيون . ثم قيل : سُمُّوا بذلك لقرية تسمّى « ناصِرة » كان ينزلها عيسى عليه السلام فنُسِب إليها فقيل : عيسى الناصرى ؛ فلما نُسب أصحابه إليـه قيـل النصارى ؛ قاله آبن عباس وقتادة . وقال الجـوهرى : ونصران قرية بالشام يُنسب إليها النصارى ، ويقال ناصرة . وقيل : سُمُّوا بذلك لنُصرة بعضهم بعضا ؛ قال الشاعر :

لمـا رأيتُ نَبَطًا أنصـارَا * شَمَّـرت عن رُكبتَىَ الإزارا

* كنتُ لهم من النصارى جارا *

وقيل : سُمُّوا بذلك لقوله : « مَنْ أنْصارِى إلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ » .

الرابعـة — قوله تعـالى : (والصَّابِئِينَ) جمـع صابئ ، وقيل : صابٍ ؛ ولذلك آختلفوا فى همزه ، وهمزه الجمهور إلا نافعا . فمن همزه جعله من صَبأتِ النّجوم إذا طلعت ، وصَبَأتْ ثَنِيّةُ الغلامِ إذا خرجت . ومن لم يهمز جعـله من صبا يصبو إذا مال . فالصابئ فى اللغة : من خرج ومال من دين إلى دين ؛ ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ . فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب .

الخامســة — لاخلاف فى أن اليهود والنصارى أهل كتاب ولأجل كتابهم جاز نكاحُ نسائهم وأكلُ طعامهم — على مايأتى بيانه فى المـائدة[1] — وضَرْبُ الجزْية عليهم ؛ على مايأتى فى سورة « براءة »[2] إن شـاء الله . وآختُلف فى الصابئين ؛ فقال السُّدّى : هم فرقة من أهل الكتاب ، وقاله إسحاق بن رَاهَوَيْه . قال آبن المنذر وقال إسحاق : لابأس بذبائح الصابئين لأنهم طائفة من أهل الكتاب . وقال أبو حنيفة : لابأس بذبائحهم ومناكحة نسائهم . وقال الخليل : هم قوم يُشْبه دينُهم دين النصارى ، إلا أن قبلتهم نحو مهبّ الجنوب ؛ يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وقال مجاهد والحسن وآبن أبى نَجِيح : هم قوم تركّب دينهم بين اليهودية والمجوسيّة ، لا تؤكل ذبائحهم . آبن عباس : ولا تنكح نساؤهم . وقال الحسن أيضا وقتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلّون إلى القبلة ويقرءون الزّبور ويصلّون الخمس ؛ زاد

(١) راجع جـ ٦ ص ٧٦ . (٢) راجع جـ ٨ ص ١١٠ .

آبن أبى سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حين عرف أنهم يعبدون الملائكة . والذى تحصّل من مذهبهم — فيما ذكره بعض علمائنا — أنهم مُوَحّدون معتقِدون تأثير النجوم وأنها فعالة ؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإصْطَخْرِىّ القادرَ بالله بكفرهم حين سأله عنهم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ ﴾ أى صدّق . و « مَن » فى قوله : « مَنْ آمَنَ » فى موضع نصب بدل من « الذين » . والفاء فى قوله « فَلَهُمْ » داخلة بسبب الإبهام الذى فى « مَن » . و « لَهُمْ أَجْرُهُمْ » آبتـداء وخبر فى موضع خبر إنّ . ويحسن أن يكون «من» فى موضع رفع بالآبتداء، ومعناها الشرط . و « آمن» فى موضع جزم بالشرط، والفاء الجواب . و « لهم أجرهم » خبر « من »، والجملة كلها خبر « إنّ » ؛ والعائد على « الذين » محذوف ؛ تقديره من آمن منهم بالله . وفى الإيمـان بالله واليوم الآخر آندارج الإيمـان بالرسل والكتب والبعث .

السابعــة — إن قال قائل : لِم جُمِـع الضمير فى قوله تعالى : «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» و « آمن » لفظ مفرد ليس بجمع، وإنمـا كان يستقيم لو قال : له أجره . فالجواب أنّ « مَن » يقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يرجع الضمير مفرداً ومثنًّى ومجموعًا ؛ قال الله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ» على المعنى . وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » على اللفظ . وقال الشاعر :

أَلِمَّا بِسَلْمَى عنكما إنْ عَرَضْتُمَا * وقُولَا لهـا عُوجِى على مَن تَخَلَّفُوا

وقال الفرزدق :

تعـالَ فإنْ عاهـدتَنى لا تخـونُنى * نكن مثـلَ مَن يا ذئبُ يصطحبانِ

فحمل على المعنى ، ولو حمل على اللفظ لقال : يصطحب ، وتخلّف . وقال تعـالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ » فحمل على اللفظ . ثم قال : « خَالِدِينَ » فحمل على المعنى ؛ ولو راعى اللفظ لقال : خالدا فيهـا . و إذا جرى ما بعد « مَن » على اللفظ فجائز أن يخالف به بعدُ على المعنى كما فى هـذه الآية . و إذا جرى ما بعدها على المعنى لم يجز أن يخالف به بعـدُ على اللفظ ؛ لأن الإلباس يدخل فى الكلام . وقـد مضى الكلام فى قوله تعـالى : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) . والحمد لله .

(١) راجع ص ٣٢٩ من هذا الجزء .

الثامنـة — رُوِىَ عن ابن عباس أن قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا » الآية . منسوخ بقوله تعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » الآية . وقال غيره : ليست بمنسوخة . وهى فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبىّ عليه السلام .

قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ هذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ »[1] . قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه . قال : وكل شىء قلعته فرميت به فقد نتقته . وقيل : نتقناه رفعناه . قال ابن الأعرابىّ : الناتق الرافع ، والناتق الباسط ، والناتق الفاتق . وامرأة ناتق ومِنتاق : كثيرة الولد . وقال القُتَبِىّ : أخذ ذلك من نَتْق السِّقَاء ، وهو نفضه حتى تُقتلع الزُّبْدة منه . قال وقوله : « وإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » قال : قُلع من أصله .

واختلف فى الطور ؛ فقيل : الطور اسم للجبل الذى كلّم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره ؛ رواه ابن جريج عن ابن عباس . وروى الضحاك عنه أن الطور ما أنبتَ من الجبال خاصة دون ما لم ينبت . وقال مجاهد وقتاده : أى جبل كان . إلا أن مجاهدا قال : هو اسم لكل جبل بالسريانية ؛ وقاله أبو العالية . وقد مضى الكلام هل وقع فى القرآن ألفاظ مفردة غير معربة من غير كلام العرب فى مقدمة الكتاب[2] . والحمد لله . وزعم البكرى أنه سُمِّىَ بطور بن إسماعيل عليه السلام . والله تعالى أعلم .

القول فى سبب رفع الطور

وذلك أن موسى عليه السلام لما جاء بنى إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم : خذوها والتزموها . فقالوا : لا ! إلا أن يكلّمنا الله بها كما كلّمك . فصعِقوا ثم أُحْيُوا . فقال لهم : خذوها . فقالوا لا . فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ (٢) راجع ص ٦٨ من هذا الجزء .

فرسخ فى مثله ؛ وكذلك كان عسكرهم ؛ فجُعل عليهم مثل الظُّلة ، وأُتُوا بحر من خَلْفهم ، ونار من قِبَـل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيّعوها ، وإلا سـقط عليكم الجبـل . فسجدوا توبةً لله وأخذوا التـوراة بالميثاق . قال الطبرى عن بعض العلماء : لو أخذوها أوّل مرة لم يكن عليهم ميثاق . وكان سجودهم على شِقّ ؛ لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفًا ؛ فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبّلها الله ورَحِم بهـا عباده ، فأمَرّوا سجودَهم على شِق واحد . قال ابن عطية : والذى لا يصح سواه أن الله تعـالى اخترع وقت سجودهم الإيمـان [فى قلوبهم](١) لا أنهم آمنوا كرها وقلوبهم غير مطمئنة بذلك .

قوله تعالى : ﴿ خُذُوا ﴾ أى فقلنا خذوا ، فحذف . ﴿ مَا آتَيْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم . ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى بجِـد واجتهاد ؛ قاله ابن عباس وقتادة والسدّى . وقيل : بنيّـة وإخلاص . مجاهد : القوّة العمل بمـا فيه . وقيل : بقـوّة ، بكثرة درس . ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ أى تدبّروه واحفظوا أوامره ووعيده ، ولا تنسوه ولا تضيّعوه .

قلت : هذا هو المقصود من الكُتب ، العملُ بمقتضاها لا تلاوتها باللسان وترتيلها ؛ فإن ذلك نَبْذٌ لهـا ؛ على ما قاله الشعبى وابن عُيَيْنة ؛ وسيأتى قولهما عند قوله تعالى : « نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ »(٢) . وقد روى النسائىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ من شرّ الناس رجلًا فاسقًا يقرأ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شىء منه " . فبيّن صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل كما بيّنا . وقال مالك : قد يَقرأ القرآنَ مَن لا خير فيه . فما لزم إذًا مَن قبلنا وأُخذ عليهم لازمٌ لنـا وواجبٌ علينا . قال الله تعالى : « وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ »(٣) . فأُمرنا باتّباع كتابه والعمل بمقتضاه ؛ لكن تركنا ذلك ، كما تركت اليهـود والنصارى ، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئا ؛ لغلبـة الجهل وطلب الرياسـة واتباع الأهواء . روى الترمذىّ عن جُبَيْر بن نُفَيْر عن أبى الدرداء قال : كنا مع النبىّ صلى الله عليـه وسلم ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : " هـذا أوانُ

(١) زيادة عن تفسير ابن عطية . (٢) راجع جـ ٢ ص ٤١ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٠

يُختلس فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء " . فقال زياد بن لَبيد الأنصاريّ : كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن ! فوالله لنَقْرَأنه ولنُقرِئنّه نساءنا وأبناءنا . فقال : " ثَكِلَتْك أمُّك يا زياد أن كنتُ لأعُدّك من فقهاء المدينة هـذه التوارة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تُغنى عنهم " وذكر الحديث ، وسيأتى . وخرّجه النسائى من حديث جُبير بن نُفير أيضا عن عَوف بن مالك الأشجعىّ من طريق صحيحة ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لزياد : " ثَكِلَتْك أمُّـك يا زياد هـذه التوارة والإنجيل عند اليهـود والنصارى " . وفى المُوَطّأ عن عبدالله بن مسعود قال لإنسان : « إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرّاؤه ، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضَيّع حروفه ، قليلٍ مَن يسأل ، كثيرٍ مَن يُعطى ، يطيلون الصلاة ويُقْصِرون فيـه الخطبـة ، يبدءون فيه أعمالهم قبل أهوائهم . وسيأتى على النـاس زمان قليلٌ فقهاؤه ، كثيرٌ قرّاؤه ، تُحفظ فيه حروف القرآن ، وتُضيّع حدوده ، كثيرٌ من يسأل ، قليلٌ من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ، ويقصرون الصلاة ، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » . وهذه نصوص تدل على ما ذكرنا . وقـد قال يحيى : سألت ابن نافع عن قوله : يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم ؟ قال يقول : يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذى افترض عليهم . وتقـدّم القول فى معنى قوله : « لعلكم تتقون »[1] . فلا معنى لإعادته .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ تولّى تفعّل ، وأصله الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم ، ثم استعمل فى الإعراض عن الأوامر والأديان والمعتقـدات إتساعا ومجازا . وقـوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى من بعـد البرهان ، وهو أخذ الميثاق ورفع الجبل . وقـوله : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ « فضلُ » مرفوع بالابتداء عند سيبويه والخبر محذوف لا يجوز إظهاره ؛ لأن العرب استغنت عن إظهاره ، إلا أنهم إذا أرادوا إظهاره جاءوا بأنّ ، فإذا جاءوا بهـا لم يحذفوا الخبر . والتقدير فلولا فضل الله تداركم . ﴿ وَرَحْمَتُـهُ ﴾ عطف على « فضل » أى

(١) راجع ص ٢٢٧ من هذا الجزء .

لطفـه وإمهاله . ﴿ لَكُنتُمْ ﴾ جواب «لولا» . ﴿ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ خبر كنتم . والخسران : النقصان ، وقد تقدّم[1] . وقيل : فضله قبول التوبة ، و « رحمته » العفو . والفضل : الزيادة على ما وجب . والإفضال : فعل ما لم يجب . قال ابن فارس فى المُجْمَل : الفضل الزيادة والخير ، والإفضال : الإحسان .

قوله تعالى : وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ « علمتم » معناه عرفتم أعيانهم . وقيل : علمتم أحكامهم . والفرق بينهما أن المعرفة متوجّهة إلى ذات المُسَمَّى . والعلم متوجّه إلى أحوال المسمَّى . فإذا قلت : عرفت زيدا ، فالمراد شخصه . وإذا قلت : علمت زيدا ، فالمراد به العلم بأحواله من فضل ونقص . فعلى الأوّل يتعدّى الفعل إلى مفعول واحد ، وهو قول سيبويه : « علمتم » بمعنى عرفتم . وعلى الثانى إلى مفعولين . وحكى الأخفش : ولقد علمت زيدا ولم أكن أعلمه . وفى التنزيل : « لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . كل هذا بمعنى المعرفة ، فاعلم . « ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ » صلة « الذين » . والاعتداء . التجاوز ، وقد تقدّم[2] .

الثانيـــة — روى النَّسائى عن صفوان بن عسّال قال : قال يهودىّ لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبىّ . فقال له صاحبه : لا تقل نبىّ لو سمعك ! فإن له أربعة أعين[3] . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه عن تسع آيات بينات ، فقال لهم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق ولا تمشُوا ببرىء إلى سلطان ولا تَسْحَرُوا ولا تأكلوا الربا ولا تَقْذِفُوا المُحْصَنة ولا تُوَلُّوا يوم الزحف وعليكم خاصّةً يهودُ ألّا تعدوا فى السّبت" . فقبّلوا يديه ورجليه وقالوا : نشهد أنك نبىّ . قال : "فما

(١) راجع ص ٢٤٨ (٢) راجع ص ٤٣٢ (٣) الذى فى نسخة النسائى : « لو سمعك كان له أربعة أعين » مع تأنيث العدد أيضا .

يمنعكم أن تتبعونى" ! . قالوا : إن داود دعا بألّا يزال من ذُرِّيته نبىّ ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود . وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن صحيح . وسيأتى لفظه فى سورة « سبحان »[1] إن شاء الله تعالى .

الثالثة — ﴿ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ معناه فى يوم السبت ؛ ويحتمل أن يريد فى حكم السبت. والأوّل قول الحسن وأنهم أخذوا فيه الحِيتان على جهة الاستحلال . وروى أشهب عن مالك قال : زعم ابن رُومان أنهم كانوا يأخذ الرجل منهم خَيْطاً ويضع فيه وَهْقة[2] وألقاها فى ذَنَب الحوت ، وفى الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد ؛ ثم تطرّق الناس حين رأوا مَن صَنَع لا يُبتلَى ، حتى كثر صيد الحوت ومُشِىَ به فى الأسواق ، وأعلن الفَسَقة بصيده . فقامت فرقة فنهت وجاهرت بالنّهى واعتزلت . ويقال : إن الناهين قالوا : لا نساكنكم ؛ فقسموا القرية بجدار . فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد ؛ فقالوا : إنّ للناس لشأنا ؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة ؛ ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القِردة ؛ فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتَشُمّ ثيابه وتبكى ؛ فيقول : ألم ننْهكم ! فتقول برأسها نعم . قال قتادة : صار الشبان قِردة ، والشيوخ خنازير ؛ فما نجا إلا الذين نَهَوْا وهلك سائرهم . وسيأتى فى « الأعراف »[3] قول من قال : إنهم كانوا ثلاث فرق . وهو أصح من قول من قال : إنهم لم يفترقوا إلا فرقتين . والله أعلم .

والسَّبْت مأخوذ من السَّبْت وهو القطع ؛ فقيل : إن الأشياء فيه سَبَتت وتمّت خِلْقتها. وقيل : هو مأخوذ من السُّبُوت الذى هو الراحة والدعة .

واختلف العلماء فى الممسوخ هل يَنْسُل على قولين . قال الزجاج : قال قوم يجوز أن تكون هذه القِردة منهم . واختاره القاضى أبو بكر بن العربى . وقال الجمهور : الممسوخ لا يَنْسُل وإن القردة والخنازير وغيرهما كانت قبل ذلك ؛ والذين مسخهم الله قد هلكوا

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٥ (٢) الوهق (بالتحريك وتسكن الهاء) : الحبل فى طرفه أنشوطة تطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى تؤخذ . والأنشوطة عقدة يسهل انحلالها كعقدة التكة عند جذبها . راجع جـ ٧ ص ٣٠٦

(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠٧

ولم يبق لهم نسل ؛ لأنه قد أصابهم السّخط والعذاب ، فلم يكن لهم قرار فى الدنيا بعد ثلاثة أيام . قال آبن عباس : لم يعش مَسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل . قال آبن عطية : وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام .

قلت : هذا هو الصحيح من القولين . وأما ما آحتج به آبن العربى وغيره على صحة القول الأوّل من قوله صلى الله عليه وسلم : "فُقِدتْ أمّةٌ من بنى إسرائيل لا يُدْرَى ما فعلت ولا أراها إلا الفأر ألاَ ترونها إذا وُضِع لها ألبانُ الإبل لم تشربه وإذا وُضِع لها ألبانُ الشاء شربته" . رواه أبو هريرة أخرجه مسلم ، وبحديث الضَّبّ رواه مسلم أيضا عن أبى سعيد وجابر ؛ قال جابر : أُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بضبّ فأبى أن يأكل منه ؛ وقال : "لا أدرى لعله من القرون التى مُسخت" فمتأوّل على ما يأتى . قال آبن العربى : وفى البخارى عن عمرو بن مَيْمُون أنه قال : رأيت فى الجاهلية قِردة قد زَنَت فرجموها فرجمتها معهم . ثبت فى بعض نسخ البخارى وسقط فى بعضها ، وثبت فى نص الحديث « قد زنت » وسقط هـذا اللفظ عند بعضهم . قال آبن العربى : فإن قيل : وكأن البهائم بقيت فيهم معارف الشرائع حتى ورثوها خَلَفاً عن سَلف إلى زمان عمرو ؟ قلنا : نعم كذلك كان ؛ لأن اليهود غيّروا الرجم فأراد الله أن يقيمه فى مُسُوخهم[1] حتى يكون أبلغ فى الحجة على ما أنكروه من ذلك وغيّروه ، حتى تشهد عليهم كتبهم وأحبارهم ومسوخهم[1] ، حتى يعلموا أن الله يعلم ما يُسِرّون وما يُعلنون ، ويُحصى ما يُبدّلون وما يغيّرون ، ويُقيم عليهم الحجة من حيث لا يشعرون ، وينصر نبيّه عليه السلام وهم لا يُنصرون .

قلت : هـذا كلامه فى الأحكام ، ولا حجة فى شىء منه . وأمّا ما ذكره من قصة عمرو فذكر الحميدى فى جمع الصحيحين : حكى أبو مسعود الدمشقى أن لعمرو بن ميمون الأَوْدىّ فى الصحيحين حكايةً من رواية حُصين عنه قال : رأيت فى الجاهلية قردة آجتمع عليها قردة

(١) فى الأصول : « ممسوخهم » . والتصويب عن أحكام القرآن لابن العربى .

فرجموها فرجمتها معهم . كذا حكى أبو مسعود ولم يذكر فى أى موضع أخرجه البخارىّ من كتابه ؛ فبحثنا عن ذلك فوجدناه فى بعض النسخ لا فى كلها ؛ فذكر فى كتاب أيام الجاهلية . وليس فى رواية النعيمىّ عن الفَرَبْرِىّ أصلًا شىء من هذا الخبر فى القِردة ؛ ولعلها من المُقْحَمات فى كتاب البخارى . والذى قال البخارىّ فى التاريخ الكبير : قال لى نُعيم بن حمّاد أخبرنا هُشَيم عن أبى بَلْج وحُصين عن عمرو بن مَيمون قال : رأيت فى الجاهليـة قِردة اجتمع عليها قرود فرجموها فرجمتها معهم . وليس فيه «قد زنت» . فإن صحت هذه الرواية فإنما أخرجها البخارىّ دلالة على أن عمرو بن ميمون قد أدرك الجاهلية ولم يُبال بظنّه الذى ظنّه فى الجاهلية . وذكر أبو عمر فى الاستيعاب عمرَو بن ميمون وأنّ كنيته أبو عبـد الله « معدود فى كبار التابعين من الكوفيين ، وهو الذى رأى الرجم فى الجاهلية من القردة إن صح ذلك ؛ لأنّ رواته مجهولون . وقد ذكره البخارىّ عن نُعيم عن هُشَيم عن حُصين عن عمرو بن ميمون الأَوْدِىّ مختصرا قال : رأيت فى الجاهليـة قردة زنت فرجموها — يعنى القردة — فرجمتها معهم . ورواه عباد بن العوّام عن حُصين كما رواه هُشيم مختصرا . وأما القصة بطولها فإنها تدور على عبد الملك بن مسلم عن عيسى بن حِطّان ؛ وليسا ممن يُحتجّ بهما . وهذا عند جماعة أهل العلم منكر إضافة الزنى إلى غير مكلّف ، وإقامة الحدود فى البهـائم . ولو صح لكانوا من الجن ؛ لأن العبادات فى الإنس والجن دون غيرهما » . وأمّا قوله عليه السلام فى حديث أبى هريرة : " ولا أراها إلا الفأر " وفى الضب : " لا أدرى لعله من القرون التى مُسِخت " وما كان مثله ، فإنمـا كان ظنًّا وخوفًا لأن يكون الضب والفأر وغيرهما ممـا مُسخ ، وكان هذا حَدْسًا منه صلى الله عليه وسـلم قبل أن يُوحَى إليه أن الله لم يجعل للمسخ نسلًا ؛ فلما أوحى إليه بذلك زال عنـه ذلك التخوّف ، وعلم أن الضبّ والفأر ليسا ممـا مُسِخ ؛ وعند ذلك أخبرنا بقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن القردة والخنازير : هى ممـا مسخ ؟ فقال : " إنّ الله لم يُهلك قومًا أو يعذّب قومًا فيجعل لهم نسلًا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك " . وهذا نص صريح صحيح رواه عبد الله بن مسعود أخرجه مسلم فى كتاب القَدَر . وثبتت النصوص بأكل الضب بحضرته وعلى مائدته ولم يُنكر ؛

فدلّ على صحة ما ذكرنا . و بالله توفيقنا . ورُوِىَ عن مجاهد فى تفسير هذه الآية أنه إنما مُسخت قلوبُهم فقط ، ورُدّت أفهامهم كأفهام القِردة . ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ « قردة » خبر كان . ﴿ خَاسِئِينَ ﴾ نعت ، وإن شئت جعلته خبرا ثانيا لكان ، أو حالا من الضمير فى « كونوا » . ومعناه مبعَدين . يقال : خَسَأته فخَسَأ وخَسِئ وانخسأ ؛ أى أبعدته فبَعُدَ . وقوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً »[1] أى مبعَدًا . وقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا »[2] أى تباعدوا تباعد سخط . قال الكسائى : خَسَأ الرجل خُسُوءا ، وخَسَأته خَسْأً . ويكون الخاسئ بمعنى الصاغر القَمِىء . يقال : قَمُؤَ الرجل قماءة وقماءة صار قميئًا ، وهو الصاغر الذليل . وأقمأته : صغّرته وذلّلته ، فهو قمِىء على فعيل .

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً ﴾ نصب على المفعول الثانى . وفى المجعول نكالا أقاويل ؛ قيل : العقوبة . وقيل : القرية ؛ إذ معنى الكلام يقتضيها . وقيل : الأمّة التى مُسخت . وقيل : الحيتان ؛ وفيه بُعْدٌ . والنّكال : الزجر والعقاب . والنّكْل والأنكال : القيود . وسُمّيت القيود أنكالا لأنها يُنكل بها ؛ أى يمنع . ويقال للجام الثقيل : نَكْل ونِكْل[3] ؛ لأن الدابة تُمنع به . ونَكَل عن الأمر يَنْكُل ، ونَكِل يَنْكَل إذا امتنع . والتّنكيل : إصابة الأعداء بعقوبة تُنكّل مَن وراءهم ؛ أى تُجبّنهم . وقال الأزهرى : النكال العقوبة . ابن دُرَيْد : والمَنْكَل : الشىء الذى يُنكّل بالإنسان ؛ قال[4] :

* فآرِم على أقفائهم بمَنْكَل *

---

(١) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٩ (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٥٣ (٣) هذه الكلمة موجودة فى بعض نسخ الأصل ؛ ومعاجم اللغة لا تؤيده . والذى بها إنما هو بالكسر لاغير . (٤) القائل رياح المؤمل . وقبله :

* يارب أشقانى بنو مؤمل * وبعده : * بصخرة أوعرض جيش جحفل *

(عن شرح القاموس) .

قوله : ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ قال ابن عباس والسُّدّى : لِمَا بين يدى المَسْخة ما قبلها من ذنوب القوم . ﴿وَمَا خلفها﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب . قال الفـرّاء : جُعلت المسخة نكالا لما مضى من الذنوب ؛ ولِمَا يُعمل بعدها ليخافوا المسخ بذنوبهم . قال ابن عطية : وهذا قول جيّد، والضميران للعقوبة . وروى الحكم عن مجاهد عن ابن عباس : لمن حضر معهم ولمن يأتى بعدهم . واختاره النحاس ؛ قال : وهو أشبه بالمعنى، والله أعلم . وعن ابن عباس أيضا : « لما بين يديها وما خلفها » من القُرَى . وقال قتادة : « لما بين يديها » من ذنوبهم، « وما خلفها » من صيد الحيتان .

قوله تعالى : ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على نكال ، ووَزْنُها مَفْعِلة من الاتعاظ والازدجار . والوعظ : التخويف . والعِظَة الاسم . قال الخليل : الوَعْظ التذكير بالخير فيما يَرِقّ له القلب . قال الماوَرْدِىّ : وخصّ المتقين وإن كانت موعظة للعالمين لتفرّدهم بها عن الكافرين المعاندين . قال ابن عطية : واللفظ يعمّ كل مُتّقٍ من كل أمّة . وقال الزجاج : « وموعظة للمتقين » لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن ينتهكوا من حُرَم الله جلّ وعزّ ما نهاهم عنه ، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السبت إذ انتهكوا حُرَم الله فى سَبْتهم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حُكى عن أبى عمرو أنه قرأ « يَأْمُرْكُم » بالسكون ، وحذف الضمة من الراء لثقلها . قال أبو العباس المبرد : لا يجوز هذا لأن الراء حرف الإعراب، وإنما الصحيح عن أبى عمرو أنه كان يختلس الحركة . ﴿أَن تَذْبَحُوا﴾ فى موضع نصب بـ « يأمركم » ؛ أى بأن تذبحوا . ﴿بَقَرَةً﴾ نصب بـ « تذبحوا » . وقد تقدّم[1] معنى الذبح، فلا معنى لإعادته .

(١) راجع المسألة العاشرة ص ٣٨٥ من هذا الجزء .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ مقدّم فى التلاوة ، وقوله : « قَتَلْتُمْ نَفْسًا » مقدّم فى المعنى على جميع ما ابتدأ به من شأن البقرة . ويجوز أن يكون قوله : « قتلتم » فى النزول مقدّما ، والأمر بالذبح مؤخرا . ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها ؛ فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل ، فأُمروا أن يضربوه ببعضها ؛ ويكون « و إذ قتلتم » مقدّما فى المعنى على القول الأوّل حسب ما ذكرنا ، لأن الواو لا توجب الترتيب . ونظيره فى التنزيل فى قصة نوح بعد ذكر الطُّوفان وانقضائه فى قوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ — إلى قوله — إِلَّا قَلِيلٌ »[1] . فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله : « وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا » . فذكر الركوب متأخرًا فى الخطاب ؛ ومعلومٌ أن ركوبهم كان قبل الهلاك . وكذلك قوله تعالى : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا »[2] . وتقديره : أنزل على عبده الكتاب قَيِّمًا ولم يجعل له عوجا ؛ ومثله فى القرآن كثير .

الثالثـــة — لاخلاف بين العلماء أن الذّبح أوْلى فى الغنم ، والنحر أوْلى فى الإبل ، والتخيّر فى البقر . وقيل : الذبح أوْلى ؛ لأنه الذى ذكره الله ، ولقُرب المنحَر من المذبح . قال ابن المنذر : لا أعلم أحدا حَرّم أكل ما نُحر مما يُذبح ، أو ذُبح مما يُنحر . وكره مالك ذلك . وقد يكره المرء الشئ ولا يحرّمه . وسيأتى فى سورة « المائدة » أحكام الذبح والذابح وشرائطهما عند قوله تعالى : « إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ »[3] مستوفًى إن شاء الله تعالى . قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح بقرة دون غيرها ؛ لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهوّن عندهم ما كان يرونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علّة فى ذبح البقرة ، وليس بعلة فى جواب السائل ؛ ولكن المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حىّ ، فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أضدادها .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ بَقَرَةً ﴾ البقرة اسم للأنثى ، والثّور اسم للذكر ؛ مثل ناقة وجمل ، وامرأة ورجل . وقيل : البقرة واحد البقر ؛ الأنثى والذكر سواء . وأصله من قولك :

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦ (٣) راجع جـ ٦ ص ٥٤

بَقَر بطنه، أى شقه؛ فالبقرة تشقّ الأرض بالحرث وتثيره . ومنه الباقر لأبى جعفر محمد بن على زين العابدين؛ لأنه بَقَر العلم وعرف أصله، أى شقّه . والبَقِيرة : ثوب يُشقّ فتلقيه المرأة فى عنقها من غير كُمَّين . وفى حديث آبن عباس فى شأن الهُدهد "فبقر الأرض" . قال شَمِر : بَقَر نَظَر موضع الماء، فرأى الماء تحت الأرض . قال الأزهرىّ : البقر آسم للجنس[(١)] وجمعه باقر . آبن عرفة : يقال بقير وباقر وبَيْقور . وقرأ عكرمة وآبن يَعمر «إن الباقر» . والثَّور : واحد الثيران . والثّور : السيّد من الرجال . والثّور القطعة من الأقِط . والثّور : الطُّحْلُب . وثَوْر : جبل . وثَوْر : قبيلة من العرب . وفى الحديث : "ووقت العشاء ما لم يغب ثَور الشَّفق" يعنى آنتشاره؛ يقال : ثار يثور ثوراً وثورانا إذا آنتشر فى الأفق . وفى الحديث : "من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن" . قال شَمِر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ هذا جواب منهم لموسى عليه السلام لما قال لهم : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً» وذلك أنهم وجدوا قتيلا بين أظهرهم — قيل : آسمه عاميل — وآشتبه أمر قاتله عليهم، ووقع بينهم خلاف؛ فقالوا : نقتتل ورسول الله بين أظهرنا؛ فأتَوْه وسألوه البيان — وذلك قبل نزول القَسامة[(٢)] فى التوراة، فسألوا موسى أن يدعو الله — فسأل موسى عليه السلام ربه فأمرهم بذبح بقرة؛ فلما سمعوا ذلك من موسى وليس فى ظاهره جواب عما سألوه عنه وآحتكموا فيه عنده؛ قالوا : أتتخذنا هزؤا ؟ والهزء : اللّعب والسُّخرية؛ وقد تقدّم[(٣)] . وقرأ الجَحْدَرِى «أيتخذنا» بالياء؛ أى قال ذلك بعضهم لبعض فأجابهم موسى عليه السلام بقوله : «أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» لأن الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل؛ فاستعاذ منه عليه السلام؛ لأنها صفة تنتفى عن الأنبياء . والجهل نقيض العلم . فآستعاذ من الجهل، كما جهلوا فى قولهم : أتتخذنا هزؤا؛

(١) فى لسان العرب : فأما بقر وباقر وبقير وبيقور وباقور وباقورة فأسماء للجميع .

(٢) سيتكلم المؤلف رحمه الله على القسامة وحكمها عند قوله تعالى : «فقلنا اضربوه ببعضها» راجع ص ٤٥٧ من هذا الجزء . (٣) راجع ص ٢٠٧ .

لمن يخبرهم عن الله تعـالى ، وظاهر هـذا القول يدلّ على فساد آعتقاد مَن قاله . ولا يصحّ إيمان مَن قال لنبيٍّ قد ظهرت معجزته ، — وقال : إن الله يأمرك بكذا — : أتتّخذنا هُزُوًا ؟ ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبيّ صلى الله عليه وسلم لوجب تكفيره . وذهب قوم إلى أن ذلك منهم على جهـة غلظ الطبع والجفاء والمعصية ؛ على نحو ما قال القائل للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى قسمة غنائم حُنَين : إن هذه لَقِسمةٌ ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد . وفى هذا كلّه أدلّ دليل على قبح الجهل ، وأنه مفسد للدّين .

قوله تعالى : ﴿ هُزُوًا ﴾ مفعول ثان ، ويجوز تخفيف الهمزة تجعلها بين الواو والهمزة . وجعَلها حَفْص واوا مفتوحة ، لأنها همزة مفتوحة قبلها ضمة فهى تجرى على البدل ؛ كقوله : « السفهاء ولكن » . ويجوز حذف الضمة من الزاى كما تحذفها من عَضُد ، فتقول : هزْؤًا ، كما قرأ أهـل الكوفة ؛ وكذلك « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْؤًا أحد » . وحكى الأخفش عن عيسى بن عمر أن كل آسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ففيه لغتان : التخفيف والتثقيل ؛ نحو العسر واليسر والهزء . ومثله ما كان من الجمع على فُعْل ككُتُب وكُتْب ، ورُسُـل ورُسْل ، وعُون وعُوْن . وأما قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا » فليس مثل هزء وكفء ؛ لأنه على فُعْل من الأصل . على ما يأتى فى موضعه (١) إن شاء الله تعـالى .

مسـئلة — فى الآية دليل على منع الآستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه ، وأن ذلك جهل وصاحبـه مستحقّ للوعيد . وليس المُزاح من الآستهزاء بسبيل ؛ ألَا ترى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يمزح والأئمـة بعده . قال آبن خُوَيْزِ مَنْداد : وقد بلغنا أن رجلا تقدّم إلى عبيد الله بن الحسن وهو قاضى الكوفة فمـازحه عبيد الله فقال : جُبّتك هذه من صوف نعجة أو صوف كَبْش ؟ فقال له : لا تجهل أيهـا القاضى ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلًا ! فتلَا عليه هذه الآية ؛ فأعرض عنه عبيد الله ؛ لأنه رآه جاهلا لا يعرف المزح من الآستهزاء ، وليس أحدهما من الآخر بسبيل .

(١) راجع جـ ١٦ ص ٦٩

قوله تعالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ هـذا تعنيت منهم وقلّة طواعية ؛ ولو ٱمتثلوا الأمر وذبحوا أىّ بقرة كانت لحصل المقصود ، لكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم ؛ قاله ٱبن عباس وأبو العاليـة وغيرهما . ونحو ذلك روى الحسن البصرىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ولغـة بنى عامر « آدِع » وقد تقدّم (١) . و ﴿ يُبَيِّن ﴾ مجزوم على جواب الأمر . ﴿ مَا هِىَ ﴾ ابتداء وخبر . وماهيّة الشىء : حقيقته وذاته التى هو عليها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ فى هذا دليل على جواز النسخ قبل وقت الفعل ؛ لأنه لما أمر ببقرة ٱقتضى أىّ بقرة كانت ، فلما زاد فى الصفة نسخ الحكم الأوّل بغيره ؛ كما لو قال : فى ثلاثين من الإبل بنتُ مَخَاض ، ثم نَسَخه بٱبنة لَبُون أو حِقّة . وكذلك ها هنا لما عيّن الصفة صار ذلك نسخًا للحكم المتقدّم . والفارض : المُسِنّة . وقد فَرَضَت تَفْرِض فروضًا ؛ أى أسنّت . ويقال للشىء القديم فارض ؛ قال الراجز :

شَيَّبَ أصداغِى فرأسِى أبيضُ * مَحامِلٌ (٢) فيها رجال فُرَّضُ

يعنى هَرْمَى ؛ قال آخر :

لعَمْرُكَ (٣) قـد أعطيتَ جارك فارضًا * تُساق إليـه ما تقـوم على رِجْلِ

أى قديمًا ؛ وقال آخر :

يا رُبَّ ذى ضِغْنٍ علىّ فارِضِ * له قُـروء كقُروء الحـائِضِ

---

(١) راجع ص ٤٢٣

(٢) فى الصحاح للجوهرى : « محافل » بالفاء ، وفيـه رواية أخرى رواها ٱبن الأعرابى هى : * محامل بيض وقـوم فرض *

يريد أنهم ثقال كالمحامل . راجع اللسان مادة « فرض » .

(٣) رواية اللسان : « لعمرى لقد » وذكر أنه لعلقمة بن عوف ، وقد عَنَى بَقَرة هَرِمَة .

أى قديم . و «لا فارِضٌ» رفع على الصّفة لبقرة . «ولَا بِكْرٌ» عطف . وقيل : «لا فارضٌ» خبر مبتـدأ مضمر ؛ أى لا هى فارض وكذا « لا ذلول » ، وكذلك «لَا تَسْقِي الْحَـرْثَ» وكذلك « مُسَلَّمَةٌ » فاعلمه . وقيل : الفارض التى قد ولدت بطونا كثيرة فيتّسع جَوْفها لذلك ؛ لأن معنى الفارض فى اللغة الواسع ؛ قاله بعض المتأخرين . والبِكر : الصغيرة التى لم تحمل . وحكى القُتَبِيّ أنها التى ولدت . والبكر : الأوّل من الأولاد ؛ قال :

يا بِكْرَ بِكْرَيْنِ ويا خِلْبَ الكَبِـدْ * أصبحتَ مِنّى كذراع مِن عَضُدْ

والبِكْرُ أيضـا فى إناث البهائم وبنى آدم : ما لم يَفْتَحِلْه الفحل ؛ وهى مكسورة الباء . وبفتحها الفَتِىّ من الإبل . والعَوَان : النَّصَف التى قد ولدت بطنـاً أو بطنين ؛ وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه ، بخلاف الخيل ؛ قال الشاعر يصف فرسا :

كُمَيْت بَهِيم اللَّوْنِ ليس بفارِض * ولا بِعَـوان ذاتِ لَوْن مُخَصَّفِ

فرس أَخْصَف : إذا ارتفع البَلَق من بطنه إلى جنبه . وقال مجاهـد : العَوان من البقر هى التى قد ولدت مَرّة بعد مَرّة . وحكاه أهل اللغـة . ويقال : إن العَوان النّخلةُ الطويلة ؛ وهى فيما زعموا لغة يمانية . وحَرْبٌ عَوَانٌ : إذا كان قبلها حَرْب بِكْرٌ ؛ قال زُهير :

إذا لَقِحتْ حربٌ عَوانٌ مُضِرّةٌ * ضَروسٌ تُهِرّ(١) الناسَ أنيابُها عُصْلُ

أى لا هى صغيرة ولا هى مُسِنّة ؛ أى هى عَوان ، وجمعها « عُونٌ » بضم العين وسكون الواو ؛ وسُمع « عُون » بضم الواو كرُسُل . وقد تقدم . وحكى الفَرّاء من العوان عَوَنَت تَعْوِينًا .

قوله تعـالى : ﴿ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ تجـديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنّت فيما تركوه . وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء ؛ وهو الصحيح على ما هو مذكور فى أصول الفقه ، وعلى أن الأمر على الفَوْر ؛ وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضا . ويدلّ على صحـة ذلك أنه تعـالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعـل ما أُمِروا به فقال :

(١) فى الأصول : « تهز » بالزاى . والتصويب عن شرح الديوان . ومعنى « تهز الناس » أى تصيّرهم يهزّونها ؛ أى يكرهونها . ولقحت : اشتدت . ومضرة : ملحة . وضروس : عضوض سيئة الخلق . وعصل : كالحة معوجة .

« فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ » . وقيـل : لا ، بل على التراخى ؛ لأنه لم يعنّفهم على التأخير والمراجعة فى الخطاب . قاله ابن خُوَيْزِ مَنْداد .

قوله تعالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ « ما » استفهام مبتدأة ، و « لونها » الخبر . ويجوز نصب « لونها » بـ « يبيّن » ، وتكون « ما » زائدة . واللون واحد الألوان ، وهو هيئة كالسواد والبياض والحمـرة . واللَّوْن : النَّوع . وفلان مُتَلَوِّن : إذا كان لا يثبت على خلق واحد وحال واحد ؛ قال :

كلّ يـوم تتلوّن * غير هـذا بك أجْمَـلْ

ولَوّن البُسْر تلوينًـا : إذا بدا فيه أثر النُّضْج . واللَّوْن : الدَّقَل ، وهـو ضرب من النخل . قال الأخفش : هو جماعة ، واحدها لِينة .

قوله : ﴿ صَـفْرَاءُ ﴾ جمهور المفسرين أنهـا صفراء اللون ، من الصُّفرة المعروفة . قال مكىّ عن بعضهم : حتى القَرْن والظِّلْف . وقال الحسن وابن جُبير : كانت صـفراء القرن والظِّلْف فقط . وعن الحسن أيضا : « صفراء » معناه سوداء ؛ قال الشاعر (١) :

تلك خَيْلِى منـه وتلك رِكابِى * هنّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ

قلت : والأوّل أصح لأنه الظاهر ؛ وهـذا شاذّ لا يُستعمل مجازا إلا فى الإبل ؛ قال الله تعالى : « كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ » وذلك أن السُّود من الإبل سوادها صُفرة . ولو أراد السواد لما أكّده بالفُقُوع ، وذلك نَعْتٌ مختصّ بالصّفرة ، وليس يوصف السواد بذلك ؛ تقول العرب : أسودُ حالِكٌ وحَلَكُوك وحُلْكُوك ، ودَجُوجِىّ وغِرْبيب ، وأحمرُ قانِئ ، وأبيضُ ناصعٌ ، ولَهِقٌ ولِهَـاق ويَقِق ، وأخضرُ ناضرٌ ، وأصفرُ فاقِـعٌ ؛ هكذا نصّ نَقَلة اللغـة عن العرب . قال

(١) القائل هو الأعشى ؛ كما فى اللسان .

الكسائى : يقال فَقَع لَوْنُهَا يَفْقَع فُقوعًا إذا خَلَصت صُـفْرته . والإفقاع : سـوء الحال . وفواقع الدهر بوائقه . وفَقّع بأصابعه إذا صوّت ؛ ومنه حديث ابن عباس : نهى عن التفقيع فى الصلاة ؛ وهى الفرقعة، وهى غمز الأصابع حتى تُنْقِض (١) . ولم ينصرف «صفراء» فى معرفة ولا نكرة ؛ لأن فيها ألف التأنيث وهى ملازمة فخالفت الهـاء ؛ لأن ما فيه الهـاء ينصرف فى النكرة، كفاطمةٍ وعائشةٍ .

قوله تعالى : ﴿فَاقِـعٌ لَوْنُهَا﴾ يريد خالصًا لونها لا لَوْن فيها سوى لون جلدها . ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ قال وهب : كأن شُـعاع الشمس يخرج من جلدها ؛ ولهـذا قال ابن عبـاس : الصـفرة تسرّ النفس . وحضّ على لبـاس النِّعال الصُّفر ؛ حكاه عنـه النقاش . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : من لبس نعلى جلد أصفرَ قلّ هَمّه ؛ لأن الله تعـالى يقول : «صَفْرَاءُ فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ» ؛ حكاه عنه الثعلبى . ونَهَى ابن الزبير ومحمد بن أبى كثير عن لباس النعال السود ؛ لأنها تُهِمّ . ومعنى « تسرّ » تُعجِب . وقال أبو العالية : معناه فى سَمْتها ومنظرها فهى ذاتُ وصفين، والله أعلم .

قوله تعـالى : قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَـا وَإِنَّـآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ سألوا سؤالا رابعا، ولم يمتثلوا الأمر بعد البيان . وذكّر البقر لأنه بمعنى الجمـع ، ولذلك قال : « إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَـا » فذكّره للفظ تذكير البقر . قال قُطْرُب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر . وقال الأصمعى : الباقر جمع باقرة، قال : ويجمع بقر على باقورة ؛ حكاه النحاس . وقال الزجاج : المعنى إن جنس البقر . وقرأ الحسن فيما ذكر النحاس، والأعرج فيما ذكر الثعلبى « إن البقر تَشّابه » بالتاء وشدّ الشين ؛ جعله فعلا مستقبلا وأنّثه . والأصل تتشابه، ثم أدغم التاء فى الشين . وقرأ مجاهد «تَشَّبه» كقراءتهما ،

(١) كل صوت لمفصل وأصبع فهو تقيض .

إلا أنه بغير ألف . وفى مصحف أبىّ «تشّابهت» بتشديد الشين . قال أبو حاتم : وهو غلط ؛ لأن التاء فى هذا الباب لا تُدغم إلا فى المضارعة . وقرأ يحيى بن يَعمر « إن الباقر يشابه » جعله فعلا مستقبلا ، وذكّر البقر وأدغم . ويجوز « إن البقر تَشَابَهُ » بتخفيف الشين وضم الهاء ؛ وحكاها الثعلبى عن الحسن . النحاس : ولا يجوز « يَشّابه » بتخفيف الشين والياء ، وإنما جاز فى التاء لأن الأصل تتشابه فحذفت لاجتماع التائين . والبقر والباقر والبَيْقور والبَقِير لغاتٌ بمعنًى ، والعرب تذكّره وتؤنّثه ، وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى «تشابه» . وقيل : إنما قالوا : « إنّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » لأن وجوه البقر تتشابه ؛ ومنه حديث حُذيفة بن اليَمان عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر " فِتَنًا كقِطَع الليل تأتى كوجوه البقر " . يريد أنها يشبه بعضها بعضا . ووجوه البقر تتشابه ، ولذلك قالت بنو إسرائيل : إن البقر تشابه علينا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ استثناء منهم ؛ وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ ما وانقياد ، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لو ما استثنوا ما اهتدوْا إليها أبدا "(١) . وتقدير الكلام وإنا لمهتدون إن شاء الله . فقدّم على ذكر الاهتداء اهتماماً به . و « شاء » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه عند سيبويه الجملة « إن » وما عملت فيه . وعند أبى العباس المبرّد محذوف .

قوله تعالى : قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ ﴾ قرأ الجمهور « لا ذلولٌ » بالرفع على الصفة لبقرة . قال الأخفش : « لا ذلول » نعته ولا يجوز نصبه . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمى « لا ذلولَ » بالنصب على النفى والخبر مضمر . ويجوز لا هى ذلول ، لا هى تسقى الحرث ، هى مُسَلَّمة . ومعنى «لا ذلول» لم يذلّلها العمل ؛ يقال : بقرة مذلَّلة بيّنة الذِّل (بكسر الذال) . ورجل ذليل بيّن الذُّل (بضم الذال) . أى هى بقرة صعبة غير رَيّضة لم تذلّل بالعمل .

(١) فى نسخة من الأصل : « لولا » وروى الحديث من طرق بلفظ : « لو لم يستثنوا » .

قوله تعالى : ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ « تُثير » فى موضع رفع على الصفة للبقرة ؛ أى هى بقرة لا ذَلُولٌ مُثيرة . قال الحسن : وكانت تلك البقرة وحْشيّة ، ولهذا وصفها الله تعالى بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث، أى لا يُسْنَى بها لسَقْى الزرع ولا يُسقى عليها . والوقف هاهنا حسن . وقال قوم : « تثير » فعل مستأنف ، والمعنى إيجاب الحرث لها ، وأنها كانت تحرث ولا تسقى . والوقف على هذا التأويل « لا ذلول » . والقول الأول أصح لوجهين : أحدهما — ما ذكره النحاس عن علىّ بن سليمان أنه قال : لا يجوز أن يكون « تثير » مستأنفا ؛ لأن بعده « ولا تسقى الحرث » ، فلو كان مستأنفًا لما جمع بين الواو و « لا » . الثانى — أنها لو كانت تثير الأرض لكانت الإثارة قد ذلّتها ، والله تعالى قد نفى عنها الذّل بقوله : « لا ذلول » .

قلت : ويحتمل أن تكون « تثير الْأَرْضَ » فى غير العمل مرحًا ونشاطًا ؛ كما قال امرؤ القيس :

يُهِيل ويُذرِى تُرْبَه ويُثيره * إثارةَ نَبّاث(١) الهواجرِ مُخْمِس

فعلى هذا يكون « تثير » مستأنفا ، « ولا تسقى » معطوف عليه ؛ فتأمله . وإثارة الأرض : تحريكها وبحثها ؛ ومنه الحديث : "أثيروا القرآن(٢) فإنه عِلْم الأولين والآخرين" وفى رواية أخرى : "من أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن" وقد تقدّم(٣) . وفى التنزيل : « وأثاروا الأرض » أى قلبوها للزراعة . والحرث : ما حُرِث وزُرِع . وسيأتى .

مسـألة — فى هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته ، وإذا ضُبط بالصفة وحُصر بها جاز السَّلَم فيه . وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعىّ والليث والشافعىّ . وكذلك كل ما يُضبط بالصفة ؛ لوصف الله تعالى البقرة فى كتابه وصفًا يقوم مقام التعيين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها" . أخرجه مسلم . فجعل النبىّ صلى الله عليه وسلم الصِّفةَ تقوم مقام الرؤية ، وجعل صلى الله عليه وسلم دِيَة الخطأ فى ذِمّة من أوجبها عليه دَيْنًا إلى أجل ولم يجعلها على الحلول . وهو يرد قول

(١) قوله « نباث الهواجر » يعنى الرجل الذى إذا اشتدّ عليه الحر هال التراب ليصل إلى ثراه . والمخمس : صاحب الإبل التى ترد خمسا . (٢) فى نهاية ابن الأثير : « فإن فيه » . (٣) راجع ص ٤٤٦ .

الكوفيين أبى حنيفة وأصحابه والثورىّ والحسن بن صالح حيث قالوا : لا يجوز السَّلَم فى الحيوان . ورُوِىَ عن ابن مسعود وحُذيفة وعبد الرحمن بن سَمُرة ؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشى وحركة ، وكل ذلك يزيد فى ثمنه و يرفع من قيمته . وسيأتى حكم السَّلَم وشروطه فى آخر السورة فى آية الدَّين[1] ، إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أى هى مُسَلَّمة . ويجوز أن يكون وصفًا ؛ أى أنها بقرة مُسَلَّمة من العَرَج وسائر العيوب ؛ قاله قتادة وأبو العالية . ولا يقال : مُسَلَّمة من العمل لنفى الله العمل عنها . وقال الحسن : يعنى سليمة القوائم لا أثر فيها للعمل .

قوله تعالى : ﴿ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى ليس فيها لَوْن يخالف معظم لونها ، هى صفراء كلها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ؛ كما قال : « فَاقِعٌ لَوْنُهَا » . وأصل « شِيَة » وَشِى ، حُذفت الواو كما حذفت من يشى ، والأصل يوشى ؛ ونظيره الزِّنَة والعِدَة والصِّلَة . والشِّيَة مأخوذة من وَشْى الثوب إذا نُسج على لونين مختلفين . وثَوْر مُوَشَّى : فى وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشِّيَة اللون . ولا يقال لمن نمّ : واشٍ ، حتى يُغَيِّر الكلام و يُلَوِّنه فيجعله ضروبا و يزيّن منه ماشاء . والوَشْى : الكثرة . ووَشَى بنو فلان : كثروا . و يقال : فَرَسٌ أبلقُ ، وكَبْشٌ أَخْرَجُ ، وتَيس أَبْرَقُ ، وغرابٌ أَبْقَعُ ، وثور أَشْيَهُ . كل ذلك بمعنى البُلْقَة ؛ هكذا نصّ أهل اللغة .

وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم ، ودِين الله يُسْرٌ ، والتعمّق فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية . وروى فى قصص هذه البقرة روايات تلخيصها : أن رجلا من بنى إسرائيل وُلد له ابن ، وكانت له عجلة فأرسلها فى غَيْضَة وقال : اللَّهُمّ إنى أستودعك هذه العجلة لهذا الصبى . ومات الرجل ، فلما كبر الصبى قالت له أمّه — وكان بَرًّا بها — : إن أباك استودع الله عجلة لك فاذهب فخذها ؛ فذهب فلما رأته البقرة جاءت إليه حتى أخذ بقرنيها — وكانت مستوحشة — فجعل يقودها نحو أمّه ؛ فلقيه بنو إسرائيل ووجدوا بقرة على الصفة التى أمِروا بها ؛ فساموه فاشتطّ عليهم . وكان قيمتها على

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧٧ فما بعدها .

ما رُوى عن عكرمة ثلاثة دنانير ، فأتَوْا به موسى عليه السلام وقالوا : إن هذا اشتطّ علينا ؛ فقال لهم : أرْضُوه فى ملكه ، فاشتروْها منه بوزنها مرّة ؛ قاله عَبيدة . السُّدّىّ : بوزنها عشر مرات . وقيل : بملء مَسْكِها دنانير . وذكر مكّىّ : أن هذه البقرة نزلت من السماء ولم تكن من بقر الأرض . فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بيّنت الحق ؛ قاله قتادة . وحكى الأخفش : « قالوا ألْآن » قطع ألف الوصل ؛ كما يقال : يا ألله . وحكى وجهًا آخر « قالوا لَانَ » بإثبات الواو . نظيره قراءة أهل المدينة وأبى عمرو « عادًا لُولى » . وقرأ الكوفيون « قالوا الْآن » بالهمز . وقراءة أهل المدينة « قالُ لَان » بتخفيف الهمز مع حذف الواو لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : « الْآن » مبنىّ على الفتح لمخالفته سائر مافيه الألف واللام ؛ لأن الألف واللام دخلتا لغير عهد ؛ تقول : أنت إلى الآن هنا ؛ فالمعنى إلى هذا الوقت . فبُنِيت كما بُنِىَ هذا ، وفُتحت النون لالتقاء الساكنين . وهو عبارة عما بين الماضى والمستقبل .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أجاز سيبويه : كاد أن يفعل ؛ تشبيهًا بعسى . وقد تقدّم أوّل السورة (١) . وهذا إخبار عن تثبيطهم فى ذبحها وقلّة مبادرتهم إلى أمر الله . وقال القُرَظىّ محمد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل : خوفًا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ هذا الكلام مقدّم على أوّل القصة ، التقدير : وإذ قتلتم نفسًا فادّارأتم فيها . فقال موسى : إن الله يأمركم بكذا . وهذا كقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا » أى أنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قَيِّمًا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ؛ ومثله كثير ، وقد بيّناه أوّل القصة .

(١) راجع ص ٢٢٢ من هذا الجزء .

وفى سبب قتله قولان : أحدهما — لأبنة له حسناء أحب أن يتزوّجها ابنُ عمّها فمنعه عَمُّه ، فقتله وحمله من قريتـه إلى قرية أخرى فألقاه هناك . وقيـل : ألقاه بين قريتين . الثانى — قتله طلبا لميراثه ، فإنه كان فقيرا وادّعى قتله على بعض الأسباط . قال عِكرمة : كان لبنى إسرائيل مسجد له اثنا عشر بابا لكل باب قوم يدخلون منه ، فوجدوا قتيلا فى سِبط من الأسباط ، فادّعى هؤلاء على هؤلاء ، وادّعى هؤلاء على هؤلاء ، ثم أتوا موسى يختصمون إليه فقال : « إنّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً » الآية . ومعنى « ادّارَأْتُمْ » : اختلفتم وتنازعتم ، قاله مجاهد . وأصله تدارأتم ثم أدغمت التاء فى الدال ، ولا يجوز الابتداء بالمدغم ، لأنه ساكن فزيد ألف الوصل . ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَا كُنْتُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « مُخْرِج » ، ويجوز حذف التنوين على الإضافة . ﴿ تَكْتُمُونَ ﴾ جملة فى موضع خبر كان ، والعائد محذوف ، التقدير تكتمونه .

وعلى القول بأنه قتله طلبا لميراثه لم يَرِث قاتلُ عمدٍ من حينئذ ، قاله عَبِيدة السَّلْمانِيّ . قال ابن عباس : قَتل هـذا الرجلُ عمَّه ليرثه . قال ابن عطية : وبمثله جاء شرعنا . وحكى مالك رحمه الله فى « مُوَطَّئه » أن قصة أُحَيْحَة بن الجُلَاح فى عَمّه هى كانت سبب ألا يَرِث قاتلٌ ، ثم ثبّت ذلك الإسلام كما ثبّت كثيرا من نوازل الجاهلية . ولا خلاف بين العلماء أنه لا يَرِث قاتلُ العمدِ من الدِّية ولا من المـال ، إلا فرقة شذّت عن الجمهور كلهم أهل بدع . ويَرِث قاتل الخطأ من المـال ولا يرث من الدية فى قول مالك والأوزاعى وأبى ثور والشافعى ، لأنه لا يُتَّهم على أنه قتـله ليرثه ويأخذ ماله . وقال سـفيان الثَّوْرِىّ وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى فى قول له آخر : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً من المـال ولا من الدِّية . وهو قول شُرَيح وطاوس والشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ . ورواه الشَّعْبِىّ عن عمر وعلىّ وزيد قالوا : لا يرث القاتل عمدًا ولا خطأً شيئاً . وروى عن مجاهد القولان جميعا . وقالت طائفة من البصريين : يَرِث قاتل الخطأ من الدية ومن المـال جميعا ، حكاه أبو عمر . وقول مالك أصح ، على ما يأتى بيانه فى آية المواريث[1] إن شاء الله تعالى .

(١) راجع جـ ٥ ص ٥٥ فما بعدها .

قوله تعالى : فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ قيل : باللسان لأنه آلة الكلام . وقيل : بعَجْب الذَّنَب ؛ إذ فيه يُرَكَّب خَلْق الإنسان . وقيل : بالفخذ . وقيل : بعظم من عظامها ؛ والمقطوع به عضو من أعضائها ؛ فلما ضُرِب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتا كما كان .

مسـئلة — استدل مالك رحمه الله فى رواية ابن وهب وابن القاسم على صحة القول بالقَسامة بقول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلانٌ قتلنى . ومنعه الشافعى وجمهور العلماء ، قالوا : وهو الصحيح ؛ لأن قول المقتول : دمى عند فلان ، أو فلان قتلنى ، خبر يحتمل الصدق والكذب . ولا خلاف أن دم المدّعَى عليه معصوم ممنوع إباحته إلا بيقين ، ولا يقين مع الاحتمال ؛ فبطل اعتبار قول المقتول دمى عند فلان . وأما قتيل بنى إسرائيل فكانت معجزة وأخبر تعالى أنه يحييه ، وذلك يتضمّن الإخبارَ بقاتله خبرًا جزمًا لا يدخله احتمال ؛ فافترقا . قال ابن العربى : المعجزة كانت فى إحيائه ؛ فلما صار حيًّا كان كلامه كسائر كلام الناس كلهم فى القبول والرد . وهذا فَنٌّ دقيق من العلم لم يتفطّن له إلا مالك ، وليس فى القرآن أنه إذا أخبر وجب صدقه ، فلعله أمرهم بالقسامة معه . واستبعد ذلك البخارى والشافعى وجماعة من العلماء فقالوا : كيف يُقبل قوله فى الدم وهو لا يُقبل قوله فى درهم .

مسـئلة — اختلف العلماء فى الحُكْم بالقَسامة ؛ فرُوِىَ عن سالم وأبى قِلَابة وعمر بن عبد العزيز والحكم بن عُتَيْبة[1] التوقّف فى الحُكْم بها . وإليه مال البخارى ؛ لأنه أتى بحديث القَسامة فى غير موضعه . وقال الجمهور : الحُكْم بالقسامة ثابت عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا فى كيفيّة الحُكْم بها ؛ فقالت طائفة : يبدأ فيها المدّعون بالأيمان فإن حلَفوا استحقّوا ، وإن نَكَلُوا حلَف المدّعَى عليهم خمسين يمينًا وبَرِئُوا . هذا قول أهل المدينة والليث والشافعى وأحمد وأبى ثور . وهو مقتضى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة ، خرّجه الأئمة مالك وغيره . وذهبت

(١) فى نسخة : « الحكم بن عتيبة » .

طائفة إلى أنه يبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم فيحلفون ويبرءون . رُوِىَ هذا عن عمر بن الخطاب والشَّعْبِي والنَّخَعِي ، وبه قال الثَّوْرِى والكوفيّون ، واحتجُّوا بحديث شعبة بن عبيد عن بُشير ابن يسار ؛ وفيه : فبدأ بالأيمان المدّعَى عليهم وهم اليهود . وبما رواه أبو داود عن الزُّهْرِى عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن عن رجال من الأنصار أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لليهود وبدأ بهم : " أيحلف منكم خمسون رجلا " . فأبوا ؛ فقال للأنصار : " استحقّوا " فقالوا : نحلف على الغيب يا رسول الله ! فجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم دِيَةً على يهود ؛ لأنه وُجد بين أظهرهم . وبقوله عليه السلام : "ولكن اليمين على المدّعَى عليه" فعيّنوا(١) . قالوا : وهذا هو الأصل المقطوع به فى الدعاوى الذى نَبّه الشرع على حكمته بقوله عليه السلام : " لو يُعْطَى الناسُ بدعواهم لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدّعى عليه(٢) " . ردّ عليهم أهل المقالة الأولى فقالوا : حديث سعيد بن عُبيد فى تبدية اليهود وَهَم عند أهل الحديث ، وقد أخرجه النسائى وقال : ولم يتابع سعيد فى هذه الرواية فيما أعلم ، وقد أسند حديث بُشير عن سهل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بدأ بالمدّعين يحيى بنُ سعيد وابنُ عُيينة وحمّاد بن زيد وعبدُ الوهاب الثّقفىّ وعيسى بنُ حماد وبِشْرُ بن المفضّل ؛ فهؤلاء سبعة . وإن كان أرسله مالك فقد وصله جماعة الحفاظ ، وهو أصح من حديث سعيد بن عُبيد . قال أبو محمد الأصيلى : فلا يجوز أن يعترض بخبر واحد على خبر جماعة ، مع أن سعيد بن عُبيد قال فى حديثه : فَوَداه رسول الله صلى الله عليه وسلم مائةً من إبل الصدقة ؛ والصدقةُ لا تعطَى فى الدّيات ولا يُصالح بها عن غير أهلها ، وحديث أبى داود مرسل فلا تعارض به الأحاديث الصحاح المتصلة ، وأجابوا عن التمسك بالأصل بأن هذا الحكم أصل بنفسه لحُرْمة الدماء . قال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل البيّنة على المدّعى واليمينَ على المدّعَى عليه ، والحُكم بظاهر ذلك يجب ، إلا أن يخصّ الله فى كتابه أو على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم حكمًا فى شىء من الأشياء فيُستثنى من جملة هذا الخبر . فما دلّ عليه الكتاب إلزام القاذف حدّ المقذوف إذا لم يكن معه أربعة شهداء يشهدون له على صدق ما رمى به المقذوف . وخصّ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى بعض النسخ . (٢) كذا ورد هذا الحديث فى بعض نسخ الأصل وصحيح مسلم . قال ابن الملك : إنما ذكر اليمين فقط لأنها هى الحجة فى الدعوى آخرا ، وإلا فعلى المدعى إقامة البينة أولا .

مَن رمى زوجته بأن أسقط عنه الحدّ إذا شهد أربع شهادات . ومما خصّته السُّنّة حكم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالقَسامة . وقد روى ابن جُريج عن عطاء عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " البيّنةُ على مَن ادّعى واليمينُ على مَن أنكر إلّا في القَسامة " . خرّجه الدّارَقُطْنِيّ . وقد احتج مالك لهذه المسئلة في مُوَطَّئه بما فيه كفاية ؛ فتأمّله هناك .

مسـئلة — واختلفوا أيضا في وجوب القَوَد بالقسامة ؛ فأوجبت طائفة القَوَد بها ؛ وهو قول مالك والليث وأحمد وأبي ثَوْر ؛ لقوله عليه السلام لحُوَيِّصة ومُحَيِّصة وعبد الرحمن : " أتحلفون وتستحقون دمَ صاحبِكم " . وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قتل رجلا بالقَسامة من بني نضر بن مالك . قال الدّارَقُطْنِي : نسخة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه صحيحة ؛ وكذلك أبو عمر بن عبد البر يصحّح حديث عمرو بن شعيب ويحتج به . وقال البخاري : رأيت عليّ بن المديني وأحمد بن حنبل والحُمَيْدي وإسحاق بنَ راهَوَيْه يحتجّون به ؛ قاله الدارقطني في السنن . وقالت طائفة : لا قَوَد بالقسامة ، وإنما توجب الدّية . رُوي هذا عن عمر وابن عباس ؛ وهو قول النَّخَعي والحسن ، وإليه ذهب الثّوري والكوفيون والشافعي وإسحاق ، واحتجوا بما رواه مالك عن ابن أبي ليلى بن عبد الله عن سهل بن أبي حَثْمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله للأنصار : " إما أن يَدُوا صاحبَكم وإما أن يؤذنوا بحرب " . قالوا : وهذا يدل على الدّية لا على القَوَد ؛ قالوا : ومعنى قوله عليه السلام : " وتستحقّون دَمَ صاحبِكم " دِيةَ دمِ قتيلِكم ؛ لأن اليهود ليسوا بأصحاب لهم ؛ ومن استحق دية صاحبه فقد استحق دمه ؛ لأن الدّية قد تؤخذ في العمد فيكون ذلك استحقاقا للدم .

مسـئلة — الموجب للقسامة اللَّوْثُ ولا بُدّ منه . واللَّوْثُ : أمارة تغلب على الظن صدق مدّعي القتل ؛ كشهادة العدل الواحد على رؤية القتل ، أو يرى المقتول يتشحّط[1] في دمه ، والمتّهم نحوه أو قُرْبه عليه آثار القتل . وقد اختلف في اللّوث والقول به ؛ فقال مالك : هو قول المقتول دمي عند فلان . والشاهد العدل لوث . كذا في رواية ابن القاسم عنه .

(١) يتشحط في دمه : أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ .

وروى أشهب عن مالك أنه يُقسم مع الشاهد غير العدل ومع المرأة . وروى ابن وهب أن شهادة النساء لَوث . وذكر محمد عن ابن القاسم أن شهادة المرأتين لَوث دون شهادة المرأة الواحدة . قال القاضى أبو بكر بن العربى : اختلف فى اللّوث اختلافا كثيرا ؛ مشهور المذهب أنه الشاهد العدل . وقال محمد : هو أحبّ إلىّ . قال : وأخذ به ابن القاسم وابن عبد الحكم . ورُوِى عن عبد الملك بن مروان : أن المجروح أو المضروب إذا قال دمى عند فلان ومات كانت القَسَامة . وبه قال مالك واللّيث بن سعد . واحتج مالك بقتيل بنى إسرائيل أنه قال : قتلنى فلان . وقال الشافعىّ : اللّوث الشاهد العدل ، أو يأتى ببيّنة وإن لم يكونوا عدولا . وأوجب الثورىّ والكوفيون القسامة بوجود القتيل فقط ، واستغنوا عن مراعاة قول المقتول وعن الشاهد ، قالوا : إذا وُجد قتيل فى محلّة قومٍ وبه أثرٌ حلف أهل ذلك الموضع أنهم لم يقتلوه ويكون عَقْلُه عليهم ؛ وإذا لم يكن به أثر لم يكن على العاقلة شىء إلا أن تقوم البيّنة على واحد . وقال سفيان : وهذا مما أُجمع عليه عندنا ؛ وهو قول ضعيف خالفوا فيه أهل العلم ، ولا سلف لهم فيه ، وهو مخالف للقرآن والسُّنة ؛ ولأن فيه إلزامَ العاقلة مالاً بغير بيّنة ثبتت عليهم ولا إقرارٍ منهم . وذهب مالك والشافعىّ إلى أن القتيل إذا وُجد فى محلّة قومٍ أنه هَدَر ، لا يؤخذ به أقرب الناس دارا ؛ لأن القتيل قد يُقتل ثم يُلقى على باب قوم ليلطخوا به ؛ فلا يؤاخذ بمثل ذلك حتى تكون الأسباب التى شرطوها فى وجوب القسامة . وقد قال عمر بن عبد العزيز : هذا مما يؤخر فيه القضاء حتى يقضى الله فيه يوم القيامة .

مســـئلة — قال القاسم بن مسعدة قلت للنّسائى : لايقول مالك بالقسامة إلا باللّوث ، فلم أوْرَد حديث القسامة ولا لَوث فيه ؟ قال النسائى : أنزل مالك العداوة التى كانت بينهم وبين اليهود بمنزلة اللوث ، وأنزل اللّوث أو قول الميت بمنزلة العداوة . قال ابن أبى زيد : وأصل هذا فى قصة بنى إسرائيل حين أحيا الله الذى ضُرب ببعض البقرة فقال : قتلنى فلان ؛ وبأن العداوة لَوث . قال الشافعى : ولا نرى قول المقتول لوثًا ؛ كما تقدّم . قال الشافعى :

إذا كان بين قوم وقوم عداوة ظاهرة كالعداوة التى كانت بين الأنصار واليهود، ووجد قتيل فى أحد الفريقين ولا يخالطهم غيرهم وجَبت القسامة فيه .

مســـئلة — وآختلفوا فى القتيـل يوجد فى المحلة التى أكراها أربابها ؛ فقال أصحاب الرأى : هو على أهل الخِطّة وليس على السكان شىء، فإن باعوا دُورهم ثم وُجد قتيـل فالدِّيَةُ على المشترى وليس على السكان شىء، وإن كان أرباب الدُّور غُيَّبًا وقد أكروا دُورهم فالقسامة والدية على أرباب الدور الغُيَّب وليس على السكان الذى وُجد القتيل بين أظهرهم شىء .

ثم رجع يعقوب من بينهم عن هذا القول فقال : القسامة والدّية على السكان فى الدُّور . وحكى هذا القول عن آبن أبى ليلى ، وآحتج بأن أهل خَيْبَرَ كانوا عُمَّالًا سُكَّانًا يعملون فوُجد القتيل فيهم . قال الثورى ونحن نقول : هو على أصحاب الأصل، يعنى أهل الدور . وقال أحمد: القول قول آبن أبى ليلى فى القسامة لا فى الدية . وقال الشافعى : وذلك كله سواء، ولا عَقْل ولا قَوَد إلا ببيّنة تقوم، أو ما يوجب القسامة فيُقسم الأولياء . قال آبن المنذر : وهذا أصح .

مســـئلة — ولا يحلف فى القسامة أقلّ من خمسين يمينا ؛ لقوله عليه السلام فى حديث حُوَيِّصة ومُحَيِّصة : "يُقسم خمسين منكم على رجل منهم". فإن كان المستحقّون خمسين حلف كل واحد منهم يمينًا واحدة، فان كانوا أقل من ذلك أو نَكَل منهم من لا يجوز عفوه رُدّت الأيمـان عليهم بحسب عددهم . ولا يحلف فى العمد أقل من آثنين من الرجال، لايحلف فيه الواحد من الرجال ولا النساء، يحلف الأولياء ومن يستعين بهم الأوليـاء من العَصَبة خمسين يمينًا . هذا مذهب مالك والليث والثّورى والأوزاعىّ وأحمـد وداود . وروى مُطَرِّف عن مالك أنه لا يحلف مع المدّعَى عليه أحدٌ ويحلف هم أنفُسهم — كما لو كانوا واحدا فأكثر — خمسين يمينًا يبرئون بها أنفسهم ؛ وهو قول الشافعى . قال الشافعى : لا يُقسم إلا وارث، كان القتل عمدا أو خطأ . ولا يحلف على مال و يستحقه إلا من له المِلك لنفسه أو من جعل الله له المِلك من الورثة ؛ والورثةُ يُقسمون على قدر مواريثهم . وبه قال أبو ثَوْر وآختاره آبن المنذر وهو الصحيح ؛ لأن من لم يدّع عليه لم يكن له سبب يتوجّه عليه فيه يمين . ثم مقصود هذه

الأيمان البراءة من الدعوى ومن لم يُدّع عليه برىء . وقال مالك فى الخطأ : يحلف فيها الواحد من الرجال والنساء، فمهما كملت خمسين يمينا من واحد أو أكثر استحق الحالف ميراثه، ومَن نَكَل لم يستحق شيئا ؛ فإن جاء من غاب حلف من الأيمان ما كان يجب عليه لو حضر بحسب ميراثه . هذا قول مالك المشهور عنه ؛ وقد رُوِىَ عنه أنه لا يرى فى الخطأ قسامة .

وتتميم مسائل القسامة وفروعها وأحكامها مذكور فى كتب الفقه والخلاف، وفيما ذكرناه كفاية، والله الموفق .

مسـألة — فى قصة البقرة هذه دليل على أن شَرْع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا ؛ وقال به طوائف من المتكلمين وقومٌ من الفقهاء، واختاره الكرخى ونصّ عليه ابن بُكير القاضى من علمائنا، وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب : هو الذى تقتضيه أصول مالك ومَنازعه فى كتبه، وإليه مال الشافعى، وقد قال الله : « فبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » (١) على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى الله كل من مات . فالكاف فى موضع نصب، لأنه نعت لمصدر محذوف . ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى علاماته وقدرته . ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كى تعقلوا . وقد تقدّم (٢) . أى تمتنعون من عصيانه . وعقلتُ نفسى عن كذا أى منعتها منه . والمعاقل : الحصون .

وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القسوة : الصلابة والشدّة واليُبْس . وهى عبارة عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما :

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥ (٢) راجع ص ٢٢٦ من هذا الجزء

المراد قلوب جميع بنى إسرائيل . وقال ابن عباس : المراد قلوب ورثة القتيل ؛ لأنهم حين حَيِيَ وأخبر بقاتله وعاد إلى موته أنكروا قتله ، وقالوا : كَذَب ؛ بعد ما رأوا هذه الآية العظمى ؛ فلم يكونوا قط أعمى قلوبا ، ولا أشدّ تكذيبًا لنبيّهم منهم عند ذلك ، لكن نفذ حكم الله بقتله . روى الترمذى عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى " . وفى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة من الشقاء جمود العين وقساء[1] القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا " .

قوله تعالى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ « أو » قيل : هى بمعنى الواو ، كما قال : « آثِمًا أَوْ كَفُورًا » . « عُذْرًا أَوْ نُذْرًا » وقال الشاعر :

* نال الخلافة أو كانت له قدرا *

أى وكانت . وقيل : هى بمعنى بل ؛ كقوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ »[2] المعنى بل يزيدون . وقال الشاعر :

بَدَتْ مِثل قَرْن الشمس فى رَوْنق الضحى * وصورتِها أو أنت فى العين أملح[3]

أى بل أنت . وقيل : معناها الإبهام على المخاطب ؛ ومنه قول أبى الأسود الدُّؤَلِىّ :

أحبّ محمدا حبًّا شديدا * وعبّاسا وحمزة أو عليّا

فإن يك حبّهم رشدا أصبْه * ولستُ بمخطئ إن كان غيّا

ولم يشك أبو الأسود أن حبهم رشد ظاهر ، وإنما قصد الإبهام . وقد قيل لأبى الأسود حين قال ذلك : شككت ! قال : كلا ؛ ثم استشهد بقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ »[4] وقال : أو كان شاكًّا من أخبر بهذا ! وقيل : معناها التخيير ، أى شبهوها بالحجارة

(١) القساء (بالفتح والمد) : مصدر ، مثل القسوة والقساوة .
(٢) راجع ١٥ ص ١٣٠
(٣) راجع البيت فى خزانة الأدب فى الشاهد ٨٩٥
(٤) راجع ج ١٤ ص ٢٩٨

تصيبوا، أو بأشد من الحجارة تصيبوا ؛ وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين، وتعلّم الفقه أو الحديث أو النحو . وقيل : بل هى على بابها من الشك، ومعناها عندكم أيها المخاطبون وفى نظركم أن لو شاهدتم قسوتها لشككتم : أهى كالحجارة أو أشدّ من الحجارة؟ وقد قيل هـذا المعنى فى قوله تعالى : « إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدونَ » . وقالت فرقة : إنما أراد الله تعالى أن فيهم مَن قلبه كالحجر، وفيهم من قلبه أشدّ من الحجر . فالمعنى : هم فرقتان .

قوله تعالى : ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ «أشدّ» مرفوع بالعطف على موضع الكاف فى قوله « كالحِجارَةِ» ؛ لأن المعنى فهى مثل الحجارة أو أشدّ . ويجوز أو « أشـدَّ » بالفتح عطف على الحجارة . و ﴿قَسْوَةً﴾ نصب على التمييز . وقرأ أبو حَيْوَةَ « قساوة » والمعنى واحد .

قوله تعالى : ﴿وإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنهُ الأَنهارُ وإِنَّ مِنها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنهُ المَاءُ﴾ (١) قد تقدّم معنى الانفجار . ويشقّق أصله يتشقّق ، أدغمت التاء فى الشين ؛ وهـذه عبارة عن العيون التى لم تَعْظُم حتى تكون أنهارا ، أو عن الحجارة التى تتشقّق وإن لم يجر ماء منفسح . وقرأ ابن مُصَرِّف «ينشقق» بالنون، وقرأ «لمّا يتفجر» «لمّا يتشقّق» بتشديد «لما» فى الموضعين . وهى قراءة غير متّجهة . وقرأ مالك بن دينار «ينفجِر» بالنون وكسر الجيم . قال قتادة : عذر الحجارة ولم يعـذِر شقّ بنى آدم . قال أبو حاتم : يجوز لما تتفجر بالتاء، ولا يجـوز لما تتشقق بالتاء؛ لأنه إذا قال تتفجر أنّثـه بتأنيث الأنهار؛ وهذا لا يكون فى تشقق . قال النحاس : يجـوز ما أنكره على المعنى ؛ لأن المعنى وإن منها لحجارةً تتشقق ؛ وأما يشقق فمحمول على لفظ ما . والشَّق واحد الشُّقوق؛ فهو فى الأصل مصدر ، تقول : بيد فلان ورجليـه شقوق، ولا تقل : شقاق ؛ إنما الشُّقاق داء يكون بالدواب، وهو تشقّق يصيب أرساغها وربما ارتفع إلى وظيفها (٢)؛ عن يعقوب . والشَّق : الصبح . و«ما» فى قوله :

---

(١) راجع ص ٤١٩ من هذا الجزء .

(٢) الوظيف : مستدق الذراع والساق . وقيل : ما فوق الرسغ الى الساق .

«لَمَا يَتَفَجَّرُ» فى موضع نصب؛ لأنها اسم إنّ واللام للتأكيد . «منه» على لفظ ما، ويجوز منها على المعنى؛ وكذلك «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ» . وقرأ قتادة «وإنْ» فى الموضعين، مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ يقول : إنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبكم؛ لخروج الماء منها وتردّيها . قال مجاهد : ماتردّى حجر من رأس جبل، ولا تفجّر نهر من حجر، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله؛ نزل بذلك القرآن الكريم . ومثله عن ابن جُرَيج . وقال بعض المتكلمين فى قوله : «وإن منها لما يَهْبِط مِن خشيةِ اللهِ» : البَرَد الهابط من السحاب . وقيل : لفظة الهبوط مجاز؛ وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها، وتخشع بالنظر إليها، أضيف تواضع الناظر إليها؛ كما قالت العرب : ناقة تاجرة؛ أى تبعث من يراها على شرائها . وحكى الطبرىّ عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة؛ كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله : «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ»، وكما قال زيد الخيل[1] :

لما أتى خبر الزبير تواضعت * سورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ

وذكر ابن بحر أن الضمير فى قوله تعالى : «وإنّ مِنها» راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة؛ أى من القلوب لما يخضع من خشية الله .

قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ، والأوّل صحيح؛ فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجمادات المعرفة فيعقل، كالذى رُوِىَ عن الجذع الذى كان يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوّل عنه حنّ؛ وثبت عنه أنه قال : "إن حجرا كان يسلّم علىّ فى الجاهلية

(١) نسب هذا البيت فى كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد فى ترجمة الزبير بن العوام وفى كتاب سيبويه إلى جرير . ويلاحظ أن زيد الخيل توفى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فى آخر خلافة عمر رضى الله عنه . فوفاته إذا قبل وفاة الزبير . وقد وصف مقتل الزبير بن العوام حين انصرف يوم الجمل وقتل فى الطريق غيلة . يقول : لما وافى خبره المدينة (مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم) تواضعت هى وجبالها وخشعت حزنا له .

إنى لأعرفه الآن " . وكما روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال لى ثبير[1] اهبط فإنى أخاف أن يقتلوك على ظهرى فيعذبنى الله " . فناداه حراء : إلىّ يارسول الله . وفى التنزيل : « إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ على السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبالِ[2] » الآية . وقال : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ[3] » يعنى تذللًا وخضوعا ، وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة « سبحان[4] » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ « بغافل » فى موضع نصب على لغة أهل الحجاز ، وعلى لغة تميم فى موضع رفع . والياء توكيد . « عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى عن عملكم حتى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها عليكم ؛ « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[5] » . ولا تحتاج « ما » إلى عائد إلا أن يجعلها بمعنى الذى فيحذف العائد لطول الاسم ؛ أى عن الذى تعملونه . وقرأ ابن كثير « يعملون » بالياء ؛ والمخاطبة على هذا لمحمد عليه السلام ؛

(١) ثبير : جبل معروف عند مكة . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٢٥٣
(٣) راجع جـ ١٨ ص ٤٤ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٧ (٥) راجع جـ ٢٠ ص ١٥٠

تمّ الجزء الأول من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى ، وأوله قوله تعالى : ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم﴾ الآية .



بعون الله وجميل توفيقه قد تم طبع الجزء الأول (الطبعة الثانية)
من كتاب " الجامع لأحكام القرآن " للقرطبي بمطبعة دار الكتب المصرية
في يوم الخميس ٢٦ محرم سنة ١٣٧٢ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٥٢) م

محمود عثمان الرزاز
مراقب المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٢٤/١٩٤٩/٢٠٠٠)

COLUMBIA UNIVERSITY
0026815087

DATE DUE

GL APR 11 1980

GL ~~JUN 11 1980~~

GL AUG 8 1980

GL SEP 26 1980

DATE DUE

GL ~~MAR 1 4 1981~~

PRINTED IN U.S.A.

09735259

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD

MAIN ENTRY

09735259

JAN 15 1962